

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د مصطفى مسلم

جامعة الشارقة

المجلد التاسع

النبأ - الناس

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م



كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة



الإصدار رقم

١٠٢

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١ +) ،فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م



جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae

اللجنة التنفيذية للمشروع

أ.د. مصطفى مسلم	رئيساً
أ.د. عيادة الكبيسي	عضواً
أ.د. أحمد البدوي	عضواً
أ.د. عبد الله الخطيب	عضواً
د. محمد عصام القضاة	عضواً
د. قاسم أسعد	عضواً
د. عواد الخلف	عضواً



الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ.د. مصطفى مسلم محمد

أ.د. عيادة أيوب الكبيسي

أ.د. أحمد محمد الشرقاوي

أ.د. ناصر سليمان العمر

أ.د. أحمد عباس البدوي

أ.د. محمد أحمد عيد الكردي

أ.د. مساعد مسلم آل جعفر

أ.د. شحادة احميدي العمري

أ.د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب

د. أبو بكر علي الصديق

د. أحمد شحروري

د. أحمد محمد نور إبراهيم

د. أحمد محمد مفلح القضاة

د. جمال أبو حسان

د. طه ياسين ناصر الخطيب

د. عبد الحق عبد الدائم القاضي

د. عبد الرحيم الزقة

د. عبد الله محمد سلقيني

د. عدنان عبد الرزاق الحموي

د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان

د. عطية محمد عطية

د. عفاف عبد الغفور حميد

د. محمد السيد محمد يوسف

د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي

د. محمد عبد الرحمن الشايع

د. محمد عصام القضاة

د. محمد عيادة الكبيسي

د. نايل ممدوح أبو زيد

د. نشأت محمود الكوجك

د. هارون نوح علي سليمان

د. يوسف الشامسي




بسم الله الرحمن الرحيم


مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

سورة النبأ

أولاً: بين يدي السورة.

أسماء سورة النبأ:

ذكر لهذه السورة المباركة أكثر من اسم، كما قال السيوطي رحمه الله: (قد يكون للسورة اسم واحد، وهو كثير، وقد يكون لها اسمان فأكثر). [1]

ومعلوم أن العرب تراعي في كثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق، أو صفة تخصه.

(ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور القرآن، كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة قصة البقرة المذكورة فيها، وعجيب الحكمة فيها، وتسمية سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها سنن كثير من أحكام النساء)[2].

وعلى هذا فهذه السورة من أسمائها «عم» كما ورد في افتتاحيتها ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ ﴾ [عم: ١].

وتسمى سورة النبأ، لقوله تعالى: ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ ﴾ [عم: ٢].

وتسمى سورة المعصرات، لما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ ﴾ [عم: ١٤] [3].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ج١، ص ٦٠، ط١، مؤسسة النداء، أبوظبي، ٢٠٠٣م.

(٢) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ج٢، ص٥٧.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الألوسي، مج ١٠، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م، ص٢٠١، وانظر: زاد المسير، ج٨، ص١٦٠، والدر المنثور، ج٦، ص٤٩٩.

عدد آيات سورة النبأ:

عدد آيات سورة النبأ أربعون آية، وقيل أربعون وآية. (1)

زمان نزولها:

وسورة النبأ مكية إجماعاً، ولا أعلم أحداً قال بغير هذا. (2)

محور سورة النبأ:

محور سورة النبأ الجامع لجزئياتها هو البعث بعد الموت. حيث افتتحت السورة بالاستفهام عن سؤال أولئك المنكرين للبعث ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

وبعد ذكر الأدلة على قدرة الخالق سبحانه وتعالى، وبيان حال المكذبين الطاغين، وذكر مآل المتقين المصدقين بذلك اليوم، ختمت السورة بقول الله تعالى:﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾، ومما تقدم يتضح المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها، فحيث كان افتتاح السورة بالاستفهام الإنكاري على إنكارهم واستبعادهم لهذا اليوم العظيم الذي هو يوم الفصل ويوم يقوم الناس لرب العالمين، كان خاتمة السورة بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾

(1) الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص٣٢٤.

(2) المصدر السابق، ج١، ص٤.

المناسبة بين افتتاحية سورة النبأ وخاتمة ما قبلها:

ما قبل سورة النبأ حسب ترتيب المصحف هي سورة المرسلات، فوجه مناسبة سورة النبأ لسورة المرسلات هو اشتمالها - أي سورة المرسلات - على إثبات القدرة على البعث الذي دل ما قبل على تكذيب الكفرة به. وأيضاً تناسبها معها في الجمل، فإن في سورة المرسلات: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الآية: ١٦]، ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الآية: ٢٠] ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ ﴾[الآية: ٢٥]. وفي سورة النبأ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ ﴾ [الآية:٦]. وفي سورة المرسلات: ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الآيات:١٢-١٤]. وفي سورة النبأ: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الآية:١٧] ففيها يوم الفصل المجمل ذكره فيما قبلها، (وذكر أنه لما ختم تلك بقوله سبحانه: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المرسلات:٥٠]وكان المراد بالحديث فيه القرآن الكريم، افتتح هذه بتهويل التساؤل عنه والاستهزاء به، وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة: إن المراد بالنبأ العظيم القرآن، وجمهور العلماء على أن المراد به البعث، وهو الأنسب بالآيات)[1] .

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مج ١٦، ص ٣-٤.

ثانياً: التفسير الإجمالي لسورة النبأ

المقطع الأول

تساؤل المشركين عن النبأ العظيم

قال تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [**الآيات: ١-٥**]

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ ﴾ أصله عن ما، فأدغمت النون في الميم؛ لأن الميم تشارك النون في الغنة، وحُذفت الألف ليتميز الخبر عن الاستفهام، أي: عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً. [١]

وقرأ الجمهور (عم) والمعنى عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً، والاستفهام يؤذن بفخامة المسؤول عنه وهوله، وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة، أي: عن أي شيء عظيم الشأن يتساءلون، (والضمير يعود على أهل مكة، وإن لم يسبق ذكرهم للاستغناء عنهم بحضورهم حساً، مع ما في الترك من التحقير والإهانة)[٢]، ولا يمنع أن يكون الضمير راجعاً للناس أجمعين فيشمل كفار مكة وغيرهم، وقد ورد كثيراً في القرآن الكريم سؤال أهل مكة عن البعث، كالذي ورد في سورة يس: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، وهم الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، فأجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ [النحل: ٣٨].

والتساؤل: يسأل بعضهم بعضاً أو يسألون غيرهم من المؤمنين، والضمير لأهل مكة كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث كما قال الله تعالى مخبراً عن حالهم: ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ

(١) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ج٥، ط١، دار الخير، بيروت، ١٩٩٢م، ص٤١٩.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مج ١٦، ص٤.

ﭐﻷَﻭَّﻟُﻮﻥَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨١-٨٢].

﴿ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾: ردع عن الاختلاف أو التساؤل هزءاً، ﴿ سَيَعۡلَمُونَ ﴾ وعيد لهم بأنهم سيعلمون عياناً أن ما يتساءلون عنه حق. ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ كرر الردع للتشديد، و(ثم) يشعر أن الثاني أبلغ من الأول وأشد[1]؛ لأن الكلمة (كلا) هي زجر لهؤلاء الكفار الذين أنكروا وحدانية الله ونسبوا له الشريك كما نسبوا الولد - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - كما أنكروا البعث والجزاء، وأنكروا أن يكون القرآن الكريم منزلاً من عند الله تعالى، وأنه أنزله على رسوله ﷺ حسداً من عند أنفسهم). [2]

المقطع الثاني

لفت النظر إلى الآيات الكونية

قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴿١١﴾ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴿١٢﴾ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ﴿١٤﴾ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ [٦-١٦].

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لما أنكروا البعث واستبعدوه، وتساءلوا عنه سؤال المستبعد لوقوعه المنكر له، ناسب أن تُذكر لهم الشواهد الناطقة بقدرة الخالق سبحانه وتعالى، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو (استئناف مسوق لتحقيق النبأ المتساءل عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بحقيقته

---

(١) تفسير النسفي، عبد الله بن أحمد النسفي، ج٤، ط١، دار إحياء الكتب العربية، ص ٣٢٥.

(٢) أهم خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها، د. أحمد عباس البدوي، ط١، دار عمار، الأردن، ١٩٩٩م.

إثر ما نبه عليها بما ذُكر من الردع. وجوز أن يكون بتقدير قل، كأنه قيل: كيف تنكرون أو تشكون في البعث وقد عاينتم ما يدل عليه من القدرة التامة والعلم المحيط، والحكمة الباهرة والمقتضية أن لا يكون ما خلق عبثاً)[1].

التفسير الإجمالي للآيات:

وساق سبحانه وتعالى هنا تسع آيات بينات براهين وأدلة على قدرته سبحانه على البعث والإحياء بعد الموت، وكلها حجج واضحة، وشواهد بينة على قدرة الله جل وعلا الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦ ﴾.

والمهاد: الوطاء والفراش، أي ممهدة للخلائق ذلولاً لهم، فكيف تنكرون أو تشكون في البعث وقد عاينتم ما يدل عليه من القدرة التامة والعلم المحيط، والحكمة المقتضية أن لايكون ما خلق عبثاً ؟!!

وقرأ الجمهور: (مِهَادًا)، وقرأ مجاهد: (مهداً)، والمعنى كالمهد للصبي، وهو ما يمهد له فينام عليه. وهذا الذي تقدم هو **الدليل الأول**.

أما الدليل الثاني: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ ﴾:

(أي جعل لها أوتاداً أرساها بها، وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها فهي أشبه شيء بأوتاد الخيمة التي تشد إليها)[2]، وهذه حقيقة علمية ملموسة، فإن الذي يحدث في الأرض من الزلازل والبراكين والاهتزازات الجوفية، لا يمكن استقرار البشر عليها، فأرساها الله عز وجل بالجبال حتى لا تتأثر تأثراً بالغاً بما يحدث في باطنها، وهنا ندرك سر قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥]، أي: خشية أن تضطرب بكم، ثم

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج١٦، ص٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، ج٤، ط،، ص ١٦٧٥.

بالجبال كان حفظ التوازن واضحاً بين أغوار البحار وقمم الجبال، فكأن ما اقتطع من البحار ثبت في الجبال، ثم الجبال مخازن للمياه، ومنها تنبع الأنهار. (١)

﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ ﴾: يعني ذكراً وأنثى يتمتع كل منهما بالآخر ويحصل التناسل. (أزواجاً) لأصناف الذكور والإناث، وقيل: الألوان، وقيل: يدخل في هذا كل زوج من المخلوقات عن قبح وحسن، وطويل وقصير. (٢) (أزواجاً) مزدوجين ذكراً وأنثى، ليتسنى التناسل وينتظم أمر المعاش، وقيل: أصنافاً في اللون والصورة واللسان. (٣)

فسبحان الخالق الذي خلق الذكر والأنثى، إذ لو كان الناس كلهم نوعاً واحداً ذكراً أو أنثى لانقرض هذا الجنس، ولما كان هناك التناسل والتوالد، ولقد أودع الله ميل كل نوع إلى الآخر ليستمر دولاب الحياة، وهذا لم يكن قاصراً على بني آدم، بل هو في كل المخلوقات كما قال سبحانه: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات:٤٩] وهذا هو **الدليل الثالث.**

الدليل الرابع: في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾ يعني قطعاً لأعمالكم وراحة لأبدانكم من كثرة الترداد والسعي في المعاش في عرض النهار، وفي ذلك الراحة اللازمة للنوم وقطع الإحساس، فإن في ذلك راحة القوى الحيوانية مما عراها في اليقظة من الكلال والنصب كما هو مذكور في النص القرآني التالي، وهو **الدليل الخامس:** ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ ﴾ يغشى الناس بظلامه كما يستركم اللباس، وهو سكن لكم، وهو كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾[الإسراء: ١٢].

والدليل السادس يتجلى في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾ أي: وقت معاش

(١) التفسير الواضح الميسر، محمد علي الصابوني، ص١٥١٣-١٥١٤، ط ١، دار الأفق، بيروت، ٢٠٠١م.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، ص١٦٧٦.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج١٦، ص١٠.

والمعاش والعيش وكل شيء يُعاش به فهو معاش، والمعنى: إن الله جعل لهم النهار مضيئاً ليسعوا فيها يقوم به معاشهم، وما قسمه الله لهم من الرزق.

والدليل السابع: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾ أي: سبع سماوات قوية الخلق، محكمة البناء؛ لذا وصفها الله سبحانه بالشدة، وقوله: ﴿ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ هنا ذكر الصفة وسكت عن الموصوف وهو السماوات، وفي سورة الملك: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ [الملك: ٣] والمعنى: خلقنا فوقكم سبع سماوات قوية الخلق محكمة البناء كالسقف لا تتأثر بمرور العصور والأزمان؛ لأنها من خلق الرحمن، وهي قائمة بقدرة الله بلا عمد، فكيف لم تسقط وهي لا تستند على شيء ؟! إنها قدرة الخالق جل وعلا [(١)] ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [الحج:٦٥].

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ يعني الشمس المنيرة على جميع العالم، التي يتوهج ضوؤها لأهل الأرض مشرقاً متلألأً، من قولهم: (وهجت النار إذا أضاءت أو بالغت في الحرارة من الوهج، والتعبير عنها بالسراج من روافد التعبير عن خلق السماوات بالبناء). [(٢)]

و الوهاج: الوقاد المتلألئ الذي يلتهب من شدة وهجه وحرارته، فمن أين تستمد الشمس حرارتها وكيف لا تنطفئ بمرور ملايين السنين عليها ؟! إنها قدرة الله.

ثم إن نعمة الشمس لا تتصور إذ بها حياة البشر والحيوانات، والزروع والنباتات والثمار، لولاها لكانت الأرض كتلة من الجليد يلفها الظلام، فسبحان من أنار الأرض بهذا الكوكب الوهاج.

الدليل التاسع: وهو قوله سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا

(١) التفسير الواضح الميسر، ص١٥١٥.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مج ١٦، ص١٥.



وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾: (المعصرات هي السحاب التي تعصر بالماء ولم تمطر بعد، كالمرأة المعتصرة التي قد دنا حيضها، وقال مجاهد ومقاتل: هي الرياح تسمى معصرات، يقال: أعصرت الريح تعصر إعصاراً إذا أثارت العجاج. وقال الفراء: المعصرات هي السحاب الذي يتعصر فيها المطر، والثجاج: الضباب، قال ابن زيد: ثجاجاً: كثيراً[1])، لنخرج بذلك الماء حباً يقتات كالحنطة والشعير، والنبات ما تأكله الدواب من الحشيش وسائر النباتات كما هو مذكور في سورة عبس: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ جمع جنة، وهي كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض، من الجَنّ وهو الستر. هذه الجنات ألفافاً بمعنى ملتفة أي متداخل بعضها ببعض.

يا لهذا التناسق البديع الدال على قدرة خالق يُبدع ويدبر في هذا الكون المتناسق: جعل الأرض مهاداً، والجبال أوتاداً، وخلق الناس أزواجاً، وجعل نومهم سباتاً، "يأتي بعد حركة"، وجعل النهار معاشاً "للحركة والنشاط"، ثم بناء السبع الشداد، وجعل السراج وهاجاً، وأنزل الماء الثجاج من السحب المعصرات؛ لإنبات الحب والنبات كل ذلك قمة في التناسق والتدبير والتقدير.

وفيما ذكر من أفعال الله هذه دلالة واضحة على صحة وقوع البعث وحقيقته من أوجه ثلاثة:

الأول: اعتبار قدرته تعالى، فإن من قدر على إنشاء تلك الأمور البديعة من غير مثال يُحتذى به ولا قانون ينتهج كان على الإعادة أقدر وأقوى.

الثاني: اعتبار علمه وحكمته، فإن من أبدع هذه المصنوعات على نمط رائع مستتبع لغايات

(١) فتح القدير، ج٥، ص٤٢٢.



جليلة، ومنافع جميلة عائدة على الخلق لايعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

الثالث: اعتبار الفعل نفسه، فإن اليقظة بعد النوم نموذج للبعث بعد الموت، يشاهده كل واحد، وكذا إخراج الحب والنبات من الأرض يُعاين كل حين، ففي هذه الأدلة كفاية على حقيقة البعث بعد الموت لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ذكر الله تعالى هذه البراهين التسعة على قدرته تعالى الباهرة على إمكان البعث والنشور فإن من قدر على إنشاء هذه الأفعال البديعة قادر على إحياء الناس بعد موتهم.[(١)]

المقطع الثالث

من أحداث يوم القامة

قال تعالى:﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

هو أنه لما كثر تساؤلهم عن البعث استبعاداً له واستهزاءً بالقائلين به من المؤمنين كما خبر بذلك الله تعالى واصفاً حالهم: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يس: ٨٤][(٢)]، بيّن كيفية وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب حسبما جرى به الوعد إجمالاً.

---

(١) التفسير الواضح الميسر، ص١٥١٦.

(٢) سورة النمل: ٢٧١، سورة سبأ:٣٩، سورة يس: ٤٨.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ ﴾: وقتاً ومجمعاً، وميعاداً للأولين والآخرين، يصلون فيه إلى ما وعدوا به من الثواب والعقاب، وسُمي بذلك؛ لأن الله تعالى يفصل فيه بين الخلائق، ﴿مِيقَـٰتًا ﴾: (حد تُوَقت به الدنيا وتنتهي عنده، أو هو حد للخلائق ينتهون عنده). [١]

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾: إن وقت هذا اليوم يوم الفصل وقته وزمانه يوم يُنفخ في الصور، وهو البوق، والبشر لا يدرون عنه إلا اسمه، فينفخ فيه إسرافيل، وهي النفخة الثانية نفخة الإحياء، فيُبعث الخلق من قبورهم، ويحضرون جماعات وزُمراً للحساب الموعود أمام ملك الملوك، يوم تُوضع الموازين القسط ليوم الحساب ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ ﴾: معطوف على (يُنفَخُ) (وصيغة الماضي تدل على تحقق الوقوع، أي فُتحت لنزول الملائكة، وقيل: معنى (فُتِحَت): قطعت فصارت قطعاً كالأبواب، بمعنى صارت ذات أبواب كثيرة[٢] .

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: سيرت عن أماكنها في الهواء، وقلعت عن مقارها فكانت هباءً منبثاً يظن الناظر إليها كأنها سراب، وللجبال أحوال متعددة ذُكرت في القرآن الكريم، ومشاهد مختلفة متنوعة، من هذه الأحوال:

الاندكاك: ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ [الحاقة: ١٤].

تصير كالعهن المنفوش: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ [القارعة: ٥].

تصير كالهباء: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٥-٦].

تصير سراباً: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [النبأ: ٢٠].

---

(١) فتح القدير، ج٥، ص٤٢٢.

(٢) المرجع السابق.

(وأُدمج فيه تشبيه الجبال بحال السراب في تخلخل الأجزاء وانشقاقها، فهي تكون كالعهن المنفوش، فصارت بعد تسييرها مثل السراب، بدى كأنه بحر مثلاً وليس به)[1].

وفي هذا اليوم - يوم يُنفخ في الصور - تُنسف الجبال وتتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه:١٠٥-١٠٨].

إنه: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ابراهيم: ٤٨].

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ ﴾: المرصاد: المكان الذي يرصد الراصد فيه العدو، والمعنى: أن جهنم كانت تترصد وتترقب نزلاءها الكفار لتلتقطهم كما يترقب الإنسان عدوه، فجهنم لا يتجاوزها شقي، فهي تنتظر أعداء الله لتخطفهم إليها، وهي مترقبة ومنتظرة لكل كافر لا يُؤمن بيوم الدين، فهي: ﴿ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ ﴾ وأصل الطغيان تجاوز الحد، والمآب: المرجع والمآل أي: هي مآل ومرجع يرجع إليه هؤلاء الطغاة المعاندون الجاحدون ليوم الحساب.

﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ ﴾: قرأ الجمهور « لابثين» بالألف. وقرأ حمزة والكسائي: «لبثين» بدون ألف.

﴿ أَحْقَابًا ﴾: جمع حُقُب بضمتين، وقد فُسر بأنه زمان غير محدود، كلما مضى حقب تبعه حقب آخر وهو كناية عن الخلد والتأبيد في النار.

وقد ورد الخلاف بين العلماء في مدة الحقب، والصواب والله أعلم أنه(دهر طويل غير محدود)[2] ، وهو الصواب؛ لأن الله تعالى أخبر عن خلود الكافرين في النار أبد الآبدين، وما

(١) روح المعاني، ص٢٢.

(٢) النكت والعيون - تفسير الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، مج٦، ص١٨٦، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١٩، ص١٧٩.

جاء هنا في الآيات من قوله تعالى: ﴿ لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ ﴾ يعني كلما مضى زمن ودهر يعقبه دهر هكذا أبد الآبدين، وماهم منها بمخرجين.

﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾: بعد بيان خلودهم في النار، وأنهم لابثين فيها أحقاباً، أعقبه سبحانه بأنهم لا يذوقون في مقامهم الأبدي هذا برداً ولا شراباً، ومعنى البرد وردت فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه برد الشراب، لايذوقون فيها برد الشراب.

وثانيها: أنه الروْح والراحة.

وثالثها: أنه النوم، واستدلوا عليه بقول الشاعر:

فإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا برداً[1]

والنقاخ: الماء، والبرد: النوم.

والحميم: الماء الحار، والغَسّاق: الصديد الذي يخرج من جلود أهل النار، أعاذنا الله منها، كل ذلك ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾: (أي جوز بذلك جوازاً موافقاً لما ارتكبوه من الأعمال، وقدموه من العقائد والأخلاق).[2]

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾: هذا تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور، حيث إنهم كانوا لا يخافون أن يُحاسبوا على أعمالهم الشنيعة، وكذبوا بآيات الله الدالة على ما أمروا به من التوحيد، وما أخبرهم به الرسول الكريم ﷺ من أمر البعث بعد الموت.

﴿كِذَّابًا ﴾ يعني تكذيباً مفرطاً بالغوا فيه لدرجة الاستهزاء بما أخبرهم به رسول الله ﷺ،

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي، مج٨، ص١٨٧، ط١ دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، مج١٠، ص٣٣، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.

بما ذكره عنهم القرآن الكريم: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]

﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ ﴾: أي حفظناه وضبطناه كتاباً مكتوباً في اللوح المحفوظ، أو في صحف الملائكة الحفظة، وحينما يُعرض عليهم ويرونه رأي العين ويجدونه حقاً وصدقاً يقولون ما ذكره الله تعالى عنهم: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ ﴾ [الكهف: ٤٩] وبسبب كفرهم هذا يقال لهم: ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ (تقريعاً وغضباً وتأنيباً لهم من تخفيف العذاب، وإعلاماً بمضاعفته). [1]

المقطع الرابع

جزاء المتقيــــن

قال تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النبأ: ٣١-٤٠].

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لـمّا ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال الطاغين الأشقياء، ومآبهم، وعذابهم المقيم الذي أُعد لهم، أعقب ذلك ببيان أحوال المتقين السعداء وشرع في بيان أحوالهم.

وذلك هو منهج القرآن التربوي الدعوي الذي يقوم على الترغيب والترهيب، فبعد ذكر

(١) المصدر سابق، مج١٠، ص٣٤.



جزاء الكافرين الذي أشعر آخره بكونه إخزاء، ذكر جزاء المؤمنين المخالفين لهم، فقال مستأنفاً مؤكداً لتكذيب الكافرين: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الراسخين في الخوف المقتضي لاتخاذ الوقاية مما يُخاف، فوقوا أنفسهم من سخط الله بما يُرضيه من الأعمال والأقوال والأحوال: ﴿ مَفَازًا ﴾[1]

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) ﴾: مفازاً من الفوز بالنعيم، والنجاة من النار كما أخبر بذلك سبحانه في سورة آل عمران: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران :١٨٥].

وفُسر المفاز بـ ﴿ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا (٣٢) ﴾ أو هو بدل منه.

﴿ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا (٣٢) ﴾: وهي البساتين، فيها أنواع الأشجار ذوات الثمار والرياحين، لتجمع مع لذة الطعم لذة البصر والشم، قد أحدقت بها الجدران وحوطت بها، وخص أشجار العنب لطيبها وحسنها وشرفها، وما فيها من لذة الذوق، وعَبَر عن أشجارها بثمرتها "أعناباً" إعلاماً بأنها لاتوجد إلا موقرة حملاً، وأن ثمرتها هي جل منفعتها). [2]

﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) ﴾: كواعب جمع، مفردها كاعب، وهي التي تكعب ثدياها واستدارا مع ارتفاع يسير، ويكون ذلك في سن البلوغ.

وأتراباً: أي لدات ينشأن معاً تشبيهاً في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر، (وذكر صاحب روح المعاني أن نساء الجنة كلهن بنات ستة عشر سنة، ورجالهن أبناء ثلاثة وثلاثين). [3]

﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) ﴾: وردت فيها أقاويل كثيرة، منها:

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي، ج٨، ص٣٠٣، ط١ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

(٢) محاسن التأويل، مج ١٠، ص ٣٠٣.

(٣) روح المعاني، مج ١٦، ص ٣٠.



١- مملوءة، ٢ - متتابعة يتبع بعضها بعضاً، ٣- صافية. [(١)]

﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ ﴾: بمعنى ليس في الجنة كلام لاغٍ عارٍ عن الفائدة، بل هي دار السلام، كل ما فيها سالم من النقص والمنقصات.

كل ذلك: ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾: هذا الجزاء الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى إياه بفضله ومنِّه وإحسانه، عطاءً حساباً كافياً وافياً شاملاً.

﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾: يخبر سبحانه وتعالى عن عظمته وجلاله، وأنه رب السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء، كما أخبر في قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[الأعراف:١٥٦]، لذا لايقدر أحد من خلقه مهما كان على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه سبحانه، كل ذلك في ذلك اليوم.

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ وهذا اليوم هو يوم البعث الذي أنكره الكافرون وتساءلوا عنه سؤال استهزاء وسخرية.

«الروح»: وردت عدة معانٍ لها: أهي أرواح بني آدم ؟ أم هم بنو آدم ؟ أم هو جبريل؟ أم هو ملَك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات ؟ [(٢)] والراجح على ما ذكره القاسمي: هو جبريل عليه السلام[(٣)]، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل:١٠٢] وقوله ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤] والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً.

﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾: وهذا متعلق بأمر الشفاعة: ﴿ يَوْمَ

---

(١) النكت والعيون، مج ٦، ص١٨٨-١٨٩.

(٢) انظر تفسير ابن كثير، ج٤، ص ١٦٧٧، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٤م. ونظم الدرر للبقاعي، ج٨، ص٣٠٥.

(٣) محاسن التأويل، مج ١٠، ص٣٦.



يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [هود: ١٠٥]، ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، واشترطوا لذلك شرطين:

أن يكون المتكلم مأذوناً له في الكلام.

وأن يتكلم بالصواب، فلا يشفع لغير مرتضى، ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨].

- ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾: أي اليوم الذي لا يمكن نكرانه، ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾: بالتصديق بهذا اليوم الحق والاستعداد له، والعمل بما فيه النجاة من أهواله، "مآباً" مرجعاً حسناً يؤوب إليه كما أخبر سبحانه بقوله:﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[الروم:٤٤].

﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾ ﴾: مناسبة هذا لما قبله تظهر في أنه سبحانه (لما قدم في هذه السورة من شرح هذا النبأ العظيم من الحكم والمواعظ، واللطائف والوعد والوعيد، لحقه في هذا النص فقال: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ من عمل، أي: كسبه الذي كسبه في الدنيا من خير وشر يراه رأي العين، عندها يتمنى الكافر لو صار تراباً، فلم يُخلق ولم يُكلف. [1]

الهدايات القرآنية المستنبطة من سورة النبأ:

ورد في بداية السورة استفهام، وهو يشير إلى التفخيم "عم" وهو ما جاء به النبي ﷺ، وهو القرآن الكريم المشتمل على البعث وغيره، فالمؤمنون يثبتونه والكافرون ينكرونه.

ثم ذكر ردع المتسائلين ووعيدهم، والتكرار للمبالغة، وفيه حذف مفعول العلم، فتكريره مع الإبهام يفيد المبالغة. [2]

(١) جامع البيان في تفسير آي القرآن، ابن جرير الطبري، ج٣، ص٢٥، ط١،

(٢) محاسن التأويل، مج١٠، ص٢٨.



ذكر دلائل قدرة الله تعالى وأنه لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وذلك من بداية قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ (جاءت هذه الأدلة في تناسق بديع يدل على أن لهذا الكون خالقاً، وأن وراء هذا تدبير وتقدير وتنسيق، وتوالي هذه الحقائق والمشاهد في هذاالنص القرآني على هذا النحو: من جعل الأرض مهاداً، والجبال أوتاداً، وخلق الناس أزواجاً، وجعل نومهم سباتاً بعد الحركة والوعي والنشاط، مع جعل الليل لباساً للستر والانزواء، وجعل النهار معاشاً للوعي والنشاط، ثم بناء السبع الشداد، وجعل السراج الوهاج، وإنزال الماء الثجاج من المعصرات لإنبات الحب والنبات والجنات... توالي هذه الحقائق والمشاهد على هذا النحو يوحي بالتناسق الدقيق، ويشي بالتدبير والتقدير، ويُشعر بالخالق الحكيم القدير، ويلمس القلب لمسات مُوقظة مُوحية بها وراء هذه الحياة من قصد وغاية، ومن هنا يلتقي السياق بالنبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون). [١]

يوم الفصل بين الخلائق هو الميقات الذي يفرق فيه بين السعداء والأشقياء. ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود:١٠٥-١٠٨].

و هو يوم الحساب والجزاء يفصل الله فيه بين الخلائق أجمعين، له وقت محدود معلوم في علمه تعالى وقضائه لا يتقدم ولا يتأخر.

وبين الله سبحانه وقت مجيئه هذا بقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾، وهي النفخة الثانية، فيُبعث الناس من قبورهم كأنهم جراد منتشر، فيُساقون زمراً زمراً، وجماعات جماعات إلى أرض المحشر، ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾ [النازعات:١٤].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ط٢٥، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٦م.



وبين في ذلك اليوم: ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ وتتبدل الأرض والسماوات: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

كما بين سبحانه أن جهنم تكون بالمرصاد للطاغين، وهي مآبهم ومرجعهم الذي يرجعون إليه.

ويمكثون فيها أحقاباً مدداً، دائمين فيها أبد الآبدين، وليس لهم فيها من طعام ولا شراب ﴿ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ ﴾، وذلك بسبب نكرانهم ليوم الحساب والجزاء، وعندها يُقال لهم: ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

قال المفسرون: ليس في القرآن على أهل النار آية أشد من هذه الآية، كلما استغاثوا من العذاب أغيثوا بأشد منه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ ﴾.

كما بين سبحانه أن الدار التي أعدت للمتقين دار هناء وسرور ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ ذلك أن اللغو والتكذيب مما تتألم له أنفس الصادقين، ولا ألم على الإطلاق في الجنان، كل ذلك جزاء لهم من ربهم على صالح أعمالهم تفضلاً منه سبحانه بذلك.

وأن الله سبحانه وتعالى وحده هو المتصرف في الكون: ﴿ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴾ ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم:٩٣]

لا يجرؤ أحد على أن يتكلم في الشفاعة إلا بإذن من الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴾.

يوم البعث والنشور حق، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ ﴾.

ومن الهدايات التي وردت: بيان أن الكافر حينما ينظر إلى ما قدمت يداه يتمنى لو يصير تراباً.


مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

سورة النازعات

أولاً: بين يدي السورة

أسماء سورة النازعات:

تسمى النازعات، وتُسمى الطامة، والساهرة، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ۝١ ﴾ [النازعات:١]، وقال: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤ ﴾ [النازعات: ٣٤]، وقال: ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤ ﴾ [النازعات: ١٤]، فسُميت بالنازعات لافتتاحها بهذه الكلمة. (١)

زمان نزولهـــا:

سورة النازعات سورة مكية بالإجماع، نزلت بعد سورة النبأ. وقد تضمنت هذه السورة الكريمة خصائص السور المكية، حيث إنها تناولت بيان أحوال الآخرة، كما وردت فيها قصة موسى ﷺ مع فرعون، وهي من الفصل. (٢)

عدد آياتهـــا:

عدد آيات سورة النازعات ست وأربعون في الكوفي، وخمس وأربعون في غيره.

محور سورة النازعات:

محور سورة النازعات الأساسي هو: (بيان آخر أمر الإنسان بالإقسام على بعث الأنام ووقوع القيامة يوم الزحام، لذا فإن أولها يشبه أن يكون قسماً لتحقيق وقوع ما ذكر في آخر سورة عم من أمر البعث والجزاء يوم القيامة: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ۝٤٠ ﴾ [عم: ٤٠] صَوَّر ذلك بنزع الأرواح بأيدي الملائكة الكرام، ثم تلا ذلك أمر فرعون اللعين وموسى ﷺ، واسمها النازعات واضح في ذلك المرام،

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين إبراهيم البقاعي، ج٨، ص٣٠٨.
ومحاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، مج١٠، ص٣٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، مج١٠، ص١٢٤، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

إذا تُؤمل القسم وجدا به للأئمة الأعلام، وكذا الساهرة والطامة إذا تُؤمل المساق، وحصل التدبر في تقرير الوفاق). [1]

ثم تلا ذلك بتهديد المشركين من أهل مكة ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [النازعات: ٢٧].

ثم ذكر أحوال البعث ببيان جزاء الكافرين وثواب المؤمنين، وخُتمت بسؤال الكافرين لرسول الله ﷺ عن الساعة ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النازعات: ٤٢].

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مج٨، ص٣٠٨.

ثانياً: التفسير الإجمالي للسورة

المقطع الأول

من مشاهد اليوم الآخر

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾ [**النازعات: ١-١٤**].

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾ ﴾: لما ذكر الله سبحانه وتعالى في آخر سورة النبأ: يوم يقوم الروح والملائكة صفاً، ويتمنى الكافر في ذلك اليوم العدم، أقسم في أول هذه السورة - النازعات - بنزع الأرواح بأيدي الملائكة على ما ذكره جمهور المفسرين على أن «النازعات» هم الملائكة تنزع الأرواح في السماوات امتثالاً للأوامر الإلهية.

غرقاً: أي (إغراقاً بقوة وشدة إلى أقصى المراد من كل شيء، من البدن حتى الشعر والظفر والعظم.

كما يغرق النازع في القوس فيبلغ أقصى المد). [١]

فللخالق سبحانه أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للمخلوق أن يُقسم إلا بالخالق، لأن القسم عبادة وهي لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى.

و الملائكة خلق عظيم من مخلوقات الله سبحانه وتعالى، خلقها من نور، وأوكل إليها مهام جليلة عظيمة، فالقسم بها مهم ومناسب للمقسم عليه وهو البعث والإعادة.

---

(١) نظم الدرر، مج٨، ص٣٠٨.

﴿ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ ﴾: وأقسم سبحانه بالملائكة « ملائكة الرحمة» التي تنزع أرواح المؤمنين برفق ولين، وتسلها سلّاً رقيقاً كما تسلّ الشعرة من العجين، والنشط: الأخذ برفق ويُسر، بخلاف التسرع فإنه يكون بشدة وقسوة.

قال ابن مسعود ﷺ: (إن ملِك الموت وأعوانه ينزعون روح الكافر كما يُنزع السفود – وهو سيخ الحديد ذو الشعب الكثيرة – من الصوف المبتل، فتخرج روح الكافر كالغريق في الماء، وينزع روح المؤمن برفق ولين، ويقبضها باليد كما ينشط العقال من يد البعير، أي كما يحل الرباط عن يد البعير). [١]

﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ ﴾: هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لتنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى.

﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ ﴾: أي الملائكة التي تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة تبشيراً لهم بدار السرور بأمر الله وحكمه.

﴿ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥ ﴾: الملائكة تدبر الأمر من السماء إلى الأرض، أي بأمر ربها عز وجل. [٢]

وأمراً: أي أمراً عظيماً.

﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ ﴾: لما أقسم سبحانه وتعالى بتلك الأفعال العظام التي ما أقدر عليها أهلها إلا الملك العلام، ذكر ما يكون فيه من الأعلام تهويلاً لأمر الساعة، فقال سبحانه: ﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ ﴾: (تضطرب اضطراباً كبيراً مزعجاً. والراجفة: الصيحة، وهي النفخة الأولى، تتبعها «الرادفة» وهي الصيحة التابعة لها التي يقوم بها جميع الأموات، وتجتمع الرفات). [٣]

---

(١) التفسير الواضح الميسر، محمد علي الصابوني، ص١٥٢٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، ج٤، ٤٩٣، ص ط٢، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٤م.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مج٨، ص١٠-١١.

وسُميت الرادفة؛ لأنها ردفت النفخة الأولى.

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ ﴾: هي قلوب الكافرين المكذبين بالبعث والنشور من القبور، فتكون هذه القلوب وجلة مضطربة، وأبصار أصحابها ذليلة منكسرة لهول ما ترى، بادٍ عليها الذل والهوان كما ورد في سورة القمر: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾[القمر: ٧] ذليلين منها بحيث لا يستطيعون رفع أبصارهم.

﴿ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ ﴾: (يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركي قريش إذا قيل لهم: إنكم مبعوثون من بعد الموت: أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل المات فراجعون أحياء كما كنا؟!). [١]

يقول البقاعي – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآيات: («يقولون» أي في الدنيا قولاً يجدونه كل وقت من غير خوف ولا استحياء استهزاءً وإنكاراً « أئنا لمردودون» أي بعد الموت «في الحافرة» أي في الحياة التي كنا فيها قبل الموت وهي حالتنا الأولى، من قولهم: رجع فلان في حافرته: أي طريقته التي جاء بها فحفرها، أي: أثر فيها بمشيه كما تؤثر الأقدام والحوافر في الطريق).

ولما وصف قلوبهم بهذا الإنكار الذي ينبغي لصاحبه أن يذوب منه خجلاً إذا فرط منه مرة واحدة وأشار إلى شدة وقاحتهم بتكريره، أتبعه التصريح بتكريرهم له على وجه مشيراً إلى العلة الحاملة لهم على قوله، وهو قولهم: ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴿١١﴾ ﴾: (وهي في غاية الانتخار حتى تفتت، فكان الإنخار وهو البلى والتفتت والتمزق كأنه طبع لها طُبعت عليه فكيف بما عداها من الجسم؟ وعلى قراءة « ناخرة» المعنى أنه خلا ما فيها، فصار الهواء ينخر فيها أي: يصوت). [٢]

(١) تفسير محاسن التأويل، مج١٠، ص٤٢.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مج٨، ص٣١١-٣١٢.

فهم كما تقدم ينكرون البعث هذا تأكيداً لهذا الإنكار.

﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾: أي رجعة ذات خسران لما يقع على أصحابها من الخسران، والمعنى: إنهم قالوا إن رددنا إلى بعد الموت لنخسرن بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد.

وقيل: خاسرة بمعنى كاذبة، أي ليست كائنة، قال الربيع بن أنس: خاسرة على من كذب بها. [(١)]

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾: هذا رد على منكري البعث الذين قالوا: ﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ ﴾ فأعلمهم الله سبحانه وتعالى بسهولة البعث عليه، فقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ ﴾ أي النفخة الأخيرة ﴿ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي صيحة في الصور يسمعونها من إسرافيل وهم في الأرض فيخرجون [(٢)] فيكونون على وجه الأرض.

﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الساهرة: الأرض كلها. وقال مجاهد: كانوا بأسفلها فأُخرجوا على أعلاها. والساهرة المكان المستوي، وقد وردت أقوال كثيرة في هذا المعنى، منها: الساهرة أرض الشام، وقيل: أرض بيت المقدس. [(٣)]

---

(١) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ج٥، ص ٤٥٤، ط١، دار الخير، بيروت، ١٩٩٢م.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين بن الجوزي، مج٩، ص١٤٠٤، ط١، المكتب الإعلامي، بيروت.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٤٩٤.

المقطع الثاني

قصة موسى عليه السلام مع فرعون

قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النازعات: ١٥-٢٦].

وجه مناسبة هذا المقطع لسابقه:

يقول البقاعي رحمه الله: (لما كانت قصة موسى عليه السلام مع القبط أشبه شيء بالقيامة لما حصل فيها من التقلبات والتغيرات، وإيجاد المعدومات من الجراد والقمل والضفادع على تلك الهيئات الخارجة عن العادات في أسرع وقت، وقهر الجبابرة، والمن على الضعفاء حتى كان آخر ذلك أن حشر بني إسرائيل فنشطهم من القبط نشطاً رقيقاً كلهم وجميع مالهم ودوابهم إلى ربهم، وحُشر جميع القبط وراءهم، فنزعهم نزعاً كلهم بحشر فرعون لهم بأصوات المنادين عنه في أسرع وقت وأيسر أمر إلى هلاكهم، كما يحشر الأموات بعد إحيائهم بالصيحة إلى الساهرة، ثم كانت العاقبة في الطائفتين بها للمدبرات أمراً أن نجا بنو إسرائيل بالبحر كما ينجو يوم البعث المؤمنون بالصراط. وهلك فرعون وآله به، كما يتساقط الكافرون بالصراط، وذلك أنه رأى فرعون وجنوده البحر قد انفلق لبني إسرائيل فلم يعتبروا بذلك، ثم دخلوا فيه وراءهم، ولم يجوزوا أن الذي حسره عن مكانه قادر أن يعيده كما ابتدأه فيغرقهم، واستمروا في عماهم حتى رده الله فأغرقهم به، كما أن من يكذب بالقيامة رأى بدء الله له ولغيره وإفنائه بعد إبدائه، ثم إنه لم يجز أن يعيده كما بدأه أول مرة، وصل بذلك قوله تعالى جواباً لمن يقول: هل لذلك من دليل ؟ مخاطباً لأشرف الخلق إشارة إلى إنه لا يعتبر هذا حق اعتباره إلا أنت مستفهماً عن الإتيان للتنبيه والحث على جمع النفس على التأمل والتدبر والاعتبار مقرراً ومسلياً له ﷺ، ومهدداً للمكذبين أن يكون حالهم – وهم أضعف أهل الأرض لأنه لا ملك لهم – كحال فرعون في هذا، وقد

كان أقوى أهل الأرض بما كان له من الملك وكثرة الجنود وقوتهم وسحرهم ومرودهم في خداعهم ومكرهم، ورأى من الآيات مالم يره أحد قبله، فلما أصر على التكذيب ولم يرجع، ولا أفاده التأديب أغرقه الله وآله فلم يبق منهم أحداً). [1]

التفسير الإجمالي للآيات:

* ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ﴾: سؤال، والمراد منه التشويق إلى معرفة هذه القصة. هل جاء يا محمد خبر موسى الكليم ؟ حين كلمه ربه بالوادي المطهر المُسمى طُوى. وقد وردت أقاويل في المراد بـ «طوى»، وأشهرها أنه اسم للوادي كما ذكر ذلك ابن كثير. [2]

وهي كما في سورة طه: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ [طه:٩-١٠]، ولـما ذكر المناداة فسر ثمرة هذه المناداة بجملة مستأنفة، فقال: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [طه:٤٣]. فرعون ملِك مصر الذي استعبد بني إسرائيل واضطهدهم وعذبهم، فكان من شأنه معهم ما ذكره القرآن الكريم: ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ [القصص:٤].

إضافة إلى كثير من المنكرات التي جعلته يتجاوز الحدود، ودمغ من أجلها بالطغيان ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ أي طغيان الكبر من ادعاء الألوهية، ألم يكن هو القائل لقومه: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:٣٨]، وهو القائل: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات:٢٤]. والطغيان تجاوز الحد، فاستحق المقابلة بالجزاء. [3]

* ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾: أي هل لك إلى أن تتطهر من

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مج٨، ص ٣١٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٤٩٥.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مج٨، ص ٣١٤.

دنس الكفر وتؤمن بربك ؟ وأن أُرشدك إلى ما يُرضي ربك عنك، وذلك إلى نهج الدين القيم فتخشى عقابه بأداء ما ألزمك من فرائضه، واجتناب ما نهاك عنه من معاصيه ؟ فيصير قلبك خاضعاً له مطيعاً بعد ما كان قاسياً خبيثاً بعيداً عن الخير.

وهناك طي في الكلام يُعرف مما تقدم. أي: فذهب إليه كما أمره الله تعالى، وطلب فرعون من موسى عليه السلام الدليل.

* ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾: الحجة القوية على صدق ما جاء به من عند الله.

واختلف في الآية الكبرى ما هي ؟ فقيل: العصا، وقيل: يده، وقيل: هي جميع ما جاء به من الآيات التسع.[1] والذي أميل إليه هو أن الآية الكبرى هي العصا واليد، وذلك على ما ذُكر في سورة طه: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [١٧-٢٢]، ولكنه لم يستجب شأنه شأن الطغاة.

* ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾: فكذّب فرعون موسى فيما أتاه من الآيات المعجزة، وعصاه فيما أمره به من طاعته ربه، وخَشيته إياه. في مقابلة الحق بالباطل وهو جمعه السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات.[2]

وقيل ولى فرعون مُدبراً هارباً من الحية يُسرع في مشيه من هول ما رأى.

ثم حُشر السحرة والجنود والأتباع، وقام فيهم خطيباً يتبجح بمقالته الكاذبة الفاجرة.

* ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ أي: لارب فوقي، وليس هناك رب كما - يزعم موسى - قالها

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ج٤، ص٤٩٥، وفتح القدير ج٥، ص٤٥٥.

(٢) انظر جامع البيان في تفسير آي القرآن، ابن جرير الطبري، ج١٢، ص٤٣٣. وتفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٤٩٥.

الطاغية مستخفاً بعقول قومه كما أخبر الله تعالى بذلك: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزخرف:٥٤] بالإقرار له بالألوهية، فكانت نهايته بأن أخذه الله وقصم ظهره، ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ ﴾: يقول الصابوني: (أي فأهلكه الله وقصمه عقوبة له على مقالته الأخيرة: «أنا ربكم الأعلى»، ومقالته الأولى: «ما علمت لكم من إله غيري»، وجعله عبرة للمعتبرين في الدنيا بالعذاب الأليم، وفي الآخرة بعذاب الجحيم)[1] كما قال الله جل شأنه في سورة القصص: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[القصص: ٤٠-٤٢].

يقول القاسمي رحمه الله: (ثم ختم تعالى القصة بقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي في أخذه وما حل به من العذاب والخزي عظةً ومُعتبراً لمن يخاف الله ويخشى عقابه، ويعلم أن هذه سنته في كل من يقاوم الحق ويحاربه، فإن نبأ الأولين عبرة للآخرين). [2]

(١) التفسير الواضح الميسر، ص١٥٢٣.

(٢) محاسن التأويل، مج١٠، ص٤٧.

المقطع الثالث

لفت نظر الإنسان إلى خلق السموات والأرض

قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعد ذِكر نموذج طغيان فرعون وعتوه وتعاليه على الحق، عادت الآيات تُذكر أهل مكة ومشركيها بمظاهر قدرة الله تعالى في مخلوقاته، وتحذرهم من أهوال يوم القيامة ليرتدعوا عن كفرهم وضلالهم، فقال سبحانه مخاطباً لهم: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي للآيات:

* ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾: هل أنتم أشد وأصعب خلقاً أيها المشركون أم خلق السموات العظيمة البديعة التي وُصفت في آيات سورة الملك: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الملك: ٣-٤] من الذي أوجدها وأحكم بناءها ؟ إنه الله ذو القوة المتين، ولذا قال سبحانه: «بناها» فإن مَن خلق السموات بهذه العظمة والضخامة سهُل عليه إعادتكم بعد موتكم، فما كان لكم أن تنكروا البعث بعد هذه الآيات الشاهدة الناطقة بقدرة الخالق، لذا قال سبحانه: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر: ٥٧] .

﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾: إن الله الذي خلقها أعلى سقفها في الهواء، وخلقها خلقاً مستوياً لا تفاوت فيه ولا شقوق، ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أي جعله مظلماً وأضاف الليل إلى السماء؛ لأن الليل يكون بغروب الشمس، والشمس مضافة إلى

السماء. « وأخرج ضحاها » أنار نهارها. وأضاف الضحى إلى السماء كما أضاف الليل إليها؛ لأن فيها سبب الظلام والضياء وهو غروب الشمس وطلوعها. (١) وكلها نعم تستوجب الشكر.

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ ﴾: أي بسطها بعد خلق السماء، ولا تعارض بين هذه الآية وآية «فُصلت»: ﴿ **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ** ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت: ١١] بل يُجمع بينهما (بأنه سبحانه خلق الأرض أولاً غير مدحوة، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض، ودحيُها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال، والسبل والآكام. (٢)

* ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾: أثبتها في الأرض وجعلها كالأوتاد لتثبت وتستقر، وأن لا تميد بأهلها.

* ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾: أي منفعة لكم ولأنعامكم من البقر والغنم إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل. (٣) ومثل هذا ما جاء في سورة «عبس» ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

---

(١) انظر جامع البيان في تفسير آي القرآن، ج١٢، ص٤٣٥، وتفسير القرآن العظيم ج٤، ص٤٩٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٤٩٥.

(٣) المصدر السابق، ج٤، ص٤٩٥.

المقطع الرابع

أحداث يوم القيامة

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لمّا ذكر ما دل على البعث أتبعه ما يكون عن البعث مسبباً عنه، دلالة على أن الوجود ما خُلق إلا لأجل البعث؛ لأنه محط الحكمة.

التفسير الإجمالي للآيات:

* ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) ﴾: «فإذا جاءت» أي بعد الموت «الطامة الكبرى» وهي الداهية الدهياء التي تطم - أي تعلو- على سائر الدواهي وتغطيها فتكون أكبر داهية تُوجد، وهي البعث بالنفخة الثانية، فيُفصل الناس إلى شقي وسعيد، كما قال الله تعالى في سورة هود: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾[هود:١٠٥] في ذلك اليوم يوم الطامة الكبرى ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) ﴾: فيتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره؛ لأنه يشاهده مدوناً في صحائف أعماله ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]. ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) ﴾: تظهر للناظرين فيراها الناس أو الكافر عياناً، بل (وقيل يراها المؤمن ليعرف قدر النعمة، ويصلى الكافر بالنار). [1]

والناس يومئذ صنفان: الصنف الأول: الطاغي. ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) ﴾: أي تَمَرَّد وعتا وتجاوز الحد في العصيان، واستكبر عن عبادة ربه، وقدم دنياه على آخرته،

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج١٠، ص١٣٤.



فعمل للدنيا وسعى لها، وترك العمل للآخرة ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾: مصيره، ومنزله نار جهنم يوم القيامة وبئس المصير. والصنف الثاني: الذي خاف مقام ربه. ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾: (خاف المقام بين يدي الله عز وجل، وسؤال ربه إياه، فاتقى ذلك الموقف، ونهى نفسه عن هواها فيما يكرهه الله تعالى، فزجر نفسه وخالف هواها إلى ما أمر به ربه).[1]

* ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾: وهذا ميزان دقيق يستطيع أن يعرف به الإنسان مصيره في الآخرة وهو في الدنيا، فإن كان يخاف من الله، ويتجنب محارمه، وينهى نفسه عن الشهوات المحرمة فمصيره إلى الجنة - إن شاء الله - وإلا فمصير كل من لا يؤمن بالله ولا يصدق بالآخرة ولا يكف نفسه عن المحارم نار جهنم.[2]

المقطع الخامس

سؤال المشركين عن وقت وقوع الساعة

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لمَّا قسمهم الله تعالى هذا التقسيم الذي بيناه آنفاً، استأنف ذكر استهزائهم تعجباً منهم. يقول البقاعي رحمه الله: (ولما كان إيراد هذا هكذا مفهماً للإنكار عليهم في هذا السؤال، وكان من المعلوم أنه يقول: إنهم ليسألونني وربما تحركت نفسه الشريفة ﷺ إلى إجابتهم لحرصه على

(١) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٤٩٦.
(٢) التفسير الواضح الميسر، ص١٥٢٥.



إسلامهم شفقة عليهم، فطَمَه عن ذلك وصرح بالإنكار بقوله: ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ ﴾.[١]

التفسير الإجمالي للآيات:

* ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ ﴾: فليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها ومرجعها إلى الله عز وجل، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، فمنتهى علمها له وحده، ولا يوجد علمها عند غيره كما ذكر ذلك في سورة الأعراف: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

* ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾: كأن هؤلاء المكذبين بالساعة عندما يخرجون من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضحىً من يوم.[٢] وإضافة الضحى إلى العشية لما بينهما من الملابسة لاجتماعهما في يوم واحد، فإذا كان الأمر كذلك فعليهم بالعمل، فماذا يفيدهم معرفة قربها أو بعدها ما دام أنها حاصلة، ووقوعها حتمي.

الهدايات القرآنية الواردة في السورة:

عند تدبر سورة النازعات نرى أنها تضمنت كثيراً من الهدايات، منها:

* القَسَم بالمخلوقات خاص بالله الخالق وحده، فله سبحانه أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للمخلوق أن يُقسم إلا بالله الخالق؛ لأن القسم عبادة وهي لا تكون إلا لله الواحد الأحد.

(والقسم في كتاب الله يزيل الشكوك ويحبط الشبهات ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار ويقرر

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مج٨، ص ٣١٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج١٠، ص١٣٤.



الحكم في أكمل صورة). [1]

* تقرير عقيدة البعث والجزاء.
* أهوال يوم القيامة تبدأ بالنفخ في الصور، ثم تتبعها بقية الأهوال.
* ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم فيه تسلية للرسول ﷺ وعبرة لمن يعتبر.
* الكون وما فيه من مخلوقات دال على قدرة مكوِّنه، وهو الله سبحانه وتعالى.
* من خلال آيات سورة النازعات برز لنا أن ثواب المؤمن يوم القيامة الجنة، وأن جزاء الكافر النار وبئس المصير.
* علم الساعة عند الله وحده، فلا يعلمه مَلَك مُقرب، ولا نبي مُرسل، وهو من مفاتح الغيب التي لا يعلمها أحد إلا الله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ﴿٤٤﴾﴾.
* الحياة مهما طالت فهي قصيرة.
* في السورة الكريمة ذكر نعم الله على الإنسان ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.
* العناد والاستكبار من طبيعة الكفار.

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص٢٦٦، ط، مؤسسة الرسالة، بيروت.

سورة عبس

أولاً: بين يدي السورة:

أ. اسم السورة:

سورة عبس. قال ابن عاشور:» سميت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة (سورة عبس)» [1]، وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في أولها: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ ﴾.

ب. مكية السورة أو مدنيتها:

قال ابن عطية: «هي مكية بإجماع المفسرين».[2]

ج. عدد آيات السورة:

« آيها أربعون آية في الشامي، وإحدى وأربعون عند أبي جعفر والبصري، واثنتان وأربعون في عدد الباقين..»[3]

د. سبب نزولها:

روى ابن جرير بسنده عن «ابن عباس قوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ ﴾ قال بينا رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب، وكان يتصدى لهم كثيراً ويحرص عليهم أن يؤمنوا فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم يمشي وهو يناجيهم فجعل عبد الله يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن، وقال يا رسول

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٥/ ١٠١.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١٦/ ٢٢٨.

(٣) مصاعد النظر للبقاعي:٣/ ١٥٦.

الله: علمني مما علمك الله فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه وأخذ ينقلب إلى أهله أمسك الله بعض بصره وخفق برأسه ثم أنزل الله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ ﴾.

فلما نزل فيه ما نزل أكرمه رسول الله ﷺ وكلمه وقال له رسول الله ﷺ: (ما حاجتك؟ هل تريد من شيء ـ وإذا ذهب من عنده قال ـ هل لك حاجة في شيء...»[1]

قال الحافظ ابن كثير بعد إيراده كلام الطبري: «... وهكذا ذكر عروة بن الزبير ومجاهد وأبو مالك وقتادة والضحاك وابن زيد وغير واحد من السلف والخلف أنها نزلت في ابن أم مكتوم، والمشهور أن اسمه عبد الله، ويقال عمرو. والله أعلم»[2].

وهذه القصة في سبب نزول هذه الآيات هي التي بينت المعاني الكامنة في قوالب المباني؛ إذ سبب النزول هو أكبر معين على تفسير الآية أو الآيات.

هـ. موضوع السورة الذي تتمحور حوله الآيات:

يدور محور سورة عبس حول تصحيح فكر الداعية بما يلائم قيمة الدعوة وتوجيهها وكذلك «تصحيح القيم الإنسانية، ووضع الأسس الإسلامية لأقدار الناس وأوزانهم،وتؤكد أن قيمة الإنسان بعمله وسلوكه، ومقدار اتباعه لهدي السماء»[3].

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

في اسم السورة إشارة إلى إعراض النبي ﷺ عن الأعمى ؛ لانشغاله ﷺ بدعوة بعض

---

(١) تفسير الطبري:١٥/ ٦٥، حديث رقم ٢٨١٤٣، وانظر:أسباب النزول للواحدي ص ٢٥٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير:٤/ ٤٧١،٤٧٠.

(٣) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، عبد الله شحاتة:٤/ ٣٤.

أشراف قريش وصناديدهم، فنزلت السورة تبين ما ينبغي أن يكون عليه الأسلوب الدعوي، وهو ما يتفق ومحور السورة الكريمة.

٠٢ المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

مناسبة افتتاحية السورة بخاتمتها تعجب الناظر، وتبهر السامع، ففي بداية السورة كان الحديث عن صنفين من الناس أحدهم وهو الأعمى الذي أعرض عنه رسول الله ﷺ وهو يريد الهدايةو وقد أقبل على الرسول ﷺ مستبشراً بهذا الدين يريد الاستزادة، والصنف الآخر هم الذين كانوا عند رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام ويعظهم، ولكنهم أعرضوا وصدوا وكفروا وفجروا، فجاءت الآيات في نهاية السورة تصف حال الفريقين ومصير القبيلين. ومن أنعم نظره في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ أدرك أن آخر السورة عاد على أولها فيمن يستحق الإعراض عنه، ومنْ يستحق الإقبال عليه»[1]، فسبحان الذي أنزل الكتاب العظيم!

٠٣ مناسبة السورة لما قبلها:

جاءت سورة عبس لتعانق شقيقتها النازعات عناقاً متناسقاً متلاحماً في مقاطعها وآياتها:

* في كلتا السورتين ذكر سبحانه ضرورة الدعوة إلى الله عزوجل، ففي النازعات جاءت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وهو سيد قومه بعث الله سبحانه إليه موسى عليه السلام ليدعوه، لكنه كفر وعتى عن أمر ربه، وهذه السورة جاءت لتبين للرسول ﷺ أن كبار القوم وسادتهم إن لم يؤمنوا فلن يؤثروا في الدعوة، ولا يجب الانشغال بهم عن غيرهم من المستضعفين الراغبين في المعرفة والعلم.
* في كلتا السورتين جاء ذكر فضل الله سبحانه على الإنسان بقوله تعالى: ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾، ففي سورة النازعات جاءت هذه الآية بعد ذكر السماء والليل والنهار

(١) نظم الدرر للبقاعي: ٢١/ ٣٧٣.

الأرض والجبال فجاءت بشكل عام. وفي هذه السورة كان التفصيل والبيان بذكر أنواع الثمار والأنعم.

* في السورتين كانت النهاية بذكر يوم القيامة: في النازعات كان بيان مصير الفريقين دون تفصيل، وجاءت سورة عبس لتبين وتفصل بعضاً مما يكون في ذلك اليوم.

٤-مناسبة افتتاحية السورة مع خاتمة ما قبلها:

« لما ذكر سبحانه ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾ [النازعات: ٤٥] ذكر في هذه منْ ينفعه الإنذار ومنْ لم ينفعه وهم الذين كان رسول الله ﷺ يناجيهم في أمر الإسلام»[(١)].

ثانياً: التفسير الإجمالي لمقاطع السورة.

تتألف السورة من ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: (الآيات١-١٦): عتاب المُحب

المقطع الثاني:(الآيات ١٧-٣٢): تفكّر وتدبّر

المقطع الثالث:(الآيات ٣٣- ٤٢): يومك... يومك

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ٤١٨، وانظر: روح المعاني للآلوسي ٣٠/ ٣٩.

المقطع الأول: (الآيات١-١٦): عتاب المُحب

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ (١٤) بِأَيْدِى سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ (١٦) ﴾

جاءت آيات هذا المقطع تحمل في طياتها عتاباً رقيقاً لرسول الله ﷺ، على ما بدر منه تجاه هذا الرجل الضعيف المسكين الذي جاء يطلب العلم والمعرفة في أمور دينه، في حين كان ﷺ مشغولاً في دعوة قادة قريش وسادتها إلى الإسلام، قال الحافظ ابن كثير في تفسير سورة عبس: «ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش، وقد طمع في إسلامهم فبينما هو يخاطبهم ويناجيهم إذ أقبل ابن أم مكتوم ـ وكان ممن أسلم قديماً، فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، وودّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك لتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته»[1]. وهذا عائد إلى الطبيعة البشرية في الإنسان، فهو يسعى دائماً إلى تقريب سادات القوم منه ليكونوا على منهجه، وطريقته.

ثم انتقلت الآيات نقلة رائعة من صيغة الغائب إلى صيغة الخطاب زيادة في العتاب، في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) ﴾ «لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش، والإقبال بعد الإعراض»[2] ومع هذا الإيناس المؤنس يسمي الله تعالى الانشغال عن الرجل المؤمن الراغب في الخير التقي تلهياً.. وهو وصف شديد.. ثم ترتفع نبرة العتاب حتى لتبلغ حد الردع والزجر ﴿ كَلَّآ ﴾..

ثم يبين حقيقة هذه الدعوة وكرامتها وعظمتها ورفعتها، واستغناءها عن كل أحد..

(١) تفسير ابن كثير:٤/ ٤٧٠.

(٢) روح المعاني للآلوسي ٣٠/ ٣٩.



كائناً ما كان وضعه ووزنه في موازين الدنيا، ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.. فهي كريمة في كل اعتبار. كريمة في صحفها المرفوعة المطهرة الموكل بها السفراء من الملأ الأعلى ينقلونها إلى المختارين في الأرض ليبلغوها..وهم كذلك كرام بررة..»[١].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الدعوة إلى «المساواة بين الناس في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم»[٢]. قال ابن عطية: «فحملة الشرع والعلم مُخاطبون في تقريب الضعيف من أهل الخير، وتقديمه على الشريف العاري من الخير بمثل ما خُوطب به النبي ﷺ في هذه السورة»[٣].
* إن وظيفة الداعية هي التبليغ والموعظة بالترغيب والترهيب ،وليست وظيفة الإجبار والإلزام لتحويل الناس من الكفر إلى الإيمان.
* إن الله عز وجل قد تكفل بحفظ القرآن الكريم إلى يوم القيامة، فلا خوف عليه من الكافرين والحاقدين.
* دلت الآية على القاعدة المشهورة: «لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة». لذلك ينبغي الإقبال على طالب العلم، الحريص عليه أكثر من غيره.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٨٢٥.
(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٧١.
(٣) المحرر الوجيز لابن عطية: ١٦/ ١٣٠-٢٣١.

المقطع الثاني: (الآيات ١٧-٣٢): تفكّر وتدبّر

﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ (١٧) مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا (٢٥) ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا (٢٦) فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا (٢٧) وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا (٢٨) وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا (٣٠) وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا (٣١) مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ (٣٢) ﴾

بدأ هذا المقطع بقوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ (١٧) ﴾ وانتهى بقوله تعالى: ﴿ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ (٣٢) ﴾، ففي بداية آيات المقطع يذم الله تعالى منْ أنكر البعث والنشور، ويذكّره بأصل نشأته، وحسن تقدير الله لتركيبه، ثم هدايته له، ثم إكرامه بالقبر، ثم الحكم عليه بالنشر، وهذا كله يقتضي شكراً، لا كفراً ولا تقصيراً، فإذا كان الإنسان مع هذا كله يكفر ويقصّر، فالذنب ذنبه، وبالتالي فلا عليك يا رسول الله صلى الله عليك وسلم من أمره شيئاً، فلا يدفعنّك الحرص على إسلام الكافر إلى التقصير في حق المسلم.[1]

والآية تعم كل إنسان ففيها «دعاء عليه أشنع دعوة لأنه لا أفظع من القتل، (وما أكفره) تعجب من حال إفراطه في الكفران وتلقي نعم خالقه بالجحود والطغيان»[2].

نعم، بدأ الله عزوجل بتذكير الإنسان بنعمه عليه منذ النشأة الأولى، فدعاه للتأمل في مادة تكونه وهي الطين، هذا التكوين الذي نسيه الإنسان فتمرد وعاث في الأرض فساداً، ثم بين سبحانه مراحل تكوينه فبدأ بالنطفة وهي اللحمة الصغيرة التي قدر الله عز وجل أن تنمو حتى يحين موعد خروجه إلى هذه الدنيا. واستمر حفظ الله عز وجل للإنسان وعنايته به حتى بعد المات بحفظ جسده بعد مماته بأن جعله يقبر ولا يرمى للسباع والحيوانات المفترسة، وهذا ما علمه الله للإنسان من زمن آدم عليه السلام حين أقبل أحدهم على قتل أخيه فأرسل الله له الغراب

(١) انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوى ١١/ ٦٣٧٨.

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٢٩/ ٢٩.

حتى يعلمه كيف يواري جثمان أخيه، قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة: ٣١] فلله الشكر والحمد على نعمائه.

وقبل الحديث عن اليوم الآخر وما يجري فيه دعا الله عز وجل الإنسان لينظر إلى حياته كيف عاشها وكيف استمر حتى أماته الله « ولما عدد تعالى نعمه في نفس الإنسان ذكر النعم فيما به قوام حياته وأمره بالنظر إلى طعامه وكيفيات الأحوال التي اعتورت على طعامه...»[1]، قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾ دعوة إلى تأمل الإنسان لما فيه استمرار حياته وهو الطعام الذي مر بمراحل حتى تم تناوله من قبل الإنسان، فقد هيأ الله عز وجل نزول المطر ليروي الأرض ويدعوها للتشقق لتخرج البذور والحبوب التي قد يلقيها الانسان، ثم تنمو الأعناب والأعلاف والزيتون والنخيل والحدائق العظيمة الأشجار، هذا كله طعام للإنسان والحيوان.

الهدايات المستنبطة من المقطع.

* جاء الإسلام ليكرم الإنسان ويرفع من إنسانيته إلى أعلى المراتب، فكرمه سبحانه حياً وميتاً، فحري بالمسلمين أن يقدروا هذه النعمة العظيمة، بإقامة دين الله على الأرض، واتباع أوامره.
* يجب على الإنسان أن يشكر ربه سبحانه، ويبذل جهده في طاعته، وتحقيق العبودية لله وحده سبحانه.
* من عجيب أمر الإنسان أنه يعلم من نفسه أنه كان نطفة فصار بشراً سوياً، فكيف يكفر بمن أنعم عليه بنعمة الإيجاد فخلقه وسوّاه، وأمده بنعمة الإمداد ليعيش في الحياة مكرماً.
* أكرم الله عز وجل المسلمين بدفن موتاهم، وذلك تكريماً للإنسان حتى بعد موته، فالواجب على المسلمين احترام موتاهم، ودفنهم كما أراد سبحانه وعدم التشبه بغيرهم من الكفرة.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٣٠/ ٤٢٠.

المقطع الثالث: (الآيات ٣٣- ٤٢): يومك... يومك

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

انتقلت الآيات إلى مشهد النتيجة الحتمية لمن تم ذكرهم في بداية السورة (الكافر والمؤمن) وهذا هو إعجاز القرآن، ينتقل من مشهد إلى آخر بنقلة قرآنية فريدة لا يشعر من خلالها القارئ بفراغ أو خلل بين المشاهد القرآنية.

ففي هذه الآيات جاء الحديث عن يوم الإنسان الخاص به فيومه هو يوم القيامة يوم تصخ الصيحة الآذان لشدتها، ففي ذلك اليوم لا يسأل الإنسان عن أمه وأبيه، ولا يسأل عن زوجه وأخيه، ولا عن بنيه لكلٍ ذلك اليوم شأن يغنيه، ينتظر حسابه فيه، تتميز فيه الوجوه فالمؤمن مسفر الوجه أي مضيء مسرور من النعم التي أعدت له، ووجوه أخرى تعلوها الغبار من العبوس والهموم فهؤلاء هم الكفرة الفجرة.

« وفي هذا المشهد ختام يتناسق مع المطلع مع الذي جاء يسعى وهو يخشى، والذي استغنى وأعرض عن الهوى ثم هذان هما في ميزان الله»[1].

الهدايات المستنبطة من المقطع.

* صيحة القيامة تصخ لهولها الأسماع، وتنزعج لها الأفئدة يومئذ مما يرى الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال.
* الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، وأما الآخرة فدارالجزاء والبقاء.فعلى الإنسان أن يتزود من دار ممره إلى دار مقره.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٨٣٤.



* الناس يوم القيامة فريقان: سعداء و أشقياء. أما السعداء فتظهر البهجة على وجوههم، لما عرفوا من نجاتهم، وفوزهم بالنعيم.

وأما الأشقياء فترى وجوههم مسودة مظلمة، قد أيست من كل خير وعرفت شقاءها وهلاكها.

سورة التكوير

أولاً: بين يدي السورة:

أ. اسم السورة:

قال ابن عاشور: « أكثر المفسرين يسمونها (سورة التكوير)، وكذلك تسميتها في المصاحف، وهو اختصار لمدلول ﴿كُوِّرَتۡ﴾. وتسمى(سورة كُورت) تسمية بحكاية لفظ وقع فيها. ولم يعدها في الإتقان مع السور التي لها أكثر من اسم»[1].

ب. فضائل السورة:

روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:(منْ سره أن ينظر إلى يوم القيامة رأي عين، فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾. أحسب أنه قال: وسورة هود)[2].

ج.مكية السورة أو مدنيتها:

قال ابن الجوزي:» هي مكية كلها بإجماعهم».[3]

د.عدد آيات السورة:

قال البقاعي: «آيها تسع وعشرون إجماعاً، إلاّ عند أبي جعفر فهي عنده ثمان وعشرون...»[4].

هـ. موضوع السورة الذي تتمحور حوله الآيات:

يدور موضوع السورة حول وصف يوم القيامة ومكانة المبلغ عنه، وكذلك(الحوادث

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور:١٥/ ١٣٩.
(٢) جامع الترمذي، كتاب التفسير، باب سورة إذا الشمس كورت، حديث ٣٣٨٩، ٥/ ١٠٤.
(٣) زاد المسير لابن الجوزي: ٩/ ٣٧.
(٤) مصاعد النظر للبقاعي:٣/ ١٦٠.

الكونية السماوية والأرضية التي تقع من أول يوم القيامة إلى ساعة الحساب وفصل القضاء).

و. المناسبات في السورة:

٠١ المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

يتفق اسم السورة التكوير، أو سورة كورت مع محورها إذ يكون تكوير الشمس هو الحدث الأول ؛ لأنها تضيء العالم، فإذا كُورت أي لُفت ورُمي بها أظلمت السماء فأظلم الكون هذا أولاً.

وأما ثانياً: فإن الخراب إنما يبدأ من السقف، والشمس أبرز آيات السماء التي هي سقف فوقنا.

٠٢ المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت سورة التكوير بقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ①﴾، وخُتمت بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ㉙﴾، والمتأمل في نظم الآيتين يدرك أن المتصف «بالربوبية صح تصرفه في الشمس وما تبعها مما ذكر أول السورة لإقامة الساعة لأجل حساب الخلائق والإنصاف بينهم بقطع كل العلائق، كما يفعل كل رب مع من يربيه فكيف بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، فقد التقى طرفاها على أشرف الوجوه وأجلاها...».[1]

٠٣ المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

« لما ختمت سورة عبس بوعيد الكفرة الفجرة بيوم الصاخة لجحودهم بما لهذا القرآن من التذكرة، ابتدئت هذه بإتمام ذلك، فصور ذلك اليوم بما يكون فيه من الأمور الهائلة..»[2].

ثانياً: التفسير الإجمالي لمقاطع السورة.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي: ٢١/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٢) المصدر السابق، ٢١/ ٢٧٥.



تتألف السورة من مقطعين: قال الأستاذ سيد: «هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج في كل مقطع منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة:

الأولى: حقيقة القيامة، وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل..

والثانية: حقيقة الوحي، وما يتعلق بها من صفة الملك الذي يحمله، وصفة النبي الذي يتلقاه...»[1].

المقطع الأول: (الآيات ١ـ١٤): حقيقة القيامة.

المقطع الثاني: (الآيات١٥-٢٩): حقيقة الوحي.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ٦/ ٣٨٣٦.

المقطع الأول: (الآيات١-١٤): حقيقة القيامة

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾

من أنعم نظره في هذه السورة أدرك أنها شارحة، ومفصلة للسورة التي سبقتها، ففي سورة (عبس) ذكر الله عز وجل يوم القيامة، وما فيه من أهوال فجاءت هذه السورة تبين للناس علامات هذا اليوم فذكرت اثنتي عشرة علامة، ستة منها تقع في أول يوم القيامة وبقيتها تقع بعد البعث.

لقد افتتحت العلامات بتكوير الشمس وسقوطها وذهاب نورها ليتنبه الناس إلى البدء بخراب العالم فقال تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ ﴾ أي: «ذهب ضوءها واختفى»[1].

وأما النجوم المضيئة في السماء فتتناثر من السماء وتتساقط على الأرض بعد الشمس قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾ أي: ذهب لمعانها وضوؤها. وهاتان الآيتان إنما تحدثتا عما هو مشاهد في السماء(الشمس) بالنهار، و(النجوم) بالليل.

ولعل في ذكر النجوم دون القمر لطيفة إعجازية، وذلك أن القمر ليس له ضوء، وإنما يستمد ضوءه من الشمس ابتداء فناسب عدم ذكر القمر. والله أعلم.

قال البقاعي: «ولما بدأ بأعلام السماء؛ لأنها أشهر وأعم تخويفاً وإرهاباً، وذكر منها اثنين هما أشهر ما فيها وأعمها نفعاً، أتبعها أعلام الأرض فقال مكرراً للظرف لمزيد الاعتناء

---

(١) في معنى تكوير الشمس اختلاف قيل: اضمحلت، قاله مجاهد، وقيل: غورّت، وقال ابن عباس: إدخالها في العرش، وغيرها. انظر: البحر المحيط لأبي حيان ٣٠/ ٤٢٣.



بالتهويل: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ أي: «ازيلت من أماكنها»[1]عند الرجفة التي تزلزل الأرض.

وفي هذا اليوم العظيم ترى الجبال قد تغيرت أماكنها كما قال تعالى ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨]، وظاهر الآية يدل على أن الجبال تمر على الرؤوس مر السحاب في السماء، وهذا قبل أن تنسف لقوله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [طه: ١٠٥].

﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ ﴾ من هول هذا اليوم وشدته، حتى النوق - وهي أعز ما لدى الإنسان العربي خاصة إذا كانت من الحوامل - تترك وينسى أمرها[2].

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ حتى حيوانات البحر تجمع في يوم القيامة وتموت[3].

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ ﴾ فإذا ما تم القضاء على دواب البحر جاء دور البحر نفسه لتجمع البحار كلها في بحر واحد.

هذه هي الإمارات الست في الدنيا، أما في الآخرة فهي:

﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾: أي جُمع كل شكل إلى نظيره.

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ تحدث سبحانه وتعالى عن أحوال يوم القيامة في الآخرة بدأ بالقضية التي كان العرب في ذلك الوقت يقومون بها وهي قتل بناتهم فكانت البداية بسؤال البنات عن سبب قتلهن- وهو سبحانه أعلم- وإنما ذكرها لعِظم هذا الأمر وهوله.

---

(١) روح المعاني للآلوسي ٣٠/ ٥١.

(٢) العشار: النوق الحوامل وهي التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، فقيل لها العشار لذلك. انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٨/ ٢٠٨.

(٣) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٨/ ٢٠٨، والبحر المحيط لأبي حيان ٣٠/ ٤٢٤، و روح المعاني للآلوسي ٣٠/ ٥١.



﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ ﴾ ثم بعد تعريفهم بعملهم الشنيع - وهو قتل البنات - يُعطى كل إنسان صحيفة عمله التي سجلت فيها الملائكة ما كانوا يقومون به في الدنيا لتتم محاسبتهم.

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ ﴾ هذا ما يحصل مع الإنسان، أما السماء التي كانت تظلل الإنسان في الدنيا فتزول من موضعها.

﴿ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ ﴾ وفي ذات الوقت تتسعر الجحيم، وتتوقد بشدة استعداداً لتلقي الكفرة الفجرة.

﴿ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ ﴾ أما الجنة فإنها تقترب من أولئك المتقين الذين استعدوا لمثل هذا اليوم العظيم، لاستقبالهم فرحاً بهم.

ومنْ أنعم نظره في آيات المقطع بدءاً من الآية الأولى حتى الآية الرابعة عشرة يجدها تزلزل عقيدة الجاهليين في كل وقت وحين، فتلفت أنظارهم إلى ركيزة إيمانية مهمة وهي اليوم الآخر، فقد جاءت هذه الآيات تعلن أن هذه الحياة الدنيا لها نهاية يكون بعدها الحساب على الأعمال والجزاء في الجنة أو في النار. ففي هذا اليوم الشديد، وما يجري فيه من أهوال ستعلم كل نفس إنسانية ما لها، وما عليها، وكأن هذه الآية رابط وثيق بين ما كان في الدنيا وما يجري في الآخرة.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

«هذه الأوصاف التي وُصف بها يوم القيامة، من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم»[1].

ففي هذه الآيات الزاجرات هدايات واضحات لأصحاب القلوب والألباب ليستعدوا ليوم الحساب الذي يجعل الولدان شيباً.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٠٩٨.



المقطع الثاني: (الآيات١٥-٢٩): حقيقة الوحي

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩ ﴾

تبدأ الآيات الآن بعد ذكر أمارات يوم القيامة، بإثبات نبوة محمد ﷺ قبل الحديث عن صدق نبوته ﷺ بالقسم بما في الكون من دلائل يعرفها الناس، أقسم سبحانه بالكواكب عندما تظهر بعد أن تكون قد اختفت[1]، ثم أقسم سبحانه بالنجوم إذا اختفت مرة أخرى[2].

ثم أقسم سبحانه بالليل إذا أقبل وأظلم، والصبح إذا أضاء وأنار.[3] هذا القسم جاء ليؤكد أن هذا القرآن العظيم أنزله سبحانه وتعالى مع رسوله جبريل عليه السلام- وهو صاحب القوة والشدة- عند الله عزوجل- صاحب العرش-وهو مطاع عند الملائكة يُعرف بينهم بالقوة والأمانة.

أما صاحبكم الذي عرفتم منه الصدق والأمانة، ورجاحة العقل في تحكيم الأمور، فما هو بمجنون كما ادعيتم، ولاهو كاذب كما اخبرتم، فهو ﷺ قد رأى جبريل عليه السلام بين السماء والأرض بالصورة التي خلقه الله عليها، وما محمد ﷺ بمقصر في أمر الدعوة إليه سبحانه كما أمره.

هذا هو محمد ﷺ، وهذا هو القرآن الكريم، لا كما تقولون إنه من أقوال الجان والشياطين، فما بالكم لا تهتدون، مع كل الأدلة والبراهين، فأنتم في غيكم تسيرون، وما هذا القرآن الكريم إلا دعوة للعالمين، للإيمان بهذا الرسول الأمين، لمن أراد منكم السبيل القويم والطريق المستقيم،

---

(١) الخنس: الكواكب السيارة التي ترجع إلى أول البرج، وسميت خُنّساً لتأخرها لأنها الكواكب المحيرة التي ترجع وتستقيم.انظر: غرائب القرآن للنيسابوري ٢٩/ ٣٧.

(٢) الكشاف للزمخشري ٤/ ٧١١.

(٣) روح المعاني للآلوسي ٣٠/ ٥٩.



وما تشاؤونه بإرادتكم، إنما بإرادة ربكم ورب آبائكم الأولين،ومدبر أموركم أجمعين.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* هذه آيات عظام، أقسم الله عليها ؛ لقوة سند القرآن وجلالته وحفظه من كل شيطان رجيم.
* وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بالكريم لكرم أخلاقه، وخصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه، وله مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.
* بيان شرف القرآن العظيم عند الله تعالى، فحريٌّ بالمؤمنين أن يعظموا هذا القرآن العظيم كتاب الحياة والأحياء.
* مدح الله تعالى محمداً ﷺ الذي نزل عليه القرآن ودعا الناس إليه، بأنه أكمل الناس عقلاً وأجزلهم رأياً، وأصدقهم لهجة.
* رسول الله ﷺ هو أمين أهل السماء وأهل الأرض بلّغ رسالة ربه البلاغ المبين، ولم يمت ﷺ حتى أخرج من أمته الأمية علماء ربانيين وأحباراً متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والفهوم.

سورة الانفطار

أولاً: بين يدي السورة:

أ. اسم السورة:

«سميت هذه السورة (سورة الانفطار) في المصاحف ومعظم التفاسير»[1].

ب. فضائل السورة:

روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:(منْ سره أن ينظر إلى يوم القيامة رأي عين، فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾. أحسب أنه قال: وسورة هود)[2].

ج.مكية السورة أو مدنيتها:

السورة مكية بالإجماع[3].

د. عدد آيات السورة:

تسع عشرة آية بلا خلاف[4].

هـ.موضوع السورة الذي تتمحور حوله الآيات:

يدور موضوع السورة حول وصف يوم القيامة والاستدلال بالسنن الكونية (في خلق الإنسان وغيره).

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور:١٥/ ١٦٩.

(٢) جامع الترمذي، كتاب التفسير، باب سورة إذا الشمس كورت، حديث ٣٣٨٩، ٥/ ١٠٤.

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٣١.

(٤) مصاعد النظر للبقاعي ٣/ ١٤٦.

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

المناسبة بين اسم السورة ومحورها ظاهرة لمن تأملها، ذلك لأن انفطار السماء وانشقاقها فيه تحذير «وتخويف لمن تحتها بأنهم يترقبون كل وقت سقوطها، أو سقوط طائفة منها فوقهم، فيكونون بحيث لا يقر لهم قرار»[1].

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ / ١، وختمت بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾/ ١٩» وفي هذا الختام رد العجز على الصدر؛ لأن أول السورة بدئ بالخبر عن بعض أحوال يوم الجزاء وختمت السورة ببعض أحواله»[2].

ولله در الأستاذ سيد قطب الذي ربط بين افتتاحية السورة وخاتمتها برباط أدبي أخّاذ يأخذ بالألباب، قال رحمه الله تعالى: «ويتلاقى هذا الهول الصامت الواجم الجليل في نهاية السورة، مع ذلك الهول المتحرك الهائج المائج في مطلعها. وينحصر الحس بين الهولين.. وكلاهما مذهل مهيب رعيب، وبينهما ذلك العتاب الجليل المخجل المذيب» [3].

٣. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

« لما ختمت التكوير بأنه سبحانه لا يخرج شيء عن مشيئته، وأنه موجد الخلق ومدبرهم وكان من الناس من يعتقد أن هذا العالم هكذا بهذا الوصف لا آخر له: أرحام تدفع، وأرض تبلع، ومن مات فات، وصار إلى الرفات، ولا عود بعد الفوات. افتتح الله سبحانه هذه بما يكون مقدمة لمقصود التي قبلها من أنه لا بد من نقضه لهذا العالم وإخرابه ليحاسب الناس

---

(١) انظر: نظم الدرر للبقاعي:٢١/ ٢٩٩.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور:١٥/ ١٨٥.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب:٦/ ٣٨٥٢.

فيجزي كلاً منهم من المحسن والمسيء بما عمل فقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾»[1].

ثانياً: التفسير الإجمالي لمقاطع السورة:

تتألف السورة الكريمة من أربعة مقاطع:

المقطع الأول: إثبات البعث وأهواله.

المقطع الثاني: تحذير الإنسان من الانهماك في الدنيا.

المقطع الثالث: علة تكذيب الإنسان ليوم الحساب.

المقطع الرابع: ضخامة يوم الحساب.

(١) نظم الدرر للبقاعي: ٢١/ ٢٩٨.

المقطع الأول: (١-٥): إثبات البعث وأهواله

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥ ﴾

منْ أنعم نظره في مطالع سورة الانفطار يدرك أنها جاءت «لنفس الهدف الذي جاءت من أجله مطالع سورة التكوير، وهو لفت الأنظار إلى أن هذه الحياة الدنيا زائلة، وأن ثمة موقفاً رهيباً يعقبها يحاط فيه الإنسان بما عمل من عمل، فإن كان خيراً دخل الجنة، وإن كان شراً دخل النار..

ولكن مطالع سورة الانفطار جاءت بأربعة مشاهد جديدة لنهاية الكون لم تأت في سورة التكوير، وهي انفطار السماء، وانتثار الكواكب، وتفجير البحار، وبعثرة القبور، كما أن قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤ ﴾ من سورة التكوير قد جاء مجملاً، بينما قوله سبحانه: ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥ ﴾ من سورة الانفطار قد جاء مفصلاً»[(١)].

إنه ذكر جديد لعلامات الساعة استعداداً للحظة الحساب، فالسماء تتشقق لنزول الملائكة والكواكب تتساقط- وهذا دلالة على ازالتها-، والبحار تتفجر لتجتمع في بحر واحد، والقبور تقلب ليخرج أصحابها للحساب، هذه هي اللحظات الأخيرة قبل الحساب،وصف دقيق لكل ما سيحدث من حولنا في هذا الكون الفسيح، في ذلك الوقت ستعلم كل نفس ما قدمت في الدنيا من أعمال وما لم تعمل.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* تحذير الناس من يوم دمار الكون حيث تتغير معالمه، وتتبدل أحواله، وهو يوم واقع في المستقبل، محقق الوقوع لا محالة، لذلك يجب الاستعداد لتلك اللحظات الحرجة التي لا يملك الإنسان عند وقوعها شيئاً.

* عند وقوع هذه الحوادث الكونية يكون الناس فريقين اثنين:

---

(١) تفسير سورة الانفطار، جمال عياد ص١١.



الفريق الأول: هم الظالمون الذين رأوا ما قدمت أيديهم من سوء، وأيقنوا بالعذاب الأليم، والخسران المبين.

وأما الفريق الثاني: فهم المتقون الذين قدموا الأعمال الصالحة، وفازوا بالأجر العظيم والنعيم المقيم والسلامة من عذاب الجحيم[1].

المقطع الثاني: (٦-٨) تحذير الإنسان من الانهماك في الدنيا

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾

التفات رائع ونقلة موضوعية دون شعور القارئ بها. يخاطب بها عز وجل عباده بعتاب جميل عن واقعهم، فيقول سبحانه لعبده: بعد أن هيأ الله عز وجل لك كل ما تشتهيه في هذه الدنيا، وبعد أن أنزل لك القرآن الكريم، وبين لك طريق الخير، وطريق الشر، وبعث لك رسولاً من قومك، تعرف أخلاقه. من الذي خدعك؟ وما الذي أغراك؟ وهيأ لك العصيان لربك الذي أكرمك وأعزك؟ فمن كرمه عليك صورتك التي أنت عليها، ومن كرمه خلقك في أجمل هيئة، ليس فيك عيب ولا خلل.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* يخاطب الله تعالى الإنسان بصفة الإنسانية التي تميزه على المخلوقات ؛ ليرعوي ويتذكر أنه إنسان مكرم حريٌّ به أن يستجيب لمنْ أكرمه بالنعم التي لا تعد ولا تحصى.
* إن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم؛ ليحقق العبودية لله تعالى، أيليق بهذا الإنسان بعد هذا الإكرام أن يكفر بنعمة المنعم، أو يجحد إحسان المحسن ؟.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ١٠٩٩.



المقطع الثالث: (٩-١٦) علة تكذيب الإنسان ليوم الحساب

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

ومع كل قدرة الله عز وجل ودلائلها في خلقكم يا بني آدم، فأنتم مغرورون مكذبون بيوم الدين، اليوم الذي هو حق على الجميع، تأتي فيه الملائكة وقد أحصت لكم أعمالكم في الدنيا، سجلت حسناتكم وسيئاتكم، ليتقرر مصيركم في هذا اليوم العظيم، فاليوم كل حسب عمله: إما إلى الجنة وحسن مقام، وإما إلى النار وبئس القرار.

في هذا اليوم المشهود، يأتي كل بما لديه من أعمال؛ ليتم تصفية العباد. فالأبرار الذين آمنوا بالله عز وجل، وصدقوا برسوله الكريم ﷺ فلهم جنات النعيم. أما الفجار الذين كذبوا بالله ورسوله، ففي جهنم وبئس المصير،لا يخرجون منها وبئس القرار، جزاء كذبهم بهذا اليوم المشهود،ذلك اليوم الذي يملك فيه الإنسان فعل شيء لنفسه، ولا لغيره، فالأمر كله بيد الله وحده، المتصرف بالعباد.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* أقام الله تعالى على المكذبين ملائكة كراماً يكتبون أقوالكم وأفعالكم ويعلمونها، فدخل في هذا أفعال القلوب، وأفعال الجوارح، فاللائق بكم أن تكرموهم وتجلوهم.
* جعل الله جزاء الأبرار القائمين بحقوق الله تعالى وحقوق عباده النعيم في القلب والروح والبدن في دار الدنيا، وفي البرزخ في دار القرار.
* أعدّ الله تعالى للفجار العذاب الأليم في دار الدنيا وفي دار البرزخ، وفي دار القرار يعذبون أشد العذاب، ملازمون لهذا العذاب لا ينفكون عنه.

المقطع الرابع: (١٧-١٩) ضخامة يوم الحساب.

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

من تدبّر آيات هذا المقطع يجد فيها تهويلاً لشأن يوم القيامة والحساب والجزاء، أي أن شأن ذلك اليوم عظيم أيها الإنسان لا تستطيع إدراكه، ولذلك أنت تتهاون في الاستعداد له، في ذلك اليوم الشديد لا تستطيع نفس أن تنفع نفساً بشيء، ولا أن تدفع عنها شيئاً حتى الشفاعة التي يرجوها الخلق يومئذ ممن له الشفاعة فإنها لا تكون إلاّ بإذن الله ؛لأن الأمر في ذلك اليوم لله وحده، لا لغيره لا في الظاهر ولا في الباطن، على خلاف ما في الدنيا من توهُّم أن لغيره تعالى أمراً في الظاهر.

الهدايات المستنبطة من هذا المقطع:

* يوم القيامة يوم عصيب،ولذلك جاء التعجيب من ذلك اليوم، إذ النفس التي كانت في الدنيا تشفع وتنفع نفسها ومن استجار بصاحبها، تجد يوم الدين يختلف تماماً عن الدنيا من جهتين هما:

الجهة الأولى: يوم لا تجد نفس ـ أي نفس ـ لنفس شيئاً البتة فينقطع الشفيع والمعين.

وأما الجهة الثانية: فإن الأمر في ذلك اليوم لله وحده لا شريك له.



سورة المطففين

أولاً: بين يدي السورة.

أ. اسم السورة:

اشتهرت هذه السورة باسم (سورة المطففين)، ولم يذكرها السيوطي في عداد السور التي لها أكثر من اسم [(1)]. وسماها البخاري في كتاب التفسير: (سورة ويل للمطففين)[(2)]، وأما البقاعي فسماها سورة (التطفيف)[(3)]. قال المهايمي: «سميت به دلالة على أن من أخلّ بأدنى حقوق الخلق، استحق أعظم ويل من الحق. فكيف من أخلّ بأعظم حقوق الحق، من الإيمان به وبآياته ورسله؟»[(4)].

ب. مكية السورة أو مدنيتها:

اختلف العلماء في كون هذه السورة مكية أو مدنية، أو نزلت بين مكة والمدينة، على أقوال ثلاثة ذكرها ابن الجوزي،ولم يرجح بينها، قال رحمه الله تعالى: «وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها مكية، قاله ابن مسعود، والضحاك،ويحيى بن سلام.

والثاني: مدنية، قاله ابن عباس، والحسن،وعكرمة، وقتادة، ومقاتل، إلاّ أن ابن عباس وقتادة قالا: فيها ثمان آيات مكية، من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ ﴾ إلى آخرها. وقال مقاتل:فيها آية مكية، وهي قوله تعالى: ﴿ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

والثالث: أنها نزلت بين مكة والمدينة، قاله جابر بن زيد وابن السائب، وذكر هبة الله ابن سلاّمة المفسر أنها نزلت في الهجرة بين مكة والمدينة، نصفها يقارب مكة، ونصفها يقارب

---

(1) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٣٩.

(2) صحيح البخاري(مع الفتح) ٨/ ٨٨٨.

(3) نظم الدرر للبقاعي ٢١/ ٣١٠، ومصاعد النظر ٣/ ١٦٧.

(4) تفسير القاسمي ٩/ ٤٢٧.

المدينة»[1].

قال الزركشي: «اختلفوا في ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ﴾ فقال ابن عباس: مدنية. وقال عطاء: هي آخر ما نزل بمكة»[2] وقال السيوطي: «قيل:إنها مكية، لذكر الأساطير فيها، وقيل: مدنية لأن أهل المدينة كانوا أشد الناس فساداً في الكيل. وقال قوم نزلت بين مكة والمدينة. قلت: أخرج النسائي وغيره بسند صحيح عن ابن عباس، قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ﴾ فأحسنوا الكيل»[3].

وجزم ابن كثير بمدنية السورة[4].

وأما ابن عطية فرجح مكية السورة، قال: «وهي مكية في قول جماعة من المفسرين واحتجوا لذكر الأساطير...»[5].

ولابن عاشور كلام حسن في نزول السورة بين مكة والمدينة أرى من المناسب والمفيد نقله هنا. قال رحمه الله تعالى: «... ومن اللطائف أن تكون نزلت بين مكة والمدينة ؛لأن التطفيف كان فاشياً في البلدين.وقد حصل من اختلافهم أنها:إما آخر ما أنزل مكة، وإما أول ما أنزل بالمدينة، والقول بأنها نزلت بين مكة والمدينة قول حسن...وما أنسب هذا المقصد بأن تكون نزلت بين مكة والمدينة لتطهير المدينة من فساد المعاملات التجارية قبل أن يدخل إليها النبي ﷺ لئلا يشهد فيها منكراً عاماً فإن الكيل والوزن لا يخلو وقت عن التعامل بهما في الأسواق وفي المبادلات»[6].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٩/ ٥١.
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ١٩٤.
(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٣٩.
(٤) تفسير ابن كثير٤/ ٤٨٣.
(٥) المحرر الوجيز لابن عطية ١٦/ ٢٤٩.
(٦) تفسيرالتحرير والتنوير لابن عاشور ١٥/ ١٨٨،١٨٧.

ولأجل هذا الاختلاف أطنبت في عرض أقوال العلماء في زمن نزول السورة على الرغم من ميل النفس إلى القول بمكيتها، لأن أسلوبها لا يختلف عن أسلوب السور المكية. والله تعالى أعلم.

ج.عدد آيات السورة:

«آياتها: ست وثلاثون وفاقاً، ولا اختلاف في تفصيلها...»[1].

د. موضوع السورة الذي تتمحور حوله الآيات:

يدور موضوع هذه السورة الكريمة حول الجرائم الاقتصادية ورصد الله للاعبين باقتصاد المسلمين وعقابهم.

هـ. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

من تأمل اسم السورة ومحورها أدرك أنها متآخية ، ذلك لأن آيات السورة عرضت للمطففين في استهلالها،ووسمتهم بالفجار، وأن صحف أعمالهم في أسفل سافلين، ويقابلهم الأبرار وأن صحف أعمالهم في أعلى عليين،ثم ما سيكون بين الفريقين يوم الدين.

٢.المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت السورة الكريمة بإعلان الحرب على المطففين الذين لم يوقنوا بيوم الدين وسخروا من المؤمنين، فناسب في ختام السورة أن تكون آية ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ «فذلك لما حُكي من اعتداء المشركين على المؤمنين وما ترتب عليه من الجزاء يوم القيامة، فالمعنى: فقد جوزي الكفار بما كانوا يفعلون... وفي هذه الجملة حسن براعة المقطع ؛ لأنها جامع لما اشتملت عليه السورة»[2].

---

(١) مصاعد النظر للبقاعي ٣/ ١٦٨.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٥/ ٢١٦،٢١٥.



٠٣ المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

قال البقاعي في نظم الدرر: « لما ختم الانفطار بانقطاع الأسباب وانحسام الأنساب يوم الحساب،وأبلغ في التهديد بيوم الدين، وأنه لا أمر لأحد معه، وذكر الأشقياء والسعداء،وكان أعظم ما يدور بين العباد المقادير، وكانت المعصية بالبخس فيها من أخس المعاصي وأدناها، حذر من الخيانة فيها، وذكر ما أعد لأهلها وجمع إليهم كل من اتصف بوصفهم..فقال: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ﴾...»[(١)].

والحق أن سورة المطففين تنتظم مع أخواتها سور الانفطار والتكوير وعبس برباط ناظم إذ « السور الأربع لما كانت في صفة حال يوم القيامة، ذكرت على ترتيب ما يقع فيه، فغالب ما وقع في التكوير، وجميع ما وقع في الانفطار يقع في صدر يوم القيامة، ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل ومقاساة العرق والأهوال فذكره في هذه السورة ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾...»[(٢)].

ويمكن أن يقال إن «هذه السورة كأنها إيضاح لما قبلها، أو متفرعة عنها، وتفصيل لإجمالها كما أن السورة السابقة مشابهة لسورة التكوير، وسورة التكوير متناسقة مع سورة عبس. فسورة المطففين والانفطار والتكوير وعبس كأنها سورة واحدة من حيث تناسقها وتكاملها»[(٣)].

ثانياً: التفسير الإجمالي لمقاطع السورة:

تتألف هذه السورة الكريمة من أربعة مقاطع رئيسة هي:

المقطع الأول: إعلان الحرب على المطففين.

المقطع الثاني: وعيد الفجار بالعقاب الأليم.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٢١/ ٣١٠.

(٢) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي١٥٨.

(٣) الجواهر لطنطاوي جوهري م١٣ ج٢٥ ص٩١.

المقطع الثالث: وعد الأبرار بالثواب العظيم.

المقطع الرابع: إكرام المؤمنين، وإيلام المجرمين يوم الدين.

المقطع الأول: (الآيات١-٦) : إعلان الحرب على المطففين

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

تبدأ هذه الآيات الكريمات بكلمة ﴿ وَيْلٌ ﴾ التي تقطع نياط قلوب المطففين الذين «إذا كان لهم عند الناس حق في شيء يكال أو يوزن، وأرادوا أخذه منهم لا يأخذونه إلاّ تاماً كاملاً... وإذا كان للناس حق عندهم في مكيل أو موزون أعطوهم ذلك الحق مع النقص والخسار... وهذا العمل لا يصدر إلاّ عن شخص لا يظن أنه يبعث يوم القيامة ويحاسب على عمله. ولو ظنّ البعث والحساب لما طفف الكيل ولا بخس الميزان. وكيف يصر على إيذاء الناس والغض من حقهم من يظن بعض الظن أنه سيقوم بين يدي رب العالمين، وخالق الخلق أجمعين،القاهر الجبار،ليحاسب على النقير والقطمير»[1].

يقول العلامة عبد الله كنون: «وهذا الوعيد إن كان نزل في هذا النوع من التطفيف الحسي للمكيال والميزان فهو يشمل سائر الأنواع الأخرى كتطفيف الأجير في العمل وإسرافه فيما يطلب من أُجرة،والعكس وهو مطالبةُ الأجير ببذل مجهوده وعدمُ توفيته أُجرته، وكبخس الأثمان عند الشراء ورفعها عند البيع، قال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام فيما خاطب به قومه: ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [هود: ٨٥]، كما يشمل التطفيف المعنوي بتنقُّص مزايا الناس وشعارات الآخرين، وتزيُّد المتنقِّص فيما له من ذلك، فقانون الإسلام في هذا ونحوه هو قوله

(١) انظر: تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده، ص٣٢.



تعالى: ﴿ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٩]»[١]. فالآيات الكريمات لم تفرق في هذه المعاملات المالية بين الناس ؛لأن قانون الإسلام يقوم على العدل وإعطاء كل ذي حق حقه، ولو كان حقيراً لا قيمة له في نظر بعض الناس.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* التطفيف سرقة لأموال الناس، وعدم إنصاف لهم منهم، وإذا كان هذا وعيداً على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان فالذي يأخذ أموالهم قهراً وسرقة، أولى بهذا الوعيد من المطففين.
* دلت آيات المقطع على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في عموم الحجج والمقالات ' فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ما له من الحجج، فيجب عليه أيضاً أن يبين ما لخصمه من الحجة التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الوضع يُعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير.
* إن أفعال المطففين تكشف عن عدم إيمانهم باليوم الآخر الذي يكون فيه السؤال عن النقير والقطمير، فحريٌّ بالمسلم أن يستعد لذلك اليوم العظيم.[٢]

(١) تفسير سور المفصل، عبد الله كنون، ص٣٣٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص١١٠٠.

المقطع الثاني: (الآيات:١٧،٧) وعيد الفجار بالعقاب الأليم

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أنه لا يقيم على التطفيف إلاّ منْ ينكر ما أوعد الله من العرض والحساب وعذاب الكفار والعصاة، زجرهم بأداة الردع (كلا) للكف عما هم فيه ،وذكر أن الفجار قد أُعد لهم كتابٌ أُحصيت فيه جميع أعمالهم وأعمال منْ هم على شاكلتهم ليحاسبوا عليها،وأن هذا الكتاب في قعر جهنم بدليل مقابلته بعلّيين، فويل للمكذبين بيوم الجزاء، وما يكذب به إلاّ كل من تجاوز حدود الدين...وإذا تليت عليه آيات القرآن قالوا: ما هي إلاّ أقاصيص الأولين نقلها محمد ﷺ عن السابقين وليست وحياً كما يدّعي.

والحق إن الذي جرأهم على ذلك هي أفعالهم القبيحة التي أعمتهم حتى صاروا لا يميزون بين الأسطورة والحجة الدامغة.

ثم رد عليهم فرية كانوا يقولونها فأبان لهم أنهم كاذبون، وأنهم سيطردون من رحمة الله ولا ينالون رضاه، ثم يؤمر بهم إلى النار ويقال لهم: هذا الذي كنتم به تكذبون..[١]

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* إن الله تعالى أعدّ للفجار من الكفرة والمنافقين والفاسقين كتاباً مذكور فيه أعمالهم الخبيثة في مكان ضيق عقوبة لهم.
* المكذبون بيوم الدين مكذبون بالقرآن الكريم على الرغم من الأدلة الناطقة، والبراهين الساطعة في الآيات الكريمات على أن يوم الدين حق لا مرية فيه.

---

(١) انظر: تفسير المراغي٣٠/ ٧٤،٧٧، وتفسير سور المفصل لكنون ص٣٣٦،٣٣٥.



* المكذبون بيوم الدين ينالون ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم،وعذاب التوبيخ واللوم، وعذاب الحجاب عن رب العالمين ؛ المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار.

* دلّ مفهوم الآية على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة في الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويبتهجون بخطابه، ويفرحون بقربه، كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله ﷺ.

* في هذه الآيات التحذير من الذنوب فإنها ترين على القلب وتغطيه شيئاً فشيئاً حتى ينطمس نوره وتموت بصيرته، فتنقلب عليه الحقائق فيرى الباطل حقاً، والحق باطلاً. وهذه من أعظم عقوبات الذنوب.[١]

المقطع الثالث: (الآيات:١٨-٢٨) وعد الأبرار بالثواب العظيم

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول العلامة عبد الله كنون في تفسير هذه الآيات: «هذا بيان لمحلّ كتاب الأبرار وما أعدّ الله لهم من النعيم المقيم، بعدما سبق من ذكر محل كتاب الفجار وما أُعدّ لهم من ضدّ ذلك، جرياً على الطريقة القرآنية المعهودة من الجمع بين الترغيب والترهيب والبشارة والنذارة، توخياً للتأثير في نفوس البشر الذين تختلف طبائعهم فتختلف انفعالاتهم تبعاً لذلك»[٢].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص١١٠٠.

(٢) تفسير سور المفصل لكنون ص ٣٣٧.



وبعد أن ذكر سبحانه حال المطففين والفجار، وبين منزلتهم عند الله تعالى يوم القيامة، أتبعه ذكر حال الأبرار الذين آمنوا بربهم وصدقوا رسولهم ﷺ فيما جاء به عن خالقهم سبحانه وعملوا الخير في الحياة الدنيا.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* التنويه بالأبرار إذ جعل كتابهم في عليين يشهده المقربون من الملائكة الكرام وأرواح الأنبياء والصديقين والشهداء.
* الأبرار في نعيم دائم يجمع نعيم القلب والروح والبدن على السرر المزينة يتنعمون بما أعد الله لهم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.
* إن وجوه الأبرار يوم القيامة تكتسب نوراً وحسناً وبهجة جزاء إيمانهم، وأما شرابهم فهو الرحيق المختوم بالمسك الأذفر.
* حريٌّ بالمؤمنين أن يتنافسوا بالأعمال الصالحة، ويتسابقوا في المبادرة إلى النعيم المقيم بالأعمال الموصلة إليه، فهذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفس، وأحرى ما تزاحمت للوصول إليه فحول الرجال.

المقطع الرابع: (الآيات ٢٩-٣٦) إكرام المؤمنين، وإيلام المجرمين يوم الدين

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه النعيم الذي هيأه للذين آمنوا به وبرسوله ﷺ، وعملوا بما كلفهم به من أعمال البر، يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين

يستهزئون بهم ويحتقرونهم،وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم،وإذا رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم انقلبوا إليها فاكهين مسرورين.

أما يوم القيامة فإن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ في مقابلة ما ضحك بهم أولئك، ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ إلى الله عز وجل في مقابلة منْ زعم فيهم أنهم ضالون، ليسوا بضالين بل هم من أولياء الله المقربين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته...فهل جوزي الكفار المجرمون على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا،يعني قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله..[١]

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* المجرمون في الحياة الدنيا يتغامزون ويسخرون من المؤمنين صباحاً ومساء، ويرجعون إلى أهليهم بنشوة وسرور كونهم سخروا من المؤمنين، وهؤلاء المجرمون كأنهم جاءهم كتاب وعهد من الله أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون افتراء على الله تعالى، وتجرؤاً على القول عليه بلا علم.
* المجرمون في الآخرة ينالون جزاءهم من جنس عملهم يوم القيامة.

أما المؤمنون فإنهم يوم القيامة في غاية الراحة والطمأنينة ينظرون إلى ما أعدّ الله لهم من النعيم، وينظرون في وجهه الكريم، ويضحكون من المجرمين عدلاً من ا لله وحكمة، والله عليم حكيم.

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٨٧.



سورة الانشقاق

بين يدي هذه السورة:

تسمى هذه السورة بـ (سورة إذا السماء انشقت)، ويقال لها سورة الانشقاق، وسورة الشفق[1].

وهي سورة مكية بالاتفاق. وهي السورة الثالثة والثمانون في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة الانفطار وقبل سورة الروم، وعدد آياتها خمساً وعشرين آية عند أهل العدد بالمدينة ومكة والكوفة، وعدها أهل البصرة والشام من أهل العدد للآيات القرآنية ثلاثاً وعشرين آية[2]، وعدها العادون من أهل حمص أربعاً وعشرين آية[3]. وسبب الاختلاف في العدد هو الاختلاف في موضع الآيات من السورة الكريمة على النحو الآتي:

أولاً: الموضع الأول والثاني لفظي (كادح) و(كدحاً) من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾(الانشقاق:٦) عدهما الحمصي وتركهما غيره.

ثانياً: الموضع الثالث لفظ (فملاقيه) في قوله تعالى: ﴿كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾(الآية/ ٦) تركه الحمصي وعده غيره.

وخلاصة هذه المواضع الثلاثة أن الحمصي يعد (كادح وكدحاً) ويترك (فملاقيه)، والباقون على عكسه، فيتركون عد (كادح وكدحاً) ويعدون (فملاقيه).

ثالثاً: الموضع الرابع لفظ (بيمينه) في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾ عدّه الحجازيون والكوفيون وتركه الشاميون والبصريون.

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، ٨/ ٦٩٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣٠/ ٢١٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣٠/ ٢١٧، النظم الفني في القرآن ٣٤٥.

(٣) مرشد الخلان، عبد الرزاق موسى ٢٠٣.



رابعاً: الموضع الخامس لفظ (ظهره) في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الآية: ١٠] عده الحجازيون والكوفيون وتركه البصريون والشاميون[١].

ومحور هذه السورة الكريمة: (الساعة وما يتصل بها)، حيث تحدثت السورة الكريمة عن بعض الأهوال التي تحدث في ذلك اليوم، إما على هيئة مقدمات أو مآلات، ثم تحدثت عن حال الإنسان السعيد الذي يلقى كتابه بيمينه، والشقي الذي يلقى كتابه وراء ظهره. عياذاً بالله تعالى. ثم تبع الحديث عن أحوال المخاطبين عموماً، وتبع ذلك بيان مآل الكفار ومآل المؤمنين.

والمناسبة بين اسم السورة ومحورها بينة جداً، إذ أن الانشقاق الحاصل للسماء ليس إلا من المقدمات الممهدات للساعة. كما تظهر المناسبة واضحة في افتتاح هذه السورة الكريمة حيث افتتحت بتمهيد فيه بيان بعض أشراط الساعة، والتي سيكون من نهاية أمرها بيان فئات الناس بين مؤمن وكافر. وهذا من أبدع وجوه المناسبات.

وكما ظهرت هذه الوجوه من المناسبات بين أجزاء السورة، فإن السورة نفسها متناسبة الموقع مع ما قبلها وما بعدها، ذلك أن السور المتتالية كلها في وصف أهوال يوم القيامة والوعيد به، وهذه مناسبة موضوعية واضحة وبارزة[٢].

وقال الآلوسي في بيان وجه ترتيب هذه السور: إن في سورة الانفطار التعريف بالحفظة الكاتبين، وفي سورة المطففين مقر كتبهم، وفي سورة الانشقاق عرض الكتب يوم القيامة[٣]. وهو وجه لطيف، والنكات لا تتزاحم.

وتنقسم هذه السورة الكريمة إلى مقطعين اثنين واضحين: فالأول منهما ينتهي بالآية الخامسة عشرة والثاني إلى نهاية السورة.

---

(١) مرشد الخلان، ٢٠٣-٢٠٤، بشير اليسر، عبد الفتاح القاضي ١٧٧ وما بعدها.

(٢) تناسق الدرر، السيوطي١٣٤ وما بعدها، جواهر البيان، الغماري ١٤.

(٣) روح المعاني، الآلوسي ٣٠/ ٧٨.



والمقطع الأول ينقسم إلى فقرتين تنتهي الأولى منهما إلى نهاية الآية الخامسة والثانية إلى نهاية الآية الخامسة عشر[1].

من أهوال القيامة

التفسير:

قال تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥ ﴾ [الانشقاق: ١-٥].

المفردات:

أذنت: استمعت لأمر ربها وامتثلت له.

حقت: حق لها أن تمتثل.

مدت: اتسعت رقعتها، أو بسطت وسويت وأصبحت على سوية واحدة، لا ارتفاع فيها ولا انخفاض.

تخلت: لم يبق في باطنها شيء.

هذا المقطع من هذه السورة يتحدث عن بعض الأهوال التي تحدث عندما يريد الله تعالى إفناء هذا العالم، وإعلان قيام الساعة، لمحاسبة المكلفين على ما قدموا، ولظهور أمر الله تعالى.

فالذي يحدث وتحدثت عنه الآية الكريمة انشقاق السماء وتصدعها وتفتتها، بحيث يظهر من هذا التفتت غمام يسد الأفق كما قال الله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ ﴾ [الفرقان: ٢٥].

وعندما يأتي أمر الله تعالى للسماء بالانشقاق والتصدع، فإنها تستجيب لأمر الله وتنقاد له

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى ١١/ ٦٤٣٧.



حق الاستجابة وحق الانقياد، فما هي إلا مخلوق من مخلوقاته تعالى، ليس له من الأمر شيء.

ومن عظيم الأهوال كما هو ظاهر في هذا السياق أن الله تعالى بدأ بالعالم العلوي الذي هو أشرف وأعظم من العالم السفلي، وآذن بخرابه وتدميره، ثم ثنى سبحانه بالعالم الأرضي (السفلي) فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ ﴾ أي بسطت ومطت، فزيد في سعتها جداً بعد أن تمهدت، فصارت دكاً فزالت جبالها وآكامها وتلالها، فلا يرى الرائي منها عوجاً ولا أمتاً[١]، وعندئذ يصبح الذي في داخلها خارجاً كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾ أي قذفته إلى أعلاها من داخلها وتخلت عنه، فيصبح هو وشأنه مع هذه الأهوال الحاصلة والمرتقب منها.

وقد صور النبي الكريم ﷺ هذه الحالة، حيث جاء عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً)[٢].

فيا له من هول عجيب تتخلى الأرض فيه عما في بطنها من الأحمال. والأرض عندما يأمرها الله تعالى بالامتداد فإنها تفعل هذا طائعة مختارة، وحق لها ذلك فما هي إلا مخلوق من مخلوقاته سبحانه التي لا تخرج عن أوامره[٣].

---

(١) جاء في الآية الكريمة (وإذا الأرض مدت) بالبناء للمفعول لسببين اثنين.
الأول: بيان عدم الحاجة إلى ذكر الفاعل لأنه ليس إلا الله تعالى وحده حيث لن يقدر على هذا أحد سواه فكأنه معلوم لكل أحد ولا يحتاج إلى ذكر. والثاني: إرادة توجيه النظر إلى الحدث دون اعتناء بالفاعل من هو.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة ٢/ ٧٠١ حديث رقم ١٠١٣.

(٣) الظاهر من هذه الآيات أن جواب الشرط محذوف لظهوره وانكشافه بما دل عليه مقام الآيات، والتقدير ليحاسبنّ كل أحد على كدحه كله، فليثوّبن الكفار ما كانوا يفعلون، وليجازينّ أهل الإسلام بما كانوا يعملون. اهـ نظم الدرر، البقاعي ٢١/ ٣٣٧.

قال أبو جعفر بن الزبير:لما تقدم في الانفطار التعريف بالحفظة وإحصائهم على العباد كتبهم، وعاد الكلام إلى ما يكتب على البر والفاجر واستقرار ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾[المطففين:١٨] وقوله﴿ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾[المطففين:٧]، أتبع لك بذكر التعريف بآخذ هذه الكتب في القيامة عند العرض، وأن أخذها بالأيمان عنوان السعادة، وأخذها وراء الظهر عنوان الشقاء. إذ قد تقدم في السورتين قبل ذكر الكتب واستقرارها بحسب اختلاف مضمناتها، فمنها ما هو في عليين، ومنها ما هو في سجين إلى يوم العرض، فيؤتى كلٌ كتابه، فآخذ بيمينه وهو عنوان السعادة، وآخذ من وراء ظهره، وهو عنوان هلاكه. فتحصل الأخبار بهذه الكتب ابتداء واستقراراً وتفريقاً يوم العرض، وافتتحت السورة بذكر انشقاق السماء ومد الأرض وإلقائها ما فيها وتخليها تعريفاً بهذا اليوم العظيم بما يتذكر به من سبقت سعادته[1].

ولما كان الأمر على ذلك نودي الإنسان بأداة البعيد تنبيها على أن معاصيه أبعدته عن القرب من الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ كادح: ساع بجد، أي: يا أيها الإنسان المجد في سعيه، النشيط في عمله السريع في تحصيل معاشه وكسبه: إنك تكدح في طلب الدنيا، حتى استبطأت حركة الزمن، وكم تمنيت نهاية اليوم أو الشهر أو العام لتحصل على طلبك، أيها الإنسان ما هذا الجهل الذي أنت فيه ؟

ألم تعلم بأن هذا كله من عمرك، وأنت تكدح صائراً إلى ربك، وتجدك واصلاً إلى نهايتك وموتك، قال الشاعر:

يسر المرء ما ذهب الليالي وكان ذهابهن له ذهابا[2]

فأنت تجدّ في السير إلى ربك، فتلاقي عملك هناك واضحاً لا خفاء فيه، ولا ينقص منه

---

(١) نظم الدرر، ٢١/ ٣٣٧ وما بعدها.

(٢) الشعر: لم أتمكن من معرفة القائل وهو موجود في المفصل في صنعة الإعراب دون نسبة١/ ٤٢٩.

شيء، إنها لحظة الحقيقة حين يتكشف للإنسان كل شيء عمله صغيراً أو كبيراً، قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحاقة: ١٨]، إنك أيها الإنسان ملاق ربك فاجتهد في تحصيل ما يرضيه[١].

أحوال الإنسان عندما يلاقي ربه

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الانشقاق ٧-١٥].

المفردات:

أوتي كتابه وراء ظهره: تجعل يده من وراء ظهره فيأخذ بها كتابه.

يدعو ثبوراً: حسرة وندامة بقوله: واثبوراه واحسرتاه!!

لن يحور: لن يرجع إلى الله تعالى.

تتحدث هذه الآيات الكريمات عن أحوال الإنسان، بعد ما سبق بيان كدحه ومشقته في تحصيل أغيار هذه الحياة الدنيا، وأنه لا محالة راجع إلى ربه ليلقى جزاءه، تتحدث الآيات عن أن الإنسان في يوم القيامة ذلك اليوم الذي يلاقي فيه ربه منقسم إلى قسمين: السعداء والأشقياء.

فأما السعيد من هؤلاء فهو ذلك الإنسان الذي رضي الله تعالى عنه وأرضاه، وعمل في دنياه بما يحقق سعادته في الآخرة، فهو في ذلك المشهد يلقى كتابه الذي فيه صحائف أعماله بيمينه،

(١) ينظر في تفسير هذه الآيات: التفسير الواضح، محمود حجازي ٣/ ٨٤٤، ونظم الدرر٢١/ ٣٣٨، والتحرير والتنوير٣٠/ ٢٢١، والأساس في التفسير١١/ ٦٤٣٩، والتفسير الوسيط ١٥/ ٤٧٠ وما بعدها.

وتلك علامة السعادة، وبيان الفوز، وهذه هي الحالة الأولى المميزة لأهل السعادة كما بينتها الآيات الكريمة، وأما الحالة الثانية فهي أن هذا المتلقي كتابه بيمينه سوف يحاسب حساباً يسيراً.

جاء عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (ليس أحد يحاسب إلا هلك، قالت: قلت: يا رسول الله جعلني الله فداك أليس يقول الله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الانشقاق:٨]؟ قال:ذاكِ العرض، يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك)[1] ومعنى المناقشة في هذا الحديث: أن يقال للمسؤول: عملت كذا وعملت كذا ولم فعلت كذا؟ ألم يأتك رسلي ؟ ألم تأتك كتبي ؟.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: (اللهم حاسبني حساباً يسيراً) فلما انصرف قلت: يا نبي الله، ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه، إنه من نوقش الحساب يومئذ يا عائشة هلك، وكل ما يصيب المؤمن يكفر الله عز وجل به عنه حتى الشوكة تشوكه)[2].

وقد ورد في شأن من يلقى كتابه بيمينه ما يعد تفصيلا أكثر من هذا في سورة الحاقة حيث جاء فيها قوله سبحانه: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤].

وأما الحالة الثالثة التي ذكرتها هذه السورة لهؤلاء السعداء فهي أن الواحد منهم﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الانشقاق:٩] فرحاً بما لاقاه بعد معاناته وكده وكدحه في الحياة الدنيا بما هيأ له ذلك المصير الذي جعله مسروراً غاية السرور.

والخلاصة أن هذه الآيات ذكرت للسعداء ثلاثة أحوال هي على التوالي:

---

(١) الجامع الصحيح، البخاري ٨/ ٦٩٧ مع الفتح حديث رقم ٤٩٣٩.

(٢) مسند أحمد٦/ ٤٨، وهو عند الحاكم٤/ ٢٤٩ وصححه ووافقه الذهبي.



أولا: يلقون كتبهم بأيمانهم.

ثانيا: يحاسبون حسابا يسيراً.

ثالثا: أنهم ينقلبون إلى أهليهم مسرورين.

ويا له من جزاء يستحق من أجله إفناء الأعمار.

هذا هو حال الفئة المؤمنة السعيدة الفائزة، وأما ما يقابل هذه الفئة فهم الأشقياء أهل النار والعياذ بالله، وقد فصل الله تعالى أحوالهم هنا بما يحفز كل نفس مؤمنة عاقلة أن لا تسلك مسالكهم وتسير سيرهم﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ ﴾ [الانشقاق:١٠]، هذه صورة جديدة مضافة لما قاله الله تعالى في سورة الحاقة ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾ [الحاقة: ٢٥].

فهذا بيان أن أيديهم تلتف وراءهم ليتلقوا كتبهم بها، فمن كان هذا حاله ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ ﴾، ينادي بالويل والثبور وعجائب الأمور على ما فرط في حياته، وشقي فيها، لكن بالمعاصي والشهوات، والبعد عن رب الأرض والسماوات، هذا التعيس الهالك الذي قضى حياته في الأرض كدحاً، وقطع طريقه إلى ربه كدحاً – ولكن في المعصية والإثم والضلال – يعرف نهايته ويواجه مصيره، ويدرك أنه العناء الطويل بلا توقف ولا انتهاء فيدعو ﴿ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر ٥٠]، وماذا ينفع الكافر هذا الدعاء. إن الكافر حين ينادي الهلاك لينقذه مما هو مقدم عليه من الشقاء، وحين يدعو بالهلاك لينجو به يكون في الموقف الذي ليس بعده ما يتقيه، حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه، وهذا المعنى صوره المتنبي أبلغ تصوير عندما قال:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن أمانيا[1]

إن هذه هي التعاسة التي ليس بعدها تعاسة، والشقاء الذي ليس بعده شقاء[2]، ثم إن مآله ومصيره أن ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ أي يدخل جهنم ويقاسي حرها الشديد الذي تنفطر منه الأكباد،

---

(١) ديوان المتنبي بشرح العكبري٤/ ٢٨١.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٦٧ وما بعدها، التفسير الوسيط١٥/ ٤٧٤.

وحسب الظالمين منها قوله تعالى ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

ثم بين سبحانه فيما بعد السبب الذي أوبق هذا الظالم لنفسه وجعل مصيره إلى جهنم فذكر سبحانه عنه: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الانشقاق:١٣]، أي كان فرحا بطراً مترفاً لا يخطر بباله أمور الآخرة، ولا يتفكر في العواقب، ولم يخطر بباله أن يتفكر بحاله ومآله وإلى ماذا سيصير[1].

ثم بين سبحانه أنه كان يرتكب حماقة أخرى أكبر من هذه ألا وهي إنكاره لأمور الآخرة وكفره بالله تعالى، مع ظنه أنه لن يرجع إلي﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانشقاق: ١٤]، أعتقد أنه لا بعث ولا نشور ولا يوم آخر ولا معاد، فعاد كافراً بالله وبقدرته غافلاً عما اتصف به سبحانه وتعالى بدقائق الأمور. ثم بين سبحانه وتعالى أنه به عليم خبير لا تخفى عليه خافية من أحواله فقال سبحانه:

﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الانشقاق:١٥)، مسجلاً عليه أعماله التي أوبقته وقذفت به بشرورها إلى وادٍ سحيق في نار جهنم عياذاً بالله تعالى.

أحوال الإنسان في هذه الحياة

قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونِۭ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الانشقاق: ١٥-٢٥].

معاني المفردات:

الشفق: الحمرة بعد مغيب الشمس حين تأتي صلاة العشاء الآخرة.

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٨١.

وسق: ضم وجمع.

اتسق: امتلأ واستوى، وذلك ليالي البدر.

طبقاً عن طبق: حالاً بعد حال.

يوعون: يجمعون من الكفر والتكذيب أو يضمرون من عداوة رسول الله ﷺ.

غير ممنون: غير مقطوع.

بعد تلك الجولة الكبيرة ذات الأثر العميق التي طوفت بنا في أقسام الناس، عندما يعرضون على الله تعالى، فتظهر نتائجهم وفق ما قدموا من العمل، عاد بنا السياق إلى لمحات من هذا الكون الذي يعيش فيه الإنسان وهو غافل عن تلك اللمحات، وما تذكر به من التدبير والتقدير، مبيناً إقسام الله تعالى ببعض مخلوقاته، على أن مشيئته نافذة، وقضاؤه لا يرد، وحكمه لا يتخلف[1]، فقال سبحانه: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ ﴾ وهذه الصيغة من صيغ توكيد القسم، ﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ ﴾، أي أقسم بالحمرة التي تظهر في الأفق الغربي، بعد غروب الشمس، وبالليل وما يضمه تحت جناحه من مخلوقات وعجائب، لا يعلمها إلا الله تعالى، وبالقمر إذا ما اجتمع نوره، واكتمل ضياؤه وصار بدراً متلألئاً. وفي القسم بهذه الأشياء دليل واضح على قدرة الله تعالى الباهرة، لأن هذه الأشياء تتغير من حال إلى حال، ومن هيئة إلى هيئة، فالشفق حالة تأتي في أعقاب غروب الشمس، والليل يأتي بعد النهار، والقمر يكتمل بعد نقصان.. وكل هذه الحالات دليل على قدرة الله تعالى[2].

وكل هذا تمهيد لما يأتي بعده من اختلاف أحوال الناس من حال إلى حال كما سيبين لاحقاً.

وقد يجوز أن هذا القسم بيان لإقسام الله تعالى بجميع مخلوقاته لاشتمال الليل كله عليها

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٦٧ وما بعدها، التفسير الوسيط ١٥/ ٤٧٤.

(٢) التفسير الوسيط ١٥/ ٤٧٦.



كما قال سبحانه في موقع آخر: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[1] [الحاقة:٣٨-٣٩] وهذا النوع من القسم لا يجوز إلا من الله تعالى رب السماوات والأرض وما بينهما ورب كل شيء، فله سبحانه أن يقسم بما شاء من الأشياء. وأما عباده فلا يحل لهم القسم إلا بأسمائه تعالى وصفاته، وقد بين الرسول الكريم ﷺ ذلك بقوله: (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)[2]. والحديث الآخر: (من حلف بغير الله فقد أشرك)[3].

ثم بين سبحانه بيان القسم السابق بقوله: ﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ ﴾ [الانشقاق:١٩] والمراد أيها المكلفون لتصيرن من حال إلى حال من أطوار هذه الحياة، وأدوار العيش وغمرات الموت، ثم من أمور البرزخ وشؤون البعث ودواهي الحشر، فأول أطباق الناس جنين ثم وليد، ثم رضيع، ثم فطيم، ثم يافع، ثم شاب، ثم رجل، ثم كهل، ثم شيخ، ثم ميت، وبعده نشرٌ ثم حشر، ثم حساب، ثم وزن، ثم صراط، ثم مقر، ومثل هذه الأطباق المحسوسة أطباق معنوية من الفضائل والرذائل[4]، وقد أخرج البخاري عن ابن عباس قال: ﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴾ أي حالاً بعد حال، قال نبيكم هذا ﷺ[5].

ثم عقب سبحانه بعد ذلك بهذا الاستفهام فقال: ﴿ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ ﴾؟! وهذا استفهام إنكاري تعجيبي، يحفز القارئين والسامعين إلى الاستغراب من أحوال المشركين الذين باتت لهم الأدلة كالشمس في رابعة النهار، ثم لا يؤمنون، وإذا استمعوا لآيات الله تعالى لم يتأثروا بها مع وضوح دلالاتها، وسطوع معناها، ومن عجب

(١) محاسن التأويل، القاسمي ١٧/ ٦١١٠.

(٢) متفق عليه وهو في البخاري حديث رقم ٢٥٣٢، وفي مسلم حديث رقم ١٦٤٦.

(٣) أخرجه الترمذي ٤/ ١١٠ وحسنه، وأخرجه أبو داود ٣/ ٢٢٣ حديث رقم ٣٢٥١، وهو في مسند أحمد ٢/ ٦٩.

(٤) نظم الدرر ٢١/ ٣٤٧ وما بعدها.

(٥) الجامع الصحيح حديث رقم٤٩٤٠، وانظر فتح الباري في بيان الاختلاف في تلك الأحوال ٨/ ٦٩٨.

أن تخشع الجبال لو قدر لها أن تستقبل هذا البيان الإلهي ولا يخشع الإنسان كما قال سبحانه: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]. فأي مانع يمنع هؤلاء الكفار من الإيمان، مع أن كل الدلائل والبراهين تدعوهم إلى الإيمان، أي مانع منعهم من السجود والخضوع لله تعالى عندما يتلى عليهم هذا القرآن الذي أنزل عليهم لإخراجهم من الظلمات إلى النور[1].

إن هذا الأمر لعجيب، يضرب عنه القرآن الكريم بسياقه ليأخذ في بيان حقيقة الكفار وما ينتظرهم من مآل[2] فقال سبحانه: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الانشقاق: ٢٤].

والمعنى أن هذه الحال التي هم فيها، هي بسبب هذا التكذيب المتأصل في نفوسهم والذي ملئت به دواخلهم. إن هذا الكفر المملوء بالتكذيب هو الحائل لهؤلاء عن الإيمان والإذعان لما في القرآن من أحكام. ثم أخبر سبحانه أن هذه الحال لا تخفى عليه، فجاءت هذه الجملة [وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُون] على جهة التهديد والوعيد لما سيلاقيه هؤلاء، ثم بنى عليه سبحانه هذا التهكم بهؤلاء الكفار في قولـــــه: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ والبشارة لا تكون إلا بالأمر المحمود ولكن لما كانت أحوال هؤلاء في غاية العجب ناسبه أن تكون البشرى عجيبة على نحو قول الشاعر: تحية بينهم ضرب وجيع.

إنها بشرى مؤلمة لما آلموا به أنفسهم من إخضاعها للشهوات والمآثم.

ثم بين سبحانه أن حال المؤمنين على غير هذه الحال، فقال سبحانه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [التين:٦]، وهذا الاستثناء منقطع، ومعناه: إذا كان حال أولئك الكافرين على نحو ما مر فإن أحوال المؤمنين على غير هذه الحال، أي لكن الذين أمنوا

(١) التفسير الوسيط ١٥/ ٤٧٨، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن، المطعني ٤/ ٣٥٣.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٦٩.



وعملوا الصالحات لهم أجر غير منقطع، أجر دائم مستمر، جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ: (من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾.

من عبر ودروس هذه السورة:

* بيان بعض ما يحدث من أهوال القيامة تذكيراً للإنسان بضرورة الاستعداد.
* كل شيء مستسلم لله تعالى فلا ينبغي للإنسان أن يشذ عن هذا.
* المشقة في هذه الحياة لا تغني الإنسان عن الاستعداد لملاقاة الله.
* السعيد من أوتي كتابه بيمينه والشقي الهالك من لقي كتابه بشماله.
* السعي إلى حساب يسير إنقاذ من هول خطير.
* تبدل حال الإنسان وترقيه دليل على نعمة الله عليه.
* على العاقل أن تقوده نعم الله إلى ما يرضيه.
* بيان أن الكفر ليس سببه عدم وضوح الأدلة والبينات، بل هو الكبر والغرور والعناد.
* بشارة المؤمنين بعدم انقطاع أجرهم مما يحملهم على الاستمساك بدينهم حتى ولو فعلت بهم الأفاعيل. فإنهم لا محالة الرابحون.



سورة البروج

بين يدي هذه السورة

تسمى هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير بـ(سورة البروج)، ووقع في مسند أحمد عن أبي هريرة ﷺ: (أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج)[1].

وهي سورة مكية باتفاق العلماء، وعدد آياتها اثنتان وعشرون آية باتفاق، وهي معدودة السابعة والعشرين في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، وقبل سورة التين[2].

ومحور هذه السورة الفتن، وتسلية المؤمنين بأن ما أصابهم قد أصاب غيرهم ما هو أكثر منه.

وتتألف هذه السورة من مقطعين:

الأول منهما ينتهي عند الآية الحادية عشرة وفيه الحديث عن قصة أصحاب الأخدود.

والثاني: ينتهي بنهاية السورة الكريمة.

وكل مقطع من هذين المقطعين وثيق الصلة بالآخر مما يشكل وحدة واحدة في هذه السورة الكريمة، حيث تأتلف أجزاء هذه السورة لتشكل تلك الصورة الواضحة التي أراد القرآن الكريم عرضها هنا.

ومناسبة اسم السورة لمحورها هي والله أعلم أن البروج المصاعد أو المنازل أو هي النجوم العالية التي تتدرج في العلو حتى تصل إلى فضاء في غاية البعد، وأن الحادث الذي وقع بيانه في هذه السورة قد بلغ الشناعة مبلغاً متطاولاً في أخلاق البشر، بحيث لا يكاد أحد يصدقه لولا

(١) مسند أحمد، والترمذي حديث رقم ٣١١٦، والمستدرك ٢/ ٥١٥.

(٢) مسند أحمد ٢/ ٣٢٧.



وقوعه، تهويلاً له وتشنيعاً بأهله.

وقال الشهيد سيد قطب: تبدأ السورة بقسم ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾، فتربط بين السماء وما فيها من بروج هائلة، واليوم الموعود وأحداثه الضخام والحشود التي تشهده والأحداث المشهودة فيه، تربط بين هذا كله وبين الحادث ونقمة السماء على أصحابه البغاة الطغاة[1].

وقال ابن عاشور: ومناسبة القسم لما أقسم عليه أن المقسم عليه تضمن العبرة بقصة أصحاب الأخدود، ولما كانت الأخاديد خطوطاً مجعولة في الأرض مستعرة بالنار. أقسم على ما تضمنها بالسماء، بقيد صفة من صفاتها، التي يلوح فيها للناظرين في نجومها ما سماه العرب بروجاً، وهي تشبه دارات متلألئة بأنوار النجوم اللامعة الشبيهة بتلهب النار[2]، ويجوز أن يكون وجه الاتصال والمناسبة هو أن البروج تعني المنازل العالية. وهذا يدل على علو منزلة المؤمنين المفتونين الذين ذاقوا ألوان العذاب، وبعد منزلتهم عند الله تعالى.

وافتتحت هذه السورة بالقسم من الله تعالى، الذي يدل على باهر قدرته تعالى، واختتمت بالحديث عن القرآن الكريم وحفظه، وهذا أيضاً من باهر قدرة الله تعالى، وفيه دلالة تنبيهية على أن القرآن وهذا الدين من عند الله تعالى.

هذا، وقد اختتمت السورة السابقة ببيان حالي المؤمنين والكافرين، وأن الله تعالى يعلم ما يصدر عن الكافرين، وأنه توعدهم بعذاب أليم، وأن المؤمنين لهم أجر غير منقطع، وكل هذا لا يقدر عليه إلا الله تعالى صاحب القسم بما في هذه السورة من عظائم الأمور، وهذا وجه اتصال مفتتح هذه السورة بختام ما قبلها.

وأما مناسبة هذه السورة في مضمونها لما قبلها، فقد قال أبو حيان: لما ذكر أنه تعالى أعلم

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٧٢.

(٢) لتحرير والتنوير ١٥/ ٢٣٧، والتفسير الوسيط ١٥/ ٤٨٢، روح المعاني ٣٠/ ٨٤.

بما يجمعون للرسول ﷺ وللمؤمنين من المكر والخداع، وإذاية من أسلم بأنواع من الأذى، كالضرب والقتل والصلب، والحرق بالشمس وإحماء الصخر، ووضع أجساد من يريدون أن يفتنوه عليه، ذكر سبحانه وتعالى أن هذه الشنشنة (العادة) كانت فيمن تقدم من الأمم فكانوا يعذبون بالنار، وأن أولئك الذين عرضوا على النار كان لهم من الثبات في الإيمان ما منعهم أن يرجعوا عن دينهم، وأن الذين عذبوهم ملعونين، فكذلك الذين عذبوا المؤمنين من كفار قريش، فهذه السورة عظة لقريش وتثبيت لمن يعذبونه من المؤمنين[1].

وهذه السورة القصيرة تعرض حقائق العقيدة وقواعد التصور الإيماني، وتعرض أموراً عظيمة، وتشع حولها أضواء قوية بعيدة المدى، وراء المعاني والحقائق المباشرة، التي تعبر عن نصوصها، حتى لتكاد كل آية، -وأحيانا كل كلمة في الآية- أن تفتح كوة على عالم مترامي الأطراف من الحقيقة.

والموضوع المباشر الذي تتحدث عنه السورة هو حادث أصحاب الأخدود.. ومضمونه هو أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام -قيل إنهم من النصارى الموحدين-، ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين، أرادوهم على ترك عقيدتهم، والارتداد عن دينهم، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم. فشق الطغاة لهم شقاً في الأرض، وأوقدوا فيه النار، وكبوا فيه جماعة المؤمنين، فماتوا حرقاً على مرأى من الجموع التي حشدها المتسلطون، لتشهد مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة، ولكي يتلهى الطغاة بمشهد الحريق، حريق الآدميين المؤمنين ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨ ﴾ [البروج: ٨][2].

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤٤٩.

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٣٧.

التفسير

من أقسام الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ ﴾.

المفردات والتراكيب:

ذات البروج: ذات المنازل العالية.

اليوم الموعود: هو يوم القيامة.

شاهد ومشهود: كل ما يصلح أن يطلق عليه هذا الوصف دون تحديد لواحد معين[1].

هذا القسم من الله تعالى بهذه الأشياء كأنها معناه: وحق السماء ذات البروج، وحق اليوم الموعود، وحق الشاهد والمشهود، وفي هذا القسم من الشمول ما يسع الكون كله وكأنها يريد الله تعالى بيان أنه أقسم بالكون وما فيه، تنبيها على عظم هذه الجريمة الآتي الحديث عنها، بحيث إن أمرها من المنكرات في كل أجزاء الكون البديعة، إنها تنافي ذلك التناسق، وذاك الانسجام العجيب في هذا الكون، إنها خروج عن ذلك المألوف كله.

قصة أصحاب الأخدود

قال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ ﴾

المفردات والتراكيب:

أصحاب الأخدود: الذين أحرقوا المؤمنين بالنار، والأخدود: الحفرة العظيمة المستطيلة في الأرض.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٧١ وما بعدها.

هم عليها قعود: يتفرجون من حول النار على تحريق المؤمنين.

وما نقموا منهم: سبب انتقامهم من المؤمنين هو إيمانهم.

تحكي هذه الآيات الكريمة قصة من أبشع ما وقع في التاريخ الإنساني من فظائع تقشعر منها الأبدان. إنها تحكي قصة الانسلاخ عن العقيدة والمثل والأخلاق، إنها تحكي عن الإنسان حين ينسلخ من الإنسانية، وينقلب إلى وحش كاسر يفوق بوحشيته كل وحوش الغابة.

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ﴾: لعنوا وطردوا من رحمة الله، الذين أشعلوا النار ذات اللهب الشديد كي يقتلوا المؤمنين.

وهؤلاء المعنيون بهذه الآية هم من الناس الذين انحرفت أفكارهم واعوجت مسالكهم من أهل الملل الكافرة، الذين لم يرتضوا إيمان المؤمنين في زمانهم، فراودوهم على الكفر، وأرادوهم إليه، لكن أهل الإيمان ثبتوا على دينهم الذي ارتضاه الله تعالى لهم. وبعد أن يئس الكفار من ارتداد المؤمنين عن دينهم وعلموا أن أولئك المؤمنين لا محالة ثابتون على دينهم، سول لهم الشيطان وسولت لهم أنفسهم الخبيثة، أن يبتدعوا وسيلة من وسائل الضغط العنيف، الذي يرتجى ليحقق النتائج، فكانت هذه الوسيلة التي نبت عنها طغيان الإنسانية المتوحشة. فحفروا في الأرض حفرة طويلة وأضرموا فيها النيران وجاءوا بالمؤمنين على مرأى ومسمع من الناس ووقفوهم على شفير تلك النيران، فمن رجع عن دينه تركوه، ومن استمر على دينه وثبت ألقوه في النار. فكان هذا الفعل منهم، وهم يتفرجون على المؤمنين والنار تلتهمهم، لم يصدهم صراخ الصارخين، ولا آهات المتأوهين المعذبين، بل لم تحفزهم إنسانيتهم إلى أن يرتدعوا عن هذا الباطل الذي هم فيه. فكانوا مثالاً في الوحشية ضربه القرآن الكريم، ليبقى مذكراً الناس بضرورة البعد عن مثل هذه الوحشية القاسية، وأن الإنسان بمبادئه وقيمه.

ولم يثبت في أحاديث النبي ﷺ أنه عنى قوماً بأعيانهم، مفسراً هذه الآيات، غير أنه ورد عنه ﷺ الحديث الطويل الذي يذكر فيه قصة الملك مع الغلام والساحر الراهب، والتي كان في نهايتها تحريق للمؤمنين كهذه الحالة المذكورة في الآية، والنبي ﷺ لم يذكر الحديث تفسيراً لهذه

السورة الكريمة، ولكنه ذكره فيما ذكر من أحوال الأمم الماضية ليعتبر الناس بها، فيصلح هذا الحديث أن يكون ضرب مثل من مثل ما تشتمل عليه الآية من النماذج البشرية المنحرفة. وهذا يعني أن هذا الفعل قد تكرر في التاريخ الإنساني أكثر من مرة، والله اعلم[1].

وأصحاب الأخدود كلمة جامعة تشمل كل الذين قاموا بهذا العمل، من جمع المؤمنين وحبسهم، وحفر الخندق، وإشعال النار، وقذف المؤمنين فيها، والتفرج عليهم، كل هؤلاء مشمولون بهذه الكلمة الجامعة. فسبحان منزل هذا الكتاب.

وبعد أن قرر القرآن الكريم لعن هذه الفئة الظالمة وطردها من رحمة الله تعالى، بياناً ونموذجاً للناس حتى لا يسلكوا هذه المسالك فيصيبهم مثل ما أصاب أولئك الظالمين بعد ذلك، بين تلك الأحوال التي أوبقت هؤلاء الظالمين فقال تعالى: ﴿ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ ﴾ هذه هي الوحشية العجيبة، التي أخرجت هؤلاء الظالمين إلى لعنة الله تعالى بما كانوا فيه من الطغيان والوحشية.

هكذا كان حال الأخدود، نار تلتهب آنا فآن﴿ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴾ صاحبة الوقود، إنه وقود لا ينتهي واشتعال لا ينطفي، وفوق هذا ناس همجيون، فقدوا أحاسيس الإنسانية وروعتها، وقفوا بجانب هذه النار الملتهبة وقعدوا، بعد أن وضعوا لأنفسهم أمكنة يجلسون عليها ليتفرجوا على تحريق الإنسانية كل الإنسانية بدءاً من إنسانيتهم هم.

ثم بين سبحانه وتعالى السبب الذي من أجله فعل هؤلاء بالمؤمنين ما فعلوه، وهو سبب في غاية العجب، قال سبحانه: ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ ﴾ هذا هو سبب الانتقام: أنهم مؤمنون بالله تعالى ليس إلا.

هذا الإله الكريم صاحب الأوصاف الحميدة الذي ينبغي أن يؤمنوا به، تراهم يعذبون

(١) جامع البيان ٣٠/ ٨٤.



الناس بسبب إيمانهم، إنها لمساءَة، أن تنقلب الفطرة إلى هذا الحد من الإسفاف والتضاؤل إلى أن يصبح سبب الإيمان سبباً في الإجرام. ولما كانوا على هذه الحالة أخبر سبحانه أنه رقيب على أعمالهم، لا تخفى عليه منهم خافية، وفي هذا من التهديد والوعيد ما فيه.

وهكذا تنتهي هذه القصة، وقد ملأت القلوب بالروعة، روعة الإيمان المستعلي على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض. فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم. ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ! إنه معنى كريم جداً، وكبير جداً هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض. ربحوه وهم يجدون مس النار فتحرق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب، ولأعدائهم الطاغين حساب[1].

وعلى أي حال فالمقصود بهذه الآيات الكريمة، تثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان، وتسليتهم عما أصابهم من أعدائهم، وإعلامهم بأن ما نزل بهم من أذى، قد نزل ما هو أكبر منه بالمؤمنين السابقين، فعليهم أن يصبروا كما صبر أسلافهم، وقد اقتضت مشيئته تعالى أن يجعل العاقبة للمتقين، قال سبحانه تعالى:﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾، وقال سبحانه: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٧/٦، والإمام مسلم في الصحيح ٤/ ٢٣٠٠حديث رقم ٣٠٠٥، وانظر التحرير والتنوير ١٥/ ٢٤١.

التمييز بين الطائعين والعاصين

ثم إن الله سبحانه وتعالى بعد أن قص علينا قصة أصحاب الأخدود، وجه الكلام لأهل مكة مهدداً إياهم بسوء المصير إذا ما استمروا في إيذائهم للمؤمنين فقال سبحانه:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾.

والمعنى: إن الظالمين الذين عذبوا المؤمنين وفتنوهم عن دينهم وأحرقوهم بالنار ثم لم يتوبوا إلى الله تعالى من تلك الذنوب، ويرجعوا عن تعذيبهم المؤمنين والمؤمنات، فلهم في الآخرة عذاب جهنم بسبب إصرارهم على الكفر والعدوان، ولهم نار أخرى محرقة زيادة على ما سبق تنبيهاً على عظم ما ارتكبوه من الإجرام في حق المؤمنين، فأين حريق من حريق؟ في شدته أو مدته ! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق، وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق! وحريق الدنيا لحظات وتنتهي، وحرق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله تعالى ! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين، وانتصار لذلك المعنى الإنساني الكريم. ومع حريق الآخرة غضب الله تعالى والارتكاس الهابط الذميم[1]، والمقصود من هذه الآية كفار قريش الذين كانوا يعذبون المؤمنين[2].

ثم إن الله تعالى لما هدد الكافرين من قريش وتوعدهم، أخبر عن أحوال المؤمنين وما أعده لهم من ثواب وعطاء، تسلية لهم على ما أصابهم، وحفزهم على مزيد من الصبر على طاعة الله تعالى فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (البروج:١١).

هذا هو جزاء الصابرين الثابتين على الحق الذين استسلموا لله تعالى وعملوا بالطاعات واجتنبوا المعاصي، إنه الجزاء العظيم والنجاة الحقيقية:﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾، وهل بعد هذا

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٧٤.

(٢) المصدر السابق.

الفوز من فوز ؟ وما أبدع هذا الفوز! وصورته بينة مع جريان الأنهار تحت تلك الجنات في منظر بديع يخلب الألباب.

مشيئة الله تعالى ونفاذ قدرته

ثم إن الله سبحانه وتعالى قد ساق من الأدلة والبينات ما يدل على نفاذ قدرته ومشيئته ذلك أن من يعذب هذا التعذيب، ويغفر هذا الغفران، لا بد أن يكون موصوفاً بالأوصاف الجامعة، التي تحقق الرهبة والخوف في أنفس العصاة، وتحقق الطمأنينة والأمن في أنفس الطائعين، فقال سبحانه:

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾.

إن هذه الآيات واضحة الدلالة على المقصود، ما بين تخويف العصاة، وبناء الثقة عند المؤمنين، ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ والبطش معناه الأخذ بشدة وعنف، وفي هذه الآية بيان تصغير شأن بطش الكفار فهو ليس بهذه الصفة التي وصف الله تعالى بها نفسه، وما دام كذلك فليطمئن المؤمنون أيما اطمئنان، وليتخوف الكافرون أيما تخوف.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ ﴾ يبدئ الخلق بأن ينشئهم أول الأمر في الدنيا ثم يعيدهم إلى الحياة بعد الموت في الدنيا إلى حساب وجزاء في الآخرة.

والله تعالى من هذه أوصافه واسع المغفرة لمن تاب وآمن، وهو سبحانه كثير المحبة والود لمن أطاعه واتبع هداه.

ثم إن الله تعالى بين بالأدلة اختصاصه بهذه الأشياء، كما أنه مختص بها لا ينازعه فيه أحد، فهو سبحانه صاحب العرش العظيم، القوي الذي لا يعلم عظمته وقوته إلا هو سبحانه ولا

ينازعه فيه أحد.

ثم أخبر سبحانه أن من كانت هذه صفته فهو يفعل كل شيء يريده، دون أن يعترض عليه أحد، أو يمنعه أحد، مهما كان قوياً. ثم دلل على هذه القوة بما صنعه فيمن ضُرب به المثل في القوة، في دنيا الناس، إنه فرعون وجنوده، وقبيلة ثمود بعظمتها، وفي قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ ﴾ تنبيه للناس على أن يلاحظوا فعل القوة الإلهية بهؤلاء الناس الذين طغوا وتجبروا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، حتى كان عاقبة أمرهم أن صب الله تعالى عليهم سوط عذاب، وقد ذكر الله تعالى في سورة الفجر والحاقة ما يبين بعضاً مما أصاب هذه الأقوام الجائرة من العذاب فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

وقال سبحانه عن ثمود في سورة الحاقة: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [الحاقة:٥]، وهكذا شأن المجرمين في كل حين وآن، إذا أخذهم الله تعالى بالعذاب لم يفلتهم.

ثم ختم الله تعالى هذه الأحوال ببيان أن المشركين المعاصرين للنبي ﷺ ومن يأتون بعد لم يتعظوا بأحوال من سبق فقال سبحانه:﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

والمعنى: لقد كان عاقبة فرعون جنوده وثمود، الهلاك والدمار، بسبب إصرارهم على الكفر، ولكن قومك أيها الرسول ﷺ لم يعتبروا بهم، بل استمروا على تكذيبهم لك، وفي إعراضهم عنك. واعلم أن الله تعالى محيطٌ بهم إحاطة تامة، فلا تخفى عليه منهم خافية، ولن يفلتوا من عقابه بأية حيلة من الحيل، فهم تحت قبضته وسلطانه، وسينزل بهم بأسه في الوقت الذي يريد[1]﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: من الآية ٦٨].

(١) التفسير الوسيط ١٥/ ٤٨٩.

ولما كان تكذيب النبي ﷺ يستلزم التكذيب بالقرآن، نبه الله تعالى في ختام هذه السورة على مصدر القرآن، وصدقه وحقيته، فقال سبحانه:﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾، وهذه الآية هي أبلغ رد على المشركين الذين كذبوا القرآن، وقالوا فيه إنه أساطير الأولين، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ وقالوا عنه إنه شعر، ومحمد شاعر، وقالوا عنه كهانة، ومحمد يتعاطى أقاويل الكهان، كما قال الله تعالى عنهم ذلك ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحاقة: ٤١-٤٢].

وغير ذلك من أفانين الكذب التي اختلقوها على النبي ﷺ والقرآن الكريم، والمعنى من هذه الآية: أن الأمر ليس كما قال هؤلاء المشركون في القرآن الكريم، وإنما الحق أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى البالغ النهاية، في الشرف والرفعة والعظمة. وإنه كائن في لوح محفوظ من التغيير والتبديل، ومن وصول الشيطان إليه.

ونحن نؤمن بأن القرآن الكريم كائن في لوح محفوظ، إلا أننا نفوض معرفة حقيقة هذا اللوح وكيفيته إلى علم الله تعالى، لأنه من أمر الغيب الذي تفرد الله تعالى بعلمه[1].

من عبر ودروس هذه السورة:

* يحقق المؤمن بإيمانه التئاماً في تجانسه مع الكون الخاضع لسلطان الله.
* إن معصية العاصي هي خرم وخدش في ذلك التجانس العجيب بين الكون والإنسان المؤمن.
* إن أعظم الجرائم تلك التي تمنع الناس من أخذ حقوقهم.
* النموذج المثالي للمؤمنين في صبرهم وتضحيتهم يبدو بارزاً واضحاً في هذه السورة.

---

(١) التفسير الوسيط ١٥/ ٤٩٢.

- ❋ الكفار يستخدمون وسائل غاية في القسوة لتصد الناس عن دينهم، وعلى المؤمنين أن يتحملوا كل شيء في سبيل الحفاظ على عقيدتهم ودينهم، ولأنهم في الحقيقة يحافظون على انسجام كوني.
- ❋ الكفر يمنح الإنسان خصال الغلظة والقسوة والشدة والعنف.
- ❋ على المؤمنين أن يعوا جيداً أن أعداء الله لا يحاربونهم إلا من أجل دينهم.
- ❋ تذكير الناس بمصارع المهلكين قائد لتصحيح مسيرتهم.
- ❋ باب التوبة مفتوح للتائبين.
- ❋ على المؤمنين أن لا ييأسوا من إيمان الكفار وليبذلوا قصارى ما عندهم في سبيل هدايتهم.
- ❋ ضرورة تقوية العقيدة والدفاع عنها أمام عواتي الفتن.
- ❋ افتتان المؤمنين في الأرض سنة كونية يتمحص فيها صاحب الإيمان الحق القوي من الضعيف.
- ❋ وعد الله تعالى للمؤمنين الصابرين عظيم.
- ❋ ضرورة ربط الإيمان بالعمل الصالح وعدم انفكاكهما.
- ❋ لن يهمل الله تعالى أمر الكافرين الجاحدين الظالمين.
- ❋ قدرة الله تعالى لا تعدلها قدرة.
- ❋ القرآن الكريم من عند الله ولا مرية في ذلك.

سورة الطارق

بين يدي هذه السورة

تسمى هذه السورة باسم: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ كما ورد في بعض الأحاديث والآثار[١]، وتسمى في كتب التفسير وعلوم القرآن بـ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾[٢].

والسورة كلها مكية باتفاق العلماء، نزلت قبل سنة عشر من البعثة، لما أخرجه أحمد بن حنبل والطبراني عن خالد بن أبي جبل العدواني عن أبيه: أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغي عندهم النصر فسمعته يقول: (والسماء والطارق) حتى ختمها قال: فوعيتها في الجاهلية ثم قرأتها في الإسلام[٣].

وعدد هذه السور في ترتيب النزول السادسة والثلاثين. نزلت بعد سورة البلد، وقبل سورة القمر[٤].

وعدد آياتها سبع عشر آية في عد، وعند آخرين ست عشر آية، وسبب اختلافهم هو قول الله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ ﴾(الطارق:١٥). فمن عد هذا المحل آية، صار المجموع سبع عشرة آية، ومن ضمه إلى ما بعده في آية واحدة صار المجموع ست عشرة آية[٥].

وأما محور هذه السورة ومقصودها فإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته

---

(١) التفسير الوسيط ١٥/ ٤٩٣.

(٢) صحيح ابن خزيمة، ٣/ ٥١، حديث رقم ١٦١١، صحيح ابن حبان ٥/ ١٣٥، حديث رقم ١٨٢٧، المصنف، ابن ابي شيبة١/ ٣١٢، حديث رقم٣٥٧٠.

(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٥٧.

(٤) مسند أحمد٤/ ٣٣٥، المعجم الكبير، الطبراني ٤/ ١٩٧، حديث رقم ٤١٢٦، وذكره في مجمع الزوائد وقال: رجاله ثقات ٧/ ١٣٦.

(٥) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٥٧، النظم الفني في القرآن ٣٤٦.



وبليغ حكمه، وسعة علمه، وإثبات أن القرآن من عند تعالى، وأن العاقبة للمتقين[1]، والأظهر من هذا عندي أن يقال: إن محور السورة هو بيان لبعض المظاهر البارزة لقدرة الله تعالى.

وهذا المقصود يتلائم مع عنوان السورة بشكل واضح فحيث كان الطارق هو النجم الثاقب، أي البارز الواضح الذي لا خفاء فيه بان وجه المناسبة بين تلك المظاهر البارزة، والتي منها هذا النجم الساطع.

وأما المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها فهي بارزة أيضاً، إذ أن سطوع النجم برهان على قدرة الله تعالى، ووضوحها في الآفاق. وختمت السورة بتهديد الكافرين هذا التهديد الواضح البين الذي لا لبس فيه، فانظر كيف يجتمع الوضوح إلى الوضوح ليتشكل من ذلك كله أمر إلهي واضح المعالم بين الخطوات على أن الله تعالى هو وحده القوي القادر.

وأما علاقة هذا الافتتاح بخاتمة السورة السابقة وهي سورة البروج. فإن سورة البروج قد ختمت بقوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، وجاء في مقدمة هذه السورة ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الطارق: ١-٤]، وبين هذه البداية وتلك النهاية نوع صلة. فحفظ اللوح مرتبط بحفظ السماء وحفظ اللوح من مظاهر قدرة الله تعالى، التي من مظاهرها البارزة حفظ كل نفس أو حفظ عملها بالمكلفين بذلك من الملائكة[2] وفي هذا تتجلى مظاهر القدرة الإلهية البارزة.

وأما الصلة بين مضموني السورتين فإن سورة البروج مضمونها ومقصودها ومحورها هو الفتن، وتسلية المؤمنين بأن ما أصابهم قد أصاب غيرهم ما هو أكبر منه، وهذه السورة لإبراز المظاهر الواضحة للقدرة الإلهية. أوليس من أبرز مظاهر القدرة الإلهية الانتصار للمظلومين ولو بعد حين.

---

(١) بشير اليسر، عبد الفتاح القاضي ١٧٨.

(٢) التفسير الوسيط ١٥/ ٤٩٦.



هذا، وتنقسم السورة الكريمة إلى مقطعين بارزين يبدأ الأول منهما ببداية السورة إلى نهاية الآية العاشرة، ويبدأ المقطع الثاني ببداية الآية الحادية عشر، وينتهي بنهاية السورة الكريمة.

ويلاحظ أن كلا المقطعين يبدأ بقسم وجوابه دلالة على تعظيم هذه الأشياء وضرورة لفت الأنظار إليها.

التفسير

قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴿١٠﴾ ﴾ (١-١٠).

مظاهر قدرة الله البارعة في خلق الإنسان

أقسم الله تعالى بالسماء وما يطرق فيها ليلاً، ثم استفهم سبحانه مشوقاً وما أدراك ما الطارق؟ وبينه سبحانه بأنه النجم الثاقب، أي الساطع المضيء بشدة في السماء.

وهذا النجم إما أن يراد به واحد النجوم الموصوفة بهذا الوصف، وإما أن يراد به جنس النجوم المشعة ذات الميزة الخاصة باللمعان الشديد في جو السماء في الليل، وذلك لأن لمعان النجوم لا يكون إلا بالليل.

ثم بين الله سبحانه وتعالى جواب القسم قائلاً: ﴿ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾ ﴾، والمعنى: ما كل نفس من الأنفس إلا وعليها حافظ من الملائكة يحفظ عملها ويسجله سواء أكان هذا العمل خيراً أم شراً. والمقصود من هذا بيان تحقيق تسجيل أعمال الإنسان عليه، وأنه سيحاسب عليها وسيجازى بما يستحقه من ثواب أو عقاب[1].

(١) الأساس في التفسير ١١/ ٦٤٦٧.



والمناسبة بين القسم والمقسم عليه بادية ظاهرة، إذ أراد الله تعالى تبيين هذه الحقيقة للناس، وهي تلك الحقيقة المغفول عنها، ذلك أن كثيراً من الناس لا يعلم أن أعماله محصاة عليه ولذلك تراه يفعل ما يشاء، دون حسيب ولا رقيب، فجاء القرآن بهذه الآيات يبين أن حقية تلك القضية بوضوحها ينبغي أن يكون واضحاً وضوح النجم الساطع في ليلة حالكة السواد، إنه أوضح وأظهر ما يكون.

فإذا سطعت هذه الحقيقة في نفس الإنسان، أحسن عمله، وأحسن خلقه، وقبل الأوامر الإلهية بكل يسر وسهولة.

ثم إن الله تعالى بين بعد ذلك: أنه وبمقتضى ذلك الوضوح وظهوره ينبغي على الإنسان أن يلتفت إلى نفسه فيرى بديع صنع الله تعالى، وظهور آياته ظهوراً بارزاً في هذا الخلق المبدع فقال سبحانه:﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ ثم أجاب سبحانه بقوله: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ ﴾. كل ذلك حفزاً للإنسان على التفكير في هذه المادة القريبة منه منتقلاً من هذا التفكير في بدء النشأة وبدء الخلق إلى التفكير فيما بعد.

والمعنى إذا كان الأمر كما ذكرت لكم أيها الناس، من أن كل نفس عليها حافظ يسجل عليها أقوالها وأفعالها. فلينظر كل واحد منكم في نفسه نظرة تدبر واعتبار، وليسأل نفسه من أي شيء خلق، ولقد خلقه الله تعالى بقدرته من ماء متدفق يخرج بقوة وسرعة من الرجل يصب في رحم المرأة[1].

وهذا الماء من صفاته أنه يخرج من بين صلب الرجل – وهو فقار ظهره – ومن بين ترائب المرأة – وهي العظام التي تكون في أعلى صدر المرأة ما بين ثدييها –، حيث يختلط الماءان ويتكون منهما الإنسان في مراحله المختلفة بقدرة الله تعالى، وفي هذا الخبر عن المائين بهذه السورة إعجاز علمي في القرآن. فإن هذه المعلومات لم يكن بها علم للذين نزل فيهم القرآن الكريم، وهذا

(١) التفسير الوسيط١٥ / ٤٩٩.

في القرآن الكريم إجمال بينه الحديث الوارد عن النبي ﷺ عندما سئل عن احتلام المرأة فقال: تغتسل إذا أبصرت الماء. فقيل له أترى المرأة ذلك ؟ فقال ﷺ: وهل يكون الشبه إلا من قبل ذلك إذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه[1].

وقد كان ذلك الأمر من قبيل الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى حتى كان النصف الأخير من القرن الماضي حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته، وعرف أنه في عظام الظهر الفقارية، يتكون ماء الرجل. وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة. حيث يلتقيان في قرار مكين، فينشأ منهما الإنسان[2].

وبعد هذا البيان آن الأوان لربط هذه النشأة بالمصير الإنساني والنهاية الحتمية لأن ذلك أدعى إلى الإيمان والتصديق، وقد كان الأمر كذلك فكان منطبقاً على هذا الباب تمام الانطباق فقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ ، والمعنى: إن الله تعالى الذي أنشأ الإنسان من هذا الماء الدافق بقدرته سبحانه، لقادر على إعادة خلق هذا الإنسان بعد موته، وعلى بعثه من قبره للحساب والجزاء يوم القيامة، يوم تكشف المكنونات وتبدو ظاهرة للعيان وترفع الحجب عما كان يخفيه الإنسان في دنياه من عقائد ونيات وغيرها، وفي هذا اليوم لا يكون للإنسان من قوة تحميه من الحساب والجزاء ولا يكون له ناصر ينصره من بأس الله تعالى، أو من مدافع يدافع عنه بل سيترك هو وعمله[3].

---

(١) أخرجه مسلم ١/ ٢٥١، حديث رقم ٣١٤.

(٢) التفسير الوسيط ١٥/ ٥٠٠، تفسير جزء عم، الطيار ١١٥-١١٧.

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٥٨٧٨، التفسير الوسيط ١٥/ ٥٠٢، التحرير والتنوير ١٥/ ٢٦٣ وما بعدها.

حقية القرآن الكريم

ثم إن الله سبحانه وتعالى أعقب تلك الأحوال بقسم جديد يبين فيه عظمة القرآن وصدقه وأنه من عنده سبحانه فقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ ﴾.

وهذه الآيات تمثل الجزء الثاني من السورة الكريمة وهو ينقسم إلى قسمين تمثل الآيات هذه القسم الأول من الجزء الثاني.

والصلة بين هذا القسم وما سبقه من آيات واضحة وبينة، ذلك أن ما قبلها هو عبارة عن مضامين قرآنية واضحة وبينة، لا يشك فيها أحد، وقد اكتشف العلم الحديث صدقها، وأن من جاء بها لا يمكن أن يكون بشراً عادياً بل لا بد أن يكون رسولاً نبياً.

وهذه الآيات جاءت تبين أن القرآن الكريم كله جد، وقول فصل، وليس بالهزل، ليؤول الأمر إلى إثبات أن هذا من عند الله تعالى.

والمراد بالرجع: المطر لأنه يجيء ويرجع مرة بعد مرة. والمراد بالصدع التشقق والانفطار ليخرج النبات من باطنها إلى أعلاها.

والمعنى من الآيات: وحق السماء صاحبة المطر الذي ينزل منها مرة تلو المرة، لنفع العباد والحيوان، وحق الأرض ذات النبات البازغ من شقوقها، إن هذا القرآن لقول فاصل بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، وأنه ليس فيه شائبة من شوائب اللهو والهزل أو المزاح، بل هو الجد كله، فيجب على كل عاقل أن يتبع هداه، وأن يستجيب لأمره ونهيه.

وفي هذه الآيات الكريمة رد بليغ على المشركين الجاهلين الذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين، وأن الرسول الكريم ﷺ ما جاء به إلا ليهزل ويضحك.

ذلك أنه أخبرهم فيه بأن الأموات سيعادون إلى الحياة مرة أخرى، وذلك أمر تستبعده نفوسهم المطموسة.

وفي هذه الآيات الكريمة وصف لكل من السماء والأرض بما يناسبها، وفيها ما يشير إلى أن البعث حق، لأنه كما ينزل المطر من السماء فيحيي الأرض بعد موتها، كذلك يحيي الله تعالى بقدرته الأجساد بعد موتها [1].

أحوال الكافرين المكذبين

ثم تنتقل السورة إلى الختام بالتعجيب من أحوال الكافرين تمهيداً لتهديدهم وتخويفهم فقال سبحانه:﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾.

وفي معنى هذه الآيات يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: وفي ظل هذا القول الفصل بالرجعة والابتلاء، يتجه الخطاب إلى الرسول ﷺ وهو ومن معه، القلة المؤمنة في مكة، يعانون من كيد المشركين ومؤامراتهم على الدعوة والمؤمنين بها، وقد كانوا في هم مقعد مقيم للكيد لها، والتدبير ضدها، وأخذ الطرق عليها، وابتكار الوسائل في حربها، يتجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بالتثبيت والتطمين والتهوين من أمر الكيد والكائدين وأنه إلى حين، وأن المعركة بيده سبحانه وقيادته، فليصبر الرسول ﷺ وليطمئن المؤمنون وهو معهم. إنهم هؤلاء الذين خلقوا من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب، بلا حول ولا قوة، ولا إرادة ولا معرفة، ولا هداية، والذين تولتهم يد القدرة في رحلتهم الطويلة. والذين هم صائرون إلى رجعة تبلى فيها السرائر حيث لا قوة لهم ولا ناصر إن هؤلاء يكيدون كيداً. وأنا -أنا المنشئ.. الهادي، الحافظ، الموجه، المعيد، المبتلي، القادر، القاهر، خالق السماء والطارق، وخالق الماء الدافق، والإنسان الناطق، وخالق السماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع، أنا الله أكيد كيداً.

فهذا كيد.. وهذا كيد. وهذه هي المعركة ذات طرف واحد في الحقيقة، وإن صورت ذات طرفين لمجرد التهكم.

(١) التفسير الوسيط ١٥/ ٥٠٣.



﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾....﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾... لا تعجل. ولا تستبطئ نهاية المعركة. وقد رأيت طبيعتها وحقيقتها.. فإنما هي الحكمة وراء الإمهال. الإمهال قليلاً. وهو قليل ولو استغرق عمر الحياة الدنيا. فما هو عمر الحياة الدنيا إلى تلك الآباد المجهولة المدى؟[1]

وقد حقق الله تعالى لنبيه وعده بأن جعل العاقبة له ولأتباعه.

من عبر ودروس هذه السورة:

* بينت السورة أن كل شيء في هذا الكون صالح أن يكون دليلاً على قدرة الله تعالى.
* أعلمت السورة ببعض وظائف الملائكة الخاصة بالإنسان.
* إن على الإنسان أن يصلح عمله ويحسنه لأن عليه من يراقبه ويحصيه.
* إن نفس الإنسان وذاته ومادة خلقه وكيفية ذلك من أدل الأدلة على قدرة الله تعالى.
* التعجيب من حال الإنسان وكيفية خلقه. كيف يكون بعد بيان ذلك مستكبراً متجبراً.
* إثبات البعث والنشور بإهلاك الإنسان وإحيائه.
* من مظاهر الإعجاز القرآني العلمي بيان كيفية نشأة الإنسان، وفي هذا دليل على أن القرآن الكريم من عند الله تعالى وحده.
* قوة الله تعالى لا تغلبها قوة وعلى الإنسان أن لا يغتر بقوته.
* جدية الوعد والوعيد في هذا الكتاب الخالد.
* إن الكافرين لا محالة نائلون جزاءهم وإن خيل إليهم أن الوقت قد طال عليهم.
* على الإنسان العاقل أن لا يغتر بفسحة الوقت التي هو فيها.

---

(١) التفسير الوسيط ١٥/ ٥٠٤، الأساس في التفسير ١١/ ٦٤٧١، تفسير جزء عم ص ١١٧.

سورة الأعلى

بين يدي السورة:

اسمها:

ذكر المفسرون لهذه السورة اسمين: الأعلى، وسبح(١).

فضلها:

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: « حدثنا ابن أبي مريم، عن أبي لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة الشبامي، عن أبي تميم قال: قال رسول الله ﷺ: « إني نسيت أفضل المسبحات»، فقال أبي بن كعب: فلعلها سبح اسم ربك الأعلى، قال: «نعم»(٢).

و قد ذكر المفسرون أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية، وأنه ﷺ كان يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد(٣).

و قد ذكر الإمام ابن كثير وغيره من المفسرين أنه لما نزلت سورة سبح اسم ربك الأعلى قال ﷺ: « اجعلوها في سجودكم»(٤).

نزول سورة الأعلى:

سورة الأعلى مكية في قول جمهور المفسرين، وقد ذكر الإمام السيوطي في الإتقان رواية بأنها مدنية لذكر صلاة العيد وزكاة الفطر فيها، ولكنه رد عليها بقوله: (قلت: ويرده ما أخرجه البخاري عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٨/ ٣٩٣، وروح المعاني للآلوسي ٣٠/ ١٠١.

(٢) فضائل القرآن – أبو عبيد القاسم بن سلام ص ١٣٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير ٤/ ٤٩٩.

(٤) انظر المرجع السابق، والحديث أخرجه ابن ماجه ح٨٨٧.

وابن أم مكتوم، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب يقرئاننا القرآن فجعلا عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، فما جاء حتى قرأت سبح اسم ربك الأعلى في سور مثلها)[1].

وما ورد من أنه ذكر في السورة صلاة العيد وزكاة الفطر فالدلالة عليه ظنية لا يسلم بها الآلوسي في تفسيره[2].

عدد آيات السورة:

تسع عشرة آية بلا خلاف.

محور السورة:

توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ويشير إلى توحيد الربوبية: تعظيم الرب الخالق بنسبة الخلق والتقدير إليه وحده. ويشير إلى توحيد الألوهية وحدة مصدر الرسالة ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

المناسبات في سورة الأعلى:

١- المناسبة من اسم السورة ومحورها:

جاء اسم السورة متناسقاً مع هذا المحور فالأعلى هو الرب الذي خلق على غير مثال سابق، ودونه كل الخلائق، وأنزل على عبده الرسالة وأقرأه وتعهد بتحفيظه.

أما اسمها الآخر (سبح) فيلخص واجب المدعو لهذه الرسالة الكاملة التي يستحق مرسلها التنزيه عن المعايب والنقائص.

والسورة وحدة بيانية معجزة فقد ضمت في آياتها التسع عشرة محوراً جمع خاتمتها إلى

(١) الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين السيوطي ١/ ٣٩، والحديث أخرجه البخاري ح ٤٦٥٧.

(٢) روح المعاني للألوسي ٣٠/ ١٠١.



مقدمتها، فأول جملة فيها تدعو إلى التسبيح وآخر جملة تؤكد قدم ما يدعو إلى التسبيح الذي دعت إليه الرسالات كلها في وحدة العقيدة التي أساسها وحدة المصدر: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ الآيتان (١٨و ١٩).

٢- مناسبتها لما قبلها:

موضوع سورة الأعلى يفتح عيون المكلفين وآذانهم لعظيم صنع الرب ويدعو بين السطور إلى تأمل ذلك والتفكر فيه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾الآيات (٢-٥)، وسورة الطارق قبلها تركز على هذا المعنى وتشرحه: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ [الطارق: ٥]، فكان دور سورة الأعلى تلخيص ما فصلته الطارق بعبارتين قصيرتين: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ الآيتان (٢ و٣).

و المتأمل في آخر سورة الطارق وأول سورة الأعلى بعدها يشعر كأن السورتين قطعة واحدة، فقد جاء في آخر الطارق: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق: ١٧]. وجاء في أول الأعلى: سبح اسم ربك الأعلى، فكأن الأمر بالتسبيح مسبب بالأمر بالإمهال، وهذا قريب إلى عقل المتدبر، فالاستعجال نقيصه والله تعالى منزه عن النقائص فسبحه لحلمه على المستحقين لعاجل عقوبته[1].

٣- مناسبة أول الأعلى لآخرها:

جاء أول سورة الأعلى تسبيحاً للرب على كمال خلقه وتقديره وهداه وتدبيره للحياة الدنيا، لتكتمل حلقات السورة بإقرار حقيقة قرآنية تشريعية بلفت انتباه المكلفين إلى أن الدنيا بعظيم فضل الله على أهلها لا تصلح إلا أن تكون مزرعة للآخرة ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾الآيتان (١٦ و١٧)، وأن هذه حقيقة خالدة لم تكن شريعة محمد ﷺ بدعاً فيها، ولكنها في: ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ آية ١٩.

---

(١) انظر في هذا المعنى نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٨/ ٣٩٣.

مقاطع السورة:

يمكن تقسيم سورة الأعلى إلى ثلاثة مقاطع:

الأول: تسبيح وتعظيم:يفتح قلوب المكلفين على عظمة الرب (الأعلى) واستحقاقه للتنزيه والذكر الدائم المعظم.

الثاني: تكليف وتذكير:يقرر حقيقة رسالة النبي محمد ﷺ وأنه بعث بالهداية والإرشاد.

الثالث: مقومات الفلاح: وفيه بيان القرآن لأقصر الطرق المؤدية إلى فلاح المكلف.

المقطع الأول: تسبيح وتعظيم

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾.

تبدأ سورة الأعلى بأمر النبي ﷺ – ومن خلفه أمته – أن يسبح اسم ربه الأعلى، أن يمجده ويقدسه فهو الرب الذي خلق وربى، وأبدع وسوى، وقدر فهدى، خلق كل شيء، وقدر كل كائن، لا يقتصر خلقه على إبداع دون سواه، ولا يتوقف تقديره لحدث دون غيره، وهذا يستوجب التسبيح والتعظيم، ففي هذا الإطلاق ما يخرج التصور البشري من حدوده الضيقة ليسبح في ملكوت القدرة المطلقة فيسبح، وسياق سورة الأعلى في حسن الخلق والتدبير عام لكل خلق وكل تدبير، وقد جاء الامتنان على الإنسان في خلقه خصوصاً في مواضع من كتاب الله تعالى مثل قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانفطار: ٦]، ومثل قوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

و يأتي وصف الرب بالأعلى ليرتقي بنظر العبد إلى كل فوق، ألست أيها الإنسان فقيراً وفوقك الغنى!، ألست ضعيفاً وفوقك القوة!، ألست صغيراً – مهما كبرت – وفوقك العظمة!،

ألست ميتاً - مهما عشت - وفوقك الخلود!.

إذاً فانظر في ملكوت ربك الأعلى إلى خلقه كيف سواه، إلى تقديره كيف هدى به كل مربوب له إلى مداه، وإلى المرعى، وما من نبات إلا وهو صالح لخلق من خلق الله، وفي ذكر المرعى مخصصاً بعد ذكر عموم الخلق والتقدير مثال ينطلق بالمسبح من ملامسته للأرض التي يقف عليها إلى كل خلق وإلى كل تقدير، فمن لا يحس بالقريب أعجز من أن يستشعر الفضل بالبعيد، ومن لا يفيد من الواقع أضيق من أن يستشرف المستقبل، ومن لا يحسن السير على الأرض أضل من أن يجوب الفضاء.

و الإشارة إلى النبات الذي يذوي فيصبح غثاء يميل إلى السواد يومئ إلى ذبول الحياة بعد نضارتها، وهكذا شأن كل حي في هذه الحياة أمره إلى نهاية[1].

لقد كان العربي يقرأ هذه الآيات فيجد فيها ما يدعوه للتسبيح: سبحان ربي الأعلى، بما يمتلك من أدوات بدائية للنظر والاعتبار، فكيف يسوغ ممن يقرأ هذه الآيات في عصر العلم والتقنية ألا تنطلق سجيته بالتسبيح والتقديس، وهو يرى دقائق الخلق ويكتشف عظمة الخالق فيها، أيكفيه أن ينظر في جسم الإنسان وأعاجيبه؟ أم ينطلق إلى دنيا النبات؟ أم يقلب النظر في أصناف الحيوان؟ وهل ينشغل بهذا كله عن الانطلاق إلى الفضاء وما فيه: « سبحان ربي الأعلى»، وكل مربوب له أدنى، وكل أدنى لا ينزه ولا يقدس!. ويأتي هذا المقطع لينسجم مع محورها حين يطلق النظر في كل مخلوق مستوجباً تقدير الخالق حق قدره سحبانه.

دروس وعبر من المقطع:

* تسبيح الله تعالى وذكره علامة من علامات يقظة المؤمن بإدراكه عظيم قدر ربه الذي خلقه.
* النظر في النفس والكون والتفكير في بديع صنع الله فيهما عدة المؤمن لمعرفة قدر ربه الأعلى.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٨٨.

المقطع الثاني: تكلييف وامتنان

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ ﴾

بعد الامتنان بهداية عموم المكلفين والأشياء: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ جاء امتنان الله تعالى على رسول الله ﷺ خصوصاً: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾[1] ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾.

فلا يليق بالمرسل أن ينسى تكليفه إلا ما شاء الله وذلك على سبيل التشريع[2]، وفي هذا الاستثناء ما يومئ إلى النسخ المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٥]. وتقرر الآية بعد ذلك أن كمال الربوبية بتعهد ذاكرة النبي يستوجب تحديد الألوهية، فهو سبحانه دون سواه «يعلم الجهر وما يخفى»، فيستوي عنده الجهر والإخفاء، ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩ ﴾[غافر: ١٩]. هو الذي يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصلداء في اللية الظلماء، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ولا يشاركه في هذه القدرة المطلقة أحد من خلقه.

ومن تمام امتنانه سبحانه على نبيه الأمي أن يوفقه للطريقة الأيسر والأسهل في حفظ الوحي، والتشريع السمح الذي هو أيسر الشرائع[3]، وهذا ما يستوجب الشكر على الفضل وأعظم مظاهر الشكر القيام بواجب هذا التشريع من تبليغ وتذكير « فذكر إن نفعت الذكرى»، وسواء نفعت الذكرى أم لم تنفع فإن التبليغ هو هداية الإرشاد وهي وظيفة الدعاة والأنبياء. أما هداية التوفيق فلا يملكها إلا مالك القلوب سبحانه، فمن خشي ربه تذكر، ومن شقي بفعلته تنكر فأوصله تنكره إلى النار الكبرى، فلا يموت فيها فيرتاح، ولا يحيى حياة يتلذذ بها[4].

---

(١) روح المعاني للآلوسي ٣٠/ ١٠٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ٤/ ٥٠٠.

(٣) تفسير النسفي ٥/ ٣٥٣.

(٤) المرجع السابق ٥/ ٣٥٤.

دروس وعبر من المقطع:

* المواهب الذاتية فضل إلهي لا يجوز أن ينسبه مخلوق لنفسه، فالمخلوق لا يكون إلا ضعيفاً وما يظهر عليه من علامات الكمال النسبي ينسب إلى عظمة الخالق، فكل ذلك منه سبحانه.
* كل نعمة لا بد لها من شكر، وشكر نعمة الرسالة تبليغها، فالأنبياء مبلغون عن الله تعالى، والعلماء ورثة الأنبياء يبلغون عنهم.
* الداعية المكلف بالتبليغ، لا يسأل عن نتيجته، فالقلوب بيد الله تعالى يقلبها كيف يشاء، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦][1].

المقطع الثالث

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

بعد أن قررت آيات المقطع الثاني أن المكلفين صنفان: صنف يخشى فيتذكر، وصنف يبتعد عن التذكر فيشقى، ختم المقطع الثالث السورة بالحديث عن أهل التذكر وأضرب عن ذكر أهل الشقاء لأمرين:

الأول: أن حال أهل التذكر أرجى للنفس فجعل بدليل السياق كافياً لفهم حال أهل الشقاء.

الثاني: أن الإضراب عن ذكر أهل الشقاء دليل على هوانهم على الله تعالى.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ فمن طهر نفسه من الشرك وتعلقاته وذكر

(١) الهداية المنفية هي هداية التوفيق، أما هداية الإرشاد فهي وظيفة الأنبياء والدعاة كما مر.

اسم ربه قولاً وعملاً فاز ونجح[1]، ومن لم يتزك فقد اختار الشقاء والضنك، لأنه اختار الحياة الدنيا على الآخرة، وهذا علامة الخذلان، فهل يخفى على عاقل أن ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾، وليس هذا بدعاً في الرسل والرسالات: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾.

دروس وعبر من المقطع:

* أهل الغفلة أهون على الله تعالى من أن يحفل بهم فهم موضع النسيان والإهمال ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: ١٢٦].

* ذكر الله تعالى باللسان والقلب ولا يغني أحدهما عن الآخر، وكل قول حسن ذكر، وكل عمل بر ذكر، ومن غفل قلبه فلا عبرة بذكر لسانه.

* عقيدة الأنبياء واحدة وما يدعون إليه من خير وبر لا يختلف باختلاف الزمان والمكان وشرائعهم مختلفة تعالج كل زمان بما يناسبه.

(١) روح المعاني للآلوسي ٣/ ١٠٩.

سورة الغاشية

بين يدي السورة:

اسمها:

سورة الغاشية، ولم يرد لها اسم سواه[1].

فضلها:

سبق ذكر فضلها في تفسير سورة الأعلى، وأن النبي ﷺ كان يقرؤهما في العيدين ويوم الجمعة.

نزولها:

سورة الغاشية مكية باتفاق[2].

عدد آياتها:

ست وعشرون بلا خلاف.

محور السورة:

الحديث عن اليوم الآخر وإثبات مطلق القدرة الإلهية.

المناسبات في سورة الغاشية:

١- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

الغاشية هو اسم من أسماء اليوم الآخر[3] الذي هو محور السورة ومدار حديثها.

---

(١) أورد الشيخ عبد الفتاح القاضي تعدد أسماء السور، ولم يذكر للغاشية سوى هذا الاسم، كما لم يرد في التفاسير اسم آخر لها. انظر تاريخ المصحف عبد الفتاح القاضي ١٣٣-١٣٧.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/ ٢٥.

(٣) تفسير النسفي ٥/ ٣٥٥.

٢- مناسبتها لما قبلها:

كانت خاتمة سورة الأعلى إقراراً لفضل الآخرة على الحياة الدنيا، فجاءت فاتحة سورة الغاشية صورة حية من صور الآخرة بما فيها من مشاهد الخسارة والربح، الجحيم والنعيم[1].

٣- مناسبة أول السورة لآخرها:

بدأت سورة الغاشية بالحديث عن مصير الخاسرين في الآخرة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ ﴾الآيتان (٢ و٣)، وانتهت السورة بالموضوع نفسه: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦ ﴾. فتشكلت بذلك للسورة وحدة موضوعية يلحظها القارئ بغير عناء.

مقاطع السورة:

يمكن تقسيم سورة الغاشية إلى ثلاثة مقاطع:

الأول: عقاب وثواب: توضحهما مقدمة السورة للمكلفين في يوم «الغاشية».

الثاني: آيات القدرة على البعث.

الثالث: وظيفة النبي ﷺ.

---

(١) هذا قريب مما جاء في تفسير البقاعي فانظره ٨/ ٤٠٤.

المقطع الأول: ثواب وعقاب

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾

هذا المقطع الذي يستغرق أكثر من ثلثي آيات سورة الغاشية، يحمل موضوع السورة الذي يركز على مشاهد القيامة الغاشية للناس بشدائدها وأهوالها[1]، وسنة القرآن الكريم أن يرسم صورة القيامة بشقيها: صورة الشقاوة وأهلها، وصورة السعادة وأهلها، ليتمكن السامع من المقارنة ويحس بالمفارقة، نجد هذه المقارنة والمفارقة من أول سورة في الترتيب القرآني، سورة البقرة التي افتتحت بذكر المتقين ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢]. وثنت بذكر الكافرين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾[البقرة: ٦].

وفي سورة آل عمران: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧]، وفي سورة الشمس: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس: ٩-١٠].

و لما كان وصف القيامة في أول السورة بالغاشية التي تلقي بظلالها على المفرطين والمقصرين، ناسب أن يبدأ السياق بوصف حالهم قبل بيان حال السعداء والموفقين[2].

وأول صفة أطلقتها السورة على أهل الشقاوة الخشوع وهو الذل في لغة العرب[3]، ووصف

(١) تفسير النسفي ٥/ ٣٥٥.

(٢) انظر ما جاء عن البقاعي في هذا المعنى ٨/ ٤٠٨.

(٣) النسفي ٥/ ٣٥٥.

وجوههم بالخشوع تهكماً بهم لرفضهم الخشوع لذكر الله تعالى في الدنيا فورثهم سبحانه الذل والصغار في الآخرة[١].

و أهل النار غالباً من المنعمين في الدنيا المستريحين من عنائها فقد كانت الدنيا جنتهم، فهم في النار من أهل النصب والتعب ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ بجر السلاسل والأغلال والخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل[٢].

و الكفار محرومون من هناءة العيش في آخرتهم، فهواؤهم «نار حامية»، وشرابهم يغلي أعلى مدى الغليان، وطعامهم سم قاتل. ولكنه يتجدد، لأنه «لا يقضى عليهم فيموتوا»، وبذلك فإن منافع الأكل منفية عنه «لا يسمن ولا يغني من جوع».

أما حال السعداء في الآخرة – وهي الصورة المقابلة لحال الأشقياء: فوجوه تكسوها النعمة «ناعمة»، مقابل الوجوه «الخاشعة»، رضيت ما عملته في الدنيا لما رأت ثوابه، وقد كانت تذاد عنه في الدنيا وتنهى عن المضي فيه لما كانت تلاقي في سبيله من العنت.

و لا ترضى النفس البشرية بأقل من الكمال، فهي راضية "في جنة عالية" المكان والمقدار، لا يرهق سمعها فحش أهل الدنيا وبذاءة من كانوا ينغصون عيشهم فيها، أما بصرها فتبلغ راحته مداها بالنظر إلى عيونها الجارية، وأما الجنوب التي كانت تتقلب في الدنيا يقض مضجعها قيام الليل من جهة، وعذابات الحياة الدنيا من جهة أخرى فلها "سرر مرفوعة"، وأما أكفهم المرفوعة إلى السماء دائماً رجاء رحمة الله تعالى ففيها أكواب موضوعة بألذ أنواع الشراب.

وصورة الشراب في يد شاربه لا يزينها إلا اتكاؤه وصفاء جوه، وهدوء نفسه، وهو ما توفره الوسائد المصفوفة بعضها إلى بعض على البسط الفاخرة العريضة: ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾[٣] آية ١٤ و١٥ و١٦.

---

(١) روح المعاني للآلوسي ٣٠/ ١١٢.

(٢) النسفي ٥/ ٣٥٥.

(٣) انظر تفسير الآيات في تفسير ابن كثير ٤/ ٥٠٢ و٥٠٣ وتفسير النسفي ٥/ ٣٥٥-٣٥٧.

دروس وعبر من المقطع:

* الغفلة لا تورث صاحبها إلا الندم، فإن من أسماء القيامة الغاشية لأنها تغشى الناس بشدائدها على حين غفلة منهم.
* نعيم الدنيا لا يدوم، ولا يساوي شيئاً أمام نعيم الآخرة للمؤمن، كما لا يغني الكافر من عذاب الله شيئاً.
* الدنيا سجن المؤمن بحجبه عن منزلته في الآخرة، وجنة الكافر التي ينتقل منها إلى نار تلظى.

المقطع الثاني: آيات القدرة على البعث

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾.

لما بنيت الآيات في المقطع الأول حال أهل النار وأهل الجنة، ليتمكن العاقل من المقارنة والاختيار، شفع السياق هذه المقارنة بذكر دلائل عظمة الخالق على البعث والنشور والحساب بما يعهده المكلف أمام ناظريه من مشاهد وآثار تدل على مطلق القدرة[1]، والإبل واحدة من أكثر الدواب التصاقاً بحياة العرب. وقد تكرر ذكرها أو الإشارة إليها في القرآن في غير موضع من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٢]، ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ [الإسراء: ٥٩]، ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يوسف: ٧٠]، ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحج: ٣٦] وغيرها.

(١) انظر نظم الدرر للبقاعي ٨/ ٤٠٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/ ٣٤.

و قد أحسن أبو حيان في البحر المحيط في وصف ما تفردت الجمال به من الصفات، فقد اجتمع في الإبل ما تفرق من المنافع في غيرها، من أكل لحمها وشرب لبنها والحمل عليها والتنقل عليها إلى البلاد الشاسعة وعيشها بأي نبات أكلته، وصبرها على العطش، حتى إن فيها ما يرد الماء لعشر، وطواعيتها لمن يقودها، ونهضتها وهي باركة بالأحمال الثقال، وكثرة حنينها وتأثرها بالصوت الحسن على غلظ أكبادها، ولا شيء من الحيوان جمع هذه الخصال غيرها، وقد أبان تعالى امتنانه على المكلفين بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴾ [يس:٧١] الآيات، ولكونها أفضل ما عند العرب جعلوها دية القتل، ووهبوا المئة منها من يقصدهم، ومن أرادوا إكرامه، وذكرها الشعراء في مدح من وهبها.... وناسب التنبيه بالنظر إليها وإلى ما حوت من عجائب الصفات ما ذكر معها من السماء والجبال والأرض، لانتظام هذه الأشياء في نظر العرب في أوديتهم وبواديهم، وليدل على الاستدلال على إثبات الصانع، وأنه ليس مختصاً بنوع دون نوع بل هو عام في كل موجوداته[1].

و قد أورد المشتغلون بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم كلاماً غاية في الروعة يلفت الأنظار إلى الحكمة الإلهية من الامتنان على المكلفين بالإبل دون سواها من الدواب في مقام الاستدلال على مطلق القدرة، من ذلك ما ذكره د. ناطق حميد القدسي في بحث بعنوان: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ من تفصيلات خلق الإبل واختلاف هذا الخلق عن سائر الحيوانات، فقد بين أن الأجهزة الداخلية في الجمل تختلف عن الحيوانات الأخرى، ومن ثمرات هذا الاختلاف ما يوقفنا على سر قابلية الإبل التي تعيش في الصحراء لتناول الأشواك، فشفة الجمل العليا مشطورة ومتحركة، وهي حساسة لنوعية الغذاء المأكول، ولها القدرة على فصل الغذاء عن الرمل والمواد الأخرى العالقة، أما الشفة السفلى فإنها تميل إلى التقوس وأسنانه طويلة حادة تساهم في تقليل تأثير الأشواك المأكولة.

وباطن الفم في الإبل مبطن لارتفاع ٢ سم على الطول بالحلمات المخروطية الملونة، أما

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ٤٦٣-٤٦٤.



الحليمات المخروطية العملاقة التي تقع على جوانب اللسان فإن كل واحدة منها ذات قطر يصل إلى ١ سم.

و عن جَلَد الإبل في تحمل قلة الماء يذكر الباحث أن طرح اليوريا عن طريق البول غير موجود في الإبل، ولهذا فإن الجمل الذي يفقد ثلث وزنه خلال فترة أسبوعين إلى ثلاثة من عدم شرب الماء، لا يفقد التوازن المائي في جسمه كالإنسان وغير الإبل من الحيوانات، ولا يتعرض لأي أعراض مرضية، وهو قادر على العيش لمدة لا تقل عن ثلاثين يوماً دون شرب الماء إذا توافرت له بعض نباتات الرعي الجيدة، وللجمل قدرة عالية على الارتواء حيث إن بإمكان جمل يزن ٦٠٠ كغم تعويض جميع الماء الذي فقده نتيجة الحرمان من الماء لمدة أربعة عشرة يوماً قد يصل إلى مئتي لتر خلال فترة لا تتجاوز ثلاث دقائق من الشرب، وباختصار فإن قدرة الجمل على التكيف مع ظروف قلة الماء تتلخص في:

أ- قدرته المتميزة على الاقتصاد في استهلاك الماء المخزون من جسمه.

ب- وظيفة الكلية في الجمل فإن حجم البول المفرز يومياً واحد من ألف من وزنه بينما يصل حجم البول في الحيوانات الأخرى المعروفة بمقاومتها للجفاف مثل الأغنام إلى واحد من مئتين[1].

و قد تدرج النص القرآني في دعوته إلى النظر - بعد الإشارة إلى الإبل المجاورة للمخاطبين- فارتقى بأنظارهم إلى السماء التي هي أعظم من الإبل، وقد بين في غير موضع من القرآن الكريم كيف رفعت السماء: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد: ٢]، ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [لقمان: ١٠]، رفع السماء آية كما أن بناءها آية لفتت أنظار المبصرين: ﴿ أَفَلَمْ

(١) انظر ص ١٨-٢٠ باختصار وتصرف عن بحث « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت» د. ناطق حميد القدسي» المقدم لمؤتمر الإعجاز القرآني- جامعة الزرقاء الأهلية صيف عام ٢٠٠٥م. والبحث يذكر قضايا كثيرة ومتنوعة تبين عظمة الخالق في خلق الإبل ولكن المجال لا يتسع لتفصيلها، وما ذكر مجرد إشارة سريعة والأبحاث في هذه الآية من آيات الله تعالى غدت كثيرة، والحمد لله.

يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾ [ق: ٦]، ودون السماء الجبال وجاء التعبير امتناناً بنصبها وتثبيتها، مناسباً للامتنان برفع السماء، فنصب الجبال يثبت الأرض التي هي فراش المكلفين، ورفع السماء غطاؤهم، وبهما تتم النعمة وتتفق المنة.

و النظر في خلق الجبال أوصل العلماء في العصر الحاضر إلى عجيب صنع الله تعالى، فقد تبين للعلماء أن للجبل جذوراً تمتد تحت سطح الأرض بما يعادل أضعاف ارتفاعه فوق سطح الأرض وقد صار تعريف الجبل علمياً أنه ذاك الوتد الصخري المزروع في الأرض من أعلى إلى أسفل مخترقاً طبقات الأرض لتثبيتها وحفظ توازنها فوق الطبقة السائلة التي تستقر الأرض عليها[1].

و الجبال تثبت القشرة كما يثبت الوتد الخيمة إذا غرس في التراب، وهذا مصداق قوله تعالى ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ: ٧]، وهو سر لم يتأكد منه الباحثون إلا عام [2]١٩٥٦.

و انتهى السياق إلى الحديث عن بسط الأرض وتسويتها للعيش عليها بهناء، فقد سطحت وليس للمكلفين فضل سطحها، والصورة غدت مكتملة الحيوية غاية في البهاء: إبل عظيمة الخلق ترتقي برقبتها إلى عنان السماء المنصوبة المزدانة، وجبال تناطح بعظمتها عنان السماء، وأرض ميسرة للعيش ممهدة.

دروس وعبر من المقطع:

* صاحب القلب الحي دائم النظر في ملكوت السماوات والأرض، ففي إدامة النظر وقود حياة القلوب.

* كل مشهد من مشاهد الحياة والأحياء يوحي بفضل إلهي وشاهد من شواهد القدرة الإلهية المطلقة.

---

(١) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم - محمد سامي محمد علي ص ١٠٦ وانظر الجبال في القرآن الكريم د.زغلول النجار ص ٨٤-٨٥.

(٢) محمد سامي محمد علي ص ١٠٦.

المقطع الثالث: وظيفة النبي الداعية ﷺ

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾.

بعد أن بسط الله تعالى آياته في كونه لتقوم شاهداً على مطلق قدرته تعالى واستحقاقه العبادة، ورجاء جنته والخوف من ناره وعقابه، بين وظيفة نبيه ﷺ وأن ما أناطه سبحانه به هو مجرد التذكير ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ فما أنت بمسلط عليهم، كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ ٥٤ ق (١). وهذا يثبت له ﷺ ولكل داعية هداية التوفيق التي لا يملكها إلا الله تعالى، ومن لم يوفقه سبحانه إلى الهداية فهو الذي توعده بالعذاب الأكبر في يوم الغاشية يوم يرجعون إليه سبحانه ويتولى هو حسابهم، وهو ما يؤكد أنه لن يفوت شيء من هذا الحساب لأنه من قِبل من لا يضل ولا ينسى ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر: ١٩].

دروس وعبر من المقطع:

على الدعاة أن يقوموا بدورهم في التذكير والإنذار وليس عليهم نتيجة الدعوة فأمرها إلى الله تعالى، فهم دعاة للناس وليسوا قضاة عليهم.

عزاء المؤمن في تمرد أعداء الله عليه، وضيقهم بدعوته أنهم إليه تعالى « إيابهم»، وأن عليه سبحانه «حسابهم»، وهو أعلم بما يستحقون..



سورة الفجر

بين يدي السورة:

اسمها:

سورة الفجر ،ولم يورد المفسرون لها اسماً غير الفجر.

فضلها:

ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره ما أخرجه النسائي عن جابر قال: (صلى معاذ صلاة فجاء رجل فصلى معه فطول ،فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف ،فبلغ ذلك معاذاً فقال :منافق ،فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ،فسأل الفتى ،فقال :يا رسول الله جئت أصلي معه فطول علي فانصرفت، وصليت في ناحية المسجد ،فعلفت ناقتي ،فقال رسول الله ﷺ : (أفتاناً أنت يا معاذ؟ أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى ،والشمس وضحاها ،والفجر ،والليل إذا يغشى)[1].

نزولها:

سورة الفجر مكية في قول جمهور المفسرين، وقال علي بن طلحة مدنية[2]، والصحيح قول الجمهور، فموضوع السورة هو موضوع التنزيل المكي كما سيتبين.

عدد آياتها:

في الحجازي عدد آياتها اثنتان وثلاثون، وفي الكوفي والشامي ثلاثون، وفي البصري تسع وعشرون[3].

---

(١) انظر ابن كثير ٤/ ٥٠٥.و الحديث أخرجه الإمام مسلم بلفظ « أتريد أن تكون فتاناً...» ح ٤٦٥.

(٢) تفسير الآلوسي ٣٠/ ١١٩.

(٣) المصدر نفسه.



محور سورة الفجر:

إثبات عذاب الكافرين يوم القيامة.

المناسبات في سورة الفجر:

المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

الفجر أدل شيء على قيام الساعة، والسورة كلها توكيد لما ينتظر الكافرين عند قيام الساعة وما يليها، فالفجر ينفجر عن صبح قد أضاء وليل قد انقضى، فكأنه بعث جديد بعد موت متكرر، فكان استهلال السورة بذكر الفجر غاية التناسق مع موضوعها.

مناسبة سورة الفجر لما قبلها:

جاء آخر سورة الغاشية ليقرر إياب الخلائق إلى الله تعالى، ومنهم الكافرون المقصرون، وأن حسابهم على الله، وعيداً لهم وتهديداً على إصرارهم على الكفر، ثم افتتحت سورة الفجر بالقسم على حسابهم[1].

مناسبة أول الفجر لآخرها:

جاءت فاتحة سورة الفجر لتثبت قدرة الله تعالى على بعث الكافرين وعقابهم، واختتمت السورة بذكر مصير المؤمنين وثوابهم ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾. لتحصل المقابلة بين مصيرين - على سنن القرآن وعادته كما سبقت الإشارة في سورة الغاشية - فإذا صارت الصورتان واضحتين للمتدبر كان بوسعه أن يختار إحداهما.

مقاطع السورة:

يمكن تقسيم سورة الفجر إلى مقطعين:

---

(١) انظر تفسير البقاعي ٨/ ٤١٣.

الأول: في التاريخ عبرة وعظة.

الثاني:أهل الشقاء وأهل السعادة.

المقطع الأول: في التاريخ عبرة وعظة

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾.

مقدمة سورة الفجر احتوت على مشاهد كونية تدل على عظمة الرب الخالق، أقسم مبدعها سبحانه بها دلالة على أهمية وخطورة ما يقسم عليه تعالى، فوقت الفجر من أشرف أوقات اليوم والليلة، والليالي العشر من ذي الحجة أفضل أيام العام، والشفع والوتر تختم بهما صلاة الليل وهي من أعظم القربات إلى الله تعالى، والليل وما فيه من سكون وهيبة[1]، والمقسم عليه محذوف مقدر في السياق بقولنا: ليعذبن الله الكافرين[2].

ويقرر الحق تبارك وتعالى أن هذا القسم بما استخدم فيه من آيات كونية باهرة لا يفيد منها أو يلتفت إلى أهميتها إلا صاحب العقل الراشد (لذي حجر)، وهو وصف يتصل مضوعياً بها بعده صلة العاقل بعقله، لأن السياق بعد ذلك يشرع في ذكر أدلة تاريخية على إحاطة الله بالكافرين مما يجعل التاريخ بصفحاته المفتوحة أمام أرباب العقول عظة وعبرة تمنعهم من السير في ركاب أولئك الخائبين الذين كفروا بالله وباليوم الآخر، فأخذهم الله في الدنيا قبل أن يحل

(١) وقد وردت أقوال للمفسرين في معنى الفجر والليالي العشر والشفع والوتر لا مجال لتفصيلها في التفسير الموضوعي. انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٥٠٥، والنسفي ٥/ ٣٥٩.

(٢) انظر المراجع السابقة.



عليهم عذاب الآخرة، فأين عاد قوم هود عليه السلام؟ هل نفعتهم قوتهم وبسط خلقهم، وأين ثمود قوم صالح الذين طوعوا الصخر فحفروا فيه بيوتهم، ولكن قلوبهم كانت أقسى من الصخر؟! وأين فرعون الذي أوصله غروره إلى أن يدعي الربوبية: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ ﴾ ٢٥، وجواب التاريخ ماثل واضح: لقد مضى هؤلاء جميعاً بعذابات عاجلة، آثارها ماثلة: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [محمد: ١٠].

وثمرة هذا كله أن يستقر في ذهن العاقل وقلبه أنه مربوب لعظيم لا يغالب ولا يغفل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾(١)، فأين المفر؟! ومن لم يجد في التاريخ واعظاً، فإن الحاضر أعجز عن ردعه، لأن القرب حجاب للنظر.

دروس وعبر من المقطع:

* لله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وقسمه سبحانه يدل على أهمية المقسم به، ويلفت النظر إلى بديع صنعه.

* دلائل القدرة مهما عظمت لا يفيد منها إلا أصحاب العقول الراشدة، أما من طمست عقولهم فإنها تورثهم عمى القلوب ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

* العبد مهما عظم شأنه وزاد خطره لا يرتفع عن مقام العبودية، فأين مقام العبد من سيده؟! فإذا غابت هذه الحقيقة عن العبد استحق تأديب سيده لئلا يتمادى في التمرد على مقام عبوديته.

المقطع الثاني: أهل الشقاء وأهل السعادة

﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾

بعد ذكر الحق تبارك وتعالى مصائر الغابرين من المتكبرين على أنبيائهم، الجاهلين بقدر ربهم سبحانه، شرع في ذكر صورة من صور هذا الجهل، وهي صورة جهلهم بأسرار عطائه ومنعه تعالى، وقد ذكّر السياق المخاطبين بأصل هذا المكلف الجاهل لقدر ربه فهو (الإنسان) الذي منحه الله العقل، وكلفه، وجبله على النسيان والأنس بنفسه والمحبة لها والرضى عنها[1].

هذا الإنسان يحسب أن ما أنعم الله به عليه هو عن جدارة به واستحقاق له، فيدعوه ذلك إلى الفخر والكبر، وأن ما ابتلاه به هو انتقاص له وتخل عنه فيكون ذلك مدعاة للهم والأسى[2]، وواضح من السياق أن هذا لا يكون إلا من هؤلاء الجاهلين الغافلين،أما أهل البصيرة والتقوى فلا يكون منهم في السراء والضراء إلا مزيد من التسليم والرضى والرجاء: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١]، ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

لقد نسي أولئك أو تناسوا أن الله تعالى يعطي الدنيا لمن أحب ولمن لم يحب، وأن الدنيا لو

(١) نظم الدرر للبقاعي ٨/ ٤١٨.

(٢) انظر ابن كثير ٤/ ٥٠٩.



كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء.

و هذا الادعاء من الغافلين بأن قياس الرضا والغضب الإلهي هو العطاء أو المنع في الدنيا إساءة قولية، ينتقل السياق بعد ذكرها إلى تذكيرهم بإساءتهم الفعلية: ﴿ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾ ﴾ الآيات ١٧-٢٠.

و الإساءة الفعلية هنا مرتبطة بالإساءة القولية ارتباطاً موضوعياً، فالذين ينظرون إلى العطاء والمنع على أنه علامة على الرضا أو السخط الإلهي، هم الذين لا يحسنون التصرف عند العطاء، فلا يشفقون على اليتيم ولا يؤرقهم حاجة المسكين، ولا يفرقون بين حلال وحرام من الرزق، وهم بذلك غافلون عن حقيقة البعث بعد الموت، فلو كانوا يستحضرون هيبة هذه الحقيقة في نفوسهم لما كانوا كذلك، فماذا هم فاعلون إذا « دكت الأرض دكاً»، وجاء ما يتبع زلزلة القيامة من أمر الله تعالى وقضائه، هل ينفعهم ندم بعد إصرار؟! أو تذكر بعد غفلة؟! وفي ذلك الموقف المهيب الرهيب فلتذهب النفس كل مذهب في تصور عذابهم ﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ ﴾.... وفي اللحظة المناسبة التي يروع النفس فيها هذا المشهد القرآني الناطق يظهر في الأفق تتمة هذا المشهد، والإضافة المهمة لجلاء الصورة فيها، إنها التتمة التي تزيد أهل العذاب الحسي عذاباً معنوياً عندما يرون – وهم أهل القلق والاضطراب في الفهم والسلوك – النفس المطمئنة وما أعد لها ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾. فأين أهل المال الآثم في الدنيا من هذا النعيم المقيم في الآخرة، وأين أهل السخط في الدنيا من هذه النفس الراضية المرضية في الآخرة؟!

و هل يتم المشهد بجلائه وكمال تعبيره إلا بهذه المقارنة السريعة ولكنها المؤثرة في آن معاً؟!

دروس وعبر من المقطع:

* الدنيا دار ابتلاء وامتحان لا يجتازه إلا من عرف سنن الله تعالى وسلم بها.

* المال يكون نعمة للمكلف إذا أحسن التصرف فيه وفق شرع الله تعالى، ويكون عنوان شقاء إذا أساء التصرف فيه.

* السعادة الحقيقية والشقاء الحقيقي مرهونان بها للعبد يوم القيامة، أما سعادة الدنيا وشقاؤها فظل زائل.


مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

سورة البلد

بين يدي السورة:

اسمها:

سورة البلد وليس لها اسم غيره في كتب التفسير إلا ما أورده الشوكاني بقوله: ويقال سورة: لا أقسم[1].

فضلها:

لم يصح في فضل سورة البلد حديث[2].

نزولها:

سورة البلد مكية بتمامها في قول الجمهور، وقيل مدنية بتمامها، وقيل مدنية إلا أربع آيات من أولها، واعترض بأن كلا القولين يأباهما قوله: « وهذا البلد»[3]، ولم يورد تفسير ابن كثير غير القول بمكيتها[4]، وذكر الشوكاني أنها مكية بلا خلاف[5]، ولعل ادعاء عدم الخلاف سببه أن من خالف لا يملك حجة على مخالفته.

عدد آياتها:

عشرون آية بلا خلاف.

محور سورة البلد:

تكليف الإنسان وما يدل عليه من ضعف الإنسان ودينونته لربه[6]، يبدو هذا المحور

(١) فتح القدير ٥/ ٤٤٢.

(٢) أورد الزمخشري في الكشاف حديثاً لا يصح في فضل سورة البلد. انظر الكشاف للزمخشري ٤/ ٢٥٧.

(٣) تفسير الآلوسي ٣٠/ ١٣٣.

(٤) ابن كثير ٤/ ٥١١.

(٥) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٤٤٢.

(٦) تفسير البقاعي ٨/ ٤٢٥.

في جميع مفاصل السورة: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ ﴾ ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ ﴾ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾.

المناسبات في سورة البلد:

المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

البلد «مكة» هي حاضنة التكليف الأولى، ومنطلق دعوة النبي ﷺ، وبلده التي رباه الله تعالى على ثراها على خلق النبوة، فجاء القسم بهذا البلد على ما قدر للإنسان كل الإنسان مؤمنه وكافره أن يعيش فيه ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾ وهو عنوان التكليف ومبرر المجاهدة في هذه الحياة.

مناسبتها لما قبلها:

ذكر في آخر سورة الفجر حال النفس المطمئنة وما أعد الله تعالى لها من الجنة وهي أشرف ما خلق الله كرامة للمؤمنين في الآخرة، فناسب ذلك أن تبدأ سورة البلد بذكر أشرف بقاع الدنيا (مكة).

«لما ذم سبحان فيما قبلها من أحب المال وأكل التراث أكلاً لماً، ولم يحض على طعام المسكين، ذكر جل وعلا فيها - في سورة البلد - الخصال التي تطلب من صاحب المال من فك الرقبة وإطعام في يوم ذي مسغبة، وكذا لما ذكر عز وجل النفس المطمئنة هناك - في سورة الفجر - ذكر سبحانه ههنا بعض ما يحصل به الاطمئنان»[١].

مناسبة أول «البلد» لآخرها:

بدأت سورة البلد بالقسم على خلق الإنسان يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة[٢]،

(١) الآلوسي ٣٠/ ١٣٣.

(٢) وهو معنى كبد كما يوضحه النسفي ٥/ ٣٦٦.



وانتهت ببيان مصير الفريقين: فريق الثبات أمام شدائد الدنيا للفوز بها عند الله في الآخرة، وفريق الانهزام أمام هذه الشدائد، وما أورثه انهزامه من عاقبة «نار مؤصدة»، وجمعت بين المقدمة والخاتمة مبررات منطقية لترتب النتائج على المقدمات، وأي كبد أشد مما يلقاه الكافر في ناره المؤصدة؟![1].

مقاطع السورة:

يمكن تقسيم سورة البلد إلى مقطعين:

مقدمة تسوق حقيقةقدرية هي خلق الإنسان في كبد، وموضوع السورة وهو تكليف الإنسان وضعفه.

المقطع الأول: خلق الإنسان في كبد

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾

يقسم الحق تبارك وتعالى بمكة البلد الحرام التي يحل بها المصطفى ﷺ وقت تتنزل هذه السورة، والقسم بمكة دليل على عظمتها، وحلول النبي ﷺ فيها يزيدها عظمة، وذكر حلوله يزيد القسم أهمية وتوكيداً، كما يقسم جل في علاه بآدم وما ولد من ذكر وأنثى، وعرب وعجم، وبيض وسود[2]، والقسم بآدم وذريته لأنهم (أعجب ما خلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان والعقل والتدبير، وفيهم الأنبياء والعلماء الصالحون)[3]، أما المقسم عليه فإن الإنسان

---

(١) وقد لخص ارتباط أول السورة بآخرها البقاعي بقوله: «وقد علم أن أولها هو هذا الآخر» مشيراً إلى الكبد، انظر البقاعي ٨/ ٣٤٦.

(٢) ذكر المفسرون أقوالاً في قوله: «ووالد وما ولد» منها أن المقصود إبراهيم وولده إسماعيل، أو إبراهيم وما تناسل منه، أو الوالد الذي يولد له، وما ولد هو العاقر. انظر فتح القدير للشوكاني ٥/ ٤٤٣.

(٣) انظر فتح القدير ٥/ ٤٤٣.



خلق في عناء ومشقة يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وفي هذا القسم ما يضع الإنسان - وهو ذو الكرامة عند الله تعالى - أمام قدره ليكون مستعداً للابتلاء والامتحان، غير غافل عما يقتضيه امتحانه من مجاهدة ومجالدة.

و غير خافٍ أن القسم بمكة وهي منطلق الرسالة الخاتمة، وبالإنسان المقصود بهذه الرسالة جاء متناسقاً مع المقسم عليه الذي هو خلق الإنسان في ابتلاء وامتحان دائمين، وهو مضمون هذه الرسالة الذي يلخصه التكليف. وفي بسط هذه الحقيقة - حقيقة التكليف - تحضير للمكلف ليكون مسؤولاً عن سلوكه، غير متفاجئ بنتيجته لأن الله تعالى قضى في حكمته: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

دروس وعبر من المقطع:

* كرامة الإنسان عند الله كبيرة يؤكدها قسم مطلع هذه السورة به، كما يؤكدها إرسال الرسل والأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ عناية بأمره.

* من سنن الله تعالى في خلقه أن الدنيا دار بلاء، وأن الراحة والسعادة فيها نسبية لا تبلغ مداها المتعارض مع «الكبد».

المقطع الثاني: تكليف الإنسان وضعفه

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قررت مقدمة السورة ابتلاء الإنسان وخلقه في مشقة عظيمة، وغاية التذكير بهذه الحقيقة أن يقف عند حجمه الطبيعي، ولا يستقوي بكرامته ولا يغره شرفه، مع ما في وصف الكبد من إعجاز، فهو ينفي كل ما جاء بعده من اغترار الإنسان بنفسه وامتنانه بماله وسلطته، ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ ﴾ مع ما هو فيه من أنواع الشدائد، ودافعه لهذا الاغترار أنه أنفق الأموال الطائلة بعد أن قدر على جمعها، وقد غاب عنه استحضار المراقبة، وحقيقة التكليف، وطبيعة السؤال عن المال وصعوبته: من أين اكتسبه وفيما أنفقه[1]، فكيف إذا أنفق هذه الأموال في عداوة النبي ﷺ والصد عن سبيل الله تعالى، وقد وردت روايات عديدة في ذكر سبب نزول هذه الآيات، منها أن رجلاً من بني جمح يقال له أبو الأشدين، كان يأخذ الأديم العكاظي ويجعله تحت رجليه ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه، وكان من أعداء النبي ﷺ، وفيه نزل « أيحسب أن لن يقدر عليه أحد»، وقد روي أن الحارث بن عامر بن نوفل أذنب فاستفتى النبي ﷺ فأمره أن يكفر فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ دخلت دين محمد، ففيه نزل قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾[2]، وغير هذه الروايات مما أورده المفسرون، غير أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

و الآيات تقيم الحجة على المكلف بما آتاه الله تعالى من نعم جعلته أهلاً للتكليف، فقد

(١) انظر فتح القدير للشوكاني ٥/ ٤٤٣ و٤٤٤.

(٢) انظر بهذا المعنى البقاعي ٨/ ٤٣٠.



جعل له عينين يرى فيهما آياته سبحانه ويميز نعمه ونقمه، ولساناً يعينه على الاعتراف بالفضل وأداء الشكر، وشفتين يستران فمه ويعينانه على الأكل والشرب وفصاحة النطق، وعقلاً يميز، ذكرت الدلالة عليه وإن لم تذكره صراحة، ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ وهداية طريق الخير والشر لا تكون إلا لمن يملك العقل مناط التكليف، ولما كانت كل هذه النعم المذكورة والمشار إليها في السياق مما يستحق الشكر قولاً وعملاً، ذكر الحق بما ينبغي للنفس الغافلة أن تفعله ولم تفعله، لقد كان ينبغي أن تبادر بلا تردد لسلوك طريق النجاة، وإن كانت بحاجة إلى مجاهدة، فإن من يدرك عظيم ما هو فيه من نعمة تسهل في عينه التضحية وإن كانت جسيمة ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ ﴾[1]، فلا هو أعتق رقبة لوجه الله يهبها معنى الحياة، ولا أطعم جائعاً، يتيماً قريباً – وثواب ذلك مضاعف لأن الأقربين أولى بالمعروف –أو مسكيناً فقيراً، وهل ينفع ذلك كله إذا لم يكن مسبوقاً بالإيمان[2].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو عمل، ولكنه قرن بالإيمان لشرفه وكرامته وعلو مكانته على سائر الأعمال، فإن التواصي بالصبر على الشدائد والطاعات، وعن المعاصي والتواصي بالتراحم، من شأنه أن يفتح الباب أمام سائر الفضائل ويغلق الطريق دون سائر الرذائل، وهذا هو عنوان «أهل الميمنة» رمز النجاة الذي أخطأه من لم يفك رقبة ولا أطعم فقيراً ولا مسكيناً ولاتواصى بصبر أو مرحمة أولئك ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ رمز الهلاك في ﴿ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴾، وفي المشهد مقابلة لخصت نتيجة التكليف المفهوم من هذا المقطع، وهي خاتمة المطاف في كلا « النجدين» جنة مفتحة الأبواب، ونار مؤصدة.

---

(١) قريباً مما ذكر ما جاء في الكشاف ٤/ ٢٥٦.

(٢) تفسير النسفي ٥/ ٣٦٧.

دروس وعبر من المقطع:

* الإنسان ضعيف مهما بلغت قوته، وعلامة ضعفه خلقه في عناء لا ينقطع وابتلاء لا ينتهي حتى يوصله إلى جنة أو إلى نار.
* العاقل من استحضر مراقبة ربه الذي لا تخفى عليه خافية، فحملته هذه المراقبة على التقوى والاستقامة.
* نعم الله تعالى على الإنسان كثيرة بلا حدود، والعاقل من أحسن شكرها، فنفعته، والأحمق من كفرها فأردته.
* فعل الخير حسن، وهو مع الأقربين أحسن لما فيه من معنى صلة الرحم المضافة إلى مطلق الإحسان.
* الكافر اختار إقفال عقله عن التدبر فيما ينجيه، فأقفل الله تعالى عليه النار ليكون عقابه من جنس عمله.



سورة الشمس

أولاً: بين يدي السورة

(أ) أسماؤها:

هي سورة الشمس، وقد يعبر بعضهم، فيقول: سورة (والشمس وضحاها) تعريفاً لها بما استهلت به. قال ابن عاشور: «سميت هذه السورة في المصاحف وفي معظم كتب التفسير (سورة الشمس) بدون واو، وكذلك عنونها الترمذي في جامعه بدون واو في نسخ صحيحة من جامع الترمذي ومن عارضة الأحوذي لابن العربي. وعنونها البخاري سورة: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، بحكاية لفظ الآية، وكذلك سميت في بعض التفاسير، وهو أولى أسمائها لئلا تلتبس على القارئ بسورة ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ [التكوير: ١] المسماة سورة التكوير»[(١)].

ولم تحفظ لها تسمية غير هذه، وقد أورد السيوطي في الإتقان: فصل: قد يكون للسورة اسم واحد وهو كثير وقد يكون لها اسمان فأكثر، فالذي يظهر أن سورة الشمس من الضرب الأول قال ابن عاشور: « ولم يذكرها في الإتقان مع السور التي لها أكثر من اسم»[(٢)].

وأما مناسبة تسميتها بسورة الشمس فقد ذكر الزركشي في البرهان «أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء؛ من خلق، أو صفة تخصه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز»[(٣)].

ولعل أبرز ما في مستهل هذه السورة الشمس، ما قاله الخازن في لباب التأويل في معنى التنزيل بعد أن ذكر الأقسام الأربعة: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ ﴿وَٱلنَّهَارِ

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١٥/ ٣٦٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ١/ ٢٧٠.

إِذَا جَلَّنْهَا ﴿٣﴾ ﴾ ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾ ﴾، قال: « وحاصل هذه الأقسام الأربعة ترجع إلى الشمس في الحقيقة؛ لأن بوجودها يكون النهار ويشتد الضحى، وبغروبها يكون الليل ويتبعها القمر »[1].

(ب) فضائلها:

لقد خص النبي ﷺ هذه السورة بالذكر كما في حديث جابر في الصحيح: قال: أقبل رجل بناضحين وقد جنح الليل، فوافق معاذاً يصلي، فترك ناضحه وأقبل إلى معاذ فقرأ بسورة البقرة أو النساء، فانطلق الرجل، وبلغه أن معاذاً نال منه فأتى النبي ﷺ فشكا إليه معاذاً فقال النبي ﷺ: «يا معاذ! أفتان أنت؟ أو فاتن ثلاث مرات، فلولا صليت بـ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ﴾، ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ ﴾، ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ ﴾ فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة»[2].

وقد جاء الحديث بروايات مختلفة «وجمع بعضهم بين هذا الاختلاف بأنها واقعتان، وأيد ذلك بالاختلاف في الصلاة؛ هل هي العشاء، أو المغرب، وبالاختلاف في السورة؛ هل هي البقرة، أو اقتربت، وبالاختلاف في عذر الرجل؛ هل هو لأجل التطويل فقط لكونه جاء من العمل وهو تعبان، أو لكونه أراد أن يسقي نخله إذ ذاك، أو لكونه خاف على الماء في النخل كما في حديث بريده. واستشكل هذا الجمع؛ لأنه لا يظن بمعاذ أنه ﷺ يأمره بالتخفيف ثم يعود إلى التطويل. ويجاب عن ذلك باحتمال أن يكون قرأ أولاً بالبقرة، فلما نهاه قرأ اقتربت وهي طويلة بالنسبة إلى السور التي أمره أن يقرأ بها -كما سيأتي-. ويحتمل أن يكون النهى أولاً وقع لما يُخشى من تنفير بعض من يدخل في الإسلام، ثم لما اطمأنت نفوسهم بالإسلام ظن أن المانع زال فقرأ باقتربت؛ لأنه سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فصادف صاحب الشغل. وجمع النووي باحتمال أن يكون قرأ في الأولى بالبقرة فانصرف رجل، ثم قرأ اقتربت في الثانية

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، تفسير سورة الشمس ٤/ ٤٣٢.

(٢) صحيح البخاري، ١/ ٢٤٩ (٦٧٣)، و٥/ ٢٢٦٤ (٥٧٥٥)، وصحيح مسلم ١/ ٣٣٩ (٤٦٥).

فانصرف آخر»[١].

فتخصيص النبي ﷺ لها بالذكر وتكرارها من بين السور التي تقاربها يدل على فضل ومزيد مزية، والله أعلم.

وقد جاء ذكر السورة في أحاديث أخر ترشد إلى قراءتها في بعض الصلوات تارة، وتارة أخرى تفيد أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في بعض صلاته، وكل ذلك يدور في فلك ما سبق من تخصيصها لمزية غير القصر، هي ما اشتمل عليه موضوعها من معنى، ولعل في الآثار التي أورد ذكرها كفاية وهي أصح ما في بابها.

(ج) وقتها:

قال الماوردي: «مكية عند جميعهم»[٢]، قال الشوكاني ومثله الآلوسي: مكية بلا خلاف[٣]، وقال أبو الحسن بن الحصار في كتابه (الناسخ والمنسوخ): المدني باتفاق عشرون سورة والمختلف فيها اثنتا عشر سورة، وما عدا ذلك مكي باتفاق.

قال في آخر نظمه عليه رحمة الله:

وما سوى ذاك مكي تنزله　　　　فلا تكن من خلاف الناس في حصُرِ

فليس كل خلاف جاء معتبراً　　　　إلا خلاف له حظ من النظرِ[٤]

ولم يذكر في نظمه سورة الشمس، فهي مكية باتفاق، وعلى هذا نص القرطبي[٥] ونحوه

(١) فتح الباري، لابن حجر، ٢/ ١٩٥.

(٢) النكت والعيون، للماوردي، أول سورة الشمس، ٦/ ٢٨١.

(٣) فتح القدير، للشوكاني، ٥/ ٦٣٤. وروح المعاني، للآلوسي، ٣٠/ ١٤٠.

(٤) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ١/ ٤٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٠/ ٦٦.

ذكر المخللاتي، فقال: «مكية اتفاقاً ونزلت بعد سورة القدر، ونزلت بعدها سورة البروج»[1]، قال ابن عبد الكافي: «مكية في قولهم جميعاً»[2].

(د) عدد آيها:

قال القرطبي: «مكية وآياتها خمس عشرة آية»[3]، ونقل السيوطي في الإتقان عن الموصلي: «الشمس: خمس عشرة، وقيل: ست عشرة»، قال ابن عاشور: «آياتها خمس عشرة آية في عدد جمهور الأمصار، وعدها أهل مكة ست عشرة آية»[4]، قال الآلوسي: « آيها ست عشرة آية في المكي والمدني الأول، وخمس عشرة في الباقية»[5]. قال أبو عمرو الداني الأندلسي: «اختلافها آية ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ عدها المدني الأول والمكي بخلاف عنه، ولم يعدها الباقون»[6]، ونحوه ذكر ابن عبدالكافي، قال المخللاتي: «وعدد آياتها خمس عشرة آية عند غير المدني الأول والمكي وست عشرة عندهما اختلافهم في موضع واحد وهو قوله: ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ عده المدني والمكي بخلاف عنهما للمشاكلة ولم يعده الباقون، وكذا المدني الأول والمكي في الرواية الأخرى عنهما لعدم انقطاع الكلام وإلى ذلك أشار الشاطبي بقوله:

---

(١) شرح منظومة الشاطبي في العد؛ ناظمة الزهر في أعداد آيات السور، للمخللاتي.

(٢) وذلك في كتابه المخطوط عدد سور القرآن وآياته وكلماته، (ق ١٠٦/ ب) نسخة المكتب الأزهرية، ٣٠٩٤٨٣، وللكتاب نسخ أخرى أشار إليها فؤاد سزكين في تاريخ التراث ١/ ١/ ٤٩. وله عدة نسخ مصورة بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، قلت: ونسبة الكتاب لابن عبدالكافي أبو القاسم عمر بن محمد المتوفى على ما ذكر في حدود ٤٠٠هـ فيها نظر ظاهر إلاّ أن يكون تاريخ الوفاة غلط.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٠/ ٦٦.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١/ ٣٦٥.

(٥) روح المعاني، للآلوسي، ٣٠/ ١٤٠.

(٦) البيان في عد آي القرآن، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، ص٢٧٥.

.... وشَمْسٌ يُرَى هَدْيَاً وَسِتٌّ أُولو جَبْرِ

بِخُلفِهِما وَالخُلف في العقر عنهما ....[1]

قال الشارح[2]: والمفهوم من قول الداني تخصيص الخلاف بالمكي، حيث قال: وقد قيل: إن المكي وافقه على عدها وفي روايتنا عن ابن شاذان أن المدني الأول انفرد بعدها انتهى. فلعل الناظم روى الخلاف للمدني الأول من غير طريق الداني».

(هـ) محاورها:

قال الرازي: «المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي»[3]، وعلى رأسها يأتي الترغيب في التوحيد وطاعة الرسل، والتحذير من الشرك ومخالفة الأنبياء.

وقد سُلك فيها مسلك التهديد، «تهديد المشركين بأنهم يوشك أن يصيبهم عذاب بإشراكهم وتكذيبهم برسالة محمد ﷺ، كما أصاب ثمود بإشراكهم وعتوهم على رسول الله إليهم الذي دعاهم إلى التوحيد.

وقدم لذلك تأكيد الخبر بالقسم بأشياء معظمة وذكر من أحوالها ما هو دليل على بديع صنع الله تعالى الذي لا يشاركه فيه غيره، فهو دليل على أنه المنفرد بالإلهية والذي لا يستحق غيره

---

(١) قال المحقق: «قوله: (وشمس يُرى هدياً) بيان عدد آيات سورة الشمس وهي كما ذكرها الشارح؛ لأن الياء بعشرة والهاء بخمسة وعند المدني الأول والمكي المشار إليهما بالألف والجيم ست عشرة كما صرح به في قوله: (بخلفهما) بخلف عنهما. ومنشأ الخلاف يرجع إلى الاختلاف عنهما في (فَعَقَرُوهَا) فروى عنهما تركه فيكون العدد عنهما كالجماعة وروى عنهما عده، فيكون العدد ست عشر كما سبق».

(٢) صاحب لوامع البدر في بستان ناظمة الزهر وهو الحاج عبدالله بن صالح، الإمام ورئيس القراء بجامع أبي أيوب الأنصاري بالأستانة، المتوفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف. [إيضاح المكنون لإسماعيل باشا البغدادي ٢/ ٤١٤، هدية العارفين للباباني ١/ ٢٥٥].

(٣) التفسير الكبير؛ مفاتيح الغيب، للرازي، تفسير سورة الشمس، ٣١/ ١٧١.

الإلهية، وخاصة أحوال النفوس ومراتبها في مسالك الهدى والضلال والسعادة والشقاء»[1].

وهذا المقصد أظهر من قول بعضهم: مقصودها إثبات تصرفه سبحانه وتعالى في النفوس التي هي سراج الأبدان[2].

(و) مناسباتها:

(١) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

لما كان من غرض السورة: «تهديد المشركين بأنهم يوشك أن يصيبهم عذاب بإشراكهم وتكذيبهم برسالة محمد ﷺ كما أصاب ثمود بإشراكهم وعتوهم على رسول الله إليهم الذي دعاهم إلى التوحيد.

وقدم لذلك تأكيد الخبر بالقسم بأشياء معظمة وذكر من أحوالها ما هو دليل على بديع صنع الله -تعالى- الذي لا يشاركه فيه غيره، فهو دليل على أنه المنفرد بالإلهية، والذي لا يستحق غيره الإلهية، وخاصة أحوال النفوس ومراتبها في مسالك الهدى والضلال والسعادة والشقاء»[3].

فناسب أن يبتدئ بذكر شيء من أعظم الآيات، فقال:

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس:١-٨].

فهذه أقسام لتأكيد الخبر، والمقصود بالتأكيد هو ما في سوق الخبر من التعريض بالتهديد والوعيد بالاستئصال[4]، الذي هو غرض السورة ومسلكها إلى مقصودها الكلي الذي أشار

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الشمس ٥/ ٣٦٦.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، أول سورة الشمس، ٨/ ٤٣٧.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الشمس ٥/ ٣٦٦.

(٤) المصدر السابق بتصرف يسير.

إليه الرازي كما بين في محورها.

فإن قلت: فما علاقة ذلك بالشمس الذي هو اسم السورة، أجيب بما ذكره الزركشي في البرهان: « العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء؛ من خلق، أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز»[1].

ولعل أبرز ما في مستهل هذه السورة الشمس. قال الخازن بعد أن ذكر الأقسام الأربعة: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ قال: «وحاصل هذه الأقسام الأربعة ترجع إلى الشمس في الحقيقة؛ لأن بوجودها يكون النهار ويشتد الضحى، وبغروبها يكون الليل ويتبعها القمر»[2] فناسب أن تسمى السورة بسورة الشمس.

(٢) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

بُدءت السورة بأقسام تدل على كمال القدرة الإلهية، وعظمة رب البرية، فالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والنفس كل ذلك خلق عظيم يدل على حكيم قدير، ذي قوة متين مستحق للعبادة وحده، جدير به أن يطاع فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر، ثم جاءت خاتمة السورة مؤكدة ذلك المعنى بفعل من فعله يدل على كمال عزته واقتداره، وعظيم قوته وسلطانه أنزله بمن حادوه وعصوه﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ۝١٥﴾، وبهذا تطابقت دلالة خلقه تعالى، ودلالة قوله سبحانه، ودلالة فعله عز وجل.

---

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ١/ ٢٧٠.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، تفسير سورة الشمس، ٤/ ٣٤٢.

(٣) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

قال البقاعي: «لما أثبت في سورة البلد أن الإنسان في كبد، وختمها بأن من حاد عن سبيله كان في أنكد النكد؛ وهو النار المؤصدة. أقسم أول هذه على أن الفاعل لذلك أولاً وآخراً هو الله سبحانه؛لأنه يحول بين المرء وقلبه وبين القلب ولبه، فقال مقسماً بما يدل على تمام علمه وشمول قدرته في الآفاق علويها وسفليها، والأنفس سعيدها وشقيها وبدأ بالعالم العلوي فأفاد ذلك قطعاً العلم بأنه الفاعل المختار، وعلى العلم بوجوب ذاته وكمال صفاته، وذلك أقصى درجات القوى النظرية، تذكيراً بعظائم آلائه، ليحمل على الاستغراق في شكر نعمائه، الذي هو منتهى كمالات القوى العملية، مع أن أول المقسم به مذكر بما ختم به آخر تلك من النار»[1].

وقول الشيخ: الفاعل لذلك أولاً وآخراً وتأكيده له بأن الفاعل المختار هو الله ظاهره غير مسلم على اعتقاد أهل السنة، إلاّ إن أراد به المقدر لذلك الخالق له مع إثبات كسب العبد وفعله الناجم عن مشيئته واختياره مع تعليق الفلاح به، فهو ما دل عليه قوله سبحانه بعدها: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ فنسب التزكية والتدسية للعبد، وهذا هو الذي يناسب نظم الآيات أكثر من غيره.

(٤) المناسبة بين مضمون السورة وما قبلها:

قال السيوطي: «سورة الشمس ظاهرة الاتصال بسورة البلد فإنه سبحانه لما ختمها بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة أراد الفريقين في سورة الشمس على سبيل الفذلكة، فقوله في الشمس: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾ هم أصحاب الميمنة في سورة البلد، وقوله: ﴿ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ في الشمس هم أصحاب المشأمة في سورة البلد، فكانت هذه السورة فذلكة تفصيل تلك السورة»[2].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، ٨/ ٤٣٧.

(٢) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي، ص١٥١.



قال أبو حيان: «ولما تقدّم القسم ببعض المواضع الشريفة وما بعدها أقسم هنا بشيء من العالم العلوي والعالم السفلي، وبما هو آلة التفكر في ذلك وهو النفس، وكان آخر ما قبلها مختتماً بشيء من أحوال الكفار في الآخرة فاختتم هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا وفي ذلك [تعريض] بمآلهم في الآخرة إلى النار، وفي الدنيا إلى الهلاك المستأصل»[1].

(ح) مقاطع السورة:

اشتملت هذه السورة على مقطعين رئيسيين:

المقطع الأول: القسم العظيم وجوابه.

والمقطع الثاني: مثال مضروب.

المقطع الأول: القسم العظيم وجوابه

قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

لئن كان القسم بمواقع النجوم قسم عظيم، فإن القسم بالشمس وضحاها منه، فالشمس نجم متوهج، وضحاها موقع من مواقعها في السماء بالنسبة إلى الأرض، فكيف لايكون هذا القسم عظيماً مع جمعه لموقع السماء وبِناها، والأرض وطحوها، وما عليهما من الأنفس وفوق ذلك كله من سواها تبارك وتعالى رب العالمين وأحسن الخالقين.

إن الله تعالى «ينبه عباده دائماً بأن يذكر في القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها؛ لأن الذي يقسم الله -تعالى- به يحصل له وقع في القلب،

(١) البحر المحيط، لأبي حيان، أول تفسير سورة الشمس ٨/ ٦٧٢.

فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى»[1].

ومما سبق يظهر أن القسم هنا بتلك المخلوقات وليس ثم ما يأطر نحو تقدير محذوف وهو ربما كما يذكر بعضهم.

يقول الأستاذ سيد رحمه الله: «ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى؛ وأن يوجه إليها القلوب تتملاها وتتدبر ماذا لها من قيمة، وماذا بها من دلالة، حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم.

ومشاهد الكون وظواهره إطلاقاً بينها وبين القلب الإنساني لغة سرية! متعارف عليها في صميم الفطرة وأغوار المشاعر. وبينها وبين الروح الإنساني تجاوب ومناجاة بغير نبرة ولا صوت، وهي تنطق للقلب وتوحي للروح وتنبض بالحياة المأنوسة للكيان الإنساني الحي حيثما التقى بها وهو مقبل عليها متطلع عندها إلى الأنس والمناجاة والتجاوب والإيحاء.

ومن ثم يكثر القرآن من توجيه القلب إلى مشاهد الكون بشتى الأساليب في شتى المواضع. تارة بالتوجيهات المباشرة، وتارة باللمسات الجانبية كهذا القسم بتلك الخلائق والمشاهد ووضعها إطاراً لما يليها من الحقائق. وفي هذا الجزء بالذات لاحظنا كثرة هذه التوجيهات واللمسات كثرة ظاهرة. فلا تكاد سورة واحدة تخلو من إيقاظ القلب لينطلق إلى هذا الكون يطلب عنده التجاوب والإيحاء. ويتلقى عنه ـ بلغة السر المتبادل ـ ما ينطق به من دلائل وما يبثه من مناجاة!

وهنا نجد القسم الموحي بالشمس وضحاها.. بالشمس عامة وحين تضحى وترتفع عن الأفق بصفة خاصة. وهي أروق ما تكون في هذه الفترة وأحلى. في الشتاء يكون وقت الدفء المستحب الناعش. وفي الصيف يكون وقت الإشراق الرائق قبل وقدة الظهيرة وقيظها. فالشمس في الضحى في أروق أوقاتها وأصفاها. وقد ورد أن المقصود بالضحى هو النهار كله

(١) مفاتيح الغيب، للرازي، أول سورة الشمس، ٣١/ ١٧١.



ولكنا لا نرى ضرورة للعدول عن المعنى القريب للضحى، وهو ذو دلالة خاصة كما رأينا.

وبالقمر إذا تلاها.. إذا تلا الشمس بنوره اللطيف الشفيف الرائق الصافي.. وبين القمر والقلب البشري ود قديم موغل في السرائر والأعماق غائر في شعاب الضمير يترقرق ويستيقظ كلما التقى به القلب في أية حال، وللقمر همسات وإيحاءات للقلب وسبحات وتسبيحات للخالق يكاد يسمعها القلب الشاعر في نور القمر المنساب.. وإن القلب ليشعر أحياناً أنه يسبح في فيض النور الغامر في الليلة القمراء، ويغسل أدرانه، ويرتوي ويعانق هذا النور الحبيب ويستروح فيه روح الله.

ويقسم بالنهار إذا جلاها.. مما يوحي بأن المقصود بالضحى هو المدة الخاصة لا كل النهار. والضمير في جلاها.. الظاهر أن يعود إلى الشمس المذكورة في السياق.. ولكن الإيحاء القرآني يشي بأنه ضمير هذه البسيطة. وللأسلوب القرآني إيحاءات جانبية كهذه مضمرة في السياق؛ لأنها معهودة في الحس البشري يستدعيها التعبير استدعاء خفياً، فالنهار يجلي البسيطة ويكشفها، وللنهار في حياة الإنسان آثاره التي يعلمها، وقد ينسى الإنسان بطول التكرار جمال النهار وأثره. فهذه اللمسة السريعة في مثل هذا السياق توقظه وتبعثه للتأمل في هذه الظاهرة الكبرى.

والليل إذا يغشاها.. والتغشية هي مقابل التجلية، والليل غشاء يضم كل شيء ويخفيه وهو مشهد له في النفس وقع، وله في حياة الإنسان أثر كالنهار سواء»[1].

وهذا القول الأخير في تجلية النهار وغشيان الليل كأنه مستفاد من الإمام ابن كثير الذي استدرك على بعض من تأول الضمير في قوله جلاها بتقدير محذوف هو الظلمة بحجة دلالة الكلام عليه، فقال الحافظ ابن كثير متعقباً: «ولو أن هذا القائل تأول ذلك بمعنى ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ ﴾. أي: البسيطة لكان أولى ولصح تأويله في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾ ﴾

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب، تفسير سورة الشمس، ٦/ ٣٩١٦.



فكان أجود وأقوى، والله أعلم»[١].

والذي يظهر أن هذا التأول لا داعي له، وقد أشار ابن جرير إلى هذا[٢]، قال أبو حيان: «والذي تقتضيه الفصاحة أن الضمائر كلها عائدة إلى الشمس»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وضمير التأنيث في ﴿ جَلَّىٰهَا ﴾ و﴿ يَغْشَىٰهَا ﴾، لم يتقدم ما يعود عليه إلا الشمس، فيقتضي أن النهار يجلي الشمس، وأن الليل يغشاها، والتجلية: الكشف والإظهار، والغشيان: التغطية واللبس، ومعلوم أن الليل والنهار ظرفا الزمان، والفعل إذا أضيف إلى الزمان، فقيل: هذا الزمان أو هذا اليوم يبرد، أو ينبت الأرض، ونحو ذلك، فالمقصود أن ذلك يكون فيه، كما يوصف الزمان بأنه عصيب، وشديد، ونحس، وبارد، وحار، وطيب، ومكروه. والمراد وصف ما فيه. فكون الشيء فاعلاً وموصوفاً هو بحسب ما يليق به، كل شيء بحسبه. فالنهار يجلي الشمس، والليل يغشاها، وإن كان ظهور الشمس هو سبب النهار، ومغيبها سبب الليل. وقد ذكر ذلك بقوله: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ ﴾، فأضاف الضحى إليها. والضحى يعم النهار كله كما قال: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ ﴾ [النازعات:٢٧-٢٩]. وقال:﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ [الضحى: ١- ٢]»[٣].

وهذا كلام متين، واختيار أن الضحى يعم النهار هنا له وجاهة عند التأمل على رغم مما قيل في تضعيفه، فإن أكثر ما يطلق في القرآن في مقابلة الليل كما أشار الإمام، وأما الإلزام بتكرار ذكر النهار فلا يقوم به اعتراض، قال الإمام ابن تيمية: «فالأقسام التي في القرآن -عامتها- بالذوات الفاعلة وغير الفاعلة. يقسم بنفس الفعل، كقوله: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ ﴾ [الصافات: ١ -٣]، وكقوله:﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ ﴾ [النازعات: ١]، ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ ﴾ [المرسلات: ١]، ونحو ذلك.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سورة الشمس، ٤/ ٦٦٥-٦٦٦.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن، لابن جرير الطبري، تفسير سورة الشمس ١٢/ ٦٠٠.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ٢٢٦-٢٢٧.

وهو سبحانه تارة يقسم بنفس المخلوقات، وتارة بربها وخالقها، كقوله: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الذاريات:٢٣]، وكقوله: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [الليل:٣]، وتارة يقسم بها وبربها.

وفي هذه السورة أقسم بمخلوق وبفعله، وأقسم بمخلوق دون فعله، فأقسم بفاعله.

فإنه قال: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ ﴾ [الشمس: ١-٤]، فأقسم بالشمس والقمر والليل والنهار، وآثارها وأفعالها، كما فرق بينهما في قوله:﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، فإنه بأفعال هذه الأمور وآثارها تقوم مصالح بني آدم وسائر الحيوان.

وقال: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ ﴾، ولم يقل: [ونهارها] ولا [ضيائها]، لأن [الضحى] يدل على النور والحرارة جميعاً، وبالأنوار والحرارة تقوم مصالح العباد»[1].

وهذا توجيه جيد لاختيار الضحى بمعنى مقابل الليل، وتفريق بيِّن بين الإقسام بالضحى الممتد ليشمل النهار، وبين الإقسام بتجلية النهار ذلك الفعل الذي يكون فيه تنفس الإصباح وتتفتح الأزهار، وتحليق الأطيار، والتماس المعاش.

وأما وقوله:﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾فقد اختلف فيه أهل التأويل على قولين مشهورين؛ هل (ما) هنا مصدرية أو موصولة، والصحيح «أنها موصولة، والتقدير: الذي بناها، والذي طحاها، و[ما]، فيها عموم وإجمال، يصلح لما لا يعلم، ولصفات من يعلم[2] كقوله تعالى: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ ﴾[الكافرون:٢-٣]، وقوله: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ٢٢٩.

(٢) وفي إتيانها في صفات من يعلم ومن ذلك هذه الآية مراعاة لمعنى بديع ينظره طالبه في بدائع الفوائد للإمام ابن القيم ص١٣٩-١٤٠.



[النساء: ٣].

وهذا المعنى يجيء في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [الليل: ٣].

وهذا المعنى كما أنه ظاهر الكلام وأصله هو أكمل في المعنى أيضاً. فإن القَسَمَ بالفاعل يتضمن الإقسام بفعله، بخلاف الإقسام بمجرد الفعل.

ثم أقسم بالسماء والأرض، وبالنفس، ولم يذكر معها فعلاً، فذكر فاعلها، فقال: ﴿ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾، ﴿ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ ﴾.

فلم يصلح أن يقسم بفعل النفس؛ لأنها تفعل البر والفجور وهو سبحانه لا يقسم إلا بما هو معظم من مخلوقاته، لكن ذكر في ضمير القسم أنه خالق أفعالها بقوله: ﴿ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾. فإذا كان قد بين أنه خالق فعل العبد الذي هو أظهر الأشياء فعلاً واختياراً وقدرة فلأن يكون خالق فعل الشمس، والقمر والليل، والنهار، بطريق الأولى والأحرى.

وأما السماء والأرض، فليس لهما فعل ظاهر يعظم في النفوس حتى يقسم بها إلا ما يظهر من الشمس، والقمر، والليل، والنهار.

والسماء والأرض أعظم من الشمس والقمر والليل والنهار، والنفس أشرف الحيوان المخلوق، فكان القسم بصانع هذه الأمور العظيمة مناسباً، وكان إقسامه بصانعها تنبيهاً على أنه صانع ما فيها من الشمس والقمر والليل والنهار.

فتضمن الكلام الإقسام بصانع هذه المخلوقات، وبأعيانها، وما فيها من الآثار والمنافع لبنى آدم.

وختم القَسم بالنفس، التي هي آخر المخلوقات، فإن الله خلق آدم يوم الجمعة آخر

المخلوقات، وبين أنه خالق جميع أفعالها، ودل على أنه خالق جميع أفعال ما سواها»[١].

وقوله:﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾ أي ألهم الفاجر الفجور، والتقي التقوى، وهذا أليق من القول بأن ألهم هنا بمعنى أرشد، فإن هذا المعنى وإن كان صحيحاً ثابتاً فبغير هذه الآية «لأن الإلهام استعماله مشهور في إلهام القلوب لا في التبيين الظاهر الذي تقوم به الحجة، وقد علم النبي ﷺ حصيناً الخزاعي لما أسلم أن يقول: (اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي)[٢] ولو كان الإلهام بمعنى البيان الظاهر لكان هذا حاصلاً للمسلم والكافر»[٣].

«فقوله تعالى:﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾ إثبات للقدر بقوله ألهمها، وإثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه، ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية، وإثبات للتفريق بين الحسن والقبيح والأمر والنهي بقوله فجورها وتقواها».

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ٢٣٠.

(٢) حديث مختلف فيه، والأظهر أنه صحيح، فقد رواه الترمذي في سننه ٥/ ٥١٩ (٣٤٨٣)، من طريق شبيب بن شيبة عن الحسن البصري عن عمران قال: قال النبي ﷺ لأبي وذكره بنحوه، ثم قال: هذا حديث حسن غريب، وقد وقع في المطبوع قوله غريب فقط، وأشار إلى ما سقط العراقي في تخريج الإحياء ١/ ٢٧٧، وابن حجر في تهذيب التهذيب ٤/ ٢٧٠، والنووي في الأذكار ١/ ٩٠٧ وكذا في رياض الصالحين. وقد رأيت على هامش مخطوط الكروخي تحسينه. وأما استغرابه فلعله بسبب تفرد رواية أبي معاوية الضرير له من هذا الطريق، وقد جاء الحديث من طرق أخرى ثابتة يستغنى بها عن طريق شبيب هذا، فقد رواه ربعي بن حراش عن عمران، عن أبيه، وهذا طريق صحيح، ورواه العباس بن عبدالرحمن عن عمران ولم يذكر أبيه وجعل القصة له، أشار إلى ذلك البزار في مسنده ٩/ ٥٣ (٣٥٨٠)، وقد أشار إلى رواية العباس بن عبدالرحمن أبو نعيم في معرفة الصحابة إلاّ أنه ذكر عن عمران أن أباه كرواية ربعي بن حراش، وقد أشار أيضاً إلى رواية ربعي بن حراش الترمذي في العلل الكبير، كما صح الأثر مرسلاً عن الحسن من طريق موسى بن إسماعيل عن جويرية بن بشير عن الحسن. فلم يتفرد شبيب بروايته عن الحسن، وقد جاءت طرق أخرى كما ترى تعزز رفعه وروايته عن عمران ﷺ. وقد حكم ابن القيم بصحته في الوابل الصيب ص٢٣٠، وقد رويت في معنى الأثر ألفاظ مقاربة لايختلف في صحتها.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ١٤٥.



وقد جاء هذا الاستطراد البديع بعد القسم في قوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾ مناسباً للمقام، منبهاً بطريق الإشارة على خلق الله لأفعال تلك المخلوقات العظيمة بطريق الأولى ممهداً للمقطع الذي بعده، رابطاً بين إلهام الله للعبد وبين اختيار العبد للتزكية أو التدسية، فإلهام الفجور أو التقوى من قدر الله وأول مراتبه علم الله باختيار عبده وما هو جدير بأن ييسر له.

ثم قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾.

ومناسبة تعقيب القسم بجوابه ظاهرة، فبه يتم الكلام. وأما لماذا تلك الأقسام على هذا الجواب فـ «كأنه لما أراد به الحث على تكميل النفس والمبالغة فيه أقسم عليه بما يدلهم على العلم بوجود الصانع ووجوب ذاته وكمال صفاته الذي هو أقصى درجات القوة النظرية، ويذكرهم عظائم آلائه ليحملهم على الاستغراق في شكر نعمائه الذي هو منتهى كمالات القوة العملية»[1].

قال الشوكاني: «واختلف في جواب القسم ماذا هو؟ فقيل: هو قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾ قاله الزجاج وغيره. قال الزجاج وحذفت اللام؛ لأن الكلام قد طال فصار طوله عوضاً منها. وقيل: الجواب محذوف، أي: والشمس وكذا لتبعثنّ. وقيل تقديره: ليدمدمنّ الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحاً وأما: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾ فكلام تابع لقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾ على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء. وقيل: هو على التقديم والتأخير بغير حذف والمعنى: قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها والشمس وضحاها. والأوّل أولى»[2].

---

(١) تفسير البيضاوي؛ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، تفسير سورة الشمس، ١/ ٤٩٦.

(٢) فتح القدير، للشوكاني، تفسير سورة الشمس ٥/ ٦٣٤.

وما رجحه هو الذي اختاره البغوي في تفسيره ١/ ٤٣٨، وغير واحد من المفسرين والمحققين، وهو اختيار الزجاج من اللغويين والمبرد كذلك، قال في المقتضب: «فأما قوله: (والشمس وضحاها) فإنما وقع القسم على قوله: (قد أفلح من زكاها) وحذفت اللام لطول القصة؛ لأن الكلام إذا طال كان=



وأما المعنى: فالصواب ما قال الحسن: «معناه قد أفلح من زكى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله عزّ وجلّ، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّـٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ أهلكها وأضلها وحملها على المعصية فجعل الفعل للنفس»[1]. فيكون الضمير ضمير (مَنْ)، وأما ما قيل من أنه ضمير الباري سبحانه فضعيف.

«والتزكية: الإنماء والإعلاء بالتقوى. والتدسية: النقص والإخفاء بالفجور. وأصل دسى: دسس كما قيل في تقضض: تقضى. وسئل ابن عباس عنه فقال: أتقرأ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾، [الأعلى: ١٤]،﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾، [طه: ١١١]»[2].

وأما المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة فظاهرة، فإنه لما كان المراد الحث على الطاعات وموافقة الرسل، والتحذير من المعاصي ومخالفة الأنبياء، ناسب أن يبطل حجتهم في القدر وهذا المقطع إبطال لحجة من أنكر فعل العبد.

«فإذا كان الضلال في القدر حصل -تارة- بالتكذيب بالقدر والخلق، وتارة بالتكذيب بالشرع والوعيد، وتارة بتظليم الرب، كان في هذه السورة رداً على هذه الطوائف كلها.

فقوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾، إثبات للقدر بقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾، وإثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه ليعلم أنها هى الفاجرة والمتقية، وإثبات للتفريق بين الحسن والقبيح، والأمر والنهي، بقوله: ﴿ فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾.

وقوله بعد ذلك: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)، إثبات لفعل العبد، والوعد

=الحذف أجمل». وبكل حال تقدير اللام أيسر من تقدير محذوف هو جملة كاملة، ومن قال بالتقديم والتأخير لم يصنع شيئاً إذ آل معناه إلى من قال بجواز حذفها في مثل هذا المقام. ولئن لم يسغ عنده إيراد الماضي في جواب القسم بعد طول الفاصل بغير اللام، فما مسوغ التقديم والتأخير؟ أليس أولى منه تقدير حرف محذوف؟ فكيف إذا نص أئمة اللغة على جواز الحذف وإن جهله آخرون.

(١) معالم التنزيل، للبغوي، تفسير سورة الشمس، ١/ ٤٣٩.

(٢) الكشاف، للزمخشري، تفسير سورة الشمس، ٤/ ٧٤٨.



والوعيد بِفَلَاحِ مَنْ زَكَّى نفسه وخيبة من دساها. وهذا صريح في الرد على القدرية والمجوسية وعلى الجبرية للشرع أو لفعل العبد، وهم المكذبون بالحق.

وأما المظلمون للخالق فإنه قد دل على عدله بقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ [الشمس:٧]، والتسوية: التعديل. فبين أنه عادل في تسوية النفس التي ألهمها فجورها وتقواها.

وذكر -بعد ذلك- عقوبة من كذب رسله وطغى، وأنه لا يخاف عاقبة انتقامه ممن خالف رسله، ليبين أن من كذب بهذا أو بهذا، فإن الله ينتقم منه ولا يخاف عاقبة انتقامه، كما انتقم من إبليس وجنوده، وأن تظلمه من ربه وتسفيهه له إنما يهلك به نفسه ولن يضر الله شيئاً.

دروس وعبر من المقطع الأول: القسم العظيم وجوابه:

* لله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء:٢٣]. فلا يلحق به الخلق سبحانه بقياس، ولا يقاس جل شأنه وتقدس بالناس.

* عظم شأن ما أقسم الله تعالى به، وبيان أهمية التفكر فيه، مع بيان أنها مربوبة لا أرباب، خالقها وخالق أفعالها هو الجدير بأن يطاع فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر.

* إثبات خلق الله لأفعال العباد، وتقديره لها، فقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾.. وعلى هذا إجماع أهل السنة، قال ابن بطة في (الإبانة الكبرى): «فإن القدري الملعون لا يقول: اللهم اعصمني، ولا: اللهم وفقني، ولا يقول: اللهم ألهمني رشدي... ويخالف إجماع المسلمين»[1].

* «.. قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ إثبات للقدر بقوله: ألهمها، وإثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه، ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية، وإثبات للتفريق

(١) الإبانة الكبرى، لابن بطة، الباب الأول، باب جامع في القدر وما روي في أهله، حديث العنقاء، ٢/ ٢٨٦.

بين الحسن والقبيح والأمر والنهي بقوله فجورها وتقواها»[1].

* «قوله بعد ذلك:﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ إثبات لفعل العبد، والوعد والوعيد بفلاح من زكى نفسه، وخيبة من دساها، وهذا صريح في الرد على القدرية المجوسية، وعلى الجبرية للشرع أو لفعل العبد، وهم المكذبون بالحق، وأما المُظَلِّمون للخالق فإنه قد دل على عدله بقوله:﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ ﴾ والتسوية التعديل فبين أنه عادل في تسوية النفس التي ألهمها فجورها وتقواها»[2].

* على العبد أن يسلك سبيل التيسير لليسرى، فيعمل على تزكية نفسه، ثم يسأل من بيده الإلهام للتقوى أن يلهمه التقوى، ولا يعجب بعمله، وأن يشكر الله على ما يسره له من طاعته.

المقطع الثاني: مثال مضروب

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾.

بعد أن أقسم الله على فلاح من زكى نفسه، ويكون ذلك بطاعة الرسل، وعلى خيبة من دسى نفسه ويكون ذلك بتكذيب الرسل، وبين أن الاحتجاج بالقدر لاينفعهم، «ذكر -بعد ذلك- عقوبة من كذب رسله وطغى[3]، وأنه لا يخاف عاقبة انتقامه ممن خالف رسله، ليبين أن من كذب بهذا أو بهذا، فإن الله ينتقم منه ولا يخاف عاقبة انتقامه، كما انتقم من إبليس وجنوده، وأن تظلمه من ربه وتسفيهه له إنما يهلك به نفسه ولن يضر الله شيئاً»[4]. «ولما كان آخر السورة

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ٢٤٣.
(٢) المصدر السابق، ١٦/ ٢٤٣-٢٤٤.
(٣) ذكر ابن عطية عند تفسير الآية نحوه.
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ٢٤٤.

التي قبلها «مختتماً بشيء من أحوال الكفار في الآخرة، فاختتم هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا وفي ذلك تعريض بمآلهم في الآخرة إلى النار، وفي الدنيا إلى الهلاك المستأصل»[1].

وقد خص الله من بين الأمم والأقوام التي أهلكها بمخالفة الرسل ههنا ثمود، قال شيخ الإسلام: « هذا -والله أعلم- من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى. فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنباً وعذاباً منهم، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد، ومدين، وقوم لوط ولهذا لما ذكرهم وعاداً قال: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾، [فصلت: ١٥]، ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت:١٧].

وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما يذكر عن أولئك من التجبر والتكبر والأعمال السيئة، كاللواط، وبخس المكيال والميزان، والفساد في الأرض، كما في سورة هود والشعراء وغيرهما؛ فكان في قوم لوط -مع الشرك إتيان الفواحش التي لم يسبقوا إليها، وفي عاد -مع الشرك- التجبر، والتكبر، والتوسع في الدنيا، وشدة البطش، وقولهم: (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)، وفي أصحاب مدين -مع الشرك- الظلم في الأموال، وفي قوم فرعون الفساد في الأرض والعلو.

وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم. فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التي لا يقوم لها شيء، وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم. فجمع لهم بين الهلاك، والرجم بالحجارة من السماء، وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين. وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان.

وأما ثمود فأهلكهم بالصيحة، فماتوا في الحال. فإذا كان هذا عذابه لهؤلاء وذنبهم -مع

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان، أول تفسير سورة الشمس، ٨/ ٦٧٢.



الشرك- عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم، فمن انتهك محارم الله، واستخف بأوامره ونواهيه، وعقر عباده وسفك دماءهم، كان أشد عذاباً.

ومن اعتبر أحوال العالم قديماً وحديثاً، وما يعاقب به من يسعى في الأرض بالفساد وسفك الدماء بغير حق، وأقام الفتن، واستهان بحرمات الله، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون»[١].

وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ ﴾، أي كذبت ثمود نبي الله « صالحاً ﴿ بِطَغْوَىٰهَآ ﴾ أي: بسبب طغيانها، إذ الحامل لهم على التكذيب هو طغيانهم، وفيه وعظ لأمثالهم وتهديد للحاضرين الطاغين؛ لأنَّ الطغيان أجرم الجرائم الموجبة للهلاك والخيبةِ في الدنيا والآخرة. ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ﴾... أي: حين قام أشقى ثمود، وهو: قدار بن سالف، أو: هو ومَن تصدّى معه للعقر من الأشقياء، فإنَّ أفعل التفضيل إذا أضيف يصلح للواحد والمتعدد، والمذكر والمؤنث. وفضل شقاوتهم على مَن عداهم لمباشرتهم العقر مع اشتراك الكل في الرضا به. ﴿ فَقَالَ لَهُمْ ﴾ أي: لثمود ﴿ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ صالح عليه السلام عبَّر عنه بعنوان الرسالة إيذاناً بوجوب طاعته، وبياناً لغاية عتوهم، وهو السر في إضافة الناقة إليه تعالى في قوله: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ أي: احذروا عقرها، أو احفظوها، (و) الزموا ﴿ وَسُقْيَٰهَا ﴾ فلا تُدَوروها في نوبتها، وهما منصوبان على التحذير. ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فيما حذّرهم به من نزول العذاب بقوله: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:٧٣]، ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾، أسند الفعل إليهم وإن كان العاقر واحداً، لقوله تعالى: ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القمر:٢٩] لرضاهم به. قال قتادة: بلغنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم. وذكرانهم وإناثهم. ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم ﴾؛ فأطبق عليهم العذاب حتى استأصلهم. قال الهروي: إذا كررت الإطباق قلت: دمدمت عليه، أي: أدمت عليه الدمدمة، وقيل: فدمدم عليهم: غَضِبَ عليهم ﴿ بِذَنۢبِهِمْ ﴾؛ بسبب ذنبهم، وصّرح به مع دلالة الفاء عليه للإيذان بأنه عاقبة كل ذنب ليعتبر به كل مذنب.

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص١٩، وابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٦/ ٢٤٩-٢٥٠.



﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾ أي: الدمدمة بينهم، لم يفلت منهم أحد من صغيرهم وكبيرهم أو فسوّى ثمود بالأرض بتسوية بنائها وهدمه»[١].

﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾، قال ابن عاشور: «العقبى: ما يحصل عقِب فعل من الأفعال مِن تبعة لفاعِله أو مَثوبة، ولما كان المذكور عقاباً وغلبة وكان العرف أن المغلوب يكنّ في نفسه الأخذ بالثأر من غالبه فلا يهدَأ له بال حتى يثأر لنفسه، ولذلك يقولون: الثَّأر المُنِيم، أي الذي يزيل النوم عن صاحبه، فكان الذي يغلب غيره يتقي حذراً من أن يتمكن مغلوبُه من الثأر، أَخْبَرَ الله أنه الغالب الذي لا يقدر مغلوبُه على أخذ الثأر منه، وهذا كناية عن تمكن الله من عقاب المشركين، وأن تأخير العذاب عنهم إمهال لهم وليس عن عجز، فجملة ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾[٢] تذييل للكلام وإيذان بالختام. ويجوز أن يكون قوله: ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾ تمثيلاً لحالهم في الاستئصال بحال من لم يترك مَن يثأر له فيكون المثَل كناية عن هلاكهم عن بكرة أبيهم لم يبق منهم أحد»[٣].

ويعلق الأستاذ سيد تعليقاً بديعاً معناه:

.. إنه من الوزر إهمال التناصح والتكافل والحض على البر والأخذ على يد البغي والشر. عندئذ تحق كلمة العذاب، ويأتي بطش الله، ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ ﴾.... واللفظ.. (دمدم) يوحي بما وراءه، ويصور معناه بجرسه، ويكاد يرسم مشهداً مروعاً مخيفاً! وقد سوى الله أرضهم عاليها بسافلها، وهو المشهد الذي يرتسم بعد الدمار العنيف الشديد.. ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾.. سبحانه وتعالى... ومن ذا يخاف؟ وماذا يخاف؟ وأنى يخاف؟... فالذي لا يخاف عاقبة ما يفعل، يبلغ غاية البطش حين يبطش. وكذلك

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة، تفسير الآية من سورة الشمس.

(٢) (فلا يخاف عقباها) بالفاء على قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر، وكذا كانت مصاحف المدينة ومصاحف الشام. ينظر التحرير والتنوير ٥/ ٣٧٥-٣٧٦.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الشمس، ١٥/ ٣٧٥.

بطش الله كان: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾. فهو إيقاع يراد إيحاؤه وظله في النفوس.. وهكذا ترتبط حقيقة النفس البشرية بحقائق هذا الوجود الكبيرة، ومشاهده الثابتة، كما ترتبط بهذه وتلك سنة الله في أخذ المكذبين والطغاة، في حدود التقدير الحكيم الذي يجعل لكل شيء أجلاً، ولكل حادث موعداً، ولكل أمر غاية، ولكل قدر حكمة، وهو رب النفس والكون والقدر جميعاً.. »[1].

إن هذا المقطع يبين بجلاء عاقبة من عصى الله، وكذب رسله، وفيه دعوة للمخاطبين بالاعتبار وألا يكونوا كأولئك، فليستقيموا على أمر ربهم، وليحذروا محادة أمره والتكذيب بآياته.

دروس وعبر من المقطع الثاني: المثل المضروب:

* الأمثلة الواقعية، والقصص والأخبار السالفة لها تأثير في نفوس الناس، ومن ثم تكرر سوقها في القرآن لأجل الدعوة لما لها من وقع وقوة تنبيه.

* عقاب الله في الدنيا إذا هو أتى يعم فينال المذنب وغيره، «وقد تبين.. أن الله تعالى أغرق أمة نوح عليه السلام كلها وفيهم الأطفال والبهائم بذنوب البالغين، وأهلك قوم عاد بالريح العقيم، وثمود بالصاعقة، وقوم لوط بالحجارة، ومسخ أصحاب السبت قردة وخنازير، وعذب بعذابهم الأطفال، قال أنس بن مالك: «إن الضب في جحره ليموت هزلاً بذنب ابن آدم»[2]. قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾[الأنفال:٢٥].

* أن الطغيان قد يكون سبباً حاملاً على التكذيب. ويكون بالأفعال ولهذا بينه الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ ﴾.

* أهل الكفر والتكذيب دركات، فمنهم شقي وأشقى.

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب، تفسير سورة الشمس، ٦/ ٣٩١٩ معنى الكلام وليس نصه.

(٢) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص٢٥٠، بحذف يسير.

* أسند الله تعالى الانبعاث لأحدهم أو جماعة منهم ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ﴾، وأسند العقر لهم ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾، وهذا يدل على تواطؤهم معه، دل عليه أيضاً قوله: ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ ﴾ وانبعث تدل على من بعثه، ولذا يقال بعثه فانبعث، كما تدل على سرعة تشير إلى ثورة وطيش ونزق، وقوله في الآية الأخرى: ﴿ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القمر: ٢٩]، فكانوا بذلك شركاء له في عقرها، وهنا لما كانوا راضين ونادوه وتعاطى سواء عهودهم أو عطاؤهم أو غير ذلك فعقرها وحده، كان هذا باسم الجميع، فكانت العقوبة باسم الجميع، ويؤخذ من هذا قتل الجماعة بالواحد، وعقوبة الربيئة مع الجاني، والله تعالى أعلم.

* خطر الذنوب وبيان أنها سبب للعقوبات العاجلة وكذا الآجلة. وإن ربك ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

سورة الليل

أولاً: بين يدي السورة

(أ) أسماؤها:

«سميت هذه السورة في معظم المصاحف وبعض كتب التفسير (سورة الليل) بدون واو، وسميت في معظم كتب التفسير (سورة والليل) بإثبات الواو، وعنونها البخاري والترمذي[1] (سورة والليل إذا يغشى)»[2]، وهكذا غير واحد من المحدثين كابن حبان، والحاكم في مستدركه[3].

فالظاهر أنه لم يؤثر لهذه السورة غير اسم واحد، وأما البقية فتعريف لها بما استهلت به.

(ب) فضائلها:

خص النبي ﷺ هذه السورة بالذكر مع سورة الشمس، كما في حديث جابر في الصحيح: قال أقبل رجل بناضحين وقد جنح الليل، فوافق معاذاً يصلي، فترك ناضحه وأقبل إلى معاذ فقرأ بسورة البقرة أو النساء، فانطلق الرجل. وبلغه أن معاذاً نال منه فأتى النبي ﷺ فشكا إليه معاذاً، فقال النبي ﷺ: «يا معاذ! أفتان أنت؟ أو فاتن ثلاث مرار، فلولا صليت بـ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾،﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ ﴾ ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ ﴾ فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة»[4].

وجاء ذكر السورة في أحاديث أخر، منها ما يشير إلى عناية الصحابة بها وتعاهدهم لقراءتها

---

(١) صحيح البخاري، ٤/ ١٨٨٨ الباب (٤٣١)، وجامع الترمذي ٥/ ٤٤٠ الباب (٨٠).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الليل، ١٥/ ٣٧٧.

(٣) صحيح ابن حبان، باب ذكر قراءة المصطفى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾، ١٤/ ٢٣٧، ومستدرك الحاكم ٢/ ٥٧١.

(٤) صحيح البخاري، ١/ ٢٤٩ (٦٧٣)، و٥/ ٢٢٦٤ (٥٧٥٥)، وصحيح مسلم ١/ ٣٣٩ (٤٦٥).

كما في أحاديث اختلافهم في قراءة الآية ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾.

ومنها ما يشير إلى ما فيها من موعظة كحديث أبي الدرداء: ما من يوم تطلع شمسه إلا وبجنبتها ملكان يناديان يسمعه الخلق كلهم: «يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى» ولا آبت الشمس إلا وبجنبتها ملكان يناديان نداء يسمعه الخلق كلهم غير الثقلين: «اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً». وزاد عباد بن راشد في روايته قال: وأنزل الله في ذلك قرآنا في قول الملكين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم في سورة يونس: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس: ٥٢] وفي قولهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾[1].

ومنها أحاديث أخر خصتها في الذكر بالقراءة في بعض الأوقات.

(ج) وقتها:

«هي مكية في قول الجمهور، واقتصر عليه كثير من المفسرين، وحكى ابن عطية عن المهدوي أنه قيل: إنها مدنية[2]، وقيل بعضها مدني، وكذلك ذكر الأقوال في الإتقان[3]، وأشار إلى أن ذلك لما روي من سبب نزول قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ ﴾، إذ روي أنها نزلت في أبي الدحداح الأنصاري في نخلة كان يأكل أيتام من ثمرها وكانت لرجل من المنافقين فمنعهم من ثمرها، فاشتراها أبو الدحداح بنخيل فجعلها لهم.. وعدت التاسعة في عداد نزول السور

---

(١) الحديث عن أبي الدرداء يرفعه، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/ ٣٤٤١، وابن جرير ١٢/ ٦١١، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٢٣٣ (٣٤١٢)، وابن حجر في الأمالي المطلقة ١/ ١٥٥ وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩١٧).

(٢) ذكره أبو عمرو الداني عن علي بن أبي طلحة، [التبيان في عد آي القرآن ص٢٧٦]، ولعل المهدوي هو من عاصره ابن عطية؛ إبراهيم بن عبدالصمد بن بشير المهدوي (ت:٥٢٦).

(٣) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ص٤٥ وكذلك ص٥٥.

نزلت بعد سورة الأعلى وقبل سورة الفجر»[١]، وذكر بعض أهل العلم أنها مكية في قولهم جميعاً[٢]. وهذا يفهم من قول أبو الحسن بن الحصار الذي مر في تفسير سورة الشمس[٣]. ولعل الصواب أنه لا إجماع فيها، فقد صح الخلاف فيها قديماً، فإن علي بن أبي طلحة عدها في المدني وهو صاحب الصحيفة في التفسير عن ابن عباس[٤].

ولعل الصحيح أن السورة مكية جميعها، وذلك لسببين رئيسين:

* **الأول:** ما صح في سبب نزولها من أنها في أبي بكر ﷺ، عندما أعتق نفراً فقال له أبوه أراك تعتق رقابا ضعافا فلو أنك إذ فعلت أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون دونك فقال أبو بكر: يا أبت إني إنما أريد ما أريد لما نزلت هذه الآيات فيه: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾[٥]. وهذا سبب كاف للجزم بأنها مكية. وقد ذكر ابن عطية وغيره أن أهل التأويل لم يختلفوا في أن المراد بـ(الأتقى) أبوبكر[٦] ﷺ فهذا كالإجماع على أنها نزلت فيه.

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الليل، ١٥/ ٣٧٧، باختصار يسير.

(٢) رأيته في مخطوط كتاب في عدد سور وآي القرآن المنسوب لعمر بن محمد بن عبدالكافي، (١٠٧/ أ) المحفوظ بمكتبة مخطوطات الأزهر، وهو في موقعهم على الإنترنت ورقمه (٣٠٩٤٨٣). وقد أشير إليه في تفسير سورة الشمس.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ١/ ٤٠.

(٤) ينظر: فضائل القرآن، لابن كثير، ١/ ١٥. والسند إلى علي بن أبي طلحة صحيح قال الحافظ ابن كثير: «هذا إسناد صحيح عن ابن أبي طلحة»، وليس قوله هذا يذكره عن ابن عباس ﷺ.

(٥) روى هذا الأثر الحاكم في مستدركه ٢/ ٥٧٢ (٣٩٤٢)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وسنده جيد. وقد رواه ابن جرير في تفسيره وغيره من أوجه أخر.

(٦) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، تفسير سورة الليل، بمعناه، ٥/ ٤٩٢، وكذا ذكر الخازن في لباب التأويل في معاني التنزيل عند تفسير الآية. وكذلك ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ١٥٢.

* الثاني: ضعف ما روي من سبب نزولها في قصة النخلة[1]، على أنه يمكن الجمع بين الأثرين، بأن يقال: نزلت في مكة، ولايعارض هذا قول بعضهم: نزلت في قصة النخلة،

---

(١) في إسناد الأثر حفص بن عمر العدني وهو ضعيف، وقد قال ابن كثير في التفسير: «وهو حديث غريب جداً» [التفسير ٤/ ٦٦٨]، أما نصه فقد روي عن ابن عباس: أن رجلاً كان له نخل، ومنها نخلة فرعها إلى دار رجل صالح فقير ذي عيال، فإذا جاء الرجل فدخل داره وأخذ الثمر من نخلته فتسقط الثمرة فيأخذها صبيان الفقير، فنزل من نخلته فنزع الثمرة من أيديهم، وإن أدخل أحدهم الثمرة في فمه أدخل أصبعه في حلق الغلام ونزع الثمرة من حلقه، فشكا ذلك الرجل إلى النبي ﷺ وأخبره بما هو فيه من صاحب النخلة، فقال له النبي ﷺ: «اذهب»، ولقي النبي ﷺ صاحب النخلة، فقال له النبي ﷺ: «أعطني نخلتك التي فرعها في دار فلان، ولك بها نخلة في الجنة»، فقال له: لقد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها، وإن لي لنخلاً كثيراً ما فيها نخلة أعجب إلي ثمرة من ثمرها. فذهب النبي ﷺ فتبعه رجل كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ومن صاحب النخلة، فقال: يا رسول الله إن أنا أخذت النخلة فصارت لي النخلة فأعطيتها أتعطيني بها ما أعطيته بها نخلة في الجنة؟ قال: «نعم»، ثم إن الرجل لقي صاحب النخلة، ولكلاهما نخل، فقال له: أخبرك أن محمداً أعطاني بنخلتي المائلة في دار فلان نخلة في الجنة، فقلت له: قد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها، فسكت عنه الرجل فقال له: أتراك إذا بعتها؟ قال: لا إلا أن أعطى بها شيئاً ولا أظنني أعطاه، قال: وما مناك بها؟ قال: أربعون نخلة، فقال الرجل: لقد جئت بأمر عظيم، نخلتك تطلب بها أربعين نخلة؟ ثم سكت وأنشأ في كلام ثم قال: أنا أعطيك أربعين نخلة، فقال: أشهد لي إن كنت صادقاً، فأمر بأناس فدعاهم فقال: اشهدوا أني قد أعطيته من نخلي أربعين نخلة، بنخلته التي فرعها في دار فلان ابن فلان، ثم قال: ما تقول؟ فقال صاحب النخلة: قد رضيت. ثم قال بعد: ليس بيني وبينك بيع لم نفترق، قال له: قد أقالك الله ولست بأحمق حين أعطيتك أربعين نخلة بنخلتك المائلة، فقال صاحب النخلة: قد رضيت على أن تعطيني الأربعين على ما أريد، قال: تعطينيها على ساق، ثم مكث ساعة ثم قال: هي لك على ساق، وأوقف له شهوداً وعد له أربعين نخلة على ساق، فتفرقا فذهب الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن النخلة المائلة في دار فلان قد صارت لي فهي لك، فذهب رسول الله ﷺ إلى الرجل صاحب الدار فقال له: النخلة لك ولعيالك. قال عكرمة: قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ ﴾ إلى آخر السورة.

فقد ذكر الإمام ابن تيمية أن قولهم: نـزلت الآية في كذا، يراد به تارة سبب النـزول، ويُراد به تارة أن ذلك داخل في الآية، وإن لم يكن السبب كما تقول: عني بهذه الآية كذا.

وقال القاسمي تعقيباً على كلام شيخ الإسلام الآنف: وبه يجاب عما يرويه كثير من تعدد سبب النـزول، فاحفظه فإنه من المضنون به على غير أهله. والله أعلم.

وقال أيضاً: قولهم: نزلت الآية في كذا، قد يكون المراد به الاستشهاد على أن مثله مما تتناوله الآية، لا أنه سبب نـزولها[١].

(د) عدد آيها:

قال القرطبي: « وهي إحدى وعشرون آية بإجماع»[٢]، وقال أبو عمرو الداني: «وهي إحدى وعشرون آية في جميع العدد، ليس فيها اختلاف»[٣]، وأما قول ابن عاشور: «وعدد آيها عشرون»[٤] فلعل فيه سقطاً أو هو سبق قلم.

(هـ) محاورها:

الحض على الأوصاف التي يحصل بها الفلاح، والتحذير مما تحصل به الخيبة، مع بيان أن كل إنسان ميسر لما خلق له.

وفي سبيل تقرير ذلك المعنى طرقت السورة أغراضاً فـ «احتوت على بيان شرف المؤمنين وفضائل أعمالهم، ومذمة المشركين ومساوئهم وجزاء كل، وأن الله يهدي الناس إلى الخير فهو يجزي المهتدين بخير الحياتين والضالين بعكس ذلك، وأنه أرسل رسوله ﷺ للتذكير بالله

---

(١) تفسير القاسمي محاسن التأويل، للقاسمي، ١٥/ ١١٤ وما بعدها، وقد أشرت إلى هذا في كتابي تفسير سورة الحجرات دراسة تحليلية موضوعية ص١٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تفسير سورة الليل، ٢٠/ ٧٣.

(٣) البيان في عد آي القرآن، لأبي عمرو الداني، سورة الليل، ص٢٧٦.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الليل، ١٥/ ٣٧٧.

وما عنده، فينتفع من يخشى فيفلح، ويصدف عن الذكرى من كان شقياً فيكون جزاؤه النار الكبرى، وأولئك هم الذين صدهم عن التذكر إيثار حب ما هم فيه في هذه الحياة، وأدمج في ذلك الإشارة إلى دلائل قدرة الله تعالى وبديع صنعه»[1].

(و) مناسباتها:

(١) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

قال ابن عاشور: «اختير القسم بالليل والنهار لمناسبته للمقام، لأن غرض السورة بيان البون بين حال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة.

وابتدئ في هذه السورة بذكر الليل ثم ذكر النهار، عكس ما في سورة الشمس؛ لأن هذه السورة نزلت قبل سورة الشمس بمدة وهي سادسة السور وأيامئذ كان الكفر مخيماً على الناس إلا نفراً قليلاً، وكان الإسلام قد أخذ في التجلي فناسب تلك الحالة بإشارة إلى تمثيلها بحالة الليل حين يعقبه ظهور النهار، ويتضح هذا في جواب القسم بقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾»[2]. فكانت تسمية هذه السورة بها يناسب الواقع (الليل) الذي ابتدأت به وهو أظهر شيء فيها إذ صدر القسم به، مرتبطةً بغرضها، معبرةً عن موضوعها.

(٢) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

بدأت السورة بالليل حال غشيانه، ثم عقب بذكر النهار حال تجليه، إشارة إلى حالين ولونين اثنين، ثم قسم أصحاب السعي مثلهما إلى شقي أشقى، وتقي أتقى، أما من غشيه ليل الإثم فكذب وتولى فذاك هو الأشقى، وما يغني عنه ماله إذا تردى! وأما من أشرقت على قلبه أنوار الوحي فتجلى له نهار الدنيا وأبصر الأمور على حقيقتها، فسوف يؤتي ماله يتزكى ابتغاء وجه ربه الأعلى. ثم ختمت السورة بذكر مآل من غشيت قلبه الظلمة ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الليل، ١٥/ ٣٧٨.

(٢) المصدر السابق.



﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥﴾، وعقبت ذلك بذكر مآل من استضاءت نفسه بأنوار الوحي ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧﴾ إلى قوله: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾. فكانت فاتحة السورة مناسبة في شقها الأول لحال الأول، وفي شقها الثاني حال الثاني، والله أعلم.

(٢) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

« لما بين في الشمس حال من زكى نفسه وحال من دساها، وأوضح في آخرها من مخالفة ثمود لرسولهم ما أهلكهم، فعلم أن الناس مختلفون في السعي في تحصيل نجد الخير ونجد الشر، فمنهم من تغلب عليه ظلمة اللبس، ومنهم من يغلب عليه نهار الهدى، فتباينوا في مقاصدهم وفي مصادرهم ومواردهم، بعد أن أثبت أنه هو الذي [ألهم] النفوس الفجور والتقوى، أقسم أول هذه بما يدل على عجائب صنعه في ضره ونفعه على ذلك، تنبيهاً على تمام قدرته في أنه الفاعل بالاختيار، يحول بين المرء وقلبه حتى يحمله على التوصل إلى مراده بضد ما يوصل إليه بل بما يوصل إلى مضاده، وعلى أنه لا يكاد يصدق الاتحاد في القصد والاختلاف في السعي والتوصل، وشرح جزاء كلٍ؛ تحذيراً من نجد الشر، وترغيباً في نجد الخير، وبيَّن ما به التزكية وما به التدسية»[1].

(٣) المناسبة بين مضمون السورة وما قبلها:

قال أبو حيان: « لما ذكر فيما قبلها ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ ذكر هنا من الأوصاف ما يحصل به الفلاح، وما تحصل به الخيبة، ثم حذر النار، وذكر من يصلاها ومن يتجنبها»[2] للحض على أوصاف هذا والتحذير من أوصاف ذاك. وهذا مضمون السورة وعليه محورها.

---

(١) مستفاد من نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، تفسير سورة الليل، ٨/ ٤٤٥. وهذا نصه إلاّ تصرفاً يسيراً هو ما بين المعقوفين.

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان، تفسير سورة الليل، ٨/ ٦٧٨.

قال السيوطي: «ونزيد في سورة الليل: أنها تفصيل إجمال سورة الشمس فقوله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ ﴾، وما بعدها تفصيل ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾، وقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ ﴾ تفصيل قوله: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾»[١].

(ح) مقاطع السورة:

اشتملت هذه السورة على ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: القسم على تباين سعي البشر.

والمقطع الثاني: اعملوا فكل ميسر.

والمقطع الثالث: إنذار وتحذير.

المقطع الأول: القسم على تباين سعي البشر

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾

«في إطار من مشاهد الكون وطبيعة الإنسان تقرر السورة حقيقة العمل والجزاء. ولما كانت هذه الحقيقة منوعة المظاهر: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾.. وكانت العاقبة كذلك في الآخرة مختلفة وفق العمل والوجهة: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ ﴾ لما كانت مظاهر هذه الحقيقة ذات لونين، وذات اتجاهين.. كذلك كان الإطار المختار لها في مطلع السورة ذا لونين في الكون وفي النفس سواء: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾.. ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ ﴾.. وهذا من بدائع التناسق في التعبير القرآني»[٢].

---

(١) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي، ١/ ١٥٥.

(٢) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٩٢٠.

في هذه السورة «يقسم بالليل في جميع أحواله إذ هو من آياته الدالة عليه، فأقسم به وقت غشيانه وأتى بصيغة المضارع؛ لأنه يغشى شيئاً بعد شيء، وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة، ولهذا قال في سورة الشمس وضحاها: ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾ ﴾، وأقسم به وقت سريانه... وأقسم به وقت إدباره، وأقسم به إذا عسعس، فقيل معناه أدبر فيكون مطابقاً لقوله: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ ﴾، وقيل: معناه أقبل فيكون كقوله:﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾ فيكون قد أقسم بإقبال الليل والنهار، وعلى الأول يكون القسم واقعاً على انصرام الليل ومجيء النهار عقيبه، وكلاهما من آيات ربوبيته»[1].

وقوله: ﴿ يَغۡشَىٰ ﴾ فعل لم يذكر مفعوله، والأقرب أنه البسيطة أو كل مايواريه بظلامه فيكون كقوله تعالى:﴿ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ [الفلق:٣].

ثم قال: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ «(ما) هنا موصولة، أي: والذي خلق الذكر والأنثى، وعبر عن من بما للدلالة على الوصفية، ولقصد التفخيم، أي: والقادر العظيم الذي خلق صنفي الذكر والأنثى»[2]، ونحو هذا قول من قال: هي بمعنى من، أو هي مصدرية فيكون القسم بخلْق الذكر والأنثى الذي هو فعل الخلاق سبحانه وتعالى.

وذلك يتضمن الإقسام بخلق الحيوان كله، على اختلاف أصنافه ذكره وأنثاه، وقابل بين الذكر والأنثى، كما قابل بين الليل والنهار، وكل ذلك من آيات ربوبيته، فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية، كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعها، كما أخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس فيها. وأقسم سبحانه بزمان السعي وهو الليل والنهار، وبالساعي وهو الذكر والأنثى على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار، والذكر والأنثى، وسعيه وزمانه مختلف، وذلك

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ١/ ٣٦.
(٢) فتح القدير، للشوكاني، تفسير سورة الليل، ٥/ ٦٤١.

دليل على اختلاف جزائه وثوابه، وأنه سبحانه لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والأنثى[1]. قال ابن كثير: «ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة، كان المقسم عليه أيضاً متضاداً، ولهذا قال -تعالى-: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾»[2]. فـ «لما ذكر ما هو محسوس التخالف من المعاني والأجرام، أتبعه ما هو معقول التباين من الأعراض»[3] ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾، وهو جواب القسم، «ولفظ السعي هو العمل، لكن يراد به العمل الذي يهتم به صاحبه ويجتهد فيه بحسب الإمكان، فإن كان يفتقر إلى عَدْو بَدَنِه عَدَا، وإن كان يفتقر إلى جمع أعوانه جمع، وإن كان يفتقر إلى تفرغ له وترك غيره فعل ذلك، فلفظ السعي في القرآن جاء بهذا الاعتبار، ليس هو مرادفاً للفظ العمل كما ظنه طائفة، بل هو عمل مخصوص يهتم به صاحبه، ويجتهد فيه»[4].

وفي هذا القسم وجوابه تنبيه لحال الناس وما هم عليه من تباين في الأقوال والأعمال والمعتقدات، قد يكون يسيراً وقد يصل حد التقابل، فلابد إذاً من مصيب ومخطئ، ومحق ومبطل، وناج وهالك، وتلك هي علاقة المقطع بمحور السورة.

دروس وعبر من المقطع الأول: القسم على تباين سعي البشر:

* لله في الآفاق وفي الأنفس آيات ينبغي أن يتأملها البشر، وأن يشهدوا بها عظيم شأن الرب سبحانه وتعالى، ثم يترجم ذلك الشهود بالعمل الذي هو طاعته واجتناب سخطه ورأس ذلك عبادته وحده لاشريك له، مع مجانبة الشرك وأسبابه.

* في إقسامه سبحانه وتعالى بالليل ونقيضه، والذكر ومقابله، على تباين السعي وتشتته إشارة إلى أن تقدير ذلك ليس شراً محضاً، وإنما هو بسابق علم لمصالح كبرى.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ١/ ٣٦، بتصرف يسير.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تفسير سورة الليل، ٤/ ٦٦٨.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، تفسير سورة الليل، ٨/ ٤٤٦.

(٤) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ١/ ٦، بتصرف يسير.

المقطع الثاني: اعملوا فكل ميسر

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾.

لما بين سبحانه وتعالى، تفاوت الخلائق، وتباين أفعالهم، ذكر هنا جزاء كل صنف فـ «أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن، وعاقبة سعي المسيء، فقال: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ فتضمنت الآيتان ذكر شرعه، وذكر الأعمال وجزائها، وحكمة القدر في تيسير هذا لليسرى وهذا للعسرى، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها ولا يظلم ربك أحداً.

وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب:

أحدها: إعطاء العبد، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم، أي: أعطى ما أمر به، وسمحت به طبيعته وطاوعته نفسه، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة والإخلاص والتوبة والشكر، وإعطاءه الإحسان والنفع بماله ولسانه وبدنه ونيته وقصده فتكون نفسه نفساً مطيعة باذلة، لا لئيمة مانعة، فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدي فتعطي خيرها لنفسها ولغيرها، فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها وسقي دوابهم وأنعامهم وزرعهم، فهم ينتفعون بها كيف شاؤوا فهي ميسرة لذلك، وهكذا الرجل المبارك، ميسر للنفع حيث حل، فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء.

السبب الثاني: التقوى وهي اجتناب ما نهى الله عنه، وهذا من أعظم أسباب التيسير وضده من أسباب التعسير، فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى، وأما تيسير ما

تيسر عليه من أمور الدنيا فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم، ولو قدر أنها لم تتيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى، فإن طيب العيش، ونعيم القلب، ولذة الروح وفرحها وابتهاجها، من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق:٤]، فأخبر أنه ييسر على المتقي مالا ييسر على غيره، وقال تعالى:﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق:٢-٣]، وهذا أيضاً ييسر عليه بتقواه، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾[الطلاق:٥]، وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه، وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [لأنفال:٢٩]، وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور الفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات ومغفرة الذنوب وذلك غاية التيسير. وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة:١٨٩]، والفلاح غاية اليسر كما أن الشقاء غاية العسر، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾[الحديد:٢٨]، فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته؛ نصيباً في الدنيا، ونصيباً في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نوراً يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم وهذا غاية التيسير، فقد جعل سبحانه التقوى سبباً لكل يسر وترك التقوى سبباً لكل عسر.

السبب الثالث(١): التصديق بالحسنى، وفسرت: بلا إله إلا الله، وفسرت: بالجنة،

(١) للتيسير لليسرى.



وفسرت: بالخلف، وهي أقوال السلف، واليسرى صفة لموصوف محذوف، أي: الحالة والخلة اليسرى وهي فعلى من اليسر.

والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء، فمن فسرها بلا إله إلا الله فقد فسرها بمفرد يأتي بكل جمع، فإن التصديق الحقيقي بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة، فلا يكون العبد مصدقاً بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ولا يكون مؤمناً بالله إله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله، ولا يكون مؤمناً بأن الله لا إله إلا هو حتى يسلب خصائص الإلهية عن كل موجود سواه، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته كما هي منفية في الحقيقة والخارج، ولا يكون مصدقاً بها مَنْ نفى الصفات العليا، ولا من نفى كلامه وتكليمه، ولا من نفى استواءه على عرشه، وأنه يرفع إليه الكلم الطيب والعمل الصالح، وأنه رفع المسيح إليه، وأسرى برسوله إليه، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه، إلى سائر ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله، ولا يكون مؤمنا بهذه الكلمة مصدقاً بها على الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وبعثه الأجساد من القبور ليوم النشور، ولا يكون مصدقاً بها من زعم أنه يترك خلقه سدى، لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله، وكذلك التصديق بها يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها، وهي شرائع الإسلام، التي هي تفصيل هذه الكلمة، بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه هو تفصيل لا إله إلا الله، فالمصدق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها، وبالقيام بحقها، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها، فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها أو ترك حقها.

ومن فسر الحسنى بالجنة فسرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله، ومن فسرها بالخلف ذكر نوعاً من الجزاء، فهذا جزاء دنيوي، والجنة الجزاء في الآخرة، فرجع التصديق بالحسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه.

والتحقيق أنها تتناول الأمرين[1]، وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث: وهي الإعطاء، والتقوى، والتصديق بالحسنى، من العلم والعمل، وما تضمنته من الهدى ودين الحق!

فإن النفس لها ثلاث قوى: [١] قوة البذل والإعطاء، [٢] وقوة الكف والامتناع، [٣]، وقوة الإدراك والفهم. ففيها: [١] قوة العلم والشعور، [٢] ويتبعها قوة الحب والإرادة، [٣] وقوة البغض والنفرة[2].

فهذه القوى الثلاث عليها مدار صلاحها وسعادتها، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها.

ففساد قوة العلم والشعور: يوجب له التكذيب بالحسنى.

وفساد قوة الحب والإرادة: يوجب له ترك الإعطاء.

وفساد قوة البغض والنفرة: يوجب له ترك الاتقاء.

فإذا كملت قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به، وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهى عنه، وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها، فقد زكى نفسه وأعدها لكل حالة يسرى، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى.

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد: فعل لمأمور، وترك لمحظور، وتصديق الخبر. وإن شئت قلت: الدين طلب، وخبر، والطلب نوعان: طلب فعل، وطلب ترك، فقد تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها، فالإعطاء فعل المأمور، والتقوى ترك المحظور والتصديق بالحسنى تصديق الخبر، فانتظم ذلك الدين كله وأكمل الناس من كملت له هذه

---

(١) أي أن الحسنى تتناول أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء.

(٢) لو رتب رحمه الله كل واحدة مع ما تناسبها؛ فجعل الثالثة من التقسيم الأول مع الأولى من التقسيم الثاني، والثانية من الأول مع الثالثة من التقسيم الثاني، والأولى من الأول مع الثانية من الثاني، لكان أقرب لفهم القارئ.

القوى الثلاث، ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها.

فمن الناس من تكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفافه وتركه، فقوة الترك فيه أضعف من قوة الإعطاء. ومن الناس من تكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الإعطاء والمنع. ومن الناس من تكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الإعطاء والمنع، فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الإرادية، وبالعكس فيدخل النقص بحسب ما نقص من قوة هذه القوى الثلاث ويفوته من التيسير لليسرى بحسب ما فاته منها، ومن كملت له هذه القوى يسر لكل يسرى، قال ابن عباس: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ﴾ أي نهيئه لعمل الخير، تيسر عليه أعمال الخير. وقال مقاتل والكلبي والفراء: نيسره للعود إلى العمل الصالح.

وحقيقة اليسرى أنها الخلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له، وهي ضد العسرى، وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه، فيُجرى الخير وييسر على قلبه ويديه ولسانه وجوارحه، فتصير خصال الخير ميسرة عليه مذللة له منقادة، لا تستعصي عليه ولا تستصعب؛ لأنه مهيأ لها ميسر لفعلها، يسلك سبلها ذللاً وتقاد له علماً وعملاً، فإذا خاللته قلت هو الذي قيل فيه:

مبارك الطلعة ميمونها يصلح للدنيا وللدين

وأما من بخل فعطل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به، واستغنى بترك التقوى عن ربه فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهى عنه، وكذب بالحسنى فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه، فسنيسره للعسرى، قال عطاء: سوف أحول بين قلبه وبين الإيمان بي وبرسولي، وقال مقاتل: يعسر عليه أن يعطي خيراً، وقال عكرمة عن ابن عباس: نيسره للشر، قال الواحدي: وهذا هو القول، لأن الشر يؤدي إلى العذاب فهو الخلة العسرى والخير يؤدي إلى اليسر والراحة في الجنة فهو الخلة اليسرى، يقول: سنهيؤه للشر، بأن يجريه على يديه. قال الفراء: العرب تقول قد يسرت غنم فلان إذا تهيأت للولادة، وكذلك إذا ولدت وغزرت ألبانها، أي يسرت ذلك على أصحابها انتهى.

والتيسير للعسرى يكون بأمرين:

أحدهما: أن يحول بينه وبين أسباب الخير، فيجري الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه.

والثاني: أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر، كما حال بينه وبين أسبابه.

فإن قيل كيف قابل: اتقى باستغنى؟ وهل يمكن العبد أن يستغني عن ربه طرفة عين؟ قيل: هذا من أحسن المقابلة، فإن المتقي لمّا استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته إلى ربه اتقاه، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه، فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص فإنه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء، ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة، ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره، فقابل التقوى بالاستغناء تبشيعاً لحال تارك التقوى، ومبالغة في ذمه بأن فَعَل فِعْل المستغني عن ربه، لا فعل الفقير المضطر إليه، الذي لا ملجأ له إلا إليه، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة عين، فلله ما أحلى هذه المقابلة، وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها، والشرور كلها وأسبابها، فسبحان من تعرف إلى خصائص عباده بكلامه، وتجلى لهم فيه فهم لا يطلبون أثراً بعد عين، ولا يستبدلون الحق بالباطل والصدق بالمين.

وقد تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب في مسألة القدر، وإزالة كل لبس وإشكال فيها، وذلك بين بحمد الله لمن وفق لفهمه، ولهذا أجاب بها النبي ﷺ من أورد عليه السؤال الذي لا يزال الناس يلهجون به في القدر، فأجاب بفصل الخطاب، وأزال الإشكال، ففي الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب ، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة والنار» قيل: يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ﴾، فقد تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية، وإثبات القدر والشرع، وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله سبحانه الأشياء قبل كونها، وإثبات خلق الفعل الجزائي، وهو يبطل أصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل مطلقاً، ومن أقر منهم بخلق فعل الجزاء دون الابتداء هدم

أصله ونقض قاعدته.

والنبي ﷺ أخبر بمثل ما أخبر به الرب تعالى: أن العبد ميسر لما خلق له، لا مجبور فالجبر لفظ بدعي، والتيسير لفظ القرآن والسنة.

... وفي الحديث بيان أن من الناس من خلق للسعادة ومنهم من خلق للشقاوة، خلافاً لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة، ولكن اختاروا الشقاوة، ولم يخلقوا لها.

وفيه إثبات الأسباب وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له إلى ما خلق له.

وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب ومطابقتها له، فتأمل قوله اعملوا فكل ميسر لما خلق له، ومطابقته لقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ ﴾ إلى آخر الآيتين كيف انتظم الشرع والقدر والسبب والمسبب.

وهذا الذي أرشد إليه النبي هو الذي فطر الله عليه عباده، بل الحيوان البهيم، بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك، فلو قال كل أحد إن قدر لي كذا وكذا فلا بد أن أناله، وإن لم يقدر فلا سبيل إلى نيله فلا أسعى ولا أتحرك لعد من السفهاء الجهال، ولم يمكنه طرد ذلك أبداً وإن أتى به في أمر معين، فهل يمكنه أن يطرد ذلك في مصالحه جميعها من طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه وهروبه مما يضاد بقاءه وينافي مصالحه، أم يجد نفسه غير منفكة ألبتة عن قول النبي: اعملوا فكل ميسر لما خلق له؟

فإذا كان هذا في مصالح الدنيا وأسباب منافعها، فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة وأسباب السعادة والفلاح فيها، ورب الدنيا والآخرة واحد؟ فكيف يُعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهيه ويُستعمل في إرادة العبد وأغراضه وشهواته؟ وهل هذا إلا محض الظلم والجهل! والإنسان ظلوم جهول؛ ظلوم لنفسه، جهول بربه، فهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ وتلا عنده هاتين الآيتين موافقاً لما جعله الله في عقول العقلاء، وركب عليه فطر الخلائق حتى الحيوان البهيم، وأرسل به جميع رسله وأنزل به جميع كتبه.

فإن قيل: فالإعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى هي من اليسرى، بل هي أصل اليسرى فمن يسرها للعبد أولاً؟ وكذلك أضدادها؟

قيل: الله سبحانه هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشر، وخلق خلقه قسمين: أهل سعادة فيسرهم لليسرى، وأهل شقاوة فيسرهم للعسرى، واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع عقوبته في موضع لا تصلح له، كما يأبى أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح لهما ولا يليق بهما، بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك! ومن جعل محل المسك والرجيع واحداً فهو من أسفه السفهاء.

فإن قيل: فلم جعل هذا لا يليق به إلا الكرامة، وهذا لا يليق به إلا الإهانة ؟ قيل: هذا سؤال جاهل لا يستحق الجواب! كأنه يقول: لم خلق الله كذا وكذا ؟

فإن قيل: وعلى هذا فهل لهذا الجاهل من جواب لعله يُشفى من جهله؟

قيل: نعم شأن الربوبية خلق الأشياء وأضدادها، وخلق الملزومات ولوازمها، وذلك هو محض الكمال، فالعلو لازم وملزوم للسُفْل، والليل لازم وملزوم للنهار، وكمال هذا الوجود بالحر والبرد والصحو والغيم، ومن لوازم الطبيعة الحيوانية الصحة والمرض، واختلاف الإرادات والمرادات، ووجود اللازم بدون ملزومه ممتنع، ولولا خَلْقُ المتضادات لما عرف كمال القدرة والمشيئة والحكمة، ولما ظهرت أحكام الأسماء والصفات، وظهور أحكامها وآثارها لا بد منه، إذ هو مقتضى الكمال المقدس، والملك التام، وإذا أعطيت اسم الملك حقه -ولن تستطيع- علمت أن الخلق والأمر والثواب والعقاب والعطاء والحرمان أمر لازم لصفة الملك، وأن صفة الملك تقتضي ذلك ولا بد، وأن تعطيل هذه الصفة أمر ممتنع، فالمُلْكُ الحق يقتضي إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمر العباد ونهيهم، وثوابهم وعقابهم، وإكرام من يستحق الإكرام، وإهانة من يستحق الإهانة، كما تستلزم حياة المَلِك؛ علمه وإرادته وقدرته وسمعه وبصره وكلامه ورحمته ورضاه وغضبه واستواءه على سرير ملكه يدبر أمر عباده، وهذه الإشارة

تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع، ويطلع منها على أرض مونقة، وكنوز من المعرفة»[١]. وقد نبه على هذا المعنى الأخير في قوله بعدها: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ ﴾، فهو «استفهام في معنى الإنكار أو النفي. (تردى) تفعل، من الردى، وهو الهلاك يريد: الموت، أو تردى في الحفرة إذا قبر، أو تردى في قعر جهنم»[٢]، أو تردى في ضلاله، وهوى في معصيته[٣].

«ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ قيل: معناه إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال، قال قتادة: على الله البيان بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته. اختاره أبو إسحاق وهو قول مقاتل وجماعة وهذا المعنى حق، ولكن مراد الآية شيء آخر.

وقيل المعنى: إن علينا للهدى والإضلال، قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء: يريد أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي، وأحول بين أعدائي وبين أن يعملوا بطاعتي. قال الفراء: فترك ذكر الإضلال كما قال: ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ [النحل: ١٨]، أي والبرد. وهذا أضعف من القول الأول، وإن كان معناه صحيحاً فليس هو معنى الآية.

وقيل المعنى: من سلك الهدى فعلى الله سبيله كقوله: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ [النحل:١٨]، وهذا قول مجاهد، وهو أصح الأقوال في الآية[٤].

قال ابن القيم: علينا للهدى أي إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله، وإلى ثوابه وجنته، وهذا المعنى في القرآن في ثلاثة مواضع[٥]: ههنا، وفي النحل في قوله: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ١/ ٣٦-٤٣. بتصرف يسير.

(٢) الكشاف، للزمخشري، تفسير سورة الليل، ٤/ ٧٥١.

(٣) النكت والعيون، للماوردي، تفسير سورة الليل، بمعناه، ٦/ ٢٨٩.

(٤) وكأن أبا حيان مال إليه في البحر المحيط.

(٥) استفاده رحمه الله من شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، صرح به في مدارج السالكين ١/ ١٧.

[النحل: ٩]، وفي الحجر في قوله: ﴿ صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴾ [الحجر: ٤١]، وهو معنى شريف جليل يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولا بد، والهدى هو الصراط المستقيم فمن سلكه أوصله إلى الله، فذكر الطريق، والغاية. فالطريق الهدى، والغاية الوصول إلى الله فهذه أشرف الوسائل، وغايتها أعلى الغايات.

ولما كان مطلوب السالك إلى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه، فأعلمه سبحانه أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئاً وأن الدنيا والآخرة جميعاً له وحده، فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده.

فتضمنت الآيتان أربعة أمور هي المطالب العالية:

[١] ذكر أعلى الغايات، وهي الوصول إلى الله سبحانه.

[٢] وأقرب الطرق والوسائل إليه، وهي طريقة الهدى.

[٣] وتوحيد الطريق، فلا يعدل عنها إلى غيرها.

[٤] وتوحيد المطلوب، وهو الحق فلا يعدل عنه إلى غيره.

... والهدى التام يتضمن: توحيد المطلوب، وتوحيد الطلب، وتوحيد الطرق الموصلة.

والانقطاع وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور أو في بعضها، فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة، والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر. فالأول يوقع في الشرك والرياء، والثاني يوقع في المعصية والبطالة، والثالث يوقع في البدعة ومفارقة السنة، فتأمله.

فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية، وتوحيد الطريق

يعصم من البدعة، والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة»[١].

وعلاقة هذا المقطع؛ تيسير من أعطى واتقى وصدق بالحسنى لليسرى، وتيسير من بخل واستغنى وكذب بالحسنى للعسرى، بالحض على الأوصاف التي يحصل بها الفلاح، والتحذير مما تحصل به الخيبة، مع بيان أن كل إنسان ميسر لما خلق له، وهو محور السورة.

وقد أكد هذا الحض على الجد في السعي للخير ومجانبة الشر بقوله سبحانه:﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾، ثم بين رحمته بعباده السالكين طريق الهدى، فقال:﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾، وهذا من جزيل الفضل، وعظيم الحض على ما يحصل به الفلاح وذلك يقتضي مجانبة ضده، وقوله ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ من هذا الباب فمن أراد الدنيا فإنها لله، فلا يطلبها بسعي يغضب الله، فإن لله الآخرة دار الجزاء والحساب وهناك يوفى كل عامل نصيبه. وعلى هذه المعاني تدور السورة.

دروس وعبر من المقطع الثاني: اعملوا فكل ميسر:

* من عدل الله مع عباده أن جعل لهم مشيئة واختياراً تحت مشيئته، فهم إما يعطون ويتقون ويصدقون بها، أو يبخلون ويستغنون ويكذبون، فناج سالم، ومكدود هالك.
* إن الله تعالى ييسر كل خلق لما خلق له، وفقاً لما سبق في علمه باختياره.
* في قوله: ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ إشارة إلى أن من قدم سعي الدنيا على سعي الآخرة، وآثر النقد القليل الحقير، على النسأ الجليل الكثير، فقد غبن وأي غبن؟ غبن تتردى فيه نفسه إلى الهاوية ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ نعوذ بالله من الغبن والخذلان.
* سلوك طريق الهدى من أعظم النعم وأجلها، ولهذا تضمنت فاتحة الكتاب دعاء الله الهداية له، ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة:٦]، ففرض على المسلم أن يسأل الله التيسير

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ١/ ٤٥. بحذف يسير.



له في اليوم سبع عشرة مرة؛ لأن من سلك سبيل الهدى فعلى الله سبيله، ومن كان على الله شأن من شؤونه ضمن تحققه على أكمل الأوجه وأتمها. «ومن يسره الله لليسرى فقد وصل.. وصل في يسر وفي رفق وفي هوادة.. وصل وهو بعد في هذه الأرض. وعاش في يسر. يفيض اليسر من نفسه على كل ما حوله وعلى كل من حوله. اليسر في خطوه. واليسر في طريقه. واليسر في تناوله للأمور كلها. والتوفيق الهادئ المطمئن في كلياتها وجزئياتها. وهي درجة تتضمن كل شيء في طياتها. حيث تسلك صاحبها مع رسول الله ﷺ في وعد ربه له: (ونيسرك لليسرى)..»[1].

المقطع الثالث: إنذار وتحذير

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى (١٥) ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى (١٧) ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ (١٩) إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١) ﴾.

انتهى المقطع السابق «وقد تبين طريقان ونهجان للجموع البشرية في كل زمان ومكان، وقد تبين أنهما حزبان ورايتان مهما تنوعت وتعددت الأشكال والألوان. وأن كل إنسان يفعل بنفسه ما يختار لها! فييسر الله له طريقه: إما إلى اليسرى وإما إلى العسرى»[2]. مع التنبيه إلى أن دار السعي الفانية هي لله، حق على العبيد الذين هم فيها أن يسعوا وفق مراد الله فيها، كيف لا وهم وأرضهم وسماؤهم تحت ملكه وسلطانه! كما أن له دار الحساب التي يرد فيها أصحاب السعي المتباين للجزاء. فـ «لما أقام سبحانه الدليل وأنار السبيل وأوضح الحجة وبين المحجة، أنذر عباده عذابه الذي أعده لمن كذب خبره وتولى عن طاعته، وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم كما جعل

(١) في ظلال القرآن، لسيد، تفسير سورة الليل، ٦/ ٣٩٢٢.
(٢) المصدر السابق.

أسعدهم أهل التقوى والإحسان والإخلاص»[١].

فقال: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾، قال ابن عاشور: «.. الفاء لمجرد التفريع الذِكري إذا كان فعل: «أنذرتكم» مستعملاً في ماضيه حقيقةً: وكان المراد الإنذار الذي اشتمل عليه قوله: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾، إلى قوله: ﴿ تَرَدَّىٰٓ ﴾. وهذه الفاء يشبه معناها معنى فاء الفصيحة لأنها تدلّ على مراعاة مضمون الكلام الذي قبلها وهو تفريع إنذار مفصَّل على إنذارٍ مجمل»[٢]. وقوله ﴿ أَنذَرْتُكُمْ ﴾، إما مخاطبة بهذا القرآن، وإما على معنى قل لهم يا محمد أنذرتكم! «والمعنى: خوفتكم وحذرتكم ناراً تلظى»[٣]. «وتنكير ﴿ نَارًا ﴾ للتهويل، وجملة﴿ تَلَظَّىٰ ﴾ نعت. وتلظى: تلتهب من شدة الاشتعال. وهو مشتق من اللّظى مصدر: لَظِيَتْ النار كرَضيتْ إذا التهبت، وأصل (تلظى) تتلظى بتاءين حذفت إحداهما للاختصار»[٤]، وأصل اللظى اللهب الخالص، وخص وصف هذه النار بالتلظي مع أن لها صفات عديدة منها السعير، وسقر، والجحيم، والهاوية، وغير ذلك[٥].

وقوله الأشقى، والأتقى «قيل: الأشقى، والأتقى، بمعنى الشقي والتقي. ولا تفضيل فيهما؛ لأن النار [غير] مختصة بالأكثر شقاء، وتجنبها ليس مختصاً بالأكثر تقوى.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ١/ ٤٥.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الليل، ١٥/ ٣٨٩. ثم ذكر وجهاً آخر وهذا أقرب وإليه نحى سيد قطب.

(٣) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل، تفسير سورة الليل ٢٠/ ٣٧٦.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الليل، ١٥/ ٣٨٩.

(٥) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشنقيطي، تكملة الشيخ عطية، تفسير سورة الليل، ٩/ ١٤٩. بتصرف، وما أشار إليه الشيخ أسماء للنار وقد نظمها بعضهم في قوله:

جهنم ولظى ثم الحطيم كذا ... عدا سعير وكل القول في سقر

وبعد ذاك جحيم ثم هاوية ... فتلك عـدتهم في قــول مختصر

ومعلوم أن الأسماء تدل على المسمى ونعوته.

وقيل: بل هما على بابهما، وإليه ذهب الزمخشري»[١].

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف قال: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ١٥﴾... ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ١٧﴾؟ وقد علم أن كل شقي يصلاها وكل تقي يجنبها، لا يختص بالصلي أشقى الأشقياء، ولا بالنجاة أتقى الأتقياء، وإن زعمت أنه نكر النار فأراد ناراً بعينها مخصوصة بالأشقى[٢]، فما تصنع بقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ١٧﴾؟ فقد علم أن أفسق المسلمين يجنب تلك النار المخصوصة، لا الأتقى منهم خاصة»! واعتراض آخر أنه لايبقى كبير وعد في قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ١٧﴾ لجواز أن يدخل غيرها[٣].

ثم قال الزمخشري: «قلت: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين، فقيل: الأشقى وجعل مختصاً بالصلي، كأن النار لم تخلق إلا له، وقيل: الأتقى وجعل مختصا بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له»[٤].

على أن ما اعترض عليه الزمخشري بقوله تعالى: (وسيجنبها الأتقى) قد يجاب بما قاله ابن عجيبة: «﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ وسيبعّدها[٥]، ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ المؤمن المبالغ في اتقاء الكفر والمعاصي فلا يحوم حولها، فضلاً عن دخولها. وأمّا مَن دونه ممن يتقي الكفر دون المعاصي فلا يبعد هذا البُعد، وذلك لا يستلزم صليها بالمعنى المذكور، فلا يُنافي الحصر المذكور». وهذا قد يعترض عليه بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ٧١﴾ [مريم:٧١] وأجيب «بأن التقي يرد، والأتقى لايشعر بورودها، كمن يمر عليها كالبرق الخاطف»[٦]، ولعل أحسن

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل، تفسير سورة الليل ٢٠/ ٣٧٦.
(٢) كأنه يعترض على تخريج الزجاج الآتي.
(٣) وهذا اعتراض أقوى من الأول، وإليه أشار شيخ الإسلام في الفتاوى ١٦/ ١٩٤.
(٤) الكشاف، للزمخشري، تفسير سورة الليل، ٤/ ٧٥٢.
(٥) فالتجنب يدل عى عدم دخول وزيادة وهي التباعد، فإن أصل جنب في العربية يفيد البعد، كما أفاد ابن فارس [ينظر معجم مقاييس اللغة مادة جنب].
(٦) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشنقيطي، تكملة الشيخ عطية، تفسير سورة الليل، ٩/ ١٥١.

منه أن يقال ورود جهنم لايلزم منه ورود بعض خاص وهو النار التي تلظى، وأما الاعتراض الآخر فجوابه بآية سورة مريم الآنفة فخص ناراً موصوفة بالمجانبة، ولم ينف ورود غيرها، وبهذا يصح وجه الزجاج، قال القرطبي نقلاً عنه: «هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى، ولأهل النار منازل فمنها: أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب فجائز أن يعذب به، وقال جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، فلو كان كل من لم يشرك لم يعذب لم يكن في قوله: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾فائدة، وكان: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ كلاماً لا معنى له»(١).

ووجه آخر ذكره ابن عطية فقال: «وقوله تعالى: ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ﴾ أي ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ ﴾ صلي خلود، ومن هنا ضلت المرجئة؛ لأنها أخذت نفي الصلي مطلقاً في قليله وكثيره، و﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾ هنا، الكافر بدليل قوله الذي كذب، والعرب تجعل أفعل في موضع فاعل مبالغة كما قال طرفة:

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتْ فَتِلْكَ سَبِيلٌ لسْتُ فيها بِأَوْحَدِ»(٢).

ولعل التعبير هنا بصيغة التفضيل فيه إشارة إلى أن أبابكر ﷺ هو أتقى من أعطى واتقى وصدق بالحسنى، في هذه الأمة، وبهذا شهدت السنة، وأن أمية بن خلف هو أشقى من بخل واستغنى وكذب بالحسنى، والله أعلم.

قال ابن عادل: « قالت المرجئة: الآية تدل على أن الوعيد مختص بالكافر.

والجواب:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تفسير سورة الليل، ٢٠/ ٧٩، وقد ذكر قول الزجاج هذا غير واحد منهم ابن الجوزي، في زاد المسير، تفسير سورة الليل ٩/ ١٥١ واختصره. وقد بسط شيئاً من هذا المعنى الشيخ عطية، في أضواء البيان، فيما أكمله من التفسير سورة الليل ٩/ ١٥٠.

(٢) المحرر الوجيز، لابن عطية، تفسير سورة الليل ٥/ ٤٩٢.

[١] المعارضة بآيات الوعيد.

[٢] وأيضاً: فهذا إغراء بالمعاصي.

[٣] وأيضاً فقوله تعالى بعده: (وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى)، يدل على ترك هذه الظاهرة؛ لأن الفاسق ليس بأتقى.

[٤] فالمراد بقوله تعالى: ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أنها مخصوصة من بين النيران؛ لأن النار دركات.

[٥] ولا يلزم من هذا أنَّ الفاسق لا يدخل النَّار أصلاً، والمراد لا يصلاها بعد الاستحقاق.

[٦] وأجاب الواحديُّ: بأن معنى ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾: لا يلزمها، وهذه الملازمة لا تثبت إلا للكافر»[١]. وقول الواحدي الأخير وقول ابن عطية متقارب فلعل ابن عطية استفاده منه. واختاره شيخ الإسلام فقال: «وتحقيقه أن الصلي هنا هو الصلي المطلق، وهو المكث فيها والخلود على وجه يصل العذاب إليهم دائماً، فأما من دخل وخرج فإنه نوع من الصلي ليس هو الصلي المطلق، لا سيما إذا كان قد مات فيها، والنار لم تأكله كله، فإنه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود والله أعلم»[٢].

والأجوبة الثلاث الأول لاتصح تخريجاً لهذه الآية، وحاصلها إسناد الجواب الرابع فهي تدل على صحة التأويل، أو أن المراد الصلي المطلق لا مطلق الصلي، ولا تصح أجوبة مستقلة إذ لاترفع التعارض على فهم المرجئة.

كما أنه ضمن الجواب الرابع جواب الزجاج، أما الخامس فبعيد لتفسيره الأشقى بالذي كذب وتولى وهو الكافر. فحاصل كلامه الجوابين المتقدمين، وجواب الزمخشري يثلثها عند

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل، تفسير سورة الليل، ٢٠/ ٣٧٧.

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ١٩٧.



بعضهم، ولعله لايصح جواباً فإنه يفسر ذكر أفعل التفضيل، بصورة سبب النزول، ولا يحل إشكال حصر الصلي في الأشقياء وهم الكفار دون غيرهم، لأنه ليس في هذا إشكال على مذهبه[١]. ولعل الزمخشري لم يرد ما ذكره ابن المنير في تعقبه: «التخصيص هنا لفائدة أخرى غير النفي عما عدا المخصص، وتلك الفائدة المقابلة»[٢]، فهذا لاينسجم مع معتقده الذي يؤول إلى تقسيم الناس إلى شقي لايسعد وسعيد لايشقى، فالحصر عنده مراد، ولكنه أراد أن يقول الأشقى بمعنى الشقي -وهو اسم جنس- والأتقى بمعنى التقي، ثم خرج التعبير بأفعل التفضيل بما ذكر. وأما تخريج ابن المنير بحمله الصلي على أنه نوع مخصوص من الإحراق فلا يسمى صلياً إلاّ إذا كان بين أطباقها، بحيث يشمله الإحراق، فهذا وجه رابع ولعله لا يسلم فإن مبناه على نفي تسمية دون ما ذكر صلياً، ولا يصح لغة ولاشرعاً، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء: ٢٩-٣١]، فهذا توعد بالصلي والخطاب لمن لم يسلبهم اسم الإيمان. فإن أراد -وليس بظاهر كلامه- أن ذلك صلي وهذا صلي دونه جائز التحقق، فالمثبت في آية الليل الأول دون الثاني، رجع إلى قول شيخ الإسلام الماضي وهو أن المراد الصلي المطلق لامطلق الصلي، وهو شبيه بقول ابن عطية والواحدي، إلاّ أن الأخيرين يجعلان الصلي مطلقاً بالنظر إلى زمانه، وهو يجعله مطلقاً بالنظر إلى محله المَصْلِي، وعبارة شيخ الإسلام تجمع المعنيين.

ثم قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ ﴾ «التزكي

---

(١) فالمعتزلة يقولون: إن الفساق في منزلة بين المنزلتين في الدنيا، أما في الآخرة فلا إشكال عندهم في أنهم أشقياء لهم حكم الكفار من أهل النار خالدين فيها.

(٢) الكشاف، للزمخشري، ٤/ ٧٥٢.



هو التطهر والتبرك بترك السيئات، الموجب زكاة النفس، كما قال: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ ولهذا تفسر الزكاة تارة بالنماء والزيادة، وتارة بالنظافة والإماطة، والتحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين؛ إزالة الشر، وزيادة الخير، وهذا هو العمل الصالح وهو الإحسان»[1].

و«التزكي في الآية أعم من الإنفاق، فإنه ترك السيئات الذي أصله بترك الشرك، فأول التزكي التزكي من الشرك، كما قال: ﴿ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[فصلت:٦-٧]، وقال: ﴿ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾[آل عمران:١٦٤]. والتزكي من الكبائر الذي هو تمام التقوى. كما قال: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم:٣٢]، وقال:﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [النساء:٤٩]، فعلم أن التزكية هي الإخبار بالتقوى.

ومنه التزكي بالطهارة وبالصدقة والإحسان، كما قال: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣]»[2].

وقوله: ﴿ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ تأكيد فـ «المتقي المحسن، لا يفعل ذلك إلا ابتغاء وجه ربه، فهو مخلص في تقواه وإحسانه.

وفي الآية الإرشاد إلى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل من الخلق ونعمهم، وإن حمل منهم شيئاً بادر إلى جزائهم عليه، لئلا يتبقى لأحد من الخلق عليه نعمة تجزى، فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده، ليس للمخلوق جزاء على نعمته.

ونبه بقول: ﴿ تُجۡزَىٰٓ ﴾على أن نعمة الإسلام التي لرسول الله ﷺ على هذا الأتقى لا تجزى، فإن كل ذي نعمة يمكن جزاء نعمته إلا نعمة الإسلام، فإنها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزي بها، وهذا يدل على أن الصديق ﷺ أول وأولى من ذكر في هذه الآية، وأنه أحق الأمة بها، فإن

(١) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ١٩٨.

(٢) المصدر السابق.



علياً ﷺ تربى في بيت النبي ﷺ، فلرسول الله ﷺ عنده نعمة غير نعمة الإسلام يمكن أن تجزى»، وهذا مع قوله (الأتقى) شاهد من القرآن على بزه ﷺ في فضله الأقران.

وقوله:﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾، «أي: طمعاً في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات»[1].

ثم ختم -سبحانه- بقوله عن أبي بكر ﷺ ومن اتصف بتلك الصفات كذلك: ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾، «جواب قسم مضمر، أي: والله لسوف نُجازيه فيرضى، وهو وعد كريم لنيل جميع ما يبتغيه على أفضل الوجوه وأكملها، إذ به يتحقق رضاه، وهو كقوله لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾»[ابن عجيبة]. وفيه إشارة إلى أن من اتصف بتلك الصفات فهو موعود بالحسنى وزيادة، فلما ابتغى بها وجه الإله الجليل، جاءه الوعد بالترضية، ومنها لذة النظر إليه جل في عليائه.

قال الرازي: «فالمعنى أنه وعد أبا بكر أن يرضيه في الآخرة... وفيه عندي وجه آخر وهو أن المراد أنه ما أنفق إلا لطلب رضوان الله، ولسوف يرضى الله عنه، وهذا عندي أعظم من الأول لأن رضا الله عن عبده أكمل للعبد من رضاه عن ربه، وبالجملة فلا بد من حصول الأمرين على ما قال: ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾[الفجر: ٢٨]»[الرازي].

قال الآلوسي متعقباً: «والظاهر هو الأول، وقد قرئ ولسوف يُرضى بالبناء للمفعول من الإرضاء، وما أشار إليه في معنى راضية مرضية غير متعين»[2].

دروس وعبر من المقطع الثالث: إنذار وتحذير:

* أجمع أهل السنة على إثبات الشفاعة لأهل الكبائر من المؤمنين، ويخرج من النار بشفاعة رسول الله ﷺ قوم من أمته بعد أن صاروا فيها حمماً يطرحون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سورة الليل، ٤/ ٦٧٢.

(٢) روح المعاني، للآلوسي، تفسير سورة الليل، ٣٠/ ١٥٣.

الحبة في حميل السيل[1]، وفي هذا رد على المرجئة، ورد على الخوارج والمعتزلة، وأما احتجاج بعضهم بالآية: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥﴾ فباطل وليس في الآية حجة لهم كما سبق، قال شيخ الإسلام: «هذا الصلي قد فسره النبي، ﷺ، في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل» فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية!

و في رواية ذكرها ابن أبي حاتم فقال:... عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه:٧٤] فقال النبي ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا من أهل النار فإن النار تميتهم، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيهم، فيُشَفَّعون، فيؤتى بهم إلى نهر يقال له الحياة أوالحيوان فينبتون كما ينبت الغثاء في حميل السيل».

فقد بين النبي ﷺ أن هذا الصلي لأهل النار الذين هم أهلها، وأن الذين ليسوا من أهلها فإنها تصيبهم بذنوبهم، وأن الله يميتهم فيها حتى يصيروا فحما ثم يشفع فيهم فيخرجون ويؤتى بهم إلى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل.

وهذا المعني مستفيض عن النبي ﷺ، بل متواتر في أحاديث كثيرة، في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وغيرهما، وفيها الرد على طائفتين على الخوارج والمعتزلة الذين يقولون: إن أهل التوحيد يخلدون فيها وهذه الآية حجة عليهم وعلى من حكي عنه من غلاة المرجئة أنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد، فإن إخباره بأن أهل التوحيد

---

(١) وهذا الإجماع منقول في كتب السنة من نحو أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ينظر ١/ ١٧٧ والتي تليها.

يخرجون منها بعد دخولها تكذيب لهؤلاء وأولئك، وفيه رد على من يقول يجوز أن لا يدخل الله من أهل التوحيد أحداً النار كما يقوله طائفة من المرجئة الشيعة ومرجئة أهل الكلام المنتسبين إلى السنة... »[١].

* في الآيات إثبات الوجه له تعالى وفيه آيات وأحاديث كثيرة، فمن قال المراد بـ(وجه ربه) في هذه الآية ونحوها مرضاته، فإما أن يعني به كناية عن مرضاته، وإما أن يريد به نفي الصفة، فمن عن به الكناية فحاصل قوله أن الطمع في رؤيته في الآخرة كناية عن حصول أعلى الرضوان، وقد علم أن الكناية في لغة العرب لا تقتضي نفي الحقيقة، ولاتستلزم نفي شاهدها، بل لا تكون إلاّ بإثبات شاهدها، فإذا قالوا «كثير رماد الدار» كناية عند العرب على الكرم، وهذه الكناية لا تنافي كون رماده كثير حقيقة بل تجتمع معها، ولو لم يكن رماده كثير حقيقة ما كنوا به عن الكرم. وإذا تبين ذلك فإن من قال من المفسرين بأن (ابتغاء وجه ربه) كناية عن طلب مرضاته، فلا يلزم منه تأويلاً للصفة، وهذا المعنى ينبغي أن يراعى في هذه الآيات وفي غيرها من آيات الصفات.

* في الآيات إثبات علو الله على خلقه، قال تعالى: (ربه الأعلى) فوصف الرب بأنه أعلى والرب علم على الذات واجبة الوجود، فشمل ذلك من حيث الأصل علو ذاته وعلو شأنه، وعلو قهره.

* وفيها إثبات خيرية أبي بكر ﷺ وإشارة إلى أنه أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ وعليه إجماع أهل السنة[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ١٩٤-١٩٦.

(٢) ينظر الإقناع في مسائل الإجماع، لأبي الحسن بن القطان، ص٥٩، والاستذكار ١٤/ ٢٤٤، وكذلك ما قرره ابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة، ١/ ١٧٨ وما بعدها.



سورة الضحى

أولاً: بين يدي السورة

(أ) أسماؤها:

قال ابن عاشور: «سميت هذه السورة في أكثر المصاحف وفي كثير من كتب التفسير وفي جامع الترمذي (سورة الضحى) بدون الواو، وسميت في كثير من التفاسير وفي صحيح البخاري (سورة والضحى) بإثبات الواو، ولم يبلغنا عن الصحابة خبر صحيح في تسميتها»[1]. وقد جاء في مطبوع جامع الترمذي والتحفة: سورة والضحى، بالواو، وفي مخطوط الكروخي وكذا السلطانية من جامع الترمذي التسمية كما ذكر الشيخ بغير واو، وقد وقعت بالواو أيضاً عند الحاكم في المستدرك المطبوع[2].

فالظاهر أنه لم يؤثر لهذه السورة غير اسم واحد، وأما البقية فتعريف لها بما استهلت به.

(ب) فضائلها:

وقع في رواية مسلم لحديث صلاة معاذ ﷺ العشاء وتطويله بالناس، والذي مضى ذكره عند تفسير السورتين قبلها، أنه ﷺ قال: اقرأ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١﴾، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾، ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾»[3]. فخصها ﷺ بالذكر معها.

وقد كانت هذه السورة بشارة له ﷺ، وللمؤمنين، بعد مدة الوحي، فقد كانت رداً على من قال له ﷺ: «إن ربك قد قلاك»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١﴾.

وبهذا علل بعض أهل العلم ما يروى في بدء التكبير عندها[4].

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الضحى، ١٥/ ٣٩٣.

(٢) المستدرك على الصحيحين، للحاكم، ٢/ ٥٧٣ الباب ٩٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، ١/ ٣٣٩ (٤٦٥).

(٤) ينظر كلام: ابن كثير، في تفسير القرآن العظيم، سورة الضحى، ٤/ ٦٧٤.

وقد روى البخاري في صحيحه عن جندب بن عبدالله ﷺ أنه قال: احتبس جبريل ﷺ على النبي ﷺ فقالت امرأة من قريش: أبطأ عليه شيطانه. فنزلت: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ ﴾[1].

وقد اختلف في هذه المرأة، فقال الحافظ ابن كثير: «قيل: إن هذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب...

فأما ما رواه ابن جرير... أن خديجة قالت للنبي ﷺ: ما أرى ربك إلا قد قلاك. فأنزل الله: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ ﴾... وقال أيضاً... أبطأ جبريل على النبي ﷺ فجزع جزعاً شديداً فقالت خديجة: إني أرى ربك قد قلاك مما نرى من جزعك. قال فنزلت: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ ﴾ إلى آخرها، فإنه حديث مرسل من هذين الوجهين، ولعل ذكر خديجة ليس محفوظاً أو قالته على وجه التأسف والحزن، والله أعلم.

وقد ذكر بعض السلف منهم ابن إسحاق: أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ، حين تبدى له في صورته التي خلقه الله عليها، ودنا إليه وتدلى منهبطاً عليه وهو بالأبطح»[2].

ولعل الأمر كما قال الحافظ ابن كثير يرحمه الله فإن نسبة هذا إلى خديجة لم يثبت بسند صحيح، وقد جاء بإسناد رجاله ثقات أن القائلة هي أم جميل العوراء بنت حرب بن أمية بن عبد شمس، حمالة الحطب امرأة أبي لهب[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ٣٧٨ (١٠٧٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تفسير سورة الضحى، ٤/ ٦٧٤، باختصار.

(٣) المستدرك على الصحيحين، للحاكم، ٢/ ٥٧٣ (٣٩٤٥) وقال بعده: «هذا حديث صحيح كما حدثناه هذا الشيخ إلا أني وجدت له علة»، قال ابن حجر: «رجاله ثقات» [ينظر الفتح: ٣/ ٩]، ويشهد لقربه ما ثبت في بعض الطرق من أن من قال له ذلك بعض المشركين، كما في أثر جندب البجلي ﷺ عند الطبري [التفسير ١٢/ ٦٢٢]، قال الترمذي في جامعه بعد أن رواه: «حسن صحيح» [جامع الترمذي=

وذهب ابن حجر إلى إثبات صحة ما يروى من قول خديجة: «ربك قد قلاك»، على سبيل التأسف والتوجع، بينما قالت أم جميل: «شيطانك»[1]. وقال: «فالذي يظهر أن كلاً من أم جميل وخديجة قالت ذلك، لكن أم جميل عبرت لكونها كافرة بلفظ شيطانك، وخديجة عبرت لكونها مؤمنة بلفظ ربك أو صاحبك، وقالت أم جميل شماتة، وخديجة توجعاً»[2]. وذكر سبباً آخراً للنزول، قال ابن العربي: «وهذا أصح»[3].

ولعل الصواب ما رجحه الحافظ ابن كثير، فإن الأثر في النسبة إلى أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها مرسل، وذاك مسند صحيح. على أن ما ذكره الحافظ ابن حجر طريق للجمع عند من صحح النسبة إلى أم المؤمنين رضي الله عنها. وفي قائل ذلك القول أقوالاً أخرى وأصحها ما أشير إليه.

(ج) وقتها:

قال ابن الجوزي: «وهي مكية كلها بإجماعهم»[4]، قال القرطبي: «مكية باتفاق»[5]، وقال

= ٥/ ٤٤٢ (٣٣٤٥)]، ورواه غيرهما، وسنده صحيح ومرسل جندب -وهو من صغار الصحابة- مرسل صحابي يقبل، ونحوه روي عن غير جندب ﷺ من الصحابة.

(١) ينظر: فتح الباري، لابن حجر ٣/ ٩.

(٢) فتح الباري، لابن حجر، ٨/ ٧١١. وقد تنبه رحمه الله هنا إلى إرساله من قبل عبدالله بن شداد، وكان قد قال في الموضع الأول [الفتح: ٣/ ٩] حاكياً إنكار ابن المنير على من نسب القول إلى خديجة ﷺ: «وقد تعقبه بن المنير ومن تبعه بالإنكار، لأن خديجة قوية الإيمان، لا يليق نسبة هذا القول إليها، لكن إسناد ذلك قوي، أخرجه إسماعيل القاضي في أحكامه، والطبري في تفسيره، وأبو داود في أعلام النبوة له، كلهم من طريق عبد الله بن شداد بن الهاد وهو من صغار الصحابة والإسناد إليه صحيح». فعده من صغار الصحابة والصحيح أنه من كبار التابعين، أرسله. فتنبه إلى إرساله هنا، والله أعلم، والأثر أيضاً جاء عن عروة ابن الزبير مرسلاً.

(٣) أحكام القرآن، لابن العربي، ٤/ ٣٥٥.

(٤) زاد المسير في التفسير، لابن الجوزي، تفسير سورة الضحى، ٩/ ١٥٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تفسير سورة الضحى، ٢٠/ ٨٢.

ابن عبدالكافي: «مكية في قولهم جميعاً»[1]، ونحوهما قال ابن عاشور، وقال: «وعدت هذه السورة حادية عشرة في ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة الفجر، وقبل سورة الانشراح»[2]، ونحو ما ذكر هؤلاء أشار إليه أبو الحسين بن الحصار في كتابه (الناسخ والمنسوخ)[3].

(د) عدد آيها:

قال أبو عمرو الداني: «وهي إحدى عشرة آية في جميع العدد، ليس فيها اختلاف»[4]، ونحوه قال ابن عبدالكافي، وكذا قال الآلوسي، وغيرهما[5].

(هـ) محاورها:

لعل الذي يظهر للمتأمل أن محور السورة وموضوعها يدور على إثبات أن مدة الوحي ليست دليلاً على القلى، مع تعداد أنعم تدل على الرعاية، بالإضافة إلى توجيه للتعامل مع من حرمها.

وقد سلكت لذلك أغراضاً، فأبطلت قول «المشركين إذ زعموا أن ما يأتي من الوحي للنبي ﷺ قد انقطع عنه.

وزاده بشارة بأن الآخرة خير له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى. وأنه سيعطيه ربه ما فيه رضاه. وذلك يغيظ المشركين.

ثم ذكره الله بما حفه به من ألطافه وعنايته، في صباه، وفي فتوته، وفي وقت اكتهاله، وأمره

---

(١) كتاب في عدد سور وآي القرآن، لعمر بن محمد بن عبدالكافي (ق ١٠٧/ أ)، موقع مخطوطات الأزهر ورقمها (٣٠٩٤٨٣).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الضحى، ١٥/ ٣٩٤.

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ١/ ٤٠. وقد مضى تعليق كلامه عند تفسير سورة الشمس.

(٤) البيان في عدد آي القرآن، لأبي عمرو الداني، سورة والضحى، ص٢٧٧.

(٥) روح المعاني، للآلوسي، تفسير سورة الضحى، ٣٠/ ١٥٣، وكذا قال المخللاتي في شرح منظومة العد.

بالشكر على تلك النعم بما يناسبها، مع نفع لعبيده وثناء على الله بما هو أهله»[1].

(و) مناسباتها:

(١) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

من مقصود السورة بيان أن «أتقى الأتقياء -الذي هو الأتقى على الإطلاق- في عين الرضا دائماً، لاينفك عنه في الدنيا والآخرة، لما تحلى به من صفات الكمال، التي هي [سبيل] الإيصال للمقصود بها لها من نور معنوي كالضحى بما له من النور الحسي، الذي هو أشرف ما في النهار. وقد علم بهذا أن اسمها أدل ما فيها على مقصودها»[2].

(٢) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

«لما حكم في آخر الليل بإسعاد الأتقياء، وكان النبي ﷺ أتقى الخلق مطلقاً، وكان قد قطع عنه الوحي حيناً، ابتلاءً لمن شاء من عباده، وكان به ﷺ، صلاح الدين والدنيا والآخرة، وكان الملوان[3] سبب صلاح معاش الخلق وكثير من معادهم، أقسم الله سبحانه وتعالى بهما على أنه أسعد الخلائق في دنيا وأخرى»[4].

(٣) المناسبة بين مضمون السورة وما قبلها:

قال السيوطي عن سورة الشمس والليل والضحى: «هذه الثلاثة حسنة التناسق جداً، لما في مطالعها من المناسبة، لما بين الشمس والليل والضحى من الملابسة...

ونزيد في سورة الضحى أنها متصلة بسورة الليل من وجهين؛ فإن فيها: ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الضحى، ١٥/ ٣٩٤.

(٢) نظم الدرر، تفسير سورة الضحى، ٨/ ٤٥٢. وما بين المعقوفين مقحم للتوضيح ولعله سقط.

(٣) الملوان: الليل والنهار [ينظر مختار الصحاح ١/ ٢٦٤ - الغريب لابن قتيبة ٢/ ٣١٠ - وللخطابي ١/ ٣٠٧].

(٤) نظم الدرر، للبقاعي، تفسير سورة الضحى، ٨/ ٤٥٢.

وَٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾، وفي الضحى: ﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾، وفي الليل: ﴿ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾، وفي الضحى: ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾.

ولما كانت سورة الضحى نازلة في شأنه ﷺ افتتحت بالضحى الذي هو نور، ولما كانت سورة الليل سورة أبي بكر -يعني ما عدا قصة البخيل- وكانت سورة الضحى سورة محمد عقب بها ولم يجعل بينهما واسطة ليعلم ألا واسطة بين محمد وأبي بكر»[1].

«وقال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: لما قال تعالى: ﴿ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾[الشمس: ٨]، ثم أتبعه بقوله في الليل: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ ﴾[الليل: ٧ و١٠] فلزم الخوف واشتداد الفزع، وتعين على الموحد الإذعان والتسليم، والتضرع في التخلص، والتجاوه إلى السميع العليم، أنس تعالى أحب عباده إليه، وأعظمهم منزلة لديه، وذكر لهم ما منحه من تقريبه واجتبائه، وجمع خير الدارين»[2].

(ح) مقاطع السورة:

اشتملت هذه السورة على مقطعين رئيسيين:

المقطع الأول: بيان لبعض حال محمد ﷺ ومكانه.

والمقطع الثاني: من دلائل الرعاية وحقها.

(١) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي، ١/ ١٥٢ باختصار.

(٢) نظم الدرر، للبقاعي، تفسير سورة الضحى، ٨/ ٤٥٤.

المقطع الأول: بيان لبعض حال محمد ﷺ ومكانه

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾.

فأقسم سبحانه بالضحى، وبالليل إذا سجى، أما الضحى فقد مضت الإشارة إلى معناه في تفسير سورة الشمس، وقوله﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ «يقال: سجا الليل سَجْواً بفتح وسكون، وسُجُوّاً بضمتين وتشديد الواو»[1]، وقيل في معنى سجى: أقبل، وذهب، واستوى وقيل: سكن، وأظلم، وغطى، أما الثلاثة الأولى فأقرب منها الثلاثة بعدها، وأصل السجو في اللغة يدل على سكون وإطباق[2]، وذلك لازم التغطية، وليست التغطية هي التسجية ولهذا يقال عين ساجية وهي غير مغطاة، ولما كانت التغطية أو السكون وإطباق الليل يكون بإظلامه قال بعضهم سجى أظلم، وهو أيضاً من قبيل التفسير باللازم، وليست التسجية هي الإظلام ولهذا يقال تسجى الرجل بالثوب، ولا يلزم من ذلك إظلام، ولكن تلك عوارض تعتري الليل إذا أطبق وسكن خاصة ومن هنا تنوع تعبيرهم، وعلى الأصل اللغوي جل المفسرين[3]، «ومناسبة القسم بـ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ ﴾ أن الضحى وقت انبثاق نور الشمس، فهو إيماء إلى تمثيل نزول الوحي وحصول الاهتداء به، وأن الليل وقت قيام النبي ﷺ بالقرآن، وهو الوقت الذي كان يسمع فيه المشركون قراءته من بيوتهم القريبة من بيته أو من المسجد الحرام، ولذلك قيد (الليل) بظرف ﴿ إِذَا سَجَىٰ ﴾. فلعل ذلك وقت قيام النبي ﷺ»[4].

وهذا القسم « بـ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ على إنعامه على رسوله ﷺ وإكرامه

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الضحى، ١٥/ ٣٩٥.

(٢) أفاده ابن فارس في مادة سجو من معجم مقاييس اللغة له.

(٣) أفاده الشوكاني، في فتح القدير له، تفسير سورة الضحى، ٥/ ٦٤٦، إلاّ أنه ذهب مذهب الترجيح بين أقوال المفسرين واختار أنه بمعنى سكن، وهو اختيار ابن جرير من المتقدمين والشنقيطي من المتأخرين.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الضحى، ١٥/ ٣٩٤-٣٩٥.

له، وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد.

وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته، دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته، وهما الليل والنهار.

فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى، الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه: ودع محمداً رَبُّه.

فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل[1] على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه، وأيضاً فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار، هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحس وهذان للعقل! وأيضاً فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه، وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ والجلالة التي على معانيها»[2]. وقال الشيخ عطية: « أقسم -تعالى- بالضحى والليل هنا فقط لمناسبتها للمقسم عليه؛ لأنهما طرفا الزمن، وظرف الحركة والسكون، فإنه يقول له مؤانساً: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾، لا في ليل ولا في نهار»[3].

ثم قال -تعالى-: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾، وهذا جواب القسم، «وجواب القسم إذا كان جملة منفية لم تقترن باللام»[4]، فـ«نفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه، فالتوديع

---

(١) يعني فترة الوحي، وما تبعها من كلام المشركين.

(٢) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص٤٧.

(٣) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشنقيطي، تكملة الشيخ عطية، تفسير سورة الضحى ٩/ ١٥٤.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الضحى، ١٥/ ٣٩٥.

الترك، والقلى البغض، فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه، ولا أبغضه منذ أحبه»[١]. وفي تقديم ﴿ وَدَّعَكَ ﴾ على ﴿ قَلَىٰ ﴾ فائدة مراعاة الفواصل، ثم كأنه يقول: لم أدعك مجرداً فضلاً عن أن يصحب ذلك بغض، ولكنه أكد بذكر القلى حتى لا يكون سبيل لمتعنت فيقول: ما تركه ولكنه لايحبه، فكم من مُواصل وليس بواصل، كما أن في قوله: ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ جواب لمن قال من المشركين: قد قلاه.

وقد أشار إلى معنى الرعاية والعناية في ذلك بذكر الربوبية فقال: ﴿ رَبُّكَ ﴾، يشير إلى ملكه وخلقه ورزقه وتدبير شأنه ﷺ.

«وحذف مفعول ﴿ قَلَىٰ ﴾ لدلالة ﴿ وَدَّعَكَ ﴾ عليه، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾، وهو إيجاز لفظي لظهور المحذوف، ومثله قوله: ﴿ فَـَٔاوَىٰ ﴾ ﴿ فَهَدَىٰ ﴾، ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾»[٢].

وفي هذا «اكتفاء بالكاف الأولى في ﴿ وَدَّعَكَ ﴾.

ولأن رؤوس الآيات بالياء، فأوجب اتفاق الفواصل حذف الكاف.

[وفيه أيضاً]: فائدة الإطلاق أنه ما قلاك ولا ﴿ قَلَىٰ ﴾ أحداً من أصحابك، ولا أحداً ممن أحبك إلى قيام القيامة، تقريراً لقوله: (المرء مع من أحب)».

ثم قال سبحانه: ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾.

«فإن قلت: كيف اتصل قوله:﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ بما قبله؟ قلت: لما كان في ضمن نفي التوديع والقلى أن الله مواصلك بالوحي إليك، وأنك حبيب الله، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه، أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله، وشهادة أمته على سائر الأمم، ورفع درجات المؤمنين إعلاء

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص٤٧.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الضحى، ١٥/ ٣٩٦-٣٩٧.



مراتبها بشفاعته، وغير ذلك من الكرامات السنية»[١].

«وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له من الأولى، وهذا يعم كل حالة يرقيه إليها، فهي خير له مما قبلها، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها.

ثم وعده بما تقر به عينه وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى»[٢].

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾، صح «عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً فسر بذلك، فأنزل الله: (ولسوف يعطيك ربك فترضى) فأعطاه في الجنة ألف ألف قصرٍ، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج»[٣].

على أن الخير الموعود به أعظم فالإعطاء والإرضاء هنا «يعم ما يعطيه من القرآن والهدى والنصر وكثرة الأتباع ورفع ذكراه وإعلاء كلمته، وما يعطيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة، وما يعطيه في الجنة.

وأما ما يغتر به الجهال من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار، فهذا من غرور الشيطان لهم، ولعبه بهم، فإنه صلوات الله وسلامة عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يحد لرسوله حداً يشفع فيهم، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن يدخل أحد من أمتي النار، على أن يدعه فيها. بل ربه تبارك وتعالى يأذن له فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أذن له فيه ورضيه»[٤].

---

(١) الكشاف، للزمخشري، تفسير سورة الضحى، ٤/ ٧٥٥.

(٢) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص٤٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تفسير سورة الضحى، ٤/ ٦٧٤، وقال بعده: «وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا ما يقال إلا عن توقيف».

(٤) التبيان في أقسام القرآن، ص٤٧.

المقطع الثاني: من دلائل الرعاية وحقها

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾.

قال الرازي: «اتصاله بما تقدم هو أنه تعالى يقول: ألم يجدك يتيماً، فقال الرسول: بلى يا رب. فيقول: انظر أكانت طاعاتك في ذلك الوقت أكرم أم الساعة؟ فلا بد من أن يقال: بل الساعة، فيقول الله: حين كنت صبياً ضعيفاً ما تركناك بل ربيناك ورقيناك إلى حيث صرت مشرفاً على شرفات العرش... أتظن أنا بعد هذه الحالة نهجرك ونتركك»[1]. فـ «عدد عليه نعمه وأياديه، وأنه لم يخله منها من أول تربيه، وابتداء نشئه، ترشيحاً لما أراد به؛ ليقيس المترقب من فضل الله، على ما سلف منه، لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة، ولا يضيق صدره ولا يقل صبره»[2].

«ويمضي سياق السورة يذكر الرسول ﷺ ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق. ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به، ومودته له، وفيضه عليه، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهي. وهو متاع فائق تحييه الذكرى على هذا النحو البديع: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾.. انظر في واقع حالك، وماضي حياتك.. هل ودعك ربك وهل قلاك، حتى قبل أن يعهد إليك بهذا الأمر؟ ألم تحط يتمك رعايته؟ ألم تدرك حيرتك هدايته؟ ألم يغمر فقرك عطاؤه؟

لقد ولدت يتيماً فآواك إليه، وعطف عليك القلوب حتى قلب عمك أبي طالب وهو على غير دينك!

---

(١) التفسير الكبير، للرازي، تفسير سورة الضحى، ١٦/ ٣١-٣٢. وفيه اختصار واقتصار على ما يوافق الدليل.

(٢) الكشاف، للزمخشري، تفسير سورة الضحى، ٤/ ٧٥٦.

ولقد كنت فقيراً فأغنى الله نفسك بالقناعة، كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك خديجة رضي الله عنها عن أن تحس الفقر، أو تتطلع إلى ما حولك من ثراء!

ثم لقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد، منحرفة السلوك والأوضاع، فلم تطمئن روحك إليها. ولكنك لم تكن تجد لك طريقاً واضحاً مطمئناً. لا فيما عند الجاهلية، ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى الذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا وتاهوا.. ثم هداك الله بالأمر الذي أوحي به إليك، وبالمنهج الذي يصلك به.

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هي المنة الكبرى، التي لا تعدلها منة؛ وهي الراحة والطمأنينة من القلق الذي لا يعدله قلق؛ ومن التعب الذي لا يعدله تعب، ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله ﷺ يعانيه في هذه المدة، من انقطاع الوحي وشماتة المشركين ووحشة الحبيب من الحبيب. فجاءت هذه تذكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه، وهو لم يتركه من قبل في الحيرة والتيه!»[(١)].

إنها جملة أنعم تدل على عظيم رعاية، فما مات أبوه حتى وضعه في قرار مكين، فخرج إلى الدنيا يتيماً، غير أن عين الرعاية كلأته، فسخر الله له أماً تقوم على شؤونه التي يحتاجها كل وليد، ثم ما ماتت أمه حتى استقل بشأنه، بل وزيادة، بعد أن قام بما قام به رسل الله قبله فرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، ثم كفله جده وهو ابن سبع أو ثمان سنين ثم عمه بعدها -ولم يكن عليهما عالة- فبعد الرعي وما أن شب حتى حرص عليه عقلاء تجار مكة لما حباه الله من صدق وقوة وأمانة، وأي تاجر يرجو من عامله فوق هذا! ولما كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها من أرجح أثرياء مكة -رجالهم ونسائهم- عقلاً، كان لها السبق في الاتجار معه ﷺ فلما رأت صدق ما قيل بل فوق ما قيل من صدقه وقوته وأمانته أدركت ما يرتقبه من مستقبل فحرصت عليه، وكان زواجه منها. فأغناه الله بها.

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد، تفسير سورة الضحى، ٦/ ٣٩٢٧.

وقد جاءت النعم المذكورة مرتبة في الآيات على أحسن ما يكون، فقد كان يتمه أولاً يوم خرج من بطن أمه، وكان على الفطرة، بهداية الله له، فلما نشأ ورأى ما عليه القوم، هداه الله إلى الحنيفية فلم يقارف ما كان عليه أهل الشرك من منكرات الاعتقادات والأعمال والأقوال، ثم كان شيء من غناه، ثم كمل له الهداية بأن أرشده بالوحي إلى الشرائع التي كان لايعلمهما، وتبع ذلك أن أغناه الله -أي كفاه- بكل ما تحصل به الكفاية في أموره جميعاً، فناسب أن يختم بتقرير نعمة الإغناء هنا.

وبعد أن عدد المنعم المتفضل سبحانه بعض آلائه «من إيوائه بعد يتمه، وهدايته بعد الضلالة، وإغنائه بعد الفقر... أمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر، فنهاه أن يقهر اليتيم، وأن ينهر السائل، وأن يكتم النعمة بل يحدث بها.

فأوصاه سبحانه باليتامى والفقراء والمتعلمين، قال مجاهد ومقاتل: لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيما. وقال الفراء: لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه، وكذلك كانت العرب تفعل في أمر اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم فغلظ الخطاب في أمر اليتيم، وكذلك من لا ناصر له يغلظ في أمره وهو نهي لجميع المكلفين.

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠ ﴾ قال أكثر المفسرين: هو سائل المعروف والصدقة، لا تنهره إذا سألك، فقد كنت فقيراً، فإما أن تطعمه، وإما أن ترده رداً ليناً، وقال الحسن: أما إنه ليس بالسائل الذي يأتيك! ولكن طالب العلم. وهذا قول يحيى بن آدم قال: إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره، والتحقيق أن الآية تتناول النوعين»[١].

وقوله: ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١ ﴾

«في هذا التحديث المأمور به قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة والإخبار بها، وقوله: أنعم الله علي بكذا وكذا، قال مقاتل: يعني

(١) التبيان في أقسام القرآن، ص٤٧. باختصار يسير.



اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر اليتم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة، والتحدث بنعمة الله. شكرٌ كما في حديث جابر مرفوعاً: من صنع إليه معروف فليجز به، فإن لم يجد ما يجزي به فليثن، فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور.

فذكر أقسام الخلق الثلاثة:

[١] شاكر النعمة المثني بها.

[٢] والجاحد لها والكاتم لها.

[٣] والمظهر أنه من أهلها وليس من أهلها، فهو متحل بما لم يُعطَه.

وفي أثر آخر مرفوع: (من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس، لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب).

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة، قال مجاهد: هي النبوة. قال الزجاج: أي بلغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله. وقال الكلبي: هو القرآن، أمره أن يقرأه.

والصواب: أنه يعم النوعين إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها، وإظهارها من شكرها»[١].

«... قال الحسن: أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾، والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته، فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

وقال علي بن الجعدي: سمعت سفيان الثوري يقول: إن داود عليه الصلاة والسلام قال:

(١) مدارج السالكين، لابن القيم ٢/ ٢٤٨.



الحمد لله حمداً كما ينبغي لكرم وجهه، وعز جلاله. فأوحى الله إليه: يا داود أتعبت الملائكة!

وقال شعبة: حدثنا المفضل بن فضالة، عن أبي رجاء العطاردي، قال: خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خز لم نره عليه قبل ولا بعد، فقال: إن رسول الله قال: «إذا أنعم الله على عبد نعمة، يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[1]، وفي صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، عن النبي ﷺ قال: «كلوا، واشربوا، وتصدقوا، في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[2].

وذكر شعبة: عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن أبيه، قال: أتيت رسول الله وأنا قشف الهيئة، فقال: «هل لك من مال؟»، قال: قلت نعم. قال: «من أي المال؟»، قلت: من كل المال قد آتاني الله؛ من الإبل، والخيل، والرقيق، والغنم، قال: «فإذا آتاك الله مالاً فليُرى عليك»[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٤/ ٤٣٨، وقال الهيثمي رجال أحمد ثقات [مجمع الزوائد ٥/ ١٣٢]، ورواه البيهقي في السنن الكبرى، ٣/ ٢٧١ (٥٨٨٨)، والطحاوي في مشكل الآثار ٤/ ٣٨، والطبراني في الكبير ١٨/ ١٣٥ (٢٨١)، وابن أبي الدنيا في كتاب العيال ٢/ ٥٥٠ (٣٦٩)، وقال حديث صحيح.

(٢) رواه الترمذي في جامعه، ٥/ ١٢٣ (٢٨١٩)، مختصراً وقال: هذا حديث حسن، ورواه الحاكم في المستدرك، ٤/ ١٥٠ (٧١٨٨) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ورواه أيضاً الطيالسي في مسنده ١/ ٢٩٩ (٢٢٦١)، ورواه غيرهم، والخلاف في الحكم على سلسلة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مشهور. قال ابن حجر: «وله شاهد عند أبي يعلى عن أبي سعيد» [الفتح ١٠/ ٢٦٠]، وقد علقه البخاري في الصحيح، ولينظر تغليق التعليق لابن حجر ٥/ ٥٢. والأمالي المطلقة ١/ ٣٢، وقد حسنه ابن أبي الدنيا في العيال.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، ١٢/ ٢٣٤ (٥٤١٦)، ووقع في مسند الحارث نحوه ٢/ ٦٠٦ (٥٧٠)، بزيادة: «ويكره البؤس.. »، وله شاهد من حديث أبي هريرة عند أحمد، ورواه أيضاً الطبراني في الكبير ١٩/ ٢٧٨ (٦١٠)، وكذلك هو في الآحاد والمثاني ٢/ ٤٦٢ (١٢٦٣)، وصحح إسناده الحاكم في المستدرك ١/ ٧٦ (٦٥)، وكذلك ٤/ ٢٠١ (٧٣٦٤).

وفي بعض المراسيل: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، في مأكله ومشربه[1]. وروى عبد الله بن يزيد المقري، عن أبي معمر، عن بكير بن عبد الله رفعه: «من أُعطي خيراً فرؤي عليه سمي حبيب الله، محدِثاً بنعمة الله، ومن أعطي خيراً ولم ير عليه، سمي بغيض الله معادياً لنعمة الله»[2]. وقال فضيل بن عياض: كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه، وحمده بلسانه، لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة، لقول الله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧]، وقال: من شكر النعمة أن يحدث بها. وقد قال تعالى: «يا ابن آدم إذا كنت تتقلب في نعمتي، وأنت تتقلب في معصيتي، فاحذرني لاأصرعك بين معاصي، يا ابن آدم اتقني ونم حيث شئت».

وقال الشعبي: الشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله. وقال أبو قلابة: لا تضركم دنيا شكرتموها. وقال الحسن: إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر، فإذا شكروه كان قادراً على أن يزيدهم، وإذا كفروه كان قادراً على أن يبعث نعمته عليهم عذاباً.

وقد ذم الله سبحانه الكنود، وهو الذي لا يشكر نعمه، قال الحسن: إن الإنسان لربه لكنود؛ يعد المصائب، وينسى النعم.

وقد أخبر النبي ﷺ أن النساء أكثر أهل النار بهذا السبب، قال: «لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط»، فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج، وهي في الحقيقة من الله، فكيف بمن ترك شكر نعمة الله!

يـــا أيها الـظالم فـي فعلـــــــه والـظلـم مـــردود على من ظلم

---

(١) هو أثر علي بن زيد بن جدعان، رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر ١/ ٢٣ (٥٣)، وكذا في العيال ٢/ ٥٤٩ (٣٦٨)، ونحوه أحاديث مرفوعة بغير الزيادة في مأكله..، وهذا المعنى ثابت [ينظر الاستذكار لابن عبدالبر ٤/ ١٤٠].

(٢) حديث ضعيف، رواه ابن أبي الدنيا في العيال ٢/ ٥٤٥ (٣٦٤)، وهو في الشكر ١/ ٢٣ (٥٤)، من طريق سويد بن سعيد، وفيه أبو معمر عبدالصمد، قال أبوحاتم: منكر الحديث، ثم هو مرسل من بكير بن عبدالله رحمه الله.

إلى متـــى أنـــت وحتى متـــى تشكو المصيبات وتنسى النعم»[١]

دروس وعبر من المقطع الثاني: من دلائل الرعاية وحقها:

* عمد كثير من المفسرين إلى تأويل قوله سبحانه: ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ ﴾ بلازمه، فقالوا: الوجود بمعنى العلم[٢]، وليس له داع ولاسيما أن الاستفهام المنفي يفيد التقرير، فالمعنى قد وجدك ولا محذور في ظاهر التعبير الرباني، فوجد يدل على أصل واحد، وهو الشيء يلفيه، وليس من لازم الوضع اللغوي الجهل بالملفي، ومحل اللبس الداعي إلى التأويل عندهم ما صاحب الأصل من الإطلاقات اللغوية للفظ مقترناً بلازم الإضافة والنسبة إلى المضاف إليه، فقد يكون من لازم ذلك في بعض النسب إلى الخلق معرفة بعد جهل، وهذا معنى باطل في حق الحق سبحانه، إلاّ أن أصل الوضع لا يقتضيه، ولهذا يقال: لفأت الريح السحاب عن وجه السماء، ولفأتُ اللحم عن العظم، وفي المادة الأولى (وجد) يقال: وجدت الغضب وجداناً. ولا يقتضي كل ذلك جهل مسبق.

* «إن عقل رسول الله أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق،... وقد أخبر سبحانه أنه قبل الوحي لم يكن يدري الإيمان كما لم يكن يدري الكتاب، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ ﴾ [الشورى:٥٢]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ ﴾، وتفسير هذه الآية بالآية التي في آخر الشورى. فإذا كان أعقل خلق الله على الإطلاق إنما حصل له الهدى بالوحي كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ ﴾ [سبأ:٥٠]، فكيف يحصل لسفهاء العقول، وأخفاء الأحلام، وفراش الألباب، الاهتداء إلى حقائق الإيمان بمجرد عقولهم، دون نصوص الأنبياء! ﴿ لَقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ

(١) عدة الصابرين، لابن القيم، ص٩٨-٩٩ بتصرف يسير.

(٢) ذكره الزمخشري، والرازي، والنسفي، والآلوسي، وغيرهم.

مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾[مريم:٨٩-٩٠]»[1].

* ذكر بعضهم في قوله -تعالى-: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ أي وجدك «فقيراً ذا عيال»[2] وليس بجيد، فإنه ﷺ لما تزوج خديجة -وكان أول ولده القاسم عليه السلام منها- كان قد حصل له شيء من الغنى، قال الآلوسي: «ورجح الأول في الآية بقراءة ابن مسعود عديماً وأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن ذا عيال في أول أمره صلى الله تعالى عليه وسلم»[3]، وفي الآية دليل على أن الفقر بلاء يُسأل الله رفعه، قال ابن قتيبة: «العائل الفقير كان له عيال أو لم يكن، والمعيل ذو العيال كان له مال أو لم يكن. فحال النبي ﷺ عند مبعثه وحاله عند مماته، يدلان على ما قال الله عز وجل لأنه بعث فقيراً وقبض غنياً، ويدل على أن المسكنة التي كان يسألها ربه عز وجل ليست بالفقر، وأما قوله: إن الفقر بالمؤمن أحسن من العذار الحسن على خد الفرس، فإن الفقر مصيبة من مصائب الدنيا عظيمة وآفة من آفاتها أليمة، فمن صبر على المصيبة لله تعالى، ورضي بقسمه، زانه الله تعالى بذلك في الدنيا، وأعظم له الثواب في الآخرة، وإنما مثل الفقر والغنى مثل السقم والعافية، فمن ابتلاه الله تعالى بالسقم فصبر كان كمن ابتلي بالفقر فصبر، وليس ما جعل الله تعالى في ذلك من الثواب بمانعنا من أن نسأل الله العافية ونرغب إليه في السلامة. وقد ذهب قوم يفضلون الفقر على الغنى، إلى أنه كان يتعوذ بالله تعالى من فقر النفس واحتجوا بقول الناس: فلان فقير النفس وإن كان حسن الحال، وغني النفس وإن كان سيء الحال. وهذا غلط ولا نعلم أن أحداً من الأنبياء، ولا من صحابتهم، ولا العباد، ولا المجتهدين، كان يقول اللهم أفقرني، ولا أزمني! ولا بذلك استعبدهم الله عز وجل بل استعبدهم بأن يقولوا: اللهم ارزقني، اللهم عافني، وكانوا يقولون: اللهم لا تبلنا

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم، ٢/ ٧٣٥، باختصار يسير.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تفسير سورة الضحى، ٤/ ٦٧٤. وقد ذكره الأخفش كذلك.

(٣) روح المعاني، للآلوسي، تفسير سورة الضحى، ٣٠/ ١٦٣.

إلا بالتي هي أحسن، يريدون لا تختبرنا إلا بالخير، ولا تختبرنا بالشر. لأن الله تعالى يختبر عباده بهما ليعلم كيف شكرهم وصبرهم»[١].

* في قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾: تحريم الإغلاظ بالقول للسؤّال ابتداءً، فإن نهرهم من أذاهم، وأذى المسلم لا يجوز بغير حق، وقد أخبر الرؤوف الرحيم بأن الأذى يبطل الصدقة، قال الله -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقد جعل على هذه الآية ابن حزم في المحلى مسألة قال: لا يجوز لأحد أن يمن بما فعل من خير[٢]، قال النووي: ويحرم المنّ بها، فإن مَنّ بطل ثوابه[٣]. وعده الهيتمي في الزواجر من الكبائر[٤]. ولا خلاف بين الفقهاء في أن المن والأذى في الصدقة حرام يبطل الثواب[٥]. فإذا كان الأمر كذلك في الصدقة التي يتبعها أذى فكيف يقال في أذى السائل بالنهر دون صدقة! وكما نهى الله تعالى عن نهر السائل فقد أمر بأن يبذل له القول الميسور، ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٨].

«أما لو رده بلين فلم يقبل وألح كفعل بعض السؤّال، سقط احترامه ويؤدب بلطف بحسب ما يقتضيه الحال والمصلحة، ثم قد يقال: هو أولى من تركه والصبر عليه، لاسيما إن قال أو فعل ما لا ينبغي لما فيه من زجره وتهذيبه وتقويمه، فهو إحسان إليه مع إقامة الشرع في عقوبة المعتدي. وقد يقال الصبر عليه أولى، والله أعلم»[٦]. ولعل الأوجه توجيهه برفق

(١) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص١٦٨.

(٢) المحلى، لابن حزم، ٨/ ١٢٤.

(٣) المجموع شرح المهذب، للنووي، ٦/ ٢٤١.

(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي، ١/ ٣١٢.

(٥) الموسوعة الفقهية، لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، ٢٠/ ٣٤١.

(٦) الآداب الشرعية، لابن مفلح، ١/ ٤٢٠-٤٢١.

والإنكار عليه بلطف، فإن ألحف فإن الإغلاظ عليه والإنكار هو المتجه، شريطة أن يراعي المنكر جهة مخالفة الملحف للشرع لا الانتصار للنفس. ثم نقل ابن مفلح ما ذكر القرطبي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾. «إن ابن دريد قصد بعض الوزراء في حاجة لم يقضها، فظهر منه ضجر فأنشده:

لا تَدْخُلَنَّك ضَجْرَةٌ من سائلٍ　　　فَلِخَير دهرِكَ أن تُرَى مَسئولا

لا تَجْبَهنْ بالرَّدِ وَجْهَ مُؤَمِّلٍ　　　فبقاءُ عِزِّكَ أنْ تُرى مَأمُولا

تلقى الكريمَ فيسْبِقَنَّكَ بِشْرُه　　　وتَرَى العُبُوسَ على اللئيم دَليلا

واعلم بأنَّك عن قليلٍ صائرٌ　　　خبراً فكنْ خَبراً يَرُوق جَمِيلا»[1]

---

(١) المصدر السابق، والأصل عند القرطبي، في الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ٣٠٩.

سورة الشرح

أولاً: بين يدي السورة

(أ) أسماؤها:

قال ابن عاشور: «سميت في معظم التفاسير، وفي صحيح البخاري، وجامع الترمذي (سورة ألم نشرح)، وسميت في بعض التفاسير (سورة الشرح)، ومثله في بعض المصاحف المشرقية، تسمية بمصدر الفعل الواقع فيها من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ وفي بعض التفاسير تسميتها (سورة الانشراح)»[1]. ولم يذكرها السيوطي في الإتقان ضمن السور التي لها أكثر من اسم.

(ب) فضائلها:

جاءت في فضلها عدة آثار كلها لا تثبت ولا يجوز الاحتجاج بها، كقولهم من قرأ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، فكأنما جاءني وأنا مغتم ففرج عني[2]. ومن قرأ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾شرح الله صدره للإسلام[3]. ومن قرأ في الفجر بـ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، و﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ لم يرمد[4]. فكل هذا لايثبت.

وقد جاءت الإشارة للسورة في آثار أخرى ثابتة غير أن عد ذلك من فضائلها تكلف.

(ج) وقتها:

قال ابن عاشور: « وهي مكية بالاتفاق، وقد عدت الثانية عشرة في عداد نزول السور

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الشرح، ١٥/ ٤٠٧.

(٢) ذكر الزيلعي في تخريج الكشاف أنه مرسل ٤/ ٢٣٧.

(٣) قال ابن حجر في الفتح: «في إسناده راو ضعيف»، ٨/ ٧١٢.

(٤) قال الهكاري في المصنوع في معرفة الحديث الموضوع، نقل عن السخاوي أنه لا أصل له ١/ ١٩٠، وكلام السخاوي في المقاصد الحسنة ١/ ٦٦٤ (١١٦٢).

نزلت بعد سورة الضحى بالاتفاق وقبل سورة العصر»[1]، ونحوه المخللاتي في (شرح ناظمة الزهر)، وقال ابن عبد الكافي: «مكية في قولهم جميعاً»[2]. وإلى نحو ما ذكروا أشار أبو الحسين بن الحصار في كتابه (الناسخ والمنسوخ)[3].

(د) عدد آيها:

قال أبو عمرو الداني: «وهي ثماني آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف»[4]، وقال ابن عبدالكافي: «هي ثمان آيات من غير خلاف»[5]. قال المخللاتي في (شرح منظومة الشاطبي) في العدد: «آياتها ثمان اتفاقاً».

(هـ) محاورها:

قال ابن عاشور: « مضمونها شبيه بأنه حجة على مضمون سورة الضحى، تثبيتاً له بتذكيره سالف عنايته به، وإنارة سبيل الحق، وترفيع الدرجة، ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته، ما كان ليقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماض يعلمه النبي ﷺ.

واتبع ذلك بوعده بأنه كلما عرض له عسر فسيجد من أمره يسراً، كدأب الله تعالى في معاملته، فليتحمل متاعب الرسالة، ويرغب إلى الله عونه»[6].

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الشرح، ١٥/ ٤٠٧.

(٢) كتاب عدد سور وآي القرآن، لعمر بن محمد بن عبدالكافي، (ق ١٠٧/ ب) عن موقع مخطوطات الأزهر (٣٠٩٤٨٣).

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ١/ ٤٠. وقد مضى تعليقه عند تفسير سورة الشمس.

(٤) البيان في عدد آي القرآن، لأبي عمرو الداني، سورة ألم نشرح، ص٢٧٨.

(٥) عدد سور وآي القرآن، لعمر بن محمد، (ق ١٠٧/ ب) عن موقع مخطوطات الأزهر (٣٠٩٤٨٣).

(٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الشرح، ١٥/ ٤٠٧-٤٠٨.

(و) مناسباتها:

(١) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

من «مقصودها تفصيل ما في آخر الضحى من النعمة، وبيان أن المراد بالتحديث بها هو شكرها بالنصب في العبادة، والرغبة إليه بتذكر إحسانه وعظيم رحمته بوصف الربوبية وامتنانه، وعلى ذلك دل اسمها الشرح»[1]، وكذلك فإن هذه السورة تشرح صدر نبينا ﷺ للقيام بأعباء الدعوة، بما فيها من تعداد النعم المعينة على ذلك، ابتداء بالشرح الحسي وما تبعه من شرح معنوي، وما ترتب عليه من رفع الوزر، ووضع العسر، فكان الشرح هو أس موضوعها فناسب أن تسمى به.

(٢) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

بدأت السورة بذكر نعمة الله على عبده ﷺ إذ شرح صدره، ثم ختمت بتقرير أحد أعظم أسباب شرح الصدر ألا وهو التوحيد، فقوله سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾ يفيد الحصر، فلا ترغب إلاّ لله، ولم يسم متعلق الرغبة ليشمل كل عمل، فلا ترغب بأي عمل من أعمال الجوارح والقلوب إلى غير الله، وذلك هو التوحيد، قال ابن القيم رحمه الله: «فأعظم أسباب شرح الصدر: التوحيد، وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال -تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه»[2]، فتأمل بديع المناسبة بين الافتتاح والاختتام.

(١) نظم الدرر، تفسير سورة الشرح، ٨/ ٤٦٠.

(٢) زاد المعاد، للإمام ابن القيم، ٢/ ٢٢.



(٣) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

«لما أمره ﷺ، آخر الضحى بالتحديث بنعمته التي أنعمها عليه، فصلها في هذه السورة فقال مثبتاً لها في استفهام إنكاري، مبالغة في إثباتها -عند من ينكرها- والتقرير بها، مقدماً المنة بالشرح في صورته، قبل الإعلام بالمغفرة، كما فعل ذلك في سورة الفتح الذي هو نتيجة الشرح لتكون البشارة بالإكرام أولاً، لافتاً القول إلى مظهر العظمة تعظيماً للشرح»[١].

(٤) المناسبة بين مضمون السورة وما قبلها:

قال السيوطي: «هي شديدة الاتصال بسورة الضحى لتناسبهما في الجمل، ولهذا ذهب بعض السلف إلى أنهما سورة واحدة بلا بسملة بينهما، قال الإمام: والذي دعاهم إلى ذلك هو أن قوله:﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾، كالعطف على: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾. قلت: وفي حديث الإسراء أن الله تعالى قال: «يا محمد ألم أجدك يتيما فآويت؟ وضالاً فهديت؟ وعائلاً فأغنيت؟ وشرحت لك صدرك؟ وحططت عنك وزرك؟ ورفعت لك ذكرك؟ فلا أُذكر إلا ذُكرت»، الحديث أخرجه ابن أبي حاتم، وفي هذا أوفى دليل على اتصال السورتين معنى»[٢] ولهذا قال البقاعي: «مقصودها تفصيل ما في آخر الضحى من النعمة»[٣].

(ح) مقاطع السورة:

اشتملت هذه السورة على مقطعين رئيسين:

المقطع الأول: تعداد لبعض أنعم الله على نبيه، ﷺ، وإشارة إلى مغزاها.

---

(١) نظم الدرر، تفسير سورة الشرح، ٨/ ٤٦٠.

(٢) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي، ١/ ١٥٢. قال ابن عاشور: «وعن طاوس، وعمر بن عبد العزيز، أنهما كانا يقولان: ألم نشرح من سورة الضحى. وكانا يقرءانها بالركعة الواحدة، لا يفصلان بينهما، يعني في الصلاة المفروضة. وهذا شذوذ مخالف لما اتفقت عليه الأمة، من تسوير المصحف الإمام» [التحرير والتنوير ١٥/ ٤٠٧].

(٣) نظم الدرر، تفسير سورة الشرح، ٨/ ٤٦٠.

والمقطع الثاني: ما تستوجبه تلك النعم.

المقطع الأول: تعداد لبعض أنعم الله على نبيه، ﷺ، وإشارة إلى مغزاها

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾.

يقول صاحب الظلال:

«نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى، وكأنها تكملة لها. فيها ظل العطف الندي، وفيها روح المناجاة الحبيب، وفيها استحضار مظاهر العناية، واستعراض مواقع الرعاية، وفيها البشرى باليسر والفرج، وفيها التوجيه إلى سر اليسر وحبل الاتصال الوثيق...

ثم كانت هذه المناجاة الحلوة، وهذا الحديث الودود! ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾؟.. ألم نشرح صدرك لهذه الدعوة؟ ونيسر لك أمرها؟ ونجعلها حبيبة لقلبك، ونشرع لك طريقها؟ وننر لك الطريق حتى ترى نهايته السعيدة! فتش في صدرك: ألا تجد فيه الرَّوْح والانشراح والإشراق والنور؟ واستعد في حسك مذاق هذا العطاء... ألا تجد المتاع مع كل مشقة والراحة مع كل تعب، واليسر مع كل عسر والرضا مع كل حرمان؟»[1].

فالمعنى «أما شرحنا لك صدرك أي نورناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً كقوله: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام:١٢٥]. وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحاً واسعاً سمحاً سهلاً لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق.

وقيل المراد بقوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾ شرح صدره ليلة الإسراء... كما رواه

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب، تفسير سورة الانشراح، ٦/ ٣٩٢٩.

مالك بن صعصعة[١] ولكن لا منافاة، فإن من جملة شرح صدره الذي فعل بصدره ليلة الإسراء وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضاً»[٢].

وقد ذكر الرازي مسألة: لم ذكر الصدر دون القلب؟ وأجاب عليها بما حاصله أن محل الوسوسة الصدر كما قال سبحانه ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ ﴾ [الناس:٥]. ولعل من فائدته زيادة على ما ذكر الإشارة إلى أن شرح الصدر كان أولاً شرحاً حقيقياً، وذلك لما استخرج الملك قلبه، فلما أراد أن يؤكد ذلك المعنى ذكر شرح الصدر الذي تبعه شرح القلب المذكور في الأحاديث، والله أعلم.

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾.. ووضعنا عنك عبئك الذي أثقل ظهرك حتى كاد يحطمه من ثقله.. وضعناه عنك بشرح صدرك له فخف وهان. وبتوفيقك وتيسيرك للدعوة ومداخل القلوب.. وبالوحي الذي يكشف لك عن الحقيقة ويعينك على التسلل بها إلى النفوس في يسر وهوادة ولين. ألا تجد ذلك العبء الذي أنقض ظهرك؟ ألا تجد عبئك خفيفاً بعد أن شرحنا لك صدرك؟»[٣].

وقد اختلف المفسرون في الثقل أو الوقر الذي رفع على عشرة أقوال[٤]، وسبب الاختلاف

---

(١) حديث مالك بن صعصعة رواه الترمذي في جامعه ٥/ ٤٤٢ (٣٣٤٦) ونصه: «أن النبي ﷺ قال: بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول أحد بين الثلاثة فأتيت بطست من ذهب فيها ماء زمزم فشرح صدري إلى كذا وكذا، قال قتادة: قلت - يعني قلت لأنس بن مالك -: ما يعني ؟ قال: إلى أسفل بطني فاستخرج قلبي فغسل قلبي بماء زمزم ثم أعيد مكانه ثم حشي إيماناً وحكمة» وفي الحديث قصة طويلة، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تفسير سورة الانشراح، ٤/ ٦٧٧.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب، تفسيرة سورة الانشراح، ٦/ ٣٩٢٩-٣٩٣٠.

(٤) ذكر الرازي في التفسير الكبير منها تسعة، وذكر الماوردي أربعة، رابعها ليس في التسعة فتحصلت عشرة أقوال.

أن الوزر في اللغة أصله الثقل في الشيء، ولم يصرح به هنا ما هو، بالإضافة إلى الاختلاف في عصمة الأنبياء من الصغائر.

ولعل الصحيح حمل الوزر هنا على أضربه التي جاءت في القرآن كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام:١٦٤]، وقوله:﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء:١٥]، وقوله: ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [طه:١٠٠]، وقوله:﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر:١٨]، ونحوها من الآيات التي يأتي الوزر فيها بمعنى الإثم أو الذنب ونحوه.

قال شيخ الإسلام: «وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ، أنه كان يقول في دعائه: ((ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي))، وثبت عنه: «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وعلانيته وسره، وأوله وآخره، اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلاّ أنت))، وفي الركوع والسجود كان يقول: ((سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي». يتأول القرآن. وقال له ربه: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ [غافر:٥٥]، ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد:١٩]»[١]. ثم ذكر الرد على من زعم أن نحو هذه الآيات المراد بها ذنب أمته، وفيه رد على من حمل الآية: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ﴾ على معنى مشابه.

---

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع ابن قاسم، ١/ ٢٠٥.

وأما من فسر قوله سبحانه: ﴿ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ﴾ بما حاصله إخبار عن العصمة فبعيد لا يستقيم معه سياق الآيات ﴿ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ ﴾، فالتعبير بإنقاض الظهر قاض بأن الكلام في شيء غير العصمة إلاّ بتأويل متكلف.

وأما الوجه الثاني الذي يحتمله المعنى وقال به بعض أهل التفسير، هو أن الوزر هنا أثقال الدعوة وأعباء الرسالة ونحو هذا، فهذا وإن كان اللفظ والسياق هنا يحتمله إلاّ أن الذي يظهر أنه معنى غير مراد، فمشقة الدعوة وأعباؤها لم توضع عنه ﷺ، بل تحمل عليه الصلاة والسلام ما ألقي عليه من القول الثقيل، وقام به حق القيام فكان أشد الناس بلاء، وقد قال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل»[1]. ومازال عبء الدعوة يزداد على كاهله ﷺ ولاسيما بعد عام الحزن، وهو بمكة إلى أن أتم الله له الأمر فجاءها فاتحاً بعد حين.

ولهذا فلعل أقرب الأقوال وأصحها في قوله: ﴿ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ﴾ هو قول الحسن وقتادة والضحاك وغيرهم من السلف إذ فسروا الوزر بالذنب.

وقد اعترض على هذا التأويل بما لا يصح اعتراضاً، فقيل: إن الأنبياء معصومون من الكبائر، وقوله بعدها: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ ﴾ على هذا التفسير يدل على كونه عظيماً.

وليس بصحيح «فالظاهر: أنَّ كل مقام له ذنوب، ومنها رؤية التقصير في القيام بحقوق ذلك المقام، فحسنات الأبرار سيئات المقربين[2]، فكلما علا المقام طُولب صاحبه بشدة الأدب،

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ٧/ ١٦٠ (٢٩٠٠)، والحاكم في مستدركه ١/ ١٠٠ (١٢١)، وقد رواه غير واحد، وصححه غير إمام، قال الذهبي: على شرط مسلم، وله شواهد كثيرة.

(٢) هذه عبارة مجملة والمراد بها هنا معنى صحيح، فلا تحمل على غيره، قال شيخ الإسلام ابن تيمية [رسالة في التوبة ص٢٥١]: «هذا اللفظ ليس محفوظاً عمن قوله حجة، لا عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من سلف الأمة وأئمتها، وإنما هو كلام، وله معنى صحيح، وقد يحمل على معنى فاسد.
أما معناه الصحيح فوجهان:
=

فكأنه ﷺ خاف ألاّ يكون قام بحق المقام الذي أقامه الحق فيه، فاهتمّ من أجله، وجعل منه حملاً على ظهره، فأسقطه الحق تعالى عنه، وبشَّره بأنه مغفور له على الإطلاق؛ ليتخلّى من ذلك الاهتمام».

«وإذا ابتلى الله بعض الأكابر بما يتوب منه فذاك لكمال النهاية لا لنقص البداية، كما قال بعضهم: لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه.

وأيضاً فالحسنات تتنوع بحسب المقامات كما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

فمن فهم ما تمحوه التوبة، وما ترفع صاحبها إليه من الدرجات، وما يتفاوت الناس فيه من الحسنات والسيئات زالت عنه الشبهة في هذا الباب، وأقر الكتاب والسنة على ما فيهما من الهدى والصواب... »[1].

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾ المعنى «أثقله حتى سمع نقيضه، أي صوته، وهذا مثل أي لو كان حملاً يحمل لسمع نقيض الظهر منه»[2]. وهذا مقام المشفقين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ

= أحدهما: أن الأبرار يقتصرون على أداء الواجبات وترك المحرمات، وهذا الاقتصار سيئة في طريق المقربين، ومعنى كونه سيئة أن يخرج صاحبه عن مقام المقربين فيحرم درجاتهم، وذلك مما يسوء من يريد أن يكون من المقربين، فكل من أحب شيئاً وطلبه إذا فاته محبوبه ومطلوبه ساءه ذلك، فالمقربون يتوبون من الاقتصار على الواجبات، لا يتوبون من نفس الحسنات التي يعمل مثلها الأبرار، بل يتوبون من الاقتصار عليها، وفرق بين التوبة من فعل الحسن وبين التوبة من ترك الأحسن، والاقتصار على الحسن.

الثاني: أن العبد قد يؤمر بفعل يكون حسناً منه إما واجباً وإما مستحباً، لأن ذلك مبلغ علمه وقدرته، ومن يكون أعلم منه وأقدر لا يؤمر بذلك، بل يؤمر بما هو أعلى منه، فلو فعل هذا ما فعله الأول كان ذلك سيئة... " فعلى مثل هذا يحمل ما ذكر هنا.

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع ابن قاسم، ١/ ٢٠٨. والكلام طويل نفيس.

(٢) زاد المسير، لابن الجوزي، تفسير سورة الانشراح، ٩/ ١٦٣.

خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[المؤمنون: ٥٧-٦١]. وقد علم أن هؤلاء المشفقون هم بالجملة أقل تقصيراً وتفريطاً من غيرهم، ففي قوله: ﴿ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ بيان لتعظيم النبي ﷺ ربه سبحانه بذكر عظيم إشفاقه، ولا يلزم من عظيم الإشفاق الذي يقوم بقلوب عموم الصالحين، عظم تقصير أو تفريط، فكيف بسيدهم ﷺ.

ثم قال سبحانه:

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾.. رفعناه في الملأ الأعلى، ورفعناه في الأرض، ورفعناه في هذا الوجود جميعاً.. رفعناه فجعلنا اسمك مقروناً باسم الله كلما تحركت به الشفاه: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله).. وليس بعد هذا رفع، وليس وراء هذا منزلة. وهو المقام الذي تفرد به ﷺ دون سائر العالمين..

ورفعنا لك ذكرك في اللوح المحفوظ، حين قدر الله أن تمر القرون، وتكر الأجيال، وملايين الشفاه في كل مكان تهتف بهذا الاسم الكريم، مع الصلاة والتسليم، والحب العميق العظيم. ورفعنا لك ذكرك. وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهي الرفيع. وكان مجرد الاختيار لهذا الأمر رفعة ذكر لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد في هذا الوجود.. فأين تقع المشقة والتعب والضنى من هذا العطاء الذي يمسح على كل مشقة وكل عناء؟ ومع هذا فإن الله يتلطف مع حبيبه المختار، ويسري عنه، ويؤنسه، ويطمئنه ويطلعه على اليسر الذي لا يفارقه: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ ﴾[1].

قال ابن عطية: «وذهب كثير من العلماء إلى أن مع كل عسر يسرين بهذه الآية، من حيث العسر معروف للعهد، واليسر منكر. فالأول غير الثاني، وقد روي في هذا التأويل حديث عن

(١) في ظلال القرآن، لسيد، تفسير سورة الانشراح، ٦/ ٣٩٣٠.

النبي ﷺ أنه قال: (لن يغلب عسر يسرين).

وأما قول عمر به فنص في الموطأ في رسالته إلى أبي عبيدة بن الجراح»[١].

وبنحو المنقول قال بعض أئمة اللغة، قال الرازي: «قال الفراء والزجاج: العسر مذكور بالألف واللام، وليس هناك معهود سابق فينصرف إلى الحقيقة، فيكون المراد بالعسر في اللفظين شيئاً واحداً. وأما اليسر فإنه مذكور على سبيل التنكير، فكان أحدهما غير الآخر.

وزيف الجرجاني هذا وقال: إذا قال الرجل: إن مع الفارس سيفاً، إن مع الفارس سيفاً، لم يلزم أن يكون هناك فارس واحد ومعه سيفان، ومعلوم أن ذلك غير لازم من وضع العربية»[٢]، ولهذا قال ابن عاشور: «ومن المفسرين من جعل اليسر في الجملة الأولى يسر الدنيا، وفي الجملة الثانية يسر الآخرة، وأسلوب الكلام العربي لا يساعد عليه؛ لأنه متمحض لكون الثانية تأكيداً»[٣].

وليس كما قالا إن كانت الجملة الثانية مستأنفة، فإن «عدت مستأنفة بأن العسر متبوع بيسر، فهما يسران على تقدير الاستئناف، وإنما كان العسر واحداً؛ لأنه لا يخلو إما أن يكون تعريفه للعهد وهو العسر الذي كانوا فيه فهو هو؛ لأن حكمه حكم زيد في قولك: إن مع زيد مالاً، إن مع زيد مالاً. وإما أن يكون للجنس الذي علمه لك كل أحد فهو هو أيضاً. وأما اليسر

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، تفسير سورة الانشراح، ٥/ ٤٩٧. قال الحافظ ابن حجر: « قوله: ولن يغلب عسر يسرين، وروي هذا مرفوعاً موصولاً ومرسلاً وروي أيضاً موقوفاً»، فذكر الموصول من حديث جابر وحديث ابن مسعود وضعفهما، وذكر المرسل وهو عن الحسن يرفعه، وحكم بأن إسناده جيد إلى الحسن، وذكر الموقوف عن عمر وعلي ونقل تصحيح الحاكم له، وذكر أن له إسناداً جيداً إلى ابن مسعود، وضعيفاً إلى ابن عباس. [ينظر الفتح ٨/ ٧١٢].

(٢) مفاتيح الغيب، للرازي، تفسير سورة الانشراح، ٣٢/ ٧.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الانشراح، ١٥/ ٤١٥.

فمنكر متناول لبعض الجنس[١]، فإذا كان الكلام الثاني مستأنفاً غير مكرر فقد تناول بعضاً غير البعض الأول بغير إشكال»[٢]. وكون الجملة الثانية مستأنفة هو الأصل عند إطلاق التكرار وخلو المقام عن القرائن الدالة على غيره، فإن الثاني لو كان عين الأول لم يكن في الإخبار به فائدة[٣]، وبهذا تظهر قوة الوجه المنقول عن السلف.

وفي الآية وجه ثان، هو ما أشار إليه المعترضون، فإن الآية تدل على وجود يسرين، وهذا تأكيد لارتفاع العسر، فلا إشكال في القول بالوجه الأول و«أن تكون الجملة الثانية تكريراً للأولى، كما كرر قوله:

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩] ويكون الغرض تقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب، كما يكرر المفرد في قولك: جاءني زيد زيد.

والمراد من اليسرين: يسر الدنيا وهو ما تيسر من استفتاح البلاد، ويسر الآخرة وهو ثواب الجنة، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥٢][٤]. ولا تعارض بين التوجهين فعليهما جميعاً يصح حمل الآية.

دروس وعبر من المقطع الأول: تعداد لبعض أنعم الله على نبيه، ﷺ، وإشارة إلى مغزاها:

* من أعظم النعم شرح الصدر لهذا الدين، ولهذا كان من دعاء الأنبياء والمرسلين: ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ [طه: ٢٥]، قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن

---

(١) فالنكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، والإطلاق عمومه بالبدل لا بالشمول.

(٢) الكشاف، للزمخشري، تفسير سورة الانشراح، ٤/ ٧٦٠-٧٦١.

(٣) ينظر في هذا المعنى، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، سورة الشرح ٨/ ٤٦٥. وقد نقله عن السعد التفتازاني، وأخذه عنهما السيوطي في الإتقان.

(٤) مفاتيح الغيب، للرازي، تفسير سورة الانشراح، ٣٢/ ٧.

يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وقال سبحانه: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزمر:٢٢]، فحري بنا أن نلهج بدعاء الأنبياء والصالحين، وأن نسأل الله شرح الصدور بهذا الدين.

* إذا كانت الصغائر واللمم مما يوجب إنقاض الظهر عند المرسلين، وهذا مع عظيم عبادتهم، وتكرار توبتهم، حتى قال ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[١]. فـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾؟.

* لقد رفع الله ذكر محمد ﷺ، فأنى لإنسان أن يضعه؟ إن ما يشنه الشانئون من هجوم على شخصه الكريم ﷺ، وما يزيفونه حوله في الإعلام، وما يشيعونه عنه من شبه، لن تطمس الحقيقة أبداً وقد تأذن الله برفع ذكره. والواقع يشهد بهذا فإن محمداً ﷺ لايزال دينه من أكثر الأديان تبعاً، ولايزال محبوه ومعتنقوه يزيدون يوماً بعد يوم ولاينقصون بل أثبتت التقارير الغربية أن محمداً ﷺ هو أوسع الأنبياء اتباعاً، فدينه أسرع الأديان انتشاراً، رغم كل ما يزخرف ويزعم.

* في الآيات إشارة إلى حادثة شق الصدر وهي ثابتة في الصحيحين، قال ابن حجر: « وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك، قال القرطبي في المفهم: لا يلتفت لإنكار الشق ليلة الإسراء؛ لأن رواته ثقات مشاهير»[٢]، فالصحيح أن شق صدر رسول الله ﷺ كان حقيقة، « فإن قيل: لم يولد مطهر القلب من حظ الشيطان حتى شق صدره وأخرج قلبه؟ قلنا: لأن الله أخفى أدون التطهرين الذي

(١) رواه البخاري في الصحيح ٥/ ٢٣٢٤ (٥٩٤٨)، ورواه غيره.

(٢) فتح الباري، لابن حجر، ٧/ ٢٠٥.



جرت العادة أن تفعله القابلة والطبيب، وأظهر أشرفهما وهو القلب فأظهر أثر التجمل والعناية»[1]، وقد أنكر ذلك بعضهم قال الرازي: «واعلم أن القاضي طعن في هذه الرواية من وجوه:

أحدها: أن الرواية أن هذه الواقعة إنما وقعت في حال صغره ﷺ وذلك من المعجزات، فلا يجوز أن تتقدم نبوته.

وثانيها: أن تأثير الغسل في إزالة الأجسام، والمعاصي ليست بأجسام فلا يكون للغسل فيها أثر.

ثالثها: أنه لا يصح أن يملأ القلب علماً، بل الله تعالى يخلق فيه العلوم».

ثم أجاب على الأول بأن «تقديم المعجز على زمان البعثة جائز عندنا، وذلك هو المسمى بالإرهاص، ومثله في حق الرسول -ﷺ- كثير». وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية بطلان قول من يزعم بأن من شرط المعجزة أن تقارن دعوى النبوة من أوجه عديدة في كتابه النبوات، ويكفي في رده الحمل بعيسى ﷺ قبل مولده وتنبئته. قال الرازي: «وأما الثاني والثالث: فلا يبعد أن يكون حصول ذلك الدم الأسود الذي غسلوه من قلب الرسول ﷺ علامة للقلب الذي يميل إلى المعاصي، ويحجم عن الطاعات، فإذا أزالوه عنه كان ذلك علامة لكون صاحبه مواظباً على الطاعات محترزاً عن السيئات،... وأيضاً فلأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد»[2]، وقد ثبت أن لبعض الأغسال أثراً في إزالة الذنوب والمعاصي، ففي صحيح مسلم باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء وفيه حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء،

---

(١) فيض القدير، للمناوي، ٦/ ١٧ نقلاً عن ابن الجوزي.

(٢) مفاتيح الغيب، للرازي، تفسير سورة الانشراح، ٣٢/ ٤.

فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب»[١]. أما كيفية ذلك فمن الغيبيات التي لم يأت بها نص فلا نعلمها، إلاّ أن تأثير المحسوسات في المعنويات يجده كل إنسان فهو علم ضروري. والتعبير عن ذلك بالعلقة السوداء موافق لما دلت عليه النصوص الأخرى، فإن العلقة السوداء دم متخثر، وقد بين النبي ﷺ في الحديث الصحيح أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[٢]، أورده البخاري في باب صفة إبليس وجنوده[٣]، و«دخول الجني في بدن الإنسان ثابت باتفاق أئمة أهل السنة والجماعة»[٤]، أما سلطانه فكما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠]. فاستخراج حظه منه باستفراغ شيء من دمه جائز عقلاً إذ ليس ثم دليل عقلي يمنعه، وواقع شرعاً لمحمد ﷺ كما دلت عليه النصوص الصحيحة الصريحة.

وأما زعمه بأنه لايصح أن يملأ القلب علماً بل الله يخلق فيه العلوم، فنفي بتعليل عليل، فإن ما يخلقه الله من علم للعبد لا يخلو إما أن يملأ قلبه أو لايملأه، والمراد بملئه كماله في وعائه الذي هو القلب، والملء أصله في اللغة المساواة والكمال، ويطلق للتعبير عن المحسوسات والمعنويات، ومنه قول عنترة:

ملأت الأرض خوفاً من حسامي	فبات الناس في قيل وقال

فكون الله يخلق العلم فلا يعني ذلك أن المخلوق يملؤ القلب أو لايملؤه، فما اعترض به لاتعلق له بالمسألة أصلاً وإنما وقع الوهم في ذهن المعترض لظنه أن الملء لايكون إلاّ في المحسوسات وهو وهم فاسد. والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١/ ٢١٥ (٢٤٤).

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٧١٧ (١٩٣٣)، ومسلم ٤/ ١٧١٢ (٢١٧٤).

(٣) الصحيح ٣/ ١١٩٢ الباب (١١) من كتاب بدء الخلق.

(٤) ينظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، ٢٤/ ٢٧٧.

المقطع الثاني: ما تستوجبه تلك النعم

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾.

لما عدد المنعم المتفضل سبحانه بعض الآلاء، وأشار إلى وعده بالمزيد، فرَّعَ هنا على ما سلف من التذكير باللطف والعناية والوعد، فذكر الواجب تجاه تلك النعم، والسبيل إلى حفظها بل زيادتها، فقال: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾.

«إن مع العسر يسراً.. فخذ في أسباب اليسر والتيسير، فإذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض، ومع شواغل الحياة.. إذا فرغت من هذا كله، فتوجه بقلبك كله إذن إلى ما يستحق أن تنصب فيه وتكد وتجهد.. العبادة والتجرد والتطلع والتوجه.. ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾.. إلى ربك وحده خالياً من كل شيء حتى من أمر الناس الذين تشتغل بدعوتهم.. إنه لا بد من الزاد للطريق. وهنا الزاد. ولا بد من العدة للجهاد. وهنا العدة.. وهنا ستجد يسراً مع كل عسر، وفرجاً مع كل ضيق.. هذا هو الطريق!»[1].

وقد ذكر المفسرون في معنى قوله: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ ﴾ «خمسة أقوال:

أحدها: فإذا فرغت من الفرائض، فانصب في قيام الليل، قاله ابن مسعود.

والثاني: فإذا فرغت من الصلاة، فانصب في الدعاء، قاله ابن عباس والضحاك ومقاتل.

والثالث: فإذا فرغت من أمر دنياك، فانصب في عمل آخرتك، قاله مجاهد.

والرابع: فإذا فرغت من التشهد، فادع لدنياك وآخرتك، قاله الشعبي والزهري.

والخامس: إذا صح بدنك، فاجعل صحتك نصباً في العبادة، ذكره علي بن أبي طلحة»[2].

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد، تفسيرة سورة الانشراح، ٦/ ٣٩٣٠.

(٢) زاد المسير في التفسير، لابن الجوزي، تفسير سورة الانشراح، ٩/ ١٦٦-١٦٧.



ولعل أقوى هذه الأقوال الأول والثالث، وكلاهما مثالين مناسبين للسياق والمقام[1]، والمعنى: إذا فرغت من عبادة واجبة، فانصب في أخرى. أما القول الثاني والرابع فلا يلائمه السياق، وأما الخامس فلا يساعده وضع الفراغ.

قال ابن عاشور: «.. المقصود بالأمر هو ﴿ فَٱنصَبۡ ﴾. وأما قوله: ﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ ﴾ فتمهيد وإفادة لإيلاء العمل بعمل آخر في تقرير الدين ونفع الأمة. وهذا من صيغ الدلالة على تعاقب الأعمال، ومثله قول القائل: ما تأتيني من فلان صلة إلا أعقبتها أخرى.

واختلفت أقوال المفسرين من السلف في تعيين المفروغ منه، وإنما هو اختلاف في الأمثلة فحذف المتعلق هنا لقصد العموم، وهو عموم عرفي لنوع من الأعمال التي دل عليها السياق ليشمل كل متعلق عمله مما هو مهم.. وهو أعلم بتقديم بعض الأعمال على بعض إذا لم يمكن اجتماع كثير منها بقدر الإمكان، كما أقر الله بأداء الصلاة مع الشغل بالجهاد بقوله: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ ﴾ إلى قوله ﴿كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ [النساء: ١٠٢-١٠٣].

وهذا الحكم ينسحب على كل عمل ممكن من أعماله الخاصة به مثل قيام الليل والجهاد عند تقوي المسلمين وتدبير أمور الأمة.

وتقديم﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ ﴾ على ﴿ فَٱنصَبۡ ﴾ للاهتمام بتعليق العمل بوقت الفراغ من غيره لتتعاقب الأعمال. وهذه الآية من جوامع الكلم القرآنية لما احتوت عليه من كثرة المعان»[2].

وقوله: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨ ﴾: «عطف على تفريع الأمر بالشكر على النعم، أمرٌ بطلب استمرار نعم الله عليه كما قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾ [إبراهيم: ٧].

---

(١) لشيخ الإسلام ابن تيمية كلام في تقرير بعد هذا الوجه في الفتاوى الكبرى ٢/ ٢٠٥، وقد جعل الآلوسي في روح المعاني ٣٠/ ١٧٢ القول الثالث من أضعف الأقوال قال: «لبعده عما يقتضيه السياق وتؤذن به الفاء»، ولا يسلم.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الانشراح، ١٥/ ٤١٧.



والرغبة: طلب حصول ما هو محبوب، وأصله أن يُعدى إلى المطلوب منه بنفسه، ويُعدى إلى الشيء المطلوب بـ (في). ويقال: رغب عن كذا بمعنى صرف رغبته عنه بأن رغب في غيره... وأما تعدية فعل (فارغب) هنا بحرف (إلى) فلتضمينه معنى الإقبال والتوجه، تشبيهاً بسير السائر إلى من عنده حاجته، كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾.

وتقديم (إلى ربك) على فارغب لإفادة الاختصاص، أي إليه لا إلى غيره تكون رغبتك فإن صفة الرسالة أعظم صفات الخلق، فلا يليق بصاحبها أن يرغب غير الله تعالى.

وحذف مفعول (ارغب) ليعم كل ما يرغبه النبي ﷺ»[1].

وهكذا تختتم السورة بعد أن تَقرَّرَ في آخرها طريق الوصول إلى مقصودها، بذكر ما تستوجبه النعم التي صدرت بها، وهو كفيل بحفظها بل بزيادتها، وتنتهي هذه السورة كما انتهت سورة الضحى، وقد تركت في النفس شعورين ممتزجين: الشعور بنسائم الود الحبيب الجليل التي تكتنف روح النبي ﷺ من ربه الودود الرحيم.

والشعور بلوازم الحنان من العطف والرعاية لشخصه ﷺ ونحن نكاد نلمس ما كان يساور قلبه الكريم في تلك الآونة التي اقتضت ذلك الود الجميل[2].

دروس وعبر من المقطع الثاني: ما تستوجبه تلك النعم:

* «أشعرت الآية بأن اللائق بحال العبد، أن يستغرق أوقاته بالعبادة، أو بأن يفرغ إلى العبادة بعد أن يفرغ من أمور دنياه... وذكروا أن قعود الرجل فارغاً من غير شغل، أو اشتغاله بما لا يعنيه في دينه أو دنياه من سفه الرأي، وسخافة العقل، واستيلاء الغفلة، وعن عمر رضي الله تعالى عنه: إني لأكره أن أرى أحدكم فارغاً سبهللاً، لا في عمل دنياه، ولا في

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الانشراح، ١٥/ ٤١٧-٤١٨.

(٢) تصرف من خاتمة تفسير السورة في الظلال.

عمل آخرته. وروي أن شريكاً مر برجلين يصطرعان، فقال: ما بهذا أمر الفارغ»[1].

* ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾: تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، فالمعنى إلى ربك وحده فارغب، فاحرص بالسؤال، ولا تسأل غيره تعالى فإنه القادر على الإسعاف لا غيره عز وجل، وفي هذا تقرير للتوحيد، فالرغبة لم يسم مفعولها ليعم كل ما يرغب به إلى الله. وقد تضمنت هاتان الآيتان بتقرير التوحيد على هذا الوجه الإشارة إلى جميع أسباب شرح الصدر، فمن أعظم أسباب شرح الصدر: الإيمان، وبتحقيق التوحيد والنصب في العمل، تتوهج مشكاة الإيمان، في قلوب المتبعين، فيصل النفس من نوره ما شاء الله، وإذا انبثق نور الإيمان من سويداء القلوب فلا تسل عن انفساحها وانشراحها، ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٢]، نسأل الله من فضله، ونعوذ به من أسباب سخطه. ومن أسباب شرح الصدر، العلم بالله ومعرفة شرعه، «وليس هذا لكل عالم بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ وهو العلم النافع فأهله أشرح الناس صدراً وأوسعهم قلوباً وأحسنهم أخلاقاً وأطيبهم عيشاً»[2]، ومن مقتضى الرغبة إلى الله بكل مرغوب إليه العلم، وإلاّ فقد يكون مريد الإقبال مدبراً على غير بصيرة. وهكذا كل أسباب شرح الصدور إذا تأملتها وجدت لها متعلقاً بهاتين الآيتين الجامعتين، والله أعلم.

---

(١) روح المعاني، للآلوسي، تفسير سورة الانشراح، ٣٠/ ١٧٢.

(٢) زاد المعاد، للإمام ابن القيم، ٢/ ٢٢.


مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

سورة التين

قال تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة

أ. اسم السورة وعدد آياتها

تسمى هذه السورة بسورة التين، وعدد آياتها ثمان آيات بالاجماع[1]، وقد سميت بالتين لأن الله أقسم في مطلعها بالتين والزيتون [2].

ب. مكان نزولها:

سورة التين مكية على رأي جمهور العلماء، وقد روي عن قتادة وابن عباس القول: إنها مدنية [3]، وأرجح في ذلك قول الجمهور بأنها مكية ويؤيد القول بمكيتها قوله تعالى في السورة: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ ﴾، فإن المراد به مكة عند المفسرين [4].

---

(١) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٨/ ٣٢).
وانظر أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان، دار الكتب العلمية بيروت، (١٠/ ٣١٢).

(٢) د.وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، بيروت، (٣٠/ ٣٠١).

(٣) محمود الآلوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٣٠/ ١٧٣)، وانظر أبا إسحاق الزجاج إبراهيم بن السّري، معاني القرآن وإعرابه، عالم الكتب، بيروت (٣/ ٣٤٣).
وانظر أبا الحسن علي بن أحمد الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، دار الكتب العلمية، بيروت، (٤/ ٥٢٧).

(٤) انظر أبا حيان، البحر المحيط في التفسير، (٣/ ٥٧٧).

ج- فضائل السورة

جاء في السنة المطهرة ما يدل على فضل هذه السورة حيث كان يقرأ بها ﷺ في الصلاة وفي غيرها، ومن هذه الأحاديث التي تدل على فضلها

-ما رواه عديٌّ بنُ ثابتٍ قال: سمعت البراء ﷺ يقول: إن النبي ﷺ كان في سفر، فقرأ في العشاء في إحدى الركعتين بالتين والزيتون [(١)].

هـ- **محور سورة التين**، و يعنى بالمحور: الأمر الجامع الذي يجمع موضوعات السورة في نسق واحد.

وقد أشار صاحب نظم الدرر إلى أن المحور الذي تدور حوله سورة التين إثبات القدرة الكاملة لله تعالى، وهو ما يتضح للناظر من خلال رؤية ما في التين والزيتون من الغرائب والفوائد [(٢)].

ولا شك أن السورة تتحدث عن الإنسان وحسن خلقته بما أمده به الله سبحانه وتعالى من خصائص، وقد يرقى بالتزامه وعمله بالمنهج الذي أنزله الخالق إلى المكان الرفيع والمنزلة العالية، فإذا ابتعد عن هذا المنهج انحط أسفل سافلين، وكل ذلك يدور في فلك عظيم هذه القدرة الإلهية ثوباً وعقاباً.

د. المناسبات في السورة

أولاً: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

تسمى هذه السورة بسورة التين، وإنك وأنت تنظر إلى هذا الاسم وتنظر في مسماه سواء

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب «والتين»، محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار الجيل بيروت، (٢/ ٢١٢).

(٢) انظر أبا الحسن البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، (٨/ ٤٦٨).

أريد به النبات العظيم الذي له تلك الفوائد المتعددة التي لا تخفى، والذي يتميز بقوة شجره في ضرب جذوره في الأرض، والارتفاع إلى الأعلى محاطاً بضخامة عالية، أم أريد به المكان الذي نبتت فيه هذا النباتات، فكلا الأمرين فيهما دلالة واضحة على عظيم قدرة الله تبارك وتعالى ودقة صنعه، وهو المحور الذي تدور في فلكه سورة التين.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية سورة التين وخاتمتها:

ابتدأت السورة بالقسم ببعض النباتات ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ ﴾ وبعض الأماكن المقدسة وهو جبل الطور - ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته -على إكرام الله للإنسان بخلقه على أجمل صورة، وأنه قد يهبط بنفسه ويعرضها للهلاك بمخالفة المنهج الذي أنزله الله ليقيمه في واقع حياته وختمت السورة ببيان عدل الله بإثابة المؤمنين وعقاب الكافرين في قوله تعالى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨ ﴾، وفيها تقرير للجزاء وإثبات المعاد [1] فالعدل يقتضي إثابة من يلتزم بأحكام الله ويقيم نفسه على طريق الاستقامة، وعقاب من خرج عن هذا الطريق وعرّض نفسه للهلاك، فالقادرعلى خلق هذه النباتات العجيبة، وتلك الأماكن ذات المكانة، قادر على أن يعيد الإنسان للجزاء يوم القيامة.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

* لما ذكر الله في السورة التي سبقت سورة التين وهي «الانشراح» كمال خلقه ﷺ وما كمل به، وختمها بالأمر بتخصيصه سبحانه وتعالى بالرغبة إليه حيث كان صلى الله عليه ويسلم يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، ذكر هنا في سورة التين أنه جعل النوع الذي خلق منه ﷺ وهو النوع الإنساني أكمل الأنواع، وأصله أعظم الأصول، وبلده أفضل البلدان وهي مكة [2].

---

(١) انظر محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن، بيروت، (٣/ ٥٧٧).

(٢) انظر البقاعي نظم الدرر، (٨/ ٤٦٨).

* ويمكن القول أيضاً: ختمت سورة الانشراح بالدعوة إلى الكد والنصب في الحياة ليبني الإنسان بذلك دار مقامه في الآخرة ويعمرها بما يساق إليه فيها من نعيم ورضوان، وافتتحت سورة التين بهذه الأقسام من الله سبحانه لتقرير حقيقة الإنسان وتذكيره بوجوده وأن الله سبحانه خلقه في أحسن تقويم وأودع فيه القوى التي تمكنه من الاحتفاظ بهذه الصورة الكريمة، ولكن ميل الإنسان إلى حب العاجلة قد أشغله عن الالتفات للدار الآخرة فرده إلى أسفل سافلين[1].

* ويمكن القول أيضاً أنه أمر سبحانه في خاتمة سورة الانشراح بالسجود له والرغبة إليه وافتتحت سورة التين بالقسم على أن هذا الإنسان قد خلق بأحسن تقويم وهو أمر يتطلب إفراد من خلق بالخضوع والتذلل والانقياد[2].

رابعاً: المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

اتضح لنا فيما سبق أن المحور الذي تدور حوله سورة التين، بيان عظيم قدرة الله تبارك وتعالى وعظيم صنعه ودقته، وتأتي المقاطع الثلاثة في هذه السورة لترتبط ارتباطاً وثيقاً بهذا المحور

فالمقطع الأول: يتناول الأقسام الأربعة التي وردت في السورة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ ﴾ وهذه مخلوقات يدل وجودها على جلال الصانع وعظيم قدرته.

أما **المقطع الثاني**: فيتناول المقسم عليه وهو خلق الإنسان وبيان تكريم الله له بخلقه في أحسن تقويم، واختيار طائفة من جنسه الانحطاط بسلوكه وتصرفاته، واختيار طائفة أخرى من الجنس البشري الرقي بالخلق العظيم إلى جنات النعيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٣/ ١٦١٢).

(٢) انظر الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (١٠ / ٣١٢).

ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٖ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٖ ﴿٦﴾ ﴾ فهذا الخلق والتنوع فيه والاختلاف يدل على عظمة الصانع وجلال قدره.

وأما **المقطع الثالث**: ففي قوله تعالى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ «فالدلالة فيه على عظيم قدرة الله واضحة، فالبعث والجزاء، من أعظم الدلائل على قدرة الله تعالى ووجود يوم يقوم فيه الناس لرب العالمين للفصل والجزاء غاية العدل والإنصاف، فهذا المقطع الأخير من السورة كسابقه شاهد على عظيم قدرة الخالق تبارك وتعالى.

خامساً: المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض:

فالمقطع الأول: المتضمن للقسم بالنبات ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ إضافة إلى القسم بجبل الطور ومكة المكرمة﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ ﴾الدلالات فيه على عظمة موجد الكون وقدرته واضحة بينة.

والمقطع الثاني: كذلك فيه بيان لعظيم هذه القدرة الإلهية في الإنسان نفسه، بعد بيان عظيم قدرة الله في هذا الكون الذي يعيش فيه وما سخره له فيه من نبات وبقاع.

والمقطع الثالث: جاء يدل على يوم الجزاء وعدل الله فيه، وهو جانب من جوانب الدلالة على عظيم قدرة الله أيضاً، وذلك بالتوجيه إلى قدرة الله على إعادة الناس وبعثهم بعد خروجهم من هذه الحياة ليثيب المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته «فذكر الدين والجزاء على سبيل التنبيه على الإعادة، فإن الحكيم إذا كلف وأمر ونهى وخلى بين الظالم والمظلوم فلا بد من المجازاة والإنصاف والانتصاف، فإذا لم يكن في الدنيا فلا بد من البعث»[1].

سادساً: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما سبقها:

عرضت سورة الانشراح وهي السورة التي سبقت سورة التين في ترتيب سور المصحف لما أنعم الله به على رسوله من نعم، وجاءت تبين ما ينبغي عليه ﷺ أمام هذه النعم من شكر

(١) الطبرسي، مجمع البيان، (١٠/ ٣١٤).

المنعم والإنفاق على المحتاجين [1]، ثم جاءت سورة التين من بعد ذلك لبيان عظيم قدرة الصانع وذلك بما أوجد في هذه الأرض من نبات له فوائد جليلة وهو التين والزيتون، ومن مكان فيه من الشموخ والعظمة ما يدل على عظمة الخالق وهو طور سينين، ومن مكان له منزلة ومكانة بما تحقق له من أمن وسكينة وهو البلد الأمين مكة، ومن خلق للإنسان على أحسن تقويم، الأمر الذي يوجب على هذا المخلوق أن يكد ويتعب في هذه الحياة لشكر المنعم على نعمه التي أنعم بها عليه والله يقول: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨] ليحظى من بعد ذلك بما أعد له الله من جزاء في دار الكرامة.

المعنى الإجمالي لمقاطع سورة التين:

افتتحت السورة الكريمة بالقسم في قوله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ ﴾ فيقسم الله تعالى بالتين والزيتون[2] لبركتهما وعظم منفعتهما، و التين هو ذلك النبات الذي يؤكل والزيتون ما يعصر منه الزيت [3].

كما ويقسم الله جل وعلا في هذه السورة بجبل الطور في قوله: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ وسمي بذلك لحسنه وبركته [4] والطور الجبل وسينين هي صحراء بين مصر وبلاد فلسطين [5]ويقسم كذلك بالبلد الأمين مكة بقوله: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾، والغرض من القسم بهذه الأماكن المقدسة الإبانة عن شرف هذه البقاع المباركة، وما ظهر فيها من خير وبركة ببعثة الأنبياء

(١) انظر عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٣٠/ ١٧٠٥).

(٢) وخص التين والزيتون بالذكر لكثرة فوائدهما وعظيم منافعهما، انظر جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل «تفسير القاسمي»، دار الفكر، بيروت، (١٧/ ١٩١).

(٣) انظر أبا محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية بيروت، (٥/ ٤٩٩).

(٤) انظر الخازن، تفسير الخازن، ٤/ ٢٦٦).

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، الطبعة التونسية، تونس، (٣٠/ ٤٢١).

والمرسلين [(١)]. ويشير سيد قطب عليه رحمة الله إلى الربط بين التين والزيتون وهذه الأماكن المقسم بها فيقول: «إن الأقرب أن يكون ذكر التين والزيتون إشارة إلى أماكن أو ذكريات ذات علاقة بالدين والإيمان»[(٢)].

وبعد هذا القسم يبين الله في المقطع الثاني من السورة المقسم عليه بقوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦﴾.

والله عز وجل قد أحسن خلق كل شيء **قال تعالى**: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ [السجدة: ٧] وإنما خص الإنسان بالذكر بحسن التكريم، وحسن التقويم والتعديل، لمزيد الاعتناء به، وليحسن صلته بخالقه [(٣)].

وفي هذا إشارة إلى أن الله قد جعل الإنسان مهيئاً بما أعطاه من خصائص أن يبلغ مدى عالياً في الرفعة والمقام السامي عند الله تعالى، وقد ينتكس فيهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق، فينحرف عن الفطرة وينحط عن البهائم، بسبب بعده عن منهج الله، وهذا يدل على عظيم قدرة الله تعالى بأن نجد في هذا المخلوق النقيضين، صنفاً منه يرتفع بإيمانه، وصنفاً منه ينحط بكفره وعصيانه.

والتقويم: جعل الشيء في قوام أي عدل وتسوية، فليس تقويم الصورة الظاهرة للإنسان هو المعتبر عند الله بل المعتبر السلوك القويم، فكم من الناس يعجبك مظهره لكنك إن نظرة في سلوكه تغيرت نظرتك إليه.

وأما ما ذكره الطبري وغيره من المفسرين من أن المراد من رد الإنسان إلى أسفل سافلين

---

(١) الآلوسي، روح المعاني، (٣٠/ ١٧٣).

(٢) سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، (٦/ ٣٩٣٣).

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٩٣٣).

مصيره إلى أرذل العمر [1] فبعيد، حيث يمنع من القول به الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ولا يخفى أن الرد إلى أرذل العمر يشمل بعض المؤمنين ويشمل غيرهم، يقول ابن كثير عليه رحمة الله: «ولو كان هذا هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك، لأن الهرم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾[2].

ومما يلاحظ أن القرآن الكريم يقرن في كثير من الموطن بين الإيمان والعمل الصالح وذلك للدلالة على أهمية العمل في رحاب الإيمان.

ثم يتبع القرآن الكريم الاستثناء ببيان ما أعده الله لهذه الطائفة المؤمنة العاملة المستثناة من الخسارة بفاء الترتيب والتعقيب، بأن لهم أجراً عند الله غير ممنون، في قوله تعالى: «فلهم أجر غير ممنون» والممنون مأخوذ من المن على المعطى الذي يكدر نفسه، أو من الحبل إذا انقطع فهو منين أي مقطوع، والمعنى أن لهم أجراً لا يشوبه كدر بالمن على المعطى، ودائم غير منقطع [3].

ويأتي المقطع الثالث من السورة بصيغة الاستفهام التوبيخي للمكذب بالدين وهو الجزاء بعد بيان العاقبة التي يؤول إليها أهل الإيمان وأهل الكفر والعصيان في قوله تعالى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾، والمعنى فمن ذا يكذبك فيما تخبر به عن يوم البعث وهو الدين، بعد هذه العبرة التي توجب النظر فيها صحة ما قلت [4].

ولفظ (أحكم) مأخوذ من الحكم، والمعنى أنه جل وعلا أقضى القضاة، أي أنّ حكمه أسد وأنفذ.

---

(١) انظر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، (١٥/ ٣١٠).

(٢) إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الفيحاء، دمشق، (٤/ ٦٨١).
وانظر محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، (٧/ ٥٨٤).

(٣) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٣٠/ ٤٢٩).

(٤) ابن عطية، المحرر الوجيز، (٥/ ٥٠٠).



ويجوز أن يكون مشتق من الحكمة والمعنى أنه أقوى الحاكمين حكمة في قضائه بحيث لا يخالط حكمه تفريط في شيء من المصلحة [1]، ويصبح المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين، أليس الله بأحكم من حكم في أحكامه، وفصل قضائه بين عباده ؟ [2].

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، (٣٠/ ٤٣١).

(٢) انظر الطبري ، جامع البيان ، (١٥/ ٣١٦).



سورة العلق

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (٢) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (٣) ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ (٥) كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ (٦) أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ (٨) أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ (٩) عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ (١٠) أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ (١١) أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ (١٢) أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ (١٣) أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ (١٦) فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ (١٧) سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ (١٩) ﴾.

أولاً: بين يدي السورة

أ. اسم السورة و عدد آياتها

تسمى هذه السورة بـ «سورة العلق»، ومن أسمائها أيضا ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ للحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها: «إن أول شيء نزل من القرآن: إقرأ باسم ربك»[(١)].

وعدد آياتها تسع عشرة آية[(٢)].

ب. مكان نزولها

أما مكان النزول فهو مكة بالإجماع[(٣)]، فالسورة من السور المكية، ونزولها كان قبل الهجرة.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، المستدرك على الصحيحين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (٢/ ٢٤٠).

(٢) فهي عشرون آية حجازي (عند أهل مكة والمدينة)، وتسع عشر عراقي (عند أهل الكوفه والبصرة) وثماني عشرة في عد أهل الشام واختلافها آيتان (الذي ينهى) غير الشامي، (لئن لم ينته) حجازي.
انظر : أبا علي الطبرسي ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (١٠/ ٣١٥)، وانظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، (٣٠/ ٤٣٤).

(٣) انظر محمد بن علي الشوكاني ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية ، عالم الكتب ، بيروت ، (٥/ ٣١٥).

ج- فضائل السورة:

مما جاء في فضائل هذه السورة في السنة:

أولاً: ما أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي، الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، فقال النبي ﷺ: فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت:ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ حتي بلغ ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال:يا خديجة ما لي وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة، أخو أبيها، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة:أي ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره النبي ﷺ ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى... »[1].

ثانياً: أخرج الحاكم في المستدرك عن عائشة رضي الله عنها: «إن أول ما نزل من القرآن

وانظر أبا إسحاق الزجاج إبراهيم بن السّري، معاني القرآن وإعرابه، ص٣٤٥.

(١) أخرجه البخاري في كتاب كيف بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، صحيح البخاري، دار الجيل، بيروت، (١/٣).



اقرأ باسم ربك»[1].

د. محور السورة

سورة العلق جاءت كسابقتها تبين عظيم قدرة الله، وذلك ببيان خلق الإنسان من علق وقدرة الله على تعليمه بعد خلقه، وكلها دلائل جلية على عظيم قدرة الله وكمال فضله.

هـ. المناسبات في السورة

أولاً: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

محور السورة كما أسلفنا هو بيان عظيم قدرة الخالق جل وعلا، وهذه السورة اسمها سورة العلق، والعلق هو دم شديد الحمرة جامد غليظ، فإذا عرف أن هذا المخلوق خلق من دم عرف أن خالقه قادر على إعادته من التراب، فإن التراب أقبل للحياة من الدم[2].

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها

-افتتحت سورة العلق بالأمر بأداة مهمة من أدوات المعرفة وهي القراءة باسم الله وهي أداة توصل إلى حقيقة الخالق وعبادته، وختمت السورة بالأمر بالسجود لله، وبعدم طاعة العاصي الذي ينهى عن عبادة الله كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ وبذلك يوجه الله عباده إلى أن هذه الأداة من أدوات المعرفة توصل إلى الطاعة والعبادة الحقة للخالق، وتحمل على مخالفة أمر الناهي عنها، والله يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[فاطر: ٢٨]، فالعلم بالقراءة يوصل إلى الإيمان بمن ينبغي أن نسجد له ونتقرب إليه.

-ويمكن القول أيضاً: إن سورة العلق افتتحت بقراءة القرآن والأمر بها، وختمت السورة بالسجود في الصلاة، والصلاة من أعظم أركان الدين، فكأن الله يقول: اقترب لي بقراءة القرآن

(١) انظر المستدرك على الصحيحين، (٢/ ٢٤٠).

(٢) انظر البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٧٨).



والسجود في الصلاة لجلالي[1].

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها

افتتحت سورة العلق بالقراءة باسمه سبحانه وتعالى، وختمت سورة التين بذكر اسم الله تعالى في قوله: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾، واقترن اسمه جل وعلا في خاتمتها بوصفه أنه أحكم الحاكمين أي أقضى القضاة، وبذلك يرشدنا القرآن إلى أمر يساعد على القضاء والفصل في المنازعات عن علم ومعرفة، وهو الخبرة بالقراءة والفهم لآي الذكر الحكيم.

رابعاً: المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها

محور سورة العلق يدور حول بيان عظيم قدرة الله وكمالها، وإذا نظرنا في المقاطع الثلاث للسورة نجدها جميعاً تدور في فلك هذه القدرة.

فالمقطع **الأول** من السورة: جاء فيه بيان الخلق والتعليم اللذين امتن بهما الخالق جل وعلا علينا في قوله تعالى ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ (العلق/ ١-٥)، وهما أمران من الأمور الدالة على عظم القدرة الموجبة لشكر المنعم.

وفي **المقطع الثاني**: بين القرآن انحراف صنف من البشر لم ينفع فيه الخلق والعلم، فانحرف عن شكر من خلق وعلّم، فطغى وتجبر بدلاً من أن يشكر المنعم على إنعامه فقال تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾.

وفي **المقطع الثالث**: جاء الحديث عن صورة من صور طغيان الإنسان فقال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ هذا الطغيان الذي حمله على الوقوف في وجه

---

(١) المرجع السابق، (٨/ ٤٩٠).



من يعبد الرحمن، فنهى عن طاعة الله، فاستحق وعيد الله له بالعقاب، وفي ذلك دلالة على جهله بحقيقة قدرة الخالق جل وعلا، والله يقول: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الأنعام: ٩١].

خامساً: المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض

من يمعن النظر في سورة العلق يجد تناسقاً عجيباً بين أجزائها، وتسلسلاً رائعاً في ترتيب الحقائق التي تضمنتها ففي **المقطع الأول** تشير السورة إلى أن الله هو الخالق الذي خلق وهو الذي علم، فمنه البدء والنشأة، ومنه التعليم والمعرفة.

وفي **المقطع الثاني** من السورة يرشد القرآن إلى انحراف بعض الخلق عن النهج القويم وعن شكر المنعم الذي خلق وعلم، فلم يستفيدوا من العلم والمعرفة، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾.

وفي **المقطع الثالث** يمضي القرآن في بيان صورة من صور الطغيان الذي يقف في وجه أهل الطاعة، موضحاً ما تؤول إليه عاقبة صاحب هذه الصورة، قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾.

وفي ضوء هذا المصير الرهيب تختم السورة بتوجيه المؤمن الطائع إلى الإصرار والثبات على الإيمان والطاعة [1] في قوله تعالى ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾.

وهذه المقاطع الثلاثة جاءت جميعاً تدل على عظمة الصانع، وتبين عدم التفات بعض خلقه إلى جلال وعظيم قدرته، وبذلك نرى أن مقاطعها الثلاثة شديدة الصلة ببعضها.

---

(١) انظر سيد قطب ابراهيم، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٩٤٣).



سادساً: المناسبة بين مضمون السورتين «سورة العلق» وسابقتها «سورة التين»

-بينت سورة التين عظيم قدرة الله في خلق الإنسان في أحسن تقويم، وفي سورة العلق جاء بيان عظيم هذه القدرة بتعليم الإنسان وإفهامه بالقراءة والمعرفة [1].

-ويمكن القول بأنه تعالى ذكر في سورة التين أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهذا بيان للصورة، وذكر هنا خلق الإنسان من علق وهذا بيان للمادة، وذكر سبحانه في سورة العلق من أحوال الآخرة ما يكون كالبيان لما ذكر حولها في سورة التين [2].

-ويمكن القول أيضاً في سورة التين بين الله أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأرشده إلى ما فيه خيره بالمنهج القويم، ولكن بعض الناس اختار الهبوط إلى أسفل السافلين، بمخالفة أمر رب العالمين، وهنا في سورة العلق بين القرآن الوسيلة التي ترقى بهذا الإنسان إلى المستوى القويم في قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ فأرشده إلى أداة من أدوات العلم والمعرفة وهي القراءة، وضرب له مثلاً من الطرف الآخر في الجنس الإنساني الذي لم يستفد من هذا العلم وتلك المعرفة فرضي بالهبوط بسبب الانحراف عن المنهج، ونهى من صلى عن الطاعة، فظهر بذلك تفاوت المنزلتين، وبيان الحالين [3].

---

(١) انظر القاسمي، محاسن التأويل، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٨، (١٧/ ٢٠٢).

(٢) انظر د وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق، (٣٠/ ٣١١) وانظرأحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (٣٠/ ١٩٧).

(٣) انظر البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٨٠).



المعنى الإجمالي لمقاطع سورة العلق

المقطع الأول من السورة قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ (الآيات / ١-٥).

هذا المقطع من سورة العلق هو أول ما نزل من القرآن، وقد جاء يبين عظيم قدرة الله تعالى الذي خلق هذا الإنسان وعلمه البيان، فجاء فيه الابتداء بالقراءة للدلالة على أهمية هذه الأداة من أدوات التعلم، والتي يظهر من خلالها عظيم قدرة من أوجد في الإنسان القدرة على اكتساب المعارف، واقترنت القراءة باسم الله الذي خلق للتذكير بالنعمة الفائضة، وللتنبيه أن القادر على الخلق قادر على التعليم [١]، وعمم الخلق دون تحديد صنف من المخلوقات ليفيد أنه الخالق سبحانه لجميع الكائنات، وأتبع هذا التعميم بخصوص خلقه للإنسان بالذكر في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ وذلك تكريم لهذا المخلوق، وبيان لعظيم قدرة الله في خلقه[٢].

لقد خلق الله هذا الإنسان من تلك النقطة الدموية الجامدة العالقة بالرحم، ومع هذا الخلق رفع هذا المخلوق إلى درجة من يعلم ويتعلم [٣]، وهذا التعليم بعد الخلق من كرم الله تعالى [٤].

وأما قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ ففيه إشارة إلى أنه تعالى قد جعل القلم واسطة للتفاهم بين الناس، كما أفهمهم بواسطة اللسان.

وفيه أيضاً تعليم للإنسان ما في الكتابة والخط من المنافع التي لا يحيط غيره سبحانه

---

(١) انظر محمد القاسمي، محاسن التأويل، (١٧/ ٢٠٢).

(٢) محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، (٧/ ٥٨٦).

(٣) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٩٣٩).

(٤) والسر في تكرار الأمر بالقراءة للدلالة على أن القراءة لا تكسبها النفس إلا بالتكرار والتعود على ما جرت عليه العادة، وتكرار الأمر الإلهي يقوم مقام تكرار المقروء، انظر المراغي، تفسير المراغي، (٣٠/ ١٩٩).

بها، لأنها أنبتت عليه استقامة أمور الدنيا والدين، وهي كافية في الدلالة على دقيق حكمة الله تعالى[١]، ومن خلال هذه الأدوات التعليمية علم الله الإنسان ما كان غائباً عنه.

وقد ذكر بعض المفسرين أن المراد بالإنسان آدم عليه السلام، فقد علمه أسماء كل شيء، وقيل: المراد به رسولنا محمد ﷺ، لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣] [٢]، والأولى أن نقول بعموم الإنسان، فنعمة الله تعالى بالعلم والمعرفة تشمل كثيراً من الخلق، وليست مقصورة على بعض الأنبياء عليهم السلام.

ثم يأتي المقطع الثاني من السورة مبتدأ بأداة الزجر والردع (كلا) وهو زجر وردع لمن كفر نعم الله بسبب طغيانه [٣]، حيث ذكر القرآن في مقدمة السورة دلائل ظاهرة على التوحيد والقدرة والحكمة بحيث يبعد على العاقل أن لا يطلع عليها، ولا يقف على حقائقها.

ثم أتبعها في هذا المقطع من السورة ببيان السبب الأصلي في الغفلة عنها، وهو حب الدنيا والاشتغال بالمال والجاه والثروة [٤] فقال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾، فأول السورة يدل على مدح العلم، وهذا المقطع منها جاء مرغباً في الدين والعلم، وفي هذه الآيات دلالة على أن الإنسان يستعلي ويظلم في بعض الأحيان حين يملك من المال والثروة أكثر من غيره [٥]. فالضمير في «أن رأه» [٦]يعود للمال، ورأى بعض المفسرين أن

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٢٢).

(٢) انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (٥/ ٨٢).

(٣) انظر صديق حسن خان، تفسير الجزأين عم وتبارك من تفسير فتح البيان في مقاصد القرآن، مطبعة القاهرة، العاصمة، (ص٤٠٠).

(٤) الفخر الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار الفكر، بيروت، (١٦/ ١٧).

(٥) محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، (٧/ ٥٨٨).

(٦) قرأها ابن كثير قصراً بغير ألف بعد الهمزة «أن رأه»، وقرأ حمزه والكسائي «أن رآه» بكسر الراء وبعد الهمزة ألف وقرأ حفص عن عاصم «أن رآه» بفتح الراء، انظر أبا علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي، الحجة للقراء السبعة، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٩٣م، (٦/ ٤٢٥)، وعلى كل القراءات فالمعنى=

الضمير يعود للإنسان نفسه، والمعنى أن الإنسان رأى نفسه إنما نالت الغنى لأنها طلبته وبذلت الجهد فنالت الثروة والغنى بسبب ذلك الجهد، لا أنه ناله بإعطاء الله وتوفيقه [١]، وكلا المعنيين قريب، والله أعلم.

ولذا ذكّر القرآن الإنسان بقدرة الله على إرجاعه بعد وفاته للوقوف بين يديه فقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ فحذره بذلك من الطغيان، وأنذره من عاقبته، وأبان له أن ما بيد الطاغي عارية، وليس باق، وأن مرجع الأمر كله إلى الله» [٢].

ثم يعرض القرآن الكريم في المقطع الثالث من هذه السورة صورة من صور طغيان الإنسان وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾.

حيث جاء هذا العرض مقروناً بالتهديد والوعيد لهذا الطاغي الذي لم يكتف بإضلال نفسه، بل انتقل إلى إغواء الناس ونهيهم عن طاعة الله والصلاة له، وكان الجدير به أن يهتدي ويرشد غيره إلى خصال الخير والبر، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴾.

ثم يبين القرآن الكريم حال هذا الإنسان الذي كذب بدلائل التوحيد والقدرة، منبهاً له أن الله لا تخفى عليه أعماله وأقواله، وأن جميع حركاته وسكناته مرصودة ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾.

ويتبع القرآن ذلك بالتهديد والزجر والوعيد لهذا الإنسان الطاغي –وهو أبوجهل عمرو

= المراد منها ما بيناه في المتن ولعل في هذا التنوع في القراءات إشارة إلى لهجات العرب.

(١) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٦/ ٢٠).

(٢) انظر أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (٣٠/ ٢٠٣).

بن هشام -ومن على شاكلته ممن ينهى غيره عن الطاعة، بأنه إذا لم ينته عن هذا التجاوز في أفعاله ونهي المصلي عن صلاته ليأخذنّ بناصيته ويعذب، فالسفع هو الجذب الشديد، والمعنى لنجرنّ بناصيته إلى النار[١]، عن عكرمة قال ابن عباس ﷺ: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: لو فعله لأخذته الملائكة» [٢].

وإلى مثل هذا المعنى أشار الإمام الطبري عليه رحمة الله [٣]، وفي هذا التعبير القرآني إنكار على كل من ينهى عن المعروف بطريق أو بآخر [٤].

والناصية هي شعر الجبهة، ووصفها بالكاذبة الخاطئة للتنبيه على كذب صاحبها وخطئه بفعله ونهيه، «وقد جاء ت نسبة الكذب والخطيئة إلى الناصية مع أن الكاذب والمخطئ صاحبها لأنها مصدر الغرور والكبر»[٥]، وخص القرآن الكريم التعبير بأخذ هذا الطاغي منها دون غيرها من أعضاء الجسد لأن العرب كانت تعد ذلك غاية الإذلال.

ثم يأتي الخطاب القرآني على جهة التهكم والسخرية لهذا الطاغي أن يدعو أهل الدفاع من قومه ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ أي قومه وعشيرته، فليدعهم ويستنصر بهم [٦]، وليجمع أمثاله لمنع المخلصين الطائعين عن الصلاة والطاعة لله، فإنه إن فعل ذلك عرّض نفسه لمجابهة جنود الله، من ملائكة مختصين بالعذاب، وسمي الملائكة زبانية لأنهم يزبنون الكفار في النار أي يدفعونهم، ويسوقونهم إليها[٧].

---

(١) انظر أبا الحسن علي بن أحمد الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، (٤/ ٥٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، «تفسير قوله: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾».

(٣) انظر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥، (١٥/ ٣٢١).

(٤) انظر محمد جود مغنية، التفسير الكاشف، (٧/ ٥٨٩).

(٥) أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (٣٠/ ٢٠٤).

(٦) انظر اسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الفيحاء، دمشق، ، ط١، ١٩٩٤، (٤/ ٦٨٣).

(٧) انظر محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، (٧/ ٥٨٩).

وتختم السورة بنهي الطائع المصلي عن الالتفات إلى نهي الطاغي، أو الإصغاء و الاستجابة لأمره، وتحثه على الاستمرار في طاعة الله والسجود له ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾، الأمر الذي يجعل الإنسان قريباً من الله بهذه العبادة وذلك السجود، ولهذا يسن للمسلم الإكثار من الدعاء بالسجود، وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[1].

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ، مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (١/ ٢٠١).



Tafsir Center for Qur'anic Studies

سورة القدر

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة

أ. اسم السورة وعدد آياتها

سميت هذه السورة بـ «سورة القدر» [١] ومن أسمائها: «سورة ليلة القدر» [٢]، وعدد آياتها خمس آيات [٣].

ب. مكان نزولها:

اختلف العلماء من أهل التفسير في مكان نزولها، فمن المفسرين من يرى أنها مكية [٤]، وهي في رأي أكثر أهل العلم من أهل التفسير مدنية [٥] وهو الأرجح، ويرجح مدنيتها أنها تتضمن الترغيب في إحياء ليلة القدر، وإنما كان ذلك بعد أن فرض رمضان، وكان ذلك بعد

(١) البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٩٠)، ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٣٠/ ٤٥٣).

(٢) عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٤، (٥/ ٥٠٤).
وانظر أبو بكر محمد بن عبدالله الجصاص، أحكام القرآن، دار التراث العربي، بيروت، (٥/ ٣٧٣).

(٣) وهي في المصحف المكي والشامي ست، وخمس فيما عداهما. انظر الطبرسي، مجمع البيان، (١٠/ ٣٢١)، وانظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٣٩).

(٤) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٦/ ٢٨)، وانظر المراغي، تفسير المراغي، (٣٠/ ٢٠٦).

(٥) انظر ابو حيان، البحر المحيط في التفسير، (١٠/ ٥١٢)، وانظر عبد الرحمن بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، دار الفكر، بيروت، (٨/ ٢٨٢).
وانظر سليمان بن عمر العجلي، الفتوحات الإلهية، دار الكتب العلمية، بيروت، (٨/ ٣٦٩).

الهجرة [1].

ج- فضائل السورة

إن مما لا شك فيه أن سورة تحدثت عن ليلة بين القرآن فضلها وبين الرسول ﷺ شرفها فهي سورة لها فضل عظيم ومكانة عالية، ومما جاء في فضلها عنه عليه الصلاة والسلام:

أولاً- ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «تحروا ليلة القدر في السبع الأواخر»[2].

ثانياً- وما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، ليلة القدر في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى»[3].

وهذه الإشارة في الفرادى من العشر الأواخر قد توجد إشكالاً حال اختلاف المطالع في العالم الإسلامي، حيث يلزم من ذلك القول بتعدد ليلة القدر في رمضان وتعدد نزول الملائكة فيها، ويجاب عن ذلك أنه لا مانع من كون الليل كراكب يسير إلى جهة فيصل إلى كل منزل فتنزل الملائكة حسب سيرها في تلك الليلة، ولا مانع أن ينزل الله عند كل قوم ما شاء من الملائكة عند أول دخولها عندهم، ويعرجون عند مطلع فجرها عندهم أيضاً، أو يبقى المتنزل منهم هناك إلى أن تنقض الليل في جميع المعمورة فيعرجون معاً عند انقضائها [4].

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، (٣٠/ ٤٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصيام ، باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها ، ، مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم ، (١/ ٤٧٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصوم ، باب فضل ليلة القدر ، محمد بن اسماعيل ، (صحيح البخاري ، ٣/ ٦١).

(٤) انظر محمود الآلوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ، (٦/ ٣٥٧).

د. المناسبات في السورة

أولاً: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

اسم السورة (القدر) وهو الشرف والفضل والمنزلة والمكانة العالية، أو التدبير والتقدير، ويدخل فيه ضمناً الشرف والرفعة [1]، و محور السورة بيان عظم ليلة القدر هذه الليلة التي تميزت بابتداء نزول القرآن فيها ونزول الملائكة مع جبريل، ومصافحة من يقومون في تلك الليلة المباركة، حتى مطلع الفجر، وليس من شك أن حدوث مثل هذه الأمور فيه دلائل على عظمة المحدث فهي إذن من دلائل العظمة والجلال على الكبير المتعال.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية سورة القدر وخاتمتها

إن رجوع آخر هذه السورة على أولها في غاية الوضوح وذلك بكون هذا التنزيل كان في ليلة القدر وأعظم السلام فيها هو نزول القرآن[2]، فهو مصدر السلام وطريق الأمن لمن التزم بنهجه، وحكم بما فيه.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

جاء في مقدمة سورة القدر الحديث عن إنزال القرآن في تلك الليلة المباركة، وهي ليلة القدر وختمت سورة العلق بالأمر بالسجود لله تعالى وعدم الالتفات إلى من ينهى عن هذا السجود، بقوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾، ولما كانت ليلة القدر هي موطن الإحياء الأعظم للصلاة، بما فيها من قيام وركوع وسجود وتلاوة للقرآن، كان هذا البدء في غاية الجمال، وكأن القرآن يرشدنا إلى إحياء ليلة القدر التي شرفت بنزول القرآن، بإكثار السجود والتلاوة فيها.

رابعاً: المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها

محور السورة هو بيان عظم ليلة القدر، تلك الليلة الموعودة المشهودة، وهي ليلة الاتصال

(١) أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، أحكام القرآن، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧، (٤/ ١٩٦١).

(٢) انظر البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٩٣).

المطلق بين الأرض والملأ الأعلى، وهي ليلة بدء نزول هذا القرآن، على قلب محمد ﷺ.

والآيات من بعد ذلك جاءت تبين سبب فضلها، وعظيم قدرها، بما نزل فيها من قرآن عظيم القدر، وبما ينزل فيها من ملائكة جليلة القدر، ومن سلام يحل على البشرية فيها، تتحقق فيه السعادة وسلام الضمير، وسلام البيت، وسلام المجتمع...[(١)].

خامساً: المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض

ابتدأت سورة القدر بالحديث عن نزول القرآن العظيم ذي القدر، في الليلة عظيمة القدر، والسياق يدل على تعظيمها بما نزل فيها.

لذا جاء السياق من بعد ذلك يحث الخلق على الاجتهاد بفعل الخيرات فيها، وشد العزائم على قيامها والإكثار من الطاعات فيها، بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ فأثبت عظمها بهذا الاستفهام التقريري التعجبي الدال على غاية فضلها، وعلو قدرها.

ثم جاءت الآيات من بعد ذلك تبين عظم وفضل هذه الليلة ببيان خصائصها التي ترشد إلى عظم قدرها، في قوله تعالى: ﴿ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ ﴾، فالعمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وذلك لما يقسم فيها من الخير الكثير الذي لا يكون مثله في ألف شهر، فالأوقات والأماكن يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير الجزيل والنفع الكثير[(٢)].

ثم يتبع القرآن هذا الوجه من فضلها بوجه آخر وهو تنزل الملائكة في رحابها ﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ والروح هو جبريل ؑ الذي خص بالذكر لشرفه وعلو منزلته.

ويختم القرآن فضائل هذه الليلة في هذه السورة بأنها متصفة بالسلامة التامة، كاتصاف

(١) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم، (٦/ ٣٩٤٥).

(٢) انظر أبوبكر الجصاص، أحكام القرآن، (٥/ ٣٧٣).

الجنة التي هي سببها بقوله: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾[1]، فهي إذن مقاطع شديدة الصلة ببعضها قوية الارتباط بين أجزائها.

سادساً: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون سابقتها (سورة العلق)

- السورة التي سبقت هذه السورة هي سورة العلق، وقد جاء الأمر فيها لرسول الله ﷺ بأن يقرأ القرآن باسم ربه الذي خلق، و الذي علم الإنسان ما لم يعلم، وهنا في سورة القدر جاء ذكر القرآن ونزوله وبيان فضله، وأنه من عند ربه ذي العظمة والسلطان، العليم بمصالح الناس، وبما يسعدهم في دينهم ودنياهم، وأنه أنزل في ليلة لها من الجلال والكمال ما قصته السورة الكريمة [2].

- ومن مظاهر الصلة بين مضمون السورتين أيضاً أن سورة العلق بدأت بقوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، وانتهت بقوله تعالى: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾، والخطاب موجه فيها إلى رسولنا محمد ﷺ، وسورة القدر تتحدث عن نزول القرآن الذي أمر بقراءته ﷺ، ثم إن سورة العلق من أول ما نزل من القرآن وتأتي سورة القدر بعدها لتبين أن هذا القرآن الذي ابتدأ نزوله بسورة العلق أنزل في ليلة القدر.

-ومن هذه الصلات أيضاً أن سورة العلق أمرت بالقراءة باسم الله وأمرت بالسجود والاقتراب له سبحانه وتعالى، وسورة القدر ذكرت ليلة العمل فيها يعدل ألف مرة ثواب العمل في ما سواها [3]، وذلك لتستغل هذه الليلة بالقراءة والسجود المأمور به في سورة العلق.

---

(١) انظر البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٩٢).

(٢) انظر المراغي، تفسير المراغي، (٣٠/ ٢٠٦).

(٣) انظر سعيد حوى، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٩٨٩م، (١١/ ٦٦١٤).

المعنى الإجمالي لمقاطع سورة القدر

المقطع الأول

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ ﴾.

ابتدأت السورة بالإخبار عن إنزال القرآن في ليلة القدر، فقد أنزله العظيم في ليلة عظيمة القدر، عظم قدرها بنزوله فيها، ولذا أسند سبحانه وتعالى إنزال القرآن لنفسه مقروناً بنون العظمة.

وفي التعبير عن ليلة القدر بالاسم الظاهر بدلاً من المضمر بيان لزيادة قدرها، ثم يكرر القرآن ذكرها بالاسم الظاهر في الآية الثانية والثالثة زيادة في تعظيمها، وحثاً للناس على الاجتهاد في الطاعة فيها، ولكي يحييها المسلم بجد ونشاط وهمة.

أما المراد بإنزال القرآن فيها أي أنه ابتدأ فيها نزول القرآن، وقيل: إنه نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، لما روي عن ابن عباس ﷺ: «أنزل القرآن ليلة القدر جملة واحدة إلى السماء الدنيا»[١].

وسميت هذه الليلة التي شرفت بنزول القرآن فيها بـ«ليلة القدر» لأحد أمرين:

أ- لشرفها وفضلها.

ب- أو لتدبير وتقدير الأمور فيها، لأن الله يقدر فيها الآجال والأرزاق وحوادث العالم كلها لذلك العام، ويدفع ذلك للملائكة لتمثيله[٢]، والثاني أرجح لقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ

---

(١) الحديث موقوف على ابن عباس، أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب التفسير وصححه (٢/ ٢٤١)، وعلق عليه السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم في تعليقاته على تفسير الماوردي بقوله : هذا القول لا يصح عن ابن عباس، فليس بين الله وبين جبريل حجاب.... ، انظر الماوردي ، النكت والعيون ، (٦/ ٣١١).

(٢) انظر ابن عطية ، المحرر الوجيز ، (٥/ ٥٠٤).

﴿ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ ﴾ [الدخان: ٣-٤] ولكونه يشمل الشرف والرفعة والمنزلة ضمناً.

و مقادير الأشياء مسجلة في اللوح المحفوظ من قبل ذلك، لكن ما يحدث في هذه الليلة المباركة-ليلة القدر- من تقدير يكون على شكل تفصيل جزئي لما يحدث في نفس العام.

المقطع الثاني

قال تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥ ﴾.

يفصّل القرآن الكريم في هذا المقطع خاصية من خصائص هذه الليلة، ويرشدنا إلى أن العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وهي تعدل ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر(١)، **وذلك في قوله تعالى:** ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ ﴾ وليس من شك أن العمل القليل قد يفضل العمل الكثير، باعتبار الزمان، وباعتبار المكان، وباعتبار كيفية الأداء، كصلاة الواحد في جماعة تزيد بخمس وعشرين درجة على من صلاها منفرداً(٢)، والعمل في شهر رمضان أعظم من العمل في غيره، والعمل بمكة في المسجد الحرام أعظم من العمل بغيره.

ثم يتبع القرآن هذه الخاصية لليلة القدر التي تدل على عظمتها بين الأزمنة بخاصية أخرى وهي تنزل الملائكة والروح فيها، وهو جبريل ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ ﴾، فلعظم هذه الآية تنزل فيها إلى الأرض هذه المخلوقات الملائكية العظيمة، وهذا استئناف آخر لبيان فضلها حيث تتنزل الملائكة في هذه الليلة بكل أمر يتعلق به التقدير في تلك السنة إلى قابل حين يأمر بذلك جل وعلا (٣)، فالملائكة في هذه الليلة

---

(١) انظر البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٩١).

(٢) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٤٦).

(٣) انظر المرجع السابق، (١٦/ ٣٥١).

المباركة ينزلون أفواجاً أفواجاً، فمن نازل وصاعد، ولهذا عبر القرآن بلفظ «تنزل» الذي يفيد المرة تلو المرة، ولهذا السبب مدت إلى طلوع الفجر، والتعبير بإذن ربهم يفيد عصمة الملائكة، فنزولهم بإذن من الله، وصعودهم كذلك [1].

وبعد ذكر فضائل هذه الليلة المباركة يختم القرآن بخاصية أخرى لهذه الليلة بأنها متصفة بالسلام التام، كاتصاف الجنة التي هي سببها في قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥ ﴾، و يفيد التعبير عنها بالسلام حتى مطلع الفجر أمران:

أ. تعميم السلامة من الآفات والصواعق والأذى.

ب. التسليم كل الليلة حيث تسلم الملائكة على الطائعين في تلك الليلة[2]، وهو الأقرب والله أعلم، إذ لا تخلو ليلة في العام من نزول المحنة على قوم من الأقوام في العالم، حتى أهل الإسلام منهم، ومن السلام الذي حصل في هذه الليلة المباركة للبشرية نزول القرآن الذي يحقق لها في الدنيا السلام، ويهدي من اتبعه دار السلام يوم القيامة.

وقد جاء في المطلع قراءتان متواترتان: فقرأ الكسائي وخلف بكسر اللام، والباقون بفتحها [3]، وكلا القراءتين مصدر في لغة تميم[4]، والمطلع هو الطلوع، يقال طلع الفجر طلوعاً، والمعنى بناء على ذلك أنه يدوم ذلك السلام من الملائكة على العابدين فيها إلى طلوع الفجر [5]، والله أعلم.

---

(١) انظر الفخر الرازي التفسير الكبير، (١٦/ ٣٤).

(٢) انظر أبا حيان، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢، (١٠/ ٥١٣)، وانظر الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، عالم الكتب، بيروت، (٥/ ٤٧٣).

(٣) انظر ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (٢/ ٤٠٣).

(٤) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٥٣).

(٥) انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٣٢/ ٣٦).

سورة البينة

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝٨ ﴾

أولاً: بين يدي السورة

أ. اسم السورة وعدد آياتها:

تسمى سورة البينة، وتسمى سورة «لم يكن» وتسمى بسورة «المنفكين»، وسورة أهل الكتاب [1]، وتسمى سورة البرية، وتسمى «القيمة»[2].

وعدد آياتها ثمان آيات [3].

ب. مكان نزولها:

ذهب صاحب البحر المحيط إلى القول بمكيتها [4]، ورجح البغوي، وأبو السعود، وابن الجوزي، وابن عاشور أنها مدنية [5]، وهو الأظهر لما جاء في السورة من تخطئة أهل الكتاب،

---

(١) انظر البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٩٥)، وانظر، ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٣٠/ ٦٥٤).

(٢) الطبرسي، مجمع البيان، (١٠/ ٣٢٨).

(٣) عدد آيات سورة البينة تسع آيات عند البصريين، وثمان آيات عند الباقين، انظر مجمع البيان، الطبرسي، (١٠/ ٣٢٨).

(٤) أبو حيان، البحر المحيط، (١٠/ ٥١٧)

(٥) انظر الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل في التفسير والتأويل، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥،=

ولا يخفى علينا أن أهل الكتاب كان موطنهم المدينة المنورة، الأمر الذي يرجح نزولها في مدينة رسول الله ﷺ بعد الهجرة، ويؤيد ذلك ما ذكره الثعالبي بقوله: «وذكر الزكاة مع ذكر بني إسرائيل،، يرجح قول من قال: السورة مدنية، لأن الزكاة إنما فرضت بالمدينة، ولأن النبي إنما دفع إلى مناقضة أهل الكتاب بالمدينة»[1].

ج. فضائل السورة:

جاء في فضل هذه السورة «عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي قال لأبي بن كعب: إن الله أمرني أن أقرأ عليك «لم يكن الذين كفروا»، قال: وسماني لك، قال: نعم، فبكى[2].

د. محورها السورة:

تدور آيات هذه السورة حول الإعلام عن هذا الكتاب –القرآن– بأنه قيم بما تميز به من علو مقداره، وجليل آثاره في الأمم، وأن اتباعه يقود إلى السعادة، و إلى الجنة دار الأبرار، وتركه ومخالفته يسوق إلى الشقاء، و النار وهي دار الفجار [3]. وهذا يدل على جلال وعظيم قدرة من نزّل هذا التشريع جل وعلا.

=(٥/ ٦٠٨) ، وانظر وابن الجوزي ، زاد المسير ، (٨/ ٢٨٢)، وانظر أبا السعود ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، دار إحياء التراث ، بيروت ، (٩/ ١٨٢)

(١) عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧ ، (٣/ ٤٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب «لم يكن الذين كفروا» ، صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل، دار الجيل ، بيروت ، (١٢/ ٢١٦).

(٣) انظر البقاعي ، نظم الدرر ، (٨/ ٤٩٥).

هـ. المناسبات في السورة:

أولاً: المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

السورة اسمها البينة وهي الدلالة الواضحة، وقد جاءت تتحدث عن الرسول وما أنزل إليه من القرآن الكريم وهو بينة عظيمة، دللت على عظيم قدرة من أنزله بهذه الدقة البيانية والتشريعية، وقد بين عاقبة أهل اتباعه وما يؤول إليه حالهم من سعادة وحبور، وحال من عصاه وخالف أمره ونهيه وما يحل به من سوء عاقبة وثبور.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية سورة البينة وخاتمتها:

بينت افتتاحية السورة عدم انفكاك الكفار من أهل الكتاب والمشركين عما هم فيه من ضلال للسير في طريق الهداية إلا بالبينة المتمثلة برسول الله محمد ﷺ وما أنزل عليه من الوحي البين الدلالة، الواضح المعالم، الهادي إلى الصراط المستقيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ ﴾، وختمت السورة ببيان خيرية من التزم بهذه البينة، والجزاء العظيم الذي أعده الله لمن التزم بما أمر به واجتنب ما نهى عنه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

افتتحت سورة البينة بالحديث عن البينة التي تحقق السعادة لمن انفك عن الكفر من مشركين وأهل كتاب بسببها، فالبينة المتمثلة برسول الله ﷺ وما بين يديه من وحي سماوي، الأصل أن ينفك بها المنصفون من أهل الكفر والشرك عن كفرهم وشركهم، وأن يسلكوا بها طريق الهدى والنور، فيتحقق لهم بذلك السلامة والسلام، والسعادة في الدنيا، والتنعم والنعيم في دار المقامة.

وختمت سورة القدر التي سبقت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾ والسلام الذي حل في هذه الليلة سلام شامل يشمل أيضاً ما نزل فيها على رسولنا محمد ﷺ من كتاب سماوي وتشريع رباني، يدعو إلى سلامة البشرية وسعادتها، وهو البينة المشار إليها في سورة العلق.

رابعاً: المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

بيّنا فيما سبق أن محور السورة يدور حول الإعلام بأن هذا الكتاب الذي أنزل على سيدنا محمد ﷺ قيم بما تميز به من علو مقدار وعظيم آثار، ومنها انفكاك الكفار عن الشرك الذي يحقق لهم الخزي والعار، وهذا جانب من الجوانب التي تدل على عظيم القدرة، ثم جاءت مقاطع السورة من بعد ذلك تدور في فلك هذا المحور بالإشارة إلى حقائق أربع:

الحقيقة الأولى: أن بعثة الرسول محمد ﷺ، وما نزل عليه من وحي سماوي، أمر ضروري لتحول أهل الشرك والعصيان عما هم فيه من ضلال واختلاف وكفران.

الحقيقة الثانية: أن التفرق الذي حل بين أهل الكتاب لم يكن إلا بعد ما جاءتهم البينة سواء في ديانتهم، أو ببعثة رسول الله محمد ﷺ وما يتلوه من صحف مطهرة، وكان هذا التفرق سببه إصرار البعض منهم على الكفر والشرك، و اتباع البعض الآخر له عليه السلام فانقسموا بذلك إلى فريقين.

الحقيقة الثالثة: أنّ الدين أصله واحد لا يدعو إلى الفرقة وإنما يدعو إلى الوحدة والتماسك من أجل تحقيق العبودية لله، وأن هذه البينة المتمثلة برسول الله وما بين يديه من وحي منير تصب في هذا الإطار.

الحقيقة الرابعة: بينت السورة أحوال الناس أمام هذه البينة، فمن آمن وأطاع فهو من خير البرية، ومن عصى الخالق وكفر منهم كان من شر البرية، فالخيرية والشر يحكم عليهما بقدر الالتزام بما جاءت به البينة من أحكام.

خامساً: المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض:

جاءت الآيات في بداية السورة تبين حقيقة مفادها أنه ما كان للكفار من مشركين و أهل الكتاب الانفكاك والابتعاد عن الكفر الذي تمسكت به إلا بهذه الرسالة المحمدية الجديدة، رسولاً وكتاباً، قال تعالى ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ﴾.

ولما قرر في بداية السورة أهمية الرسالة الخاتمة، والكتاب المبين المنزل على سيد المرسلين في رد الناس إلى جادة الطريق، ومنهم أهل الكتاب من يهود ونصارى، عاد ليقرر في المقطع الثاني أن أهل الكتاب خاصة لم يتفرقوا ولم يختلفوا في دينهم عن جهل، أو عن غموض في الدين، أو تعقيد فيه، وإنها تفرقوا من بعد ما جاءتهم البينات الربانية، والدلائل النبوية [1]، فمنهم متبع ومنهم ممتنع، فأصر بعضهم على الشرك والإبقاء على المخالفة لرسولنا محمد ﷺ، ورفض اتباع البينة الجديدة بالرغم من أنهم أمروا في كتبهم السابقة وفي القرآن الكريم بعبادة الرحمن على أساسها فقال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾.

ثم جاء المقطع الثالث من بعد ذلك يبين حال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا، فبدأ ببيان نتيجة من أصر على الكفر ومات عليه من أهل الكتاب والمشركين وهو الخلود في النار واستحقاق غضب الجبار، والوصف بشر البرية، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾.

ثم أتبع القرآن الكريم ذلك بإرشادنا إلى حال من أطاع فآمن وعمل الصالحات واهتدى فاستحق بذلك دخول الجنان والفوز برضا الرحمن، والسلامة من الآفات، فحظي بالإقامة الدائمة في نعيم الجنة، واطمأن وحقق رضا الله الذي يبعث على الهدوء في النفس، فأتبع بذلك

---

(١) انظر سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن الكريم، (٦/ ٣٩٥٠).

القرآن حال من أطاع إثر بيانه لحال من عصى لأن الضد يظهر فضله الضد، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨ ﴾.

سادساً: المناسبة بين مضمون سورة البينة ومضمون سابقتها وهي سورة القدر:

تحدثت سورة القدر بمضمونها عن ليلة عظيمة القدر، تشرفت وعظمة بنزول كتاب ذي مكانة وقدر على نبي عظيم القدر، ونزول الملائكة كذلك، وهنا جاءت سورة البينة تبين أثر هذا الكتاب ذي القدر المنزل على النبي ذي المكانة والقدر في تلك الليلة ذات القدر، فكان بينة ودلالة واضحة لمن أرد أن يذّكر أو أراد شكوراً، له أثره في أهل الطاعة من الفوز بدخول جنة النعيم. وكان ويلاً وثبوراً على من عصاه وخلف أمره ونهيه من أهل الكفر والعصيان، بالحرمان من السعادة، ودخول دار الشقاء جهنم والعياذ بالله، ويكون بذلك قوله تعالى: «لم يكن الذين كفروا... الخ السورة كالتعليل لإنزال القرآن، وكأنه قيل: إنا أنزلناه لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى يأتيهم رسول يتلو صحفاً مطهرة، وهي ذلك المنزل في تلك الليلة المباركة[1].

(١) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٥٩).

المعنى الإجمالي لمقاطع سورة البينة:

المقطع الأول

قال تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ﴾.

تبين افتتاحية السورة أن الكفار من أهل الكتاب والمشركين ما كانوا ليتحولوا عن كفرهم الذي ساروا إليه بتحريفهم للحقائق والنصوص، إلا بهذه الرسالة الجديدة [١] المتمثلة برسولنا محمد ﷺ وما أيد به من كتاب سماوي وهو القران الكريم[٢].

أو لم يكونوا منفكين عن اتفاق كلمتهم على الكفر حتى جاءهم الرسول فتفرقوا، فمنهم المتبع، ومنهم الباقي على الكفر [٣]. وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، والمراد بالمشركين:مشركو العرب وهم عبدة الأوثان [٤].

فالانفكاك هو انفراج الشيء عن الشيء ومنه فككت الكتاب إذا أزلت ختمه، فهو في الأصل افتراق الأمور الملتحمة وأريد به المفارقة لما كانوا عليه [٥].

والبينة: هي الحجة الظاهرة التي بها يتميز الحق عن الباطل، وهي الرسول محمد ﷺ

---

(١) وانظر القرطبي، الجامع لأحكام لقرآن معاني القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، (٢٠/ ٩٥)، انظر سيد في ظلال القرآن، (٦/ ٣٩٤٨).

(٢) انظر أبا زكريا يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، دار السرور، بيروت، (٣/ ٢٨١).

(٣) القمي النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، (٦/ ٥٤٢).

(٤) صديق خان، (تفسير الجزأين عم وتبارك من تفسير فتح البيان ص٤١٠)، وانظر علي الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، (٤/ ٥٣٧).

(٥) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٥٩)، وانظر محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٩٦، (١٠/ ٢٤١).

وشرعه [١]، لكون ذاته بينة على نبوته، حيث كان صادقاً أميناً يبين للناس ما نزّل إليهم.

والصحف جمع صحيفة وهي ظرف مكتوب، فهي صحف مطهرة عن الباطل، ومعنى كون الصحف قيمه أنها مستقيمة لا اعوجاج فيها، وقائمة مستقلة بالحجة والدلالة والبرهان [٢].

فالرسول المذكور في الآيات هو سيدنا محمد ﷺ، و المراد بالصحف في قوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ القرآن الكريم في صحفه[٣]، والجمع للصحف باعتبار تعدد سور القرآن وأوراقه، لأن كل ورقة مكتوبة يقال: إنها صحيفة، ومعنى تطهيرها تنزيهها عن التحريف والباطل، ومعنى تلاوتها قراءتها عن ظهر قلب لا عن كتاب، لأنه عليه الصلاة والسلام كان أميّاً لا يكتب ولا يقرأ[٤].

ويفيد ذكر الكتب الموجودة بالصحف أيضاً الإشارة إلى أن القرآن فيه الكثير مما أنزله الله في الكتب السماوية السابقة كصحف إبراهيم، والتوراة، والإنجيل، والزبور، فهو مصدق لما فيها، بل إن فيه تبياناً لما نزل على الأنبياء السابقين عليهم السلام من الهدى من أصول الدين التي جاءت بالطريق القويم والهدي السليم [٥]، ولكن الكثير من أهل الكتاب تمادوا في الغي والضلال، بإعراضهم عن دعوة سيدنا محمد ﷺ التي جاءت بالبينات والهدى، تماماً كما تمادوا بالسفاهة والضلال عن أنبيائهم عليهم السلام الذين جاءوهم بالنور، والحجة، والبرهان.

---

(١) انظر عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، (٣/ ٤٩١).

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، (١٦/ ٤٢-٤٤).
وانظر أبا جعفر أحمد بن محمد النحاس، إعراب القرآن، عالم الكتب، بيروت، (٥/ ٢٧٢)، وانظر الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، (٣/ ٣٥٠).

(٣) انظر الثعالبي، الجواهر الحسان، (٣/ ٤٩١).

(٤) انظر البغوي، معالم التنزيل، (٥/ ٦٠٧)، وانظر تفسير الجزأين عم وتبارك من تفسير فتح البيان، صديق خان، (ص٤١٢).

(٥) انظر محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، (٧/ ٥٩٤).

المعنى الإجمالي للمقطع الثاني

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾

ثم يأتي هذا المقطع من السورة وهو المقطع الثاني لبيان تفرق أهل الكتاب بالرغم مما أمروا به من عبادة وطاعة، فالأصل في البينة المتمثلة بالنبوة والكتاب أن تكون موضع توحيد للناس حول النبراس السماوي، فترد الناس إلى الهدى والنور، ولكن الذي حدث من أهل الكتاب الذين عرفوا الرسول وصدقه كما يعرفون أبناءهم، فتفرقوا بعد مبعثه ﷺ لضلالهم وبعدهم عن الحق، وقد بدأ القرآن بذكر أهل الكتاب هنا توبيخاً لهم لأن العصيان والعناد من العالم أقبح[١].

فهم وإن كانوا من جملة الكفار إلا أنهم مظنون بهم علم[٢]، فأهل الكتاب قبل مبعث رسولنا محمد ﷺ كانوا يدّعون أنه إن بعث النبي المنتظر سيكونون من أتباعه وأنصاره، لكن الذي حدث منهم عكس ما قالوا، فتفرقوا بعد مجيء البينة، فمنهم من اتبع رسول الله ﷺ وما أنزل عليه من وحي، ومنهم من بقي في الضلالة، فالمعنى المراد من الآية إذن أنه لم يبق حالهم مجتمع على الكفر والضلال وإنما انفك بمبعث رسول الله ﷺ، حيث كانوا على قسمين: قسم متبع له ﷺ، وقسم بقي على ضلال، فمنهم من صار مؤمناً، ومنهم من أصر على الكفر[٣]، وهذا الانقسام الذي وقع سببه عناد بعضهم، وإصراره على الكفر، وإلا فهم قد أمروا بالبينة عبادة الله والطاعة، **قال تعالى** ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾.

إذن فالتفرق الذي حدث لم يكن سببه البينة، بل كان سببه الأهواء، فقد جاءت البينة

---

(١) انظر القمّي النيسابوري، غرائب القرآن، (٦/ ٥٤٣).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٢٠/ ٩٧).

(٣) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٦/ ٤٠)، وانظر أبا الحسن علي بن محمد الماوردي، النكت والعيون «تفسير الماوردي»، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢، (٦/ ٣١٥).

تأمرهم بالاتباع لكن منهم من عصى، ومنهم من أطاع، وهذا الأمر الذي صدر لهم بالاتباع في الآية يحتمل أحد أمرين:

الأول: أن يكونوا أمروا بذلك في التوارة والإنجيل، حيث جاء كل من الكتابين مبشراً برسالة سيدنا محمد ﷺ.

والثاني: أن يكون هذا الأمر قد صدر لهم على لسان رسول الله محمد ﷺ بتبليغه لهم هذا القرآن.

أقول: ولا مانع أن يشمل المعنى الأمرين معاً فقد صدر لهم الأمر في التوراة والإنجيل والقرآن بعبادة الله عبادة مبنية على الإخلاص، نقية من الشوائب، خالصة من الشرك.

فالإخلاص هو النية الخالصة، وهو أن يؤتى بالفعل خالصاً لداعيه وحده[١]، وعليه فالآية تدل على أن العبادة الخالصة ينبغي أن يفرد بها الله سبحانه وتعالى.

ويقرن القرآن الكريم الإخلاص في العبادة بقوله تعالى: «حنفاء»، والحنيف هو المائل عن الباطل إلى الحق، وهذه الآية حجة لمذهب أهل السنة والجماعة بأن الإيمان:قول وفعل وعمل، فهو إقرار باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالجوارح، والله قد ذكر في هذه الآية مجموع الأمور الثلاثة[٢].

والإشارة بذلك في قوله «وذلك دين القيمة» لكل ما تقدم من الإخلاص في العبادة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وسر الإشارة باسم الإشارة الذي للبعيد للإشعار بعلو الرتبة وبعد المنزلة في الشرف لمن تلبس بهذه العبادات العظيمة المقرونة بالإخلاص[٣]، وهذه هي حقيقة الدين القيم، وهو الدين الكامل المنزه عن النقص.

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٧/ ٤٧).
(٢) نفس المرجع السابق (٦/ ٤٩).
(٣) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٦٦).



المعنى الإجمالي للمقطع الثالث

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

ثم يبين القرآن من بعد ذلك حال الفريقين- من عصى ومن أطاع البينة -في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا، فيبين هذا المقطع الأخير من السورة مصير أهل الإجرام شر البرية من كفرة أهل كتاب والمشركين[1]، باستحقاقهم الخلود في نار جهنم، ويتبعه بمصير المؤمنين، أصحاب المنازل العالية خير البرية، واستحقاقهم الخلود في جنات النعيم، جزاء طاعتهم وإخلاصهم لرب العالمين [2].

وبدأ القرآن ببيان مصير من كفر من أهل الكتاب والمشركين، بالخلود الدائم في نار جهنم لمن مات منهم على الكفر، واستحقاقهم الوصف بشر الخليقة بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾ وذلك أن الشرك لا يدخل صاحبه إذ مات عليه في دائرة المغفرة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء: ١١٦].

وإنما قدم الحديث عن شر البرية على الحديث عن خير البرية، ليختم بمسك الختام أهل الجنان، ولأن دفع المفاسد أولى من جلب المصالح، ولأن السياق من بداية السورة في الحديث عمن عصى فخالف البينة فمن البلاغة التعجيل بذكر عاقبته.

---

(١) وقد عبر القرآن بلفظ الفعل «كفروا» عن أهل الكتاب، وعن المشركين باسم الفاعل تنبيهاً على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر ، لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل مقرين بمبعث محمد ﷺ. ثم إنهم كفروا بعد ذلك بخلاف المشركين فإنهم ولدوا على عبادة الشرك وإنكار الحشر والقيامة ، أنظر الفخر الرازي ، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ، (١٦/ ٥٨٨).

(٢) انظر محمد على الصابوني ، صفوة التفاسير ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١ ، (٣/ ٥٨٦).

ولنا أن نتساءل كيف يسميهم شر البرية، وفي البرية من هو أكثر شراً منهم، كفرعون وعاد وثمود، وجواب ذلك أن يراد بالبرية المعاصرون لهم [١].

وقد جاء في قوله (شر البرية) قراءتان متواترتان، فقرأ نافع وابن عامر: «شر البريئة» في هذه الآية، و في الآية التي تليها «خير البريئة»، والبريئة من برأ الله الخلق وقرأ الباقون بغير همز «البرية»[٢]، وكل قراءة من هاتين القراءتين أفادت معنى، فالمراد بالمهموز «البريئة» الخليقة الشاملة للجن والإنس والملائكة، وبغير المهموز المخلوقات من التراب فقط وهم البشر [٣].

ثم يبين القرآن محاسن أحوال المؤمنين إثر بيان حال الكفرة جرياً على السنة القرآنية بإتباع الترهيب بالترغيب[٤]، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨ ﴾.

ويقرن القرآن الإيمان بالعمل الصالح لاستحقاق الجزاء لبيان أهمية العمل مع الإيمان، ويجمع الصالحات لتعددها فهم قوم لا يتركون باب خير إلا عملوا فيه بما يمليه عليهم إيمانهم، فاستحقوا بذلك أن يوصفوا بخير البرية، وأن ينالوا جزاء الإيمان والعمل الصالح دار الإقامة -جنات عدن- فهي مأخوذة من عدن بالمكان إذا أقام فيها [٥]وتتميز هذه الجنات بأن تجري الأنهار من تحت قصورها، أو من بين أشجارها، وقد جمعت الجنات والأنهار للإشارة لتعددها وتنوعها، فخلد فيها خير البرية بحياة أبدية دائمة تفضلاً من الله ومنة، وفازوا برضا الرحمن

---

(١) الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٦٧).

(٢) أبو علي الحسن بن عبد الغفار، الحجة للقراء السبعة، (٦/ ٤٢٨)، وانظر أبا الخير محمد بن الجزري، النشر في القراءات العشر، دار الفكر، بيروت، (٢/ ٤٠٣).

(٣) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٦٨).

(٤) انظر نفس المرجع السابق، (١٦/ ٣٦٧)، وانظر، البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٩٥).

(٥) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٧/ ٥٥).

تبارك وتعالى، بعد أن تحقق منهم الالتزام والرضا بقدره سبحانه وتعالى «فرضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مؤتمراً بأمره منتهياً عن نهيه»[١].

وقدم القرآن الكريم رضا الله عن هؤلاء المؤمنين العاملين على رضاهم عنه «لأن الأزلي هو المؤثر المحدث، والمحدث لا يؤثر بالأزلي»[٢].

ثم يختم القرآن السورة بالإشارة باسم الإشارة الذي للبعيد «ذلك» لهذا الجزاء العظيم للتنويه بعلو منزلته، وجلال قدر من حظي به، ثم يبين أن من يستحق هذا الجزاء هو من خشي مقام الرحمن [٣] فتمثل في نفسه خوفاً مقروناً بالأمل والتعظيم لجلال الله تعالى، وخص الله تعالى أهل الخشية بالذكر في هذه الآية لأنها رأس كل بركة، وهي الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر[٤]، جعلنا الله ممن يخشاه، فينال رضاه، ويحظى برفقة نبيه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم. والحمد لله رب العالمين.

---

(١) محي الدين الدرويش، إعراب القرآن، (١/ ٥٤٧).

(٢) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٧/ ٥٧).

(٣) يذكر القرآن الكريم الخشية أكثر من الخوف في حق الله تعالى، لأن الخشية أشد من الخوف، لأن الخشية تكون من عظم المخشي، وإن كان الخاشي قوياً، بخلاف الخوف الذي يدل على ضعف الخائف وإن كان المخوف منه أمراً يسيراً، انظر د. فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، دار الفرقان عمان، ١٩٩١م، (ص١٧٥)، وانظر السيوطي، معترك الأقران، (٣/ ٦٠٣).

(٤) الثعالبي، الجواهر الحسان، (٣/ ٤٩٢).

سورة الزلزلة

قال الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: أسماؤها التوقيفية:

١- سورة (الزلزلة): وهو ما اشتهرت به في بعض المصاحف، وبعض كتب التفسير ولمفتتحها.

٢- سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾: وهو ما وردت به الأخبار، فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ عدلت له بنصف القرآن، ومَن قرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ عدلت له بربع القرآن، ومَن قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ عدلت له بثلث القرآن)[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: نزلت سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ بالمدينة، وهو ما عنون لها الطبري والآلوسي والسخاوي والبخاري والترمذي في تفاسيرهم وكتبهم. ووجه التسمية بهذا الاسم أنه افتتحت بهذه الجملة في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، رقم الحديث: ٢٨١٨، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ الحسن بن سلم، وفي الباب عن ابن عباس. وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك: ١/ ٥٦٦.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١ـ سورة (الزلزال): وقد عنون لها بعض المفسرين، وكتبت في عدد من المصاحف.

٢ـ سورة (زلزلت)، وقد سمِّيت في بعض المصاحف، كما سمَّاها السخاوي بهذا الاسم.

٣ـ كما سميت الآيتان الأخيرتان فيها بالجامعة الفاذَّة، كما في صحيح البخاري حين سئل النبي ﷺ عن زكاة الحُمُر، فعن أبي هريرة ﷺ سئل النبي ﷺ عن الحُمُر، فقال: (لم ينزل عليَّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذَّة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾)[1].

ب. فضائل السورة:

قال القرطبي: هذه السورة فضلها كثير، وتحتوي على عظيم. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تعدل نصف القرآن، ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾ تعدل ربع القرآن)[2].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ، فقال: أقرئني يا رسول الله، قال له: اقرأ ثلاثاً من ذات الراء، فقال الرجل: كبرت سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني، قال: فاقرأ من ذات حم، فقال مثل مقالته الأولى، فقال: اقرأ ثلاثاً من المسبِّحات، فقال مثل مقالته، فقال الرجل: ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة، فأقرأه ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾، حتى إذا فرغ منها، قال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها أبداً، ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: أفلح الرويجل، أفلح الرويجل، ثم قال: عليَّ به، فجاءه فقال له:

---

(١) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾، رقم الحديث: ٤٥٨١.

(٢) قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة. سنن الترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في سورة ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾: رقم الحديث: ٢٨١٩، وأخرجه الحاكم في المستدرك: ١/ ٥٦٦، وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٤٦.

أُمِرتُ بيوم الأضحى، جعله الله عيداً لهذه الأمة، فقال الرجل: أرأيت إن لم أجد إلا منيحة ابني أفأضحِّي بها؟ قال: لا، ولكن تأخذ من شعرك، وتقلِّم أظفارك، وتقص شاربك، وتحلق عانتك، فذلك تمام أضحيتك عند الله)[1].

وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: أليس معك: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؟ قال: بلى، قال: ثلث القرآن، قال: أليس معك: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: تزوج)[2].

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال: لما نزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ وأبو بكر قاعد، فبكى، فقال له رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا أبا بكر؟ قال: يبكيني هذه السورة، فقال له رسول الله ﷺ: لولا أنكم تخطئون وتذنبون، فيغفر الله لكم، لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون، فيغفر لهم)[3].

وعن معاذ بن عبد الله الجهني: (أن رجلاً من جهينة أخبره أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في الصبح: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ في الركعتين كلتيهما، فلا أدري أنسي رسول الله ﷺ، أم قرأ ذلك عمداً؟)[4].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم الحديث: ٦٢٨٧، وأبو داود في سننه: كتاب الصلاة، باب تحزيب القرآن، رقم الحديث: ١١٩١، والنسائي في فضائل القرآن: رقم الحديث: ٥٢. وأخرجه الحاكم في المستدرك: ٢/ ٥٣٢، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، رقم الحديث: ٢٨٢٠. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٤٦، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٦٣.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الصلاة، باب الرجل يعيد سورة واحدة في الركعتين، رقم الحديث: ٦٩٣.=

ج. مرحلة النزول:

اختُلِف في أمر نزولها على قولين: مدنية في قول ابن عباس وقتادة ومقاتل، وهو قول الجمهور، يؤيده قول ابن عباس: نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ في المدينة، ومكية في قول ابن مسعود وجابر بن عبد الله وعطاء. وقد عُدَّت الرابعة والتسعين في عداد نزول السور، فيما روي عن جابر بن زيد، وهو بناءٌ على أنها مدنية، جعلها بعد سورة (النساء)، وقبل سورة (الحديد)[1].

د. أسباب نزولها:

سمِّيت الآيتان الأخيرتان فيها: (السابعة والثامنة) بالجامعة الفاذَّة، كما في صحيح البخاري حين سئل النبي ﷺ عن زكاة الحُمُر، فعن أبي هريرة ﷺ، سئل النبي ﷺ عن الحُمُر فقال: لم ينزل عليَّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذَّة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[2].

وقال مقاتل: نزلت الآيتان في رجلين، وذلك أنه لما نزل: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨] كان أحدهما يأتيه السائل، فيسأله أن يعطيه التمرة والكِسرة والجوزة، ويقول: ما هذا بشيء، وإنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه. وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير؛ الكذبة، والغيبة، والنظرة، ويقول: ليس عليَّ من هذا شيء، إنما أوعد الله بالنار على الكبائر، فأنزل الله عزَّ وجلَّ يرغِّبهم في القليل من الخير، فإنه يوشك أن يكثر، ويحذِّرهم اليسير من الذنب، فإنه يوشك أن يكثر[3].

= قال النووي في المجموع: ٣/ ٣٨٤ إسناده صحيح.

(١) زاد المسير: ٨/ ٣٠٤، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٤٦، وفتح القدير: ٥/ ٦٤٢، و التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٨٩، و الهداية إلى بلوغ النهاية: ١٢/ ٨٣٨٩.

(٢) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾، رقم الحديث: ٤٥٨١.

(٣) أسباب النزول للواحدي: ص: ٣٣٥.

فلهذا روى عدي بن حاتم ﷺ أن النبي ﷺ ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوَّذ منها، ثم ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوَّذ منها، ثم قال: (اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة)(١).

هـ ـ عدد آيات سورة (الزلزلة):

تسع آيات عند جمهور أهل العدِّ، وعدَّها الكوفيون ثماني آيات، لاختلافهم في آية: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾﴾. فعدَّها بعضهم آيتين، وعدَّها آخرون آية واحدة(٢).

و ـ محور سورة (الزلزلة):

تتمحور سورة (الزلزلة) حول موضوع الرجوع إلى الله تعالى، والإخبار عن أهوال يوم القيامة وشدائدها، وأشراط البعث، وما يعتري الناس عند حدوثه من فزع، وذكر جزاء الطاعة وعقوبة المعصية، وذكر وزن الأعمال في ميزان العدل. وقد اشتملت على مقصدين اثنين:

١ـ بيان حدوث الزلزلة والاضطراب الشديد للأرض يوم القيامة، حيث ينهار كل ما عليها، ويخرج الناس الموتى من بطنها من قبورهم، وتشهد حينئذ على كل إنسان بما عمل على ظهرها.

٢ـ الحديث عن رجوع الإنسان إلى الله تعالى، وذهاب الخلائق لموقف العرض والحساب ثم مجازاتهم على أعمالهم، وقسمتهم إلى فريقين: سعيد إلى الجنة، وشقي إلى النار(٣).

ز ـ المناسبات في سورة (الزلزلة):

١ـ المناسبة بين سورة (الزلزلة) ومحورها:

السورة واضحة الارتباط بمحورها، فهي تفصِّل في جزء من المحور، وهو موضوع

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم الحديث: ٦٠٧٨.

(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣/ ٢٣١، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٩٠.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ص: ٢٠٢، والتفسير المنير: ٣٠/ ٢٥٥، والأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٣٥، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٩٠.

الرجوع إلى الله عزَّ وجلَّ، ولكنه تفصيل جديد، فما من سورة إلا وفيها جديد[1].

٢ـ المناسبة في افتتاحية سورة (الزلزلة):

افتتاحُ الكلام في السورة بظرْف الزمان مع إطالة الجُمَلِ المضافِ إليها الظرف تشويقٌ إلى متعلَّق الظرْف، إذ المقصود ليس توقيت صدور الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، بل الإخبار عن وقوع ذلك، وهو البعث، ثم الجزاء، وفي ذلك تنزيل وقوع البعث منزلة الشيء المحقق المفزوع منه، بحيث لا يهمُّ الناس إلا معرفة وقته وأشراطه، فيكون التوقيت كناية عن تحقيق وقوع الوقت[2].

٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الزلزلة) وخاتمتها:

لما بيَّن الله تعالى في افتتاحية السورة أهوال ذاك اليوم، بذكر بعض أماراته من الزلزلة وإخراج الناس من القبور، وأراد أن يزيد في وعد المؤمن ووعيد الكافر بالجزاء الوافي، والأجر المتكافئ، فجاءت الخاتمة تجمع بين الوعد والوعيد، بذكر الذرَّة من الخير والشر[3].

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الزلزلة) وخاتمة ما قبلها:

لما ختم الله تعالى سورة (البينة) بجزاء الصالح والطالح في دار البقاء على ما أسلفوه في مواطن الفناء، ذكر في هذه السورة أول مبادئ تلك الدار، وآخر غاياتها، فالصلة بين سورتي (البيِّنة) و(الزلزلة) واضحة، حتى لتكاد تكون سورة (الزلزلة) استمراراً لسورة (البيِّنة)، إذ أن خاتمة سورة (البيِّنة) تتحدث عن جزاء الكافرين، وجزاء المؤمنين يوم القيامة، وتأتي سورة (الزلزلة) لتحدثنا عن ذلك اليوم، وما يكون فيه، وعن قاعدة الحساب والجزاء فيه، ويبيِّن بها حصول جزاء الفريقين. فكأنه لما ذكر في السورة السابقة جزاء الفريقين حين قال تعالى:

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٣٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٩٠.

(٣) التفسير المنير: ٣٠/ ٣٥٥.



﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾، كان ذلك المحرك للسؤال عن وقته وعلاماته، فبيَّنه جلَّ شأنه في هذه السورة، فكأنَّ المكلف قال: ومتى يكون ذلك يا رب؟ فقال تعالى:﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ ﴾، أي يكون يوم زلزلة الأرض[1].

٥- المناسبة بين افتتاحية سورة (الزلزلة) وافتتاحية سابقتها:

لما ذكر فيما قبلها كون الكفار يكونون في النار، وجزاء المؤمنين، فكأن قائلاً قال: متى ذلك؟ فقال تعالى:﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ ﴾[2].

٦- المناسبة بين سورة (الزلزلة) وما بعدها:

تنتهي سورة (الزلزلة) بالآية الجامعة الفاذَّة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾، وتبدأ سورة (العاديات) لتتحدث عن طبيعة الإنسان وكنوده، ومحبته للمال والدنيا، وتعالج ذلك، وفي ذلك حضٌّ على فعل الخير وترك الشر، فالسورة كثيرة الصلات بما بعدها[3].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

يقول صاحب الظلال عن هذه السورة: (إنها هزَّةٌ عنيفة للقلوب الغافلة، هزَّةٌ يشترك فيها الموضوع والمشهد والإيقاع اللفظي. وصيحة قوية مزلزِلة للأرض ومَن عليها؛ فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء في بضع فقرات قِصار! وهذا هو طابع الجزء كله، يتمثل في هذه السورة تمثلاً قوياً... ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾.

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٥٧، وروح المعاني: ٣٠/ ٢٠٨، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٠٢، والأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٣٢، وتفسير المراغي: ٣٠/ ٢١٧.

(٢) تفسير البحر المحيط: ١٠/ ٥٢١.

(٣) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٤٤.

إنه يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافاً، وتزلزل زلزالاً، وتنفض ما في جوفها نفضاً، وتخرج ما يثقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلاً. وكأنها تتخفَّف من هذه الأثقال، التي حملتها طويلاً! وهو مشهد يهزُّ تحت أقدام المستمعين لهذه السورة كل شيء ثابت؛ ويُخيل إليهم أنهم يترنَّحون ويتأرجحون، والأرض من تحتهم تهتزُّ وتمور! مشهد يخلع القلوب من كل ما تتشبَّث به من هذه الأرض، وتحسبه ثابتاً باقياً؛ وهو الإيحاء الأول لمثل هذه المشاهد التي يصوِّرها القرآن، ويودع فيها حركة تكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة! ويزيد هذا الأثر وضوحاً بتصوير (الإنسان) حيال المشهد المعروض، ورسم انفعالاته وهو يشهده: ﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ ﴾؟ وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوء، الذي يرى ما لم يعهد، ويواجه ما لا يُدرك، ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت. مالها؟ ما الذي يزلزلها هكذا ويرجُّها رجاً؟ مالها؟ وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنَّح معها؛ ويحاول أن يمسك بأي شيء يسنده ويثبته، وكل ما حوله يمور موراً شديداً! (والإنسان) قد شهد الزلازل والبراكين من قبل. وكان يصاب منها بالهلع والذعر، والهلاك والدمار، ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شبهاً بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا. فهذا أمر جديد لا عهد للإنسان به. أمر لا يعرف له سراً، ولا يذكر له نظيراً. أمر هائل يقع للمرة الأولى! ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾.. يوم يقع هذا الزلزال، ويُشْدَه أمامه الإنسان ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾.. يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها، وتصف حالها وما جرى لها.. لقد كان ما كان لها ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾.. وأمرها أن تمور موراً، وأن تزلزل زلزالها، وأن تخرج أثقالها! فأطاعت أمر ربها ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾ [الانشقاق: ٢] تحدث أخبارها. فهذا الحال حديث واضح عما وراءه من أمر الله ووحيه إليها..

وهنا و(الإنسان) مشدوه مأخوذ، والإيقاع يلهث فزعاً ورعباً، ودهشة وعجباً، واضطراباً وموراً.. هنا و(الإنسان) لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يتساءل: مالها مالها؟ هنا يواجه بمشهد الحشر والحساب والوزن والجزاء:

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾.

وفي لمحة نرى مشهد القيام من القبور: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾.. نرى مشهدهم شتيتاً منبعثاً من أرجاء الأرض ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر: ٧].. وهو مشهد لا عهد للإنسان به كذلك من قبل. مشهد الخلائق في أجيالها جميعاً تنبعث من هنا ومن هناك: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ [ق: ٤٤] وحيثما امتد البصر رأى شبحاً ينبعث ثم ينطلق مسرعاً! لا يلوي على شيء، ولا ينظر وراءه ولا حواليه: ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ [القمر: ٨] ممدودة رقابهم، شاخصة أبصارهم.

﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾[عبس: ٣٧]. إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر. هائل مروّع. مفزع. مرعب. مذهل.. كل أولئك وسائر ما في المعجم من أمثالها لا تبلغ من وصف هذا المشهد شيئاً مما يبلغه إرسال الخيال قليلاً يتملاه بقدر ما يملك، وفي حدود ما يطيق!

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ ﴿ لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾.. وهذه أشد وأدهى.. إنهم ذاهبون إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم، ليواجهوها، ويواجهوا جزاءها. ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحياناً أقسى من كل جزاء. وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير. فكيف به وهو يواجَه بعمله على رؤوس الأشهاد، في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر؟! إنها عقوبة هائلة رهيبة.. مجرد أن يُروا أعمالهم، وأن يواجَهوا بما كان منهم! ووراء رؤيتها الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازي عليها.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾.. ذرة.. كان المفسرون القدامى يقولون: إنها البعوضة. وكانوا يقولون: إنها الهباءة التي تُرى في ضوء الشمس.. فقد كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة... فنحن الآن نعلم

أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم، وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي تُرى في ضوء الشمس، فالهباءة ترى بالعين المجردة. أما الذرة فلا ترى أبداً حتى بأعظم المجاهر في المعامل. إنما هي (رؤيا) في ضمير العلماء! لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره. وكل ما رآه هو آثارها! فهذه أو ما يشبهها من ثقل، من خير أو شر، تحضر ويراها صاحبها ويجد جزاءها!.. عندئذ لا يحقر (الإنسان) شيئاً من عمله. خيراً كان أو شراً. ولا يقول: هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن. إنما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل! إن هذا الميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعد في الأرض.. إلا في القلب المؤمن.. القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر.. وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنوب والمعاصي والجرائر.. ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير دونها رواسي الجبال.. إنها قلوب عتلَّة في الأرض، مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب!!)[1].

دروس وعبر من سورة (الزلزلة):

* تقرير عقيدة البعث والجزاء والنشور والحساب، ثم المآل إلى الجنة أو النار، وهي بعض مشاهد اليوم الآخر وأحداثه، وهو أحد أركان الإيمان الستة، لا يقبل إيمان المسلم بدونه.
* تقرير ظاهرة الانقلاب الكوني الذي تتبدل فيه الأرض غير الأرض، والسموات غير السموات. فتحدث زلزلة الأرض عند النفخة الأولى، لتلفظ الكنوز والدفائن، ثم ترجف عند النفخة الثانية، فتخرج الأموات من قبورهم أحياء للحساب.
* تكلم الجمادات من الآيات الدالة على قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته، وهي موجبات ألوهيته وحده دون سواه. وقد اختُلِف في تحديث الأرض وإخبارها؛ فقال الجمهور: هو على الحقيقة، إذ يجعل الله تعالى الأرض حيواناً عاقلاً ناطقاً، ويعرِّفها جميعَ ما عمل أهلها، فتشهد لمن أطاع، وعلى مَن عصى.

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٥٤.

وقال الطبري وآخرون: هو على المجاز، بمعنى أن ما تفعله بأمر الله تعالى من إخراج أثقالها وسائر أحوالها فهو بمنزلة التحديث، والأول أرجح، ويشهد لرجحانه جمهرة قائليه وظاهر النص وإطلاقه، ثم عموم قدرة الله تعالى على كل شيء.

كما يؤيده حديث البخاري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري ثم المازني عن أبيه أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري ﷺ قال له: (إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذَّنت بالصلاة، فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌّ ولا إنسٌ ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة. قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ)[1][2].

٤ـ كل من يعمل في الدنيا عملاً خيراً صغيراً أو كبيراً، يره بعينه، أو يُره الله إياه يوم القيامة، وكل من يعمل في الدنيا عملاً شراً مهما كان قليلاً، يره بنفسه، أو يُره الله إياه يوم القيامة، فيجد جزاءه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، أما الكافر فحسناته في الآخرة محبطة بكفره وترد في وجهه، ويجد عقاب ما فعل من كفر أو شر، فيعذب بسيئاته. قال ابن عباس: ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله إياه، فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته، ويثيبه بحسناته، وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته.

وما من أحد في الآخرة إلا ويندم؛ إن كان محسناً أن لو ازداد من إحسانه في دنياه، وإن كان مسيئاً أن لو نزع عن السيئة، وكفَّ عن المعصية، قبل أن يلقى وجه ربه، وهذا الندم عند معاينة العذاب[3].

* توصيف المجازاة يوم القيامة بتحديد الذرَّة كمقياس على المحاسبة، رغم أن الذرَّة لا وزن لها بالمفهوم الدنيوي، ولولا أن لها وزناً عند الله تعالى لما جعلها مقياس الحساب، مما يؤكد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأذان، باب رفع الصوت بالنداء، رقم الحديث: ٥٧٤.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٥٩، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٤٩، ١٥٢.

(٣) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٥٩، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٥٠، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٦٥.

مصداقية المجازاة، وعدالة قانون السماء في وفاء كل ذي حق حقه. فكل مَن عمل في الدنيا عملاً يُجزاه في الآخرة جزاءً عادلاً، كبُر أم صغُر، جلَّ أم حقر، عظُم أم هان، ولو كان وزن الذرَّة، يُحصى على ابن آدم ويُجازاه، وهذا منتهى العدل الإلهي، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

قال كعب الأحبار: لقد أنزل الله على محمد ﷺ آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾.

وقال ابن مسعود: هذه أحكم آية في كتاب الله تعالى. واتفق العلماء على عموم هذه الآية[1].

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: كان النبي ﷺ يقول: (يا نساء المسلمات، لا تحقرنَّ جارة لجارتها، ولو فرسن شاة)[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: (يا عائشة، إيَّاكِ ومحقّرات الأعمال فإن لها من الله طالباً)[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب لا تحقرنَّ جارة لجارتها، رقم الحديث: ٥٥٥٨. والفرسن: الظلف، أو الحافر.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، رقم الحديث: ٤٢٣٣، وأحمد في مسنده: رقم الحديث: ٢٣٢٧٩.

سورة العاديات

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ ـ أسماؤها:

اسمها التوقيفي: (سورة العاديات)، وكذا كتبت في المصاحف وكتب التفسير، كما وردت في بعض كتب التفسير: سورة ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ﴾، بإثبات واو القسم.

ووجه التسمية أن الله تعالى افتتحها بالقسم بالعاديات، وهي خيل الجهاد، ولم يرد هذا اللفظ في غير هذه السورة.

ب ـ فضائل السورة:

ورد في فضل قراءتها أحاديث ضعيفة.

وروى ابن جرير بسنده إلى ابن عباس قال: بينما أنا جالس في الحِجْر، جاءني رجل فسألني عن: ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ ﴾، فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويُورون نارهم، فانفتل عني فذهب إلى عليّ بن أبي طالب وهو تحت سقاية زمزم فسأله عنها، فقال: سألتَ عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألتُ ابن عباس فقال: الخيل تغزو في سبيل الله، قال: اذهب فادْعُه لي، فلما وقفتُ عند رأسه، قال: تُفتي الناس بما لا علم لك به، والله لكانتْ أول غزوة في الإسلام لبدر، وما كان معنا إلا فرَسان؛ فرس للزبير وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات ضبحاً، إنما العاديات ضبحاً الإبل من عرفة إلى المزدلفة، ومن

المزدلفة إلى منى، (يعني بذلك أن السورة مكية قبل ابتداء الغزو الذي أوله غزوة بدر)، قال ابن عباس: فنزعت عن قولي، ورجعت إلى الذي قال عليّ.

قال ابن عاشور: وليس في قول عليّ ﷺ تصريح بأنها مكية ولا مدنية[1].

ج- مرحلة النزول:

مكية في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء، ومدنية في قول أنس وقتادة وإحدى الروايتين عن ابن عباس.

وعُدَّت الرابعة عشرة في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، بناءً على أنها مكية، نزلت بعد سورة (العصر)، وقبل سورة (الكوثر)[2].

د- أسباب نزولها:

قال مقاتل: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى حي من كنانة، واستعمل عليهم المنذر بن عمر الأنصاري، فتأخر خبرهم، فقال المنافقون: قتلوا جميعاً، فأخبر الله تعالى عنها، فأنزل: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١﴾، إعلاماً بأن خيلهم قد فعلت جميع ما في تلك الآيات. وهذا الحديث قال السيوطي عنه في الإتقان: رواه الحاكم وغيره.

وقال ابن كثير: روى أبو بكر البزار هنا حديثاً غريباً جداً، وساق الحديث قريباً مما في الواحدي.

قال ابن عاشور: غرابة الحديث لا تناكد قبوله، وهو مروي عن الثقات، إلا أن في سنده حفص بن جميع، وهو ضعيف.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث خيلاً فأسهبت شهراً لم يأته منها خبر، فنزلت: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١﴾ ضبحت بمناخرها، إلى آخر السورة[3].

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٩٨.

(٢) فتح القدير: ٥/ ٤٨١، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٩٧، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٥٣.

(٣) أسباب النزول للواحدي: ص: ٣٣٦، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٩٧.

هـ- عدد آيات سورة (العاديات):

إحدى عشرة آية في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[1].

و- محور سورة (العاديات):

ذمُّ خصال تُفضي بأصحابها إلى الخسران في الآخرة، من جحود للنعم، وبخل لحب الخير، وإهمال الاستعداد ليوم القيامة، وهي خصالٌ غالبة على المشركين والمنافقين، ويراد تحذير المسلمين منها، ووعظ الناس بأن وراءهم حساباً على أعمالهم بعد الموت ليتذكره المؤمن، ويهدد به الجاحد، والإعلام بأن أكثر الخلق يوم الزلزلة هالك لإيثار الفاني من العزِّ والمال على الباقي عند ذي الجلال، المدلول عليه بالقسم والمقسم عليه وما عطف عليه، وقد علم أن اسمها أدلّ شيء على ذلك، لما هدى إليه القسم والمقسَم عليه[2].

ز- المناسبات في سورة (العاديات):

١- المناسبة بين سورة (العاديات) ومحورها:

انصب السياق على ذكر طبيعة الإنسان، فهو كنود يحب المال والمنافع الدنيوية، وذكرت السورة علاج هاتين الصفتين، وذلك يكون بتذكر البعث، وما فيه من تحصيل ما في الأنفس وعلم الله عزَّ وجلَّ بها، إن هذا التذكير هو الذي يحرر الإنسان من كنوده، وحبه الشديد للمال حتى لا يلقى الله عزَّ وجلَّ بأمراضه المخجلة تلك، فإذا علم الإنسان ذلك تحرر من الكفر وأقبل على الإيمان والصلاة والإنفاق، واتباع كتاب الله عزَّ وجلَّ، فلا صارف يصرف عن هذه الأشياء مثل جحود نعم الله عزَّ وجلَّ، وحبه الدنيا، ومن هنا ندرك سياق السورة الخاص وصلتها بمحورها في التحقق بصفات المتقين، إذ هي تحرر الإنسان مما يمنعه من التحقق بصفات المتقين.

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٣٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٩٨، ونظم الدرر في تناسب الآيات والدرر: ٢٢/ ٢١١.

إن الجحود لنعم الله تعالى ينتج عن الكفران الذي لا يرافقه اعتراف ولا عبودية، ومن ثم فلا إيمان ولا صلاة ولا اتباع كتاب. وإن حبَّ المال ينتج عنه حجب الحقوق، وعدم الإنفاق، وينتج عنه قبول الفتنة في أمر الإسلام[1].

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (العاديات) بالقَسَم:

العاديات هي الدواب التي من شأنها أن تجري بغاية السرعة، وهي الخيل التي ظهورها عزّ، وبطونها كنز، وهي لرَجُل وِزر، ولرَجُل آخر أجر، فمَن فاخر بها ونادى بها أهل الإسلام وأبطره عزها حتى قطع الطريق وأخاف الرفيق كانت له شراً، ومَن جعلها في سبيل الله كانت له أجراً، ومَن حمل عليها ولم ينسَ حق الله في رقابها وظهورها كانت له ستراً، وإنما أقسم سبحانه بالعاديات ليتأمل ما فيها من الأسرار الكبار، التي باينت به أمثالها من الدواب، ليعلم أن الذي خصَّها بذلك فاعل مختار، واحد قهار، فالقسم في الحقيقة به سبحانه[2].

وفي إقسام الله تعالى بها بوصف العاديات المغيرات الموريات، إشارة إلى أنه يجب أن تقتنى الخيل لهذه الأغراض والمنافع، لا للخيلاء والزينة، وأن الركوب الذي يُحمد ما يكون لكبح جماح الأعداء، وخضد شوكتهم، وصدِّ عدوانهم. وقصارى ذلك: أن للخيل في عدْوها فوائد لا يحصى عدّها، فهي تصلح للطلب، وتسعف في الهرب، وتساعد جد المساعدة في النجاء، والكرِّ والفرِّ على الأعداء، وقطع شاسع المسافة في الزمن القليل[3].

٣- المناسبة بين افتتاحية سورة (العاديات) وخاتمتها:

لما ذكر العدْو وما يتأثر عنه، ذكر نتيجته وغايته، ولما كان إقدام الإنسان على الظلم عجباً فإذا كان يشهد على نفسه بالظلم كان أعجب، ولما كان من العجائب أن يكفر أحد إحسان

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٤٦.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢١١، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣/ ٢٣٧.

(٣) تفسير المراغي: ٣٠/ ٢٢٣.

المنعم، ذكر الحامل له حتى هان عليه.

وفيه إشعار بأن كل أحد يعرف غاية المعرفة في ذلك أنه سبحانه وتعالى عالم بأحواله لا ذهول له عن شيء من ذلك، كما يقع في هذه الدار من أن الإنسان يعمل أشياء كثيرة، وهو غافل عن أن ربه سبحانه مطلع عليه فيها، ولو نُبِّه لعلم، فلإحاطته سبحانه وتعالى بجميع أحوالهم كان عالماً بأن الإنسان لربه لكنود، وقد رجع آخرها إلى أولها، وتكفل مفصلها بشرح مجملها، والله الهادي للصواب[1].

٤- المناسبة بين افتتاحية سورة (العاديات) وخاتمة ما قبلها:

لما ختم الزلزلة بالجزاء لأعمال الشر يوم الفصل، افتتح هذه ببيان ما يجرُّ إلى تلك الأعمال من الطبع، وما ينجرُّ إليه ذلك الطبع مما يتخيله من النفع، موبخاً مَن لا يستعد لذلك اليوم بالاحتراز التام من تلك الأعمال، معنِّفاً من آثر دنياه على أخراه، مقسماً بما لا يكون إلا عند أهل النِعَم الكبار الموجبة للشكر، فمَن غلب عليه الروح شكر، ومَن غلب عليه الطبع ـ وهم الأكثر ـ كفر.

ولما ذكر الله تعالى فيما قبلها الجزاء على الخير والشر، أتبع ذلك فيها بالحديث عن طبيعة الإنسان وجحوده، ومحبته للمال، وعالج ذلك بتوبيخ الإنسان على جحود نعم ربه، وتعنيت مَن آثر دنياه على آخرته، ولم يستعد للحساب في الآخرة بفعل الخير والعمل الصالح، وترك الشر والعصيان، وفي ذلك حضٌّ على فعل الخير وترك الشر، فالسورة كثيرة الصلات بما قبلها[2].

٥- المناسبة بين مقاطع سورة (العاديات) ومحورها:

تتحدث السورة عن طبيعة الإنسان وأنه جحود، محبٌّ لمصلحته ومنفعته، كما تتحدث

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢١٩.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢١٥، والأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٤٤، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٦٦، وتفسير المراغي: ٣٠/ ٢٢١، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢١٠.

عن غريزته في حبه الشديد للثروة والمال، وهي تعالج هذا المعنى عند الإنسان، بتذكيره بالبعث والحساب، ومعرفة الله تعالى.

كما تتحدث عن سبب الكفر والنفاق، وتعالج ذلك بالتهديد بالعقاب الشديد، وبالحضِّ على فعل الخير والعمل الصالح، ليكون الإنسان من المتقين(١).

٦ـ المناسبة بين مقاطع سورة (العاديات) بعضها مع بعض:

السورة مشوار واحد لاهث صاحب ثائر.. حتى ينتهي إلى هذا القرار.. معنىً ولفظاً وإيقاعاً، على طريقة القرآن(٢).

٧ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (العاديات) وافتتاحية سابقتها:

لا يخفى ما في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ وقوله تعالى هنا: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾من المناسبة والعلاقة على ما سمعت من أن المراد بالأثقال ما في جوفها من الأموات، أو ما يعمهم من الكنوز(٣). فلما ذكر فيما قبلها ما يقتضي تهديداً ووعيداً بيوم القيامة، أتبعه بتعنيفٍ لمن لا يستعد لذلك اليوم، ومَن آثر أمر دنياه على أمر آخرته(٤).

٨ـ المناسبة بين سورة (العاديات) وما بعدها:

تتشابه السورتان تشابهاً كبيراً في وحدة محورهما، إذ العاديات تتحدث عن سبب الكفر والنفاق، وتعالج ذلك ليكون الإنسان من المتقين، وتأتي القارعة لتتحدث عن اليوم الآخر وعما يكون فيه من فلاح لأهل العمل الصالح، ومن عذاب وخسران لأهل الكفر، وهذا مظهر من مظاهر صلتها بسابقتها في معالجة معانٍ سلبية في الإنسان، وذلك مظهر من مظاهر أسباب تعدد

---

(١) الأساس في التفسير: ٢٢/ ٦٦٤٤، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٧٢.
(٢) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٥٩.
(٣) روح المعاني: ٣٠/ ٢١٥.
(٤) البحر المحيط: ١٠/ ٥٢٧.



المجموعات القرآنية، إذ تؤدي كل منها خدمة في مجال التربية والتعليم، والبيان والتفصيل، وهو مدى لا يحاط به، ومن ثم فلا يغني عن ختم القرآن وتكراره شيء، فكل سورة فيها جديد، وكل مجموعة فيها جديد، وكل قسم فيه جديد، وكل ذلك يترك آثاره الخاصة في النفس البشرية[1].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

يقول صاحب الظلال في هذه السورة: (يجري سياق هذه السورة في لمسات سريعة عنيفة مثيرة، ينتقل من إحداها إلى الأخرى قفزاً وركضاً ووثباً، في خفة وسرعة وانطلاق، حتى ينتهي إلى آخر فقرة فيها فيستقر عندها اللفظ والظل والموضوع والإيقاع! كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف!

وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة، القادحة للشرر بحوافرها، المغيرة مع الصباح، المثيرة للنقع وهو الغبار، الداخلة في وسط العدو فجأة تأخذه على غرَّة، وتثير في صفوفه الذعر والفرار! يليه مشهد في النفس من الكنود والجحود والأثرة والشح الشديد!

ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور!

وفي الختام ينتهي النقع المثار، وينتهي الكنود والشح، وتنتهي البعثرة والجمع.. إلى نهايتها جميعاً. إلى الله. فتستقر هناك: ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾..

والإيقاع الموسيقي فيه خشونة ودمدمة وفرقعة، تناسب الجو الصاخب المعفر الذي تنشئه القبور المبعثرة، والصدور المحصَّل ما فيها بشدة وقوة، كما تناسب جو الجحود والكنود والأثرة والشح الشديد.. فلما أراد لهذا كله إطاراً مناسباً، اختاره من الجو الصاخب المعفر كذلك، تثيره الخيل العادية في جريها، الصاخبة بأصواتها، القادحة بحوافرها، المغيرة فجاءة مع الصباح، المثيرة للنقع والغبار، الداخلة في وسط العدو على غير انتظار.. فكان الإطار من الصورة، والصورة من الإطار.

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٥١.



﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾ يقسم الله سبحانه بخيل المعركة، ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري، قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو، مثيرة للنقع والغبار. غبار المعركة على غير انتظار. وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرَّة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب!

إنها خطوات المعركة على ما يألفه المخاطبون بالقرآن أول مرة.. والقسم بالخيل في هذا الإطار فيه إيحاء قوي بحب هذه الحركة والنشاط لها، بعد الشعور بقيمتها في ميزان الله، والتفاته سبحانه إليها؟

وذلك فوق تناسق المشهد مع المشاهد المقسم عليها، والمعقب بها، كما أسلفنا. أما الذي يقسم الله سبحانه عليه، فهو حقيقة في نفس الإنسان، حين يخوى قلبه من دوافع الإيمان. حقيقة ينبهه القرآن إليها، ليجند إرادته لكفاحها، مذ كان الله يعلم عمق وشائجها في نفسه، وثقل وقعها في كيانه: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾..

إن الإنسان ليجحد نعمة ربه، وينكر جزيل فضله. ويتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالاً وأقوالاً، فتقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة. وكأنه يشهد على نفسه بها. أو لعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالكنود والجحود: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ ﴾ يوم ينطق بالحق على نفسه حيث لا جدال ولا محال!

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾ فهو شديد الحب لنفسه، ومن ثم يحب الخير. ولكن كما يتمثله مالاً وسلطة ومتاعاً بأعراض الحياة الدنيا...

هذه فطرته. وهذا طبعه. ما لم يخالط الإيمان قلبه. فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه

واهتماماته. ويحيل كنوده وجحوده اعترافاً بفضل الله وشكراناً. كما يبدل أثرته وشحه إيثاراً ورحمة. ويريه القيم الحقيقية التي تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح. وهي قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيواني بأعراض الحياة الدنيا ..

إن الإنسان ـ بغير إيمان ـ حقير صغير. حقير المطامع، صغير الاهتمامات. ومهما كبرت أطماعه. واشتد طموحه، وتعالت أهدافه، فإنه يظل مرتكساً في حمأة الأرض، مقيداً بحدود العمر، سجيناً في سجن الذات.. لا يطلقه ولا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض، وأبعد من الحياة الدنيا، وأعظم من الذات.. عالم يصدر عن الله الأزلي، ويعود إلى الله الأبدي، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء..

ومن ثم تجيء اللفتة الأخيرة في السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح، لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه. مع عرض مشهد البعث والحشر في صورة تنسي حب الخير، وتوقظ من غفلة البطر:

﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ ﴾؟.. وهو مشهد عنيف مثير. بعثرة لما في القبور. بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير. وتحصيل لأسرار الصدور التي ضنَّت بها وخبأتها بعيداً عن العيون. تحصيل بهذا اللفظ العنيف القاسي.. فالجو كله عنف وشدة وتعفير!

أفلا يعلم إذا كان هذا؟ ولا يذكر ماذا يعلم؟ لأن علمه بهذا وحده يكفي لهز المشاعر. ثم ليدع النفس تبحث عن الجواب، وترود كل مراد، وتتصور كل ما يمكن أن يصاحب هذه الحركات العنيفة من آثار وعواقب!

ويختم هذه الحركات الثائرة باستقرار ينتهي إليه كل شيء، وكل أمر، وكل مصير:

﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾ ﴾.. فالمرجع إلى ربهم. وإنه لخبير بهم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ وبأحوالهم وأسرارهم.. والله خبير بهم في كل وقت وفي كل حال. ولكن لهذه الخبرة ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾

آثار هي التي تثير انتباههم لها في هذا المقام... إنها خبرة وراءها عاقبة. خبرة وراءها حساب وجزاء. وهذا المعنى الضمني هو الذي يلوح به في هذا المقام!

إن السورة مشوار واحد لاهث صاخب ثائر.. حتى ينتهي إلى هذا القرار.. معنى ولفظاً وإيقاعاً، على طريقة القرآن!)[1].

دروس وعبر من سورة (العاديات):

* الحث على الجهاد، والترغيب فيه، والإعداد له، والتزام الحداثة في أساليبه ووسائله، بما يجعل الأمة دائماً في الطليعة إعداداً وتهيؤاً.
* حبُّ المال غريزة فطرية إنسانية، يستجيب المسلم لنوازعها إيجابياً، فيسعى لاستغلالها في توظيف المال بما يخدم مقاصد الدين، ويحقق النفع العام، ويكون عوناً على الطاعة. ويتنزه عن الحب الشديد للمال الذي يجعله جحوداً لنعمة الله تعالى عليه، حريصاً على جمع المال، أسيراً لهواه، شحيحاً بعيداً عن فعل الخير.
* تقرير عقيدة البعث والجزاء والنشور.
* وبَّخ الله تعالى بالعلم التام الأزلي الأبدي الشامل لأحوال مبدأ الإنسان ومعاده، والتوبيخ أو التهديد مدعاة للعقلاء إلى التأمل في المصير المحتوم، والاستعداد للآخرة بزاد التقوى والفضيلة، والبعد عن العصيان والمخالفة والرذيلة. ولا يختلف العلم وقت المجازاة بالأعمال والأقوال والأحوال عن العلم الأزلي لله تعالى بذلك. وإنما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ للتأكيد على شمول العلم في الماضي والحاضر والمستقبل، ولأن الجزاء منوط بالعمل السابق، فيكون تخصيصه دالاً على التذكر وعدم النسيان، وعلى التزام العدل وتوفر العلم وقت الجزاء[2].

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٥٧.

(٢) التفسير المنير: ٣٠/ ٣٧٢.



* القول الراجح أن المراد بالقَسَم الوارد في السورة الخيلُ، وهناك خلاف؛ هل المراد بها خيل الغزاة، أو خيل الحجيج في انطلاقها من عرفات إلى مزدلفة إلى منى، وهو خلاف لا يوقف عنده. فالحج نوع جهاد في سبيل الله، ولا شك أن في القَسَم بالخيل تعظيماً لها، كآلة جهاد، وهذا يجعل المسلم يفكر دائماً بآلات الجهاد[1].

* القَسَم بالخيل لما لها من الخصال الحميدة ما ليس لسائر الدواب، ولأن الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة[2]، ولأنها وسيلة الغزو عند العرب، ولا تكاد تخلو في الأغلب من الخطور ببالهم. والمراد إعلاء شأنها في نفوس المؤمنين، ولِيُعْنَوا بتربيتها، وليتدربوا عليها من أجل الجهاد في سبيل الله، وليعتادوا على معالي الأمور، وظواهر الجد والعمل[3].

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٤٧.

(٢) عن عروة البارقي ﷺ أن النبي ﷺ قال: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر، والمغنم). أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد ماض مع البر والفاجر، رقم الحديث: ٢٦٤٠.

(٣) التفسير المنير: ٣٠/ ٣٧٠.



سورة القارعة

قال الله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

اسمها التوقيفي: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، وهو في اللغة من القرع وهو الضرب، والقارعة النازلة الشديدة، تنزل عليهم بأمر عظيم، وهي من أسماء يوم القيامة، وإنما سميت القيامة بالقارعة، لأنها تقرع القلوب بأهوالها وشدائدها، وبهذا الاسم عُرفت السورة واشتُهرت به، وكُتبت في المصاحف والتفسير وكتب السنة. ووجه التسمية لمفتتحها به، وقد وردت اللفظة في آيتين؛ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ [الحاقة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١].

ب- فضائل السورة:

روى أبو يعلى الموصلي من طرق، عن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام، سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده، ففقد رجلاً من الأنصار في اليوم الثالث، فسأل عنه، فقيل: يا رسول الله، تركناه مثل الفرخ، لا يدخل في رأسه، إلا خرج من دبره، فعاده رسول الله ﷺ، فسأله رسول الله ﷺ مِمَّ ذلك؟ قال: يا رسول الله مررت بك وأنت تصلِّي المغرب، فصلَّيت معك، وأنت تقرأ: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾، إلى آخرها، فقلت: اللهم ما كان من ذنب أنت معذِّبي عليه في الآخرة فعجِّل

لي عقوبته في الدنيا، فتراني كما تراني، قال رسول الله ﷺ: لبئس ما قلت، ألا سألت الله أن يؤتيك في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ويقيك عذاب النار؟ فأمره رسول الله ﷺ بذلك، ودعا له النبي ﷺ، فقام كأنما نشط من عقال. فذكره.

وقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، واتهم به عباد بن كثير. قال الحافظ شهاب الدين البوصيري: لم ينفرد به عباد، بل له طرق، يعني من غير طريقه[1].

ج ـ مرحلة النزول:

هي مكية بإجماع بلا خلاف. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (نزلت سورة القارعة بمكة)[2].

وعُدَّت الثلاثين في عِداد نزول السور، نزلت بعد سورة (قريش)، وقبل سورة (القيامة)[3].

د ـ عدد آيات سورة (القارعة):

ثماني آيات في عدِّ أهل الشام والبصرة، وعشر في عدِّ أهل المدينة وأهل مكة، وإحدى عشرة في عدِّ أهل الكوفة.

واختلافها في ثلاث آيات؛ القارعة الأولى، فقد عدَّها الكوفي دون الباقين، و﴿ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ﴾، و﴿ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ﴾ لم يعدَّهما البصري والشامي، وعدَّهما الباقون[4].

هـ ـ محور سورة (القارعة):

مقصودها: إيضاح يوم الدين، بتصوير ثواني أحواله في مبدئه ومآله، وتقسيم الناس

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣/ ٢٤٠.

(٢) فتح القدير: ٥/ ٤٨٥، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي: ٨/ ٦٠٥.

(٣) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٠٩.

(٤) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٣٩، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٠٩.

فيه إلى ناجٍ وهالك[1]. فقد تناولت السورة وصف أهوال يوم القيامة، وأماراتها، وشدائدها، والتخويفَ منها، وانتشار الناس فيها من قبورهم كالفراش المتطاير، ونسف الجبال، وجعلها كالصوف المنبثِّ المتطاير في الهواء، وختمت السورة بالإخبار عن نصب موازين الحساب، التي توزن بها أعمال العباد، ورجحان كفة المؤمن بتثقيل ميزانه بالحسنات المفضية إلى الجنة، وخِفَّة كفَّة الفاجر بتخفيف ميزانه بالسيئات المفضية إلى النار.

و- المناسبات في سورة (القارعة):

١- المناسبة بين سورة (القارعة) ومحورها:

بيَّنت السورة عاقبة المتقين الذين ثقلت حسناتهم، وعاقبة الكافرين الذين لا يقبل الله عزَّ وجلَّ منهم عملاً، وفي ذلك دعوة للإيمان والتقوى والعمل الصالح، كما أن فيها دعوة للتحرر من الكفر والفجور[2].

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (القارعة):

افتتحت سورة (القارعة) بالحديث عن أهوال القيامة وشدائدها، وعن الساعة التي تبعثر فيها القبور، وعما يكون فيها، ولما كانت تفوق الوصف في عظم شأنها، وجليل سلطانها، عبر عن ذلك وزاده عظماً بالإلهام والإظهار في موضع الإضمار مشيراً بالاستفهام إلى أنها مما يستحق السؤال عنه على وجه التعجيب والاستعظام، فقال: ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ ﴾، وأكد تعظيمها إعلاماً بأنه مهما خطر ببالك من عظمها فهي أعظم منه، فقال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾، أي: وأي شيء أعلمك وإن بالغت في التعرف، وأظهر موضع الإضمار لذلك فقال: ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ ﴾، أي: أنك لا تعرفها، لأنك لم تعهد مثلها[3].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٢٠.

(٢) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٥٣.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٢٠.

٣- المناسبة بين افتتاحية سورة (القارعة) وخاتمتها:

في حين استفتحت السورة بالحديث عن القيامة وأهوالها، والآخرة وشدائدها، وما يكون فيها من أحداث وأهوال عظام، جاءت خاتمة سورة (القارعة) بذكر الموازين التي توزن بها أعمال الناس، وانقسام الخلق إلى سعداء وأشقياء، حسب ثقل الموازين وخفتها، واختتمت بالحديث عن عاقبة مَن رجحت كفَّة سيئاته بالهوي في نار جهنم. ولمَّا هوَّلها بها ذكر، أتبعها ما يمكن البشر معرفته من وصفها، فقال: ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾، أي قد انتهى حرُّها، هذا ما تتعارفونه بينكم، وأما التفاصيل فأمر لا يعلمه إلا الله تعالى، وهذا نهاية (القارعة)، فتلاؤم الأول والآخر واضح جداً وظاهر، والله أعلم[1].

٤- المناسبة بين افتتاحية سورة (القارعة) وخاتمة ما قبلها:

لما ختم السورة السابقة بوصف يوم القيامة والبعث فيه، افتتح هذه السورة بالحديث عن أهوالها المخيفة وصيحتها، فقال: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ ﴾.

ولما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾ ﴾، كان ذلك مظنَّة لأن يُسأل: متى وما ذلك اليوم؟ فقيل: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾[2].

٥- المناسبة بين مقاطع سورة (القارعة) بعضها مع بعض:

لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ ﴾ بلا خبر ولا صفة، لتلقي بظلالها وجرسها الإيحاء المدوِّي المرهوب! ثم أعقبها سؤال التهويل: ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ ﴾ فهي الأمر المستهول الغامض، الذي يثير الدهش والتساؤل! ثم أجاب بسؤال التجهيل، فقال:

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٢٤.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٧٠، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٢٠، والبحر المحيط: ١٠/ ٥٣٢.



﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾؟ فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك، وأن يلمَّ بها التصور، ثم الإجابة بما يكون فيها، لا بماهيَّتِها، فماهيَّتُها فوق الإدراك والتصور...[1].

٦ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (القارعة) وافتتاحية سابقتها:

تقاربت الافتتاحية في السورتين بتوافق مناسبتيهما، وتماثل موضوعهما، وتشابه محوريهما، فكما استعرضت العاديات في افتتاحيتها طبيعة الإنسان، وجحوده المفضي إلى الخسران والبوار في النار، تناولت القارعة في افتتاحيتها الحديث عن أهوال القيامة وشدائدها، لتنبه إلى الحساب والميزان، وبيان أحوال الناس في الآخرة بين سعيد وشقي، ومآل كل منهما وجزائه. والتحذير من النتيجة الخاسرة بالهويِّ في النار الحامية. فكلتاهما شديد الصلة بالأخرى مناسبة وموضوعاً ومحوراً.

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (القارعة: القيامة. كالطامَّة، والصاخَّة، والحاقَّة، والغاشية. والقارعة توحي بالقرع واللطم، فهي تقرع القلوب بهولها. والسورة كلها عن هذه القارعة؛ حقيقتها، وما يقع فيها، وما تنتهي إليه، فهي تعرض مشهداً من مشاهد القيامة. والمشهد المعروض هنا مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال، فيبدو الناس في ظله صغاراً ضئالاً على كثرتهم: فهم ﴿ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴾ مستطارون مستخفون في حيرة الفراش الذي يتهافت على الهلاك، وهو لا يملك لنفسه وجهة، ولا يعرف له هدفاً! وتبدو الجبال التي كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش، تتقاذفه الرياح، وتعبث به حتى الأنسام! فمن تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة، فيتسق الظلُّ الذي يلقيه اللفظ، والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها، مع آثار القارعة في الناس والجبال سواء! وتلقي إيحاءها للقلب والمشاعر، تمهيداً لما ينتهي إليه المشهد من حساب وجزاء!

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٠.

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾؟.. لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ بلا خبر ولا صفة. لتلقي بظلها وجرسها الإيحاء المدوي المرهوب!

ثم أعقبها سؤال التهويل: ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ ﴾.. فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل!

ثم أجاب بسؤال التجهيل: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾.. فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك، وأن يلم بها التصور!

ثم الإجابة بما يكون فيها، لا بماهيتها. فماهيتها فوق الإدراك والتصور كما أسلفنا: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾.

هذا هو المشهد الأول للقارعة. مشهد تطير له القلوب شعاعاً، وترجف منه الأوصال ارتجافاً. ويحس السامع كأن كل شيء يتشبث به في الأرض قد طار حوله هباء! ثم تجيء الخاتمة للناس جميعاً:

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾. وثقل الموازين وخفتها تفيدنا: قيماً لها عند الله اعتبار، وقيماً ليس لها عنده اعتبار. وهذا ما يلقيه التعبير بجملته، وهذا - والله أعلم - ما يريده الله بكلماته. فالدخول في جدل عقلي ولفظي حول هذه التعبيرات هو جفاء للحس القرآني، وعبث ينشئه الفراغ من الاهتمام الحقيقي بالقرآن والإسلام!

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ ﴾ في اعتبار الله وتقويمه ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾.. ويدعها مجملة بلا تفصيل، توقع في الحس ظلال الرضى وهو أروح النعيم.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ في اعتبار الله وتقويمه ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾.. والأم هي مرجع الطفل وملاذه. فمرجع القوم وملاذهم يومئذ هو الهاوية! وفي التعبير

أناقة ظاهرة، وتنسيق خاص. وفيه كذلك غموض يمهد لإيضاح بعده يزيد في عمق الأثر المقصود:

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ ﴾.. سؤال التجهيل والتهويل المعهود في القرآن، لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك!

ثم يجيء الجواب كنبرة الختام: ﴿ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴿١١﴾ ﴾.. هذه هي أم الذي خفت موازينه! أمه التي يفيء إليها ويأوي! والأم عندها الأمن والراحة. فماذا هو واجد عند أمه هذه.. الهاوية.. النار.. الحامية!!

إنها مفاجأة تعبيرية تمثل الحقيقة القاسية!)[1].

ويقول صاحب روح المعاني: ومناسبتها لما قبلها أظهر من أن تذكر[2].

دروس وعبر من سورة (القارعة):

* تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر صورة صادقة لها.
* التحذير الشديد من أهوال يوم القيامة، وعذاب الله تعالى فيها، فالقيامة ذات أهوال وشدائد ومخاوف تهزُّ القلوب وتقرع الأسماع، لا يعلم أحد بكنهها، لأنها في الشدة بحيث لا يتصورها عقل أحد. قال مقاتل: إنها تقرع أعداء الله بالعذاب، وأما أولياؤه فهم من الفزع آمنون.
* تقرير عقيدة وزن الأعمال صالحها وفاسدها، وترتيب الجزاء عليها. فالناس يوم القيامة فريقان؛ بحسب ثقل موازين أعمالهم وخِفَّتها. فمَن رجحت حسناته على سيئاته فهو في الجنة في عيشة راضية، ومَن رجحت سيئاته على حسناته فهو في نار حامية شديدة الحرارة.

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٠.
(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢٢٠.



* ورد ذكر الميزان للأعمال يوم القيامة في القرآن كثيراً. وقال ابن العربي في القواصم: لم يرد حديث صحيح في الميزان، والمقصود عدم فوات شيء من الأعمال، والله قادر على أن يجعل ذلك يوم القيامة بآلة، أو بعمل الملائكة، أو نحو ذلك[1].

* في قوله تعالى: ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ أي حارة شديدة الحر، قوية اللهب والسعير، إشارة إلى أن سائر النيران بالنسبة إلى نار الآخرة غير حامية، وهذا القدر كاف في التنبيه على قوة سخونتها. وفي وصف النار الحامية عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حرِّ جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرِّها)[2].

* وصف يوم القيامة بأمرين:

الأول: كون الناس فيه كالفراش المنتشر المتفرق، وهو الحيوان الذي يتهافت في النار.

الثاني: صيرورة الجبال فيه كالصوف ذي الألوان، المندوف، الذي ينفش بعضه عن بعض.

ويلاحظ أن الله تعالى وصف تغير الأحوال على الجبال من وجوه ستة:

أولها: الاندكاك، وهي أن تصير قطعاً، كما قال تعالى: ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ [الحاقة: ١٤].

وثانيها: أن تصير كالعهن المنفوش، وهي أجزاء كالذرِّ الداخل من النافذة، كما في هذه السورة: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾.

ومثله قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾ [المعارج: ٨-٩].

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٣.

(٢) وفي رواية: (كلهنَّ مثل حرِّها). أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حرِّ نار جهنم وبُعد قعرها، رقم الحديث: ٥٠٧٧.

وثالثها: أن تصير كالهباء، وذلك أن تتقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن، كما في قوله تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ [الواقعة:٤-٦].

ورابعها: أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارَّة في مواضعها، والأرض تحتها غير بارزة، فتنسف عنها بإرسال الرياح عليها، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [طه: ١٠٥].

وخامسها: أن تصير كثيباً مهيلاً، فترفعها الرياح عن وجه الأرض فتطيرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار، فمَن نظر إليها من بُعد حسِبَها لتكاثفها أجساماً جامدة، وهي في الحقيقة مارَّة إلا أن مرورها بسبب مرور الرياح بها، فصارت منكدة متفتتة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨]، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ [المزمل: ١٤].

وسادسها: أن تصير سراباً، بمعنى لا شيء، فمَن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً، كما أن من يرى السراب من بُعْد إذا جاء الموضع الذي كان يراه فيه لم يجده شيئاً، كما قال تعالى: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [النبأ: ٢٠][1].

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٧٢، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٧٩.



سورة التكاثر

قال الله تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: أسماؤها التوقيفية:

١- تسمى سورة (التكاثر)، وهي ما عنونت له المصاحف وكتب التفسير والترمذي في جامعه، ووجه التسمية لافتتاحها بالحديث عن التكاثر.

٢- وتسمى سورة ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾، وقد جاءت في بعض أحاديث فضائل القرآن -كما سيأتي- كما جاءت في كلام ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت بمكة سورة ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾. وكذا ترجم لها البخاري في صحيحه، والحاكم في مستدركه، ووجه التسمية لافتتاح أول آية فيها بقوله: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾. وعدّه السخاوي الاسم الآخر لسورة التكاثر.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١- وسماها الطبري في تفسيره سورة ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾، دون تتمة الآية.

٢- وتسمى سورة (المقبرة)، وقد سماها الآلوسي في تفسيره، واستند إلى ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال قال: وكان أصحاب رسول الله ﷺ يسمونها (المقبرة)، ولم يعلل تسميتها، ولعل وجه التسمية بهذا الاسم لورود لفظ (المقابر) فيها، فسُمِّيت بمفردها (المقبرة)، وهو اسم اجتهادي من الصحابة رضوان الله عليهم، ولم يثبت عن رسول الله ﷺ.

ب ـ فضائل السورة:

عن مطرف عن أبيه قال: (أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ قال: يقول ابن آدم: مالي، مالي، قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت)[1]. وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (يقول العبد مالي، مالي إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس)[2]. وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على مَن تاب. (قال الراوي:) وقال لنا أبو الوليد: حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن أبيّ قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾)[3]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية كل يوم؟ قالوا: ومَن يستطيع أن يقرأ ألف آية؟ قال: أما يستطيع أحدكم أن يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾)[4].

ونقل الآلوسي عن ناصر الدين بن المليق في سرِّ ذلك أن القرآن ستة آلاف ومئتا آية وكسر، فإذا تركنا الكسر كان الألف سدس القرآن، وهذه السورة تشتمل على سدس من مقاصد القرآن، فإنها على ما ذكره الغزالي ستة: ثلاثة مهمة؛ وهي تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم، وتعريف الحال عند الرجوع إليه عزَّ وجلَّ، وثلاثة متمَّة؛ وهي تعريف أحوال المطيعين، وحكاية أقوال الجاحدين، وتعريف منازل الطريق، وأحدها معرفة الآخرة المشار إليه بتعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى المشتمل عليه السورة. والتعبير على هذا المعنى بألف آية

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الزهد، رقم الحديث: ٥٢٥٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الزهد، رقم الحديث: ٥٢٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال: ١/ ٧٥٥٥، رقم الحديث: ٥٩٥٩.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب فضائل القرآن، ذكر فضائل سور وآي متفرقة: ١/ ٥٦٧، رقم الحديث: ٢٠٨١. وأخرجه البيهقي في الشعب، باب في تعظيم القرآن، فصل في فضائل السور والآيات، رقم الحديث: ٢٥١٨

أفخم وأجلُّ من التعبير بالسدس. انتهى. ومناسبتها لما قبلها ظاهرة[1].

ج- مرحلة النزول:

هي مكية عند الجمهور. قال ابن عطية: هي مكية لا أعلم فيها خلافاً[2]، ومما يؤكد ذلك تكرار لفظ ﴿ كَلَّا ﴾، وهي من أمارات المكي من القرآن. وقد عُدَّت السادسة عشرة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة (الكوثر)، وقبل سورة (الماعون)، بناءً على أنها مكية[3].

د- أسباب نزولها:

أخرج ابن جرير عن علي قال: كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن بريدة قال: نزلت في قبيلتين من الأنصار في بني حارثة وبني الحارث، تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان ومثل فلان؟ يشيرون إلى القبر، وتقول الأخرى مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ ﴾[4].

وقال مقاتل والكلبي: نزلت في حيَّيْن من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم، كان بينهما لحاً، فتعاند السادة والأشراف أيهم أكثر، فقال بنو عبد مناف: نحن أكثر سيداً وعزاً وعزيزاً وأعظم نفراً، وقال بنو سهم مثل ذلك، فكثَّرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا: نعدُّ موتانا، حتى زاروا القبور، فعدُّوا موتاهم، فكثَّرهم بنو سهم، لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية.

---

(١) روح المعاني: ٣٠/ ٢٢٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣٠/ ١٦٨، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٧، والمحرر الوجيز: ١٥/ ٥٥٦.

(٣) فتح القدير: ٥/ ٤٨٧، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٨.

(٤) لباب النقول للسيوطي: ص: ٣٠٧.

وقال قتادة: نزلت في اليهود، قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضُلالاً[1].

هـ. عدد آيات سورة (التكاثر):

ثماني آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[2].

و. محور سورة (التكاثر):

ذمُّ الاشتغال بمظاهر الحياة الدنيا؛ فقد اشتملت على التوبيخ على اللهو عن النظر في دلائل القرآن، ودعوة الإسلام، من خلال إيثار المال والتكاثر به، والتفاخر بالأسلاف، وعدم الإقلاع عن ذلك إلى أن يصيروا في القبور، كما صار مَن كان قبلهم، وعلى الوعيد على ذلك. وحثهم على التدبر فيما ينجيهم من الجحيم، وأنهم مبعوثون ومسؤولون عن أعمالهم، وإهمال شكر المنعم العظيم[3].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال أبو القاسم ﷺ: (والذي نفس محمد بيده، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً، ولضحكتم قليلاً)[4].

ز. المناسبات في سورة (التكاثر):

١. المناسبة بين سورة (التكاثر) ومحورها:

جاءت سورة (التكاثر) لتحدثنا عن انشغال الكثير من الخلق بالدنيا، ولم تحدد السورة هذا الانشغال عن ماذا، بل حددت بماذا، والسياق يعرِّفنا عن ماذا كان الانشغال، ومحور

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ص: ٣٣٧.

(٢) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٠.

(٣) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، رقم الحديث: ٦١٤٦.

السورة يحدده كذلك، وهو الانشغال عن عبادة الله عزَّ وجلَّ وتقواه، وهذا أول مظاهر صلة سورة (التكاثر) بمحورها، وتنتهي سورة (التكاثر) بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾، وقد رأينا أن آية المحور حدثتنا عن نعم الله تعالى علينا، وطالبتنا بناءً على ذلك بالعبادة والتقوى والتوحيد، ولكن كثيرين لا يفعلون ذلك، فهم يتنعمون ولا يشكرون، ومن ثم أنذرت سورة (التكاثر) بأن السؤال عن النعيم كائن، وهذا كذلك من مظاهر صلة سورة (التكاثر) بمحورها[1].

٢ـ المناسبة في افتتاحية سورة (التكاثر):

التذكير بالموت والقبر والحساب، وزجر الغافلين والعابثين، وتذكيرهم بيوم الدين، وأنه لن ينقذهم من النار جاه ولا سلطان، ولن ينفعهم سوى العمل الصالح.

٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (التكاثر) وخاتمتها:

استفتحت السورة بالحديث عن انشغال الناس بمغريات الحياة، وتكالبهم على جمع حطام الدنيا، حتى يقطع الموت عليهم متعهم، ويأتيهم فجأة وبغتة، فينقلهم من القصور إلى القبور. وختمت السورة ببيان المخاطر والأهوال التي سيلقونها في الآخرة، والتي لا يجوزها ولا ينجو منها إلا المؤمن الذي قدَّم صالح الأعمال، مدركين أن الدار الآخرة خير وأبقى.

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (التكاثر) وخاتمة ما قبلها:

لما أثبت في (القارعة) أمر الساعة، وذكر أهوال يوم القيامة، فذمَّ اللاهين والمنشغلين عنها، وقسم الناس فيها إلى فريقين؛ شقي وسعيد، وختم بالشقي، افتتح هذه السورة بعلَّة الشقاوة، ومبدأ الحشر، لينزجر السامع عن هذا السبب، ليكون من القسم الأول. فقال ما حاصله: انقسمتم فكان قسم منكم هالكاً، لأنه ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾[2].

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٥٨.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٢٥، والفتوحات الإلهية: ٤/ ٥٨٠.

٥- المناسبة بين مقاطع سورة (التكاثر) بعضها مع بعض:

تكرر في هذه السورة الزجر والإنذار ثلاث مرات بلفظ: ﴿ كَلَّا ﴾، تخويفاً للناس، وتنبيهاً لهم على خطئهم، باشتغالهم بالفانية عن الباقية. كما تكرر الإخبار عن معاينة النار ورؤيتها بلفظ: ﴿ ثُمَّ ﴾، مع استعمال المضارع المؤكد بالنون المثقّلة ثلاثاً: ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾، ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾ ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ ﴾.

٦- المناسبة بين افتتاحية سورة (التكاثر) وافتتاحية سابقتها:

استفتحت سورة (القارعة) بالحديث عن بعض أهوال يوم القيامة ومشاهدها، وجزاء السعداء في الجنة، وجزاء الأشقياء في النار، ثم استفتح في هذه السورة ببيان علة استحقاق النار، وهو الانشغال بالدنيا عن الدين، واقتراف الآثام، وهددت بالمسؤولية في الآخرة عن أعمال الدنيا.

٧- المناسبة بين سورة (التكاثر) وما بعدها:

لما ذكر في سورة (التكاثر) تهالك الناس على حطام الدنيا الفاني، وتهافتهم على الانشغال بها عن الآخرة دار البقاء، كان ذلك مناسباً لتهيئة المؤمنين بما يحقق لهم السعادة والصلاح، فكان التذكير بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالخير والصبر كعلامات لفلاح المؤمن ونجاحه وبعده عن الخسران والهلاك.

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (هذه السورة ذات إيقاع جليل رهيب عميق، وكأنما هي صوت نذير، قائم على شرف عال، يمدُّ بصوته ويدوِّي بنبرته، يصيح بنُوَّم غافلين مخمورين سادرين، أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة، وحسُّهم مسحور، فهو يمدّ بصوته إلى أعلى وأبعد ما يبلغ.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ أيها السادرون المخمورون. أيها اللاهون

المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة وأنتم مفارقون، أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه، أيها التاركون ما تتكاثرون فيه وتتفاخرون إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر.. استيقظوا وانظروا.. فقد ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ ﴾.

ثم يقرع قلوبهم بهول ما ينتظرهم هناك بعد زيارة المقابر في إيقاع عميق رزين:

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾.. ويكرر هذا الإيقاع بألفاظه وجرسه الرهيب الرصين:

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾. ثم يزيد التوكيد عمقاً ورهبة، وتلويحاً بما وراءه من أمر ثقيل، لا يتبينون حقيقته الهائلة في غمرة الخمار والاستكثار:

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ ﴾.. ثم يكشف عن هذه الحقيقة المطوية الرهيبة:

﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ﴾.. ثم يؤكد هذه الحقيقة ويعمق وقعها الرهيب في القلوب:

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾ ثم يلقي بالإيقاع الأخير، الذي يدع المخمور يفيق، والغافل يتنبه، والسادر يلتفت، والناعم يرتعش ويرتجف مما في يديه من نعيم!

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ لتسألن عنه من أين نلتموه؟ وفيم أنفقتموه؟ أمن طاعة وفي طاعة؟ أم من معصية وفي معصية؟ أمن حلال وفي حلال؟ أم من حرام وفي حرام؟ هل شكرتم؟ هل أديتم؟ هل استأثرتم؟

﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ ﴾ عما تتكاثرون به وتتفاخرون.. فهو عبء تستخفونه في غمرتكم ولهوكم، ولكن وراءه ما وراءه من هم ثقيل!

إنها سورة تعبر بذاتها عن ذاتها، وتلقي في الحس ما تلقي بمعناها وإيقاعها. وتدع القلب مثقلاً مشغولاً بهَمِّ الآخرة عن سفاسف الحياة الدنيا وصغائر اهتماماتها التي يهش لها الفارغون!

إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويل: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ ﴾، وتنتهي ومضة الحياة الدنيا، وتنطوي صفحتها الصغيرة.. ثم يمتد الزمن

بعد ذلك وتمتد الأثقال؛ ويقوم الأداء التعبيري ذاته بهذا الإيحاء. فتتسق الحقيقة مع النسق التعبيري الفريد.. وما يقرأ الإنسان في هذه السورة الجليلة الرهيبة العميقة، بإيقاعاتها الصاعدة الذاهبة في الفضاء إلى بعيد في مطلعها، الرصينة الذاهبة إلى القرار العميق في نهايتها.. حتى يشعر بثقل ما على عاتقه من أعقاب هذه الحياة الوامضة التي يحياها على الأرض، ثم يحمل ما يحمل منها، ويمضي به مثقلاً في الطريق! ثم ينشئ يحاسب نفسه على الصغير والزهيد!)[1].

دروس وعبر من سورة (التكاثر):

* التحذير من جمع المال وتكثيره مع عدم شكره، وترك طاعة الله تعالى ورسوله من أجله.
* إثبات عذاب القبر وتأكيده، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾، أي ما ينزل بكم من العذاب في القبر، ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾، أي في الآخرة إذا حلَّ بكم العذاب.

وأخرج الترمذي وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن عليٍّ ﷺ قال: (ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ ﴾)[2].

قال القرطبي: فتضمنت السورة القول في عذاب القبر، والإيمان به واجب، والتصديق به لازم، حسبما أخبر به الصادق، وأن الله تعالى يحيي العبد المكلَّف في قبره، بردِّ الحياة إليه، ويجعل له من العقل في مثلِ الوصف الذي عاش عليه، ليعقل ما يُسأل عنه، وما يجيب به ويفهم ما أتاه من ربه، وما أُعِدَّ له في قبره من كرامة وهوان. وهذا هو مذهب أهل السنَّة، والذي عليه الجماعة من أهل الملَّة[3].

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٢.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ ﴾، رقم الحديث: ٣٢٧٨. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٧٠، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٨٨.

* تقرير عقيدة البعث، وحتمية الجزاء يوم القيامة، بعد الحساب والاستنطاق والاستجواب.
* حتمية سؤال العبد عن النعم التي أنعم الله تعالى عليه بها في الدنيا، فإن كان شاكراً لها فاز، وإن كان كافراً لها أُخِذ، والعياذ بالله تعالى. وسؤال المؤمن سؤال تشريف لأنه شكَر، وسؤال الكافر سؤال توبيخ لأنه ترك الشكر.

وقد استعرض القرطبي أشهر أقوال أهل التأويل في النعيم، فعدَّ منها: الأمن، والصحة، والفراغ، والإدراك بحواس السمع والبصر، وملاذ المأكول والمشروب، والغداء والعشاء وشِبع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخُلق، ولذة النوم، وصحة البدن، وطيب النفس، والنوم مع الأمن والعافية، وجِلْف الخبز. وقال محمد بن كعب: النعيم هو ما أنعم الله علينا بمحمد ﷺ. وقال الحسن: هو تخفيف الشرائع، وتيسير القرآن[1].

* لم يأتِ في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة، وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي لأنها تذكِّر الموت والآخرة، وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها.

فعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها فإنها تذكر الآخرة)[2]. قال الترمذي: وفي الباب عن أبي سعيد وابن مسعود وأنس وأبي هريرة وأم سلمة. قال الترمذي: حديث بريدة حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم لا يرون بزيارة القبور بأساً، وهو قول ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحق. وعن أبي هريرة ﷺ: (أن رسول الله ﷺ لعن

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٧٦، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٨٨.
(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب الجنائز، باب ما جاء في الرخصة في زيارة القبور، رقم الحديث: ٩٧٤.

زوَّارات القبور). قال: وفي الباب عن ابن عباس وحسان بن ثابت. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخِّص النبي ﷺ في زيارة القبور، فلما رخَّص دخل في رخصته الرجال والنساء، وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهن، وكثرة جزعهن)[1].

قال القرطبي: زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، مختلف فيه للنساء؛ أما الشوابّ فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد الكبيرات فمباح لهن ذلك، وجائز لجميعهن إذا انفردن بالخروج عن الرجال، ولا يُختلف في هذا إن شاء الله، وعلى هذا المعنى يكون قوله: (زوروا القبور) عاماً. وأما موضعٌ أو وقتٌ يُخشى فيه من الفتنة من اجتماع الرجال والنساء فلا يحل ولا يجوز[2].

(١) جامع الترمذي: كتاب الجنائز، باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء، رقم الحديث: ٩٧٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٧٠، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٨٨.

سورة العصر

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ ـ أسماؤها:

اسمها التوقيفي: سورة ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ ﴾. وبه سمِّيت في المصاحف ومعظم كتب التفسير، وسمِّيت في بعضها سورة ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ ﴾ بإثبات الواو، على حكاية أول كلمة فيها أي سورة هذه الكلمة، ووجه التسمية بالعصر لقسم الله تعالى به في مطلعها.

والعصر هو الدهر. قال البقاعي: واسمها ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ ﴾ واضح في ذلك، فإن العصر يخلص روح المعصور، ويميز صفاوته، ولذلك كان وقت هذا النبي الخاتم، الذي هو خلاصة الخلق ﷺ وقت العصر، وكانت صلاة العصر أفضل الصلوات[1].

ب ـ فضائل السورة:

أخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب عن أبي حذيفة ـ وكانت له صحبة ـ قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ ﴾ إلى آخرها، ثم يسلِّم أحدهما على الآخر.

قال الشافعي رحمه الله تعالى: لو تدبَّر الناس هذه السورة لوسعتهم، ولو لم ينزل إليهم إلا هي لكفتهم، لأنها شملت جميع علوم القرآن. وقال الآلوسي: وهي على قصرها جمعت من

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣/ ٢٤٦.

العلوم ما جمعت[1].

ج. مرحلة النزول:

مكية في قول جمهور المفسرين، وعن قتادة ومجاهد ومقاتل أنها مدنية. وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقد عُدَّت الثالثة عشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة (الانشراح)، وقبل سورة (العاديات)[2].

د. عدد آيات سورة (العصر):

ثلاث آيات في جميع العدد، واختلافها في آيتين: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١﴾، لم يعدَّها المدني الأخير وعدَّها الباقون، ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾، عدَّها المدني الأخير، ولم يعدَّها الباقون[3]. وهي إحدى سور ثلاث هنَّ أقصر سور القرآن عدد آيات؛ هي، و(الكوثر)، و(النصر).

هـ. محور سورة (العصر):

جاءت السورة في غاية من الإيجاز والبيان، لتوضح رسالة الحياة، وسبب سعادة الإنسان أو شقاوته، ونجاحه في هذه الحياة أو خسرانه ودماره. وقد تحدثت عن جنس الإنسان أنه في خسران شديد إلا من اتصف بصفات أربع، وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق والاعتصام بالصبر، وهي أسس الفضيلة، وأساس الدين[4].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٣٤، وروح المعاني: ٣٠/ ٢٢٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٥٤٢.

(٢) فتح القدير: ٥/ ٤٩١، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٢٧.

(٣) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٢.

(٤) صفوة التفاسير: ٣/ ٦٠٠.



و- المناسبات في سورة (العصر):

١- المناسبة بين سورة (العصر) ومحورها:

تحدثت سورة (العصر) عن المتقين المفلحين بتفصيل جديد: إذ تبدأ بالقَسَم على أن جنس الإنسان في خسر، إلا من اتصف بأربع صفات: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، فهي تفصيل للتقوى، ولأخلاق المتقين المتصفين بالفلاح. فالقرآن حق يجب التواصي به، والقرآن أمر بالصبر، فسورة (العصر) أبرزت أن مما يدخل في الاهتداء بكتاب الله تعالى التواصي بالحق، والتواصي بالصبر. ففي التفصيل الجديد تحديد وبيان[1].

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (العصر) بالقَسَم:

مناسبة القَسَم بالعصر لغرض السورة على إرادة عصر الإسلام ظاهرة، فإنها بيَّنت حال الناس في عصر الإسلام بين مَن كفر به، ومَن آمن واستوفى حظه من الأعمال التي جاء بها الإسلام، ويُعرف منه حال مَن أسلموا وكان في أعمالهم تقصير متفاوت، أما أحوال الأمم التي كانت قبل الإسلام فكانت مختلفة بحسب مجيء الرسل إلى بعض الأمم، وبقاء بعض الأمم بدون شرائع متمسكة بغير دين الإسلام من الشرك، أو بدين جاء الإسلام لنسخه مثل اليهودية والنصرانية. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥][2].

٣- المناسبة بين افتتاحية سورة (العصر) وخاتمتها:

أقسم بصلاة العصر لفضلها، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾، وهي العصر ولأن التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعايشهم، أو أقسم بالعشي كما أقسم بالضحى، لما فيها من دلائل القدرة، أو أقسم بالزمان لما

---

(١) الأساس في التفسير: ١/ ٦٦٦٨.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٣٢.



في مروره من أصناف العجائب.

والذي رجحه ابن كثير هو القول الأخير، ففسَّر العصر بأنه الزمان الذي تقع فيه حركات بني آدم من خير وشر[1].

٤. المناسبة بين افتتاحية سورة (العصر) وخاتمة ما قبلها:

الصلة بين السورتين واضحة؛ فلما بيَّن في السورة المتقدمة أن الاشتغال بأمور الدنيا والتهالك عليها مذموم، فلما بيَّن ذلك في السورة السابقة، ووقع التهديد بتكرار: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ أراد أن يبيِّن في هذه السورة حال المؤمن والكافر، فبيَّن جنس الإنسان في خسران، إلا من اتصف بصفات أربع، فكأنه يحدِّثنا عن طريق النجاة وما يجب الاشتغال به من الإيمان والأعمال الصالحات، وهو ما يعود على النفس، ومن التواصي بالخيرات، وكفِّ النفس عن المناهي أو المعاصي، وهو ما يعود إلى المجتمع.

قال الآلوسي: فيها إشارة إلى حال مَن لم يُلهِه التكاثر، ولذا وضعت بعد سورته[2].

٥. المناسبة بين مقاطع سورة (العصر) ومحورها:

تضمنت هذه الآيات حكماً، ومحكوماً عليه، ومحكوماً به، فالحكم هو ما حكم الله تعالى به على الإنسان كل الإنسان من النقص والخسران، والمحكوم عليه هو الإنسان ابن آدم، والمحكوم به هو الخسران لمن لم يؤمن ويعمل صالحاً، والربح والنجاة من الخسران لمن آمنوا، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر[3].

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٧٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٥٢٤، والبحر المحيط: ١٠/ ٥٣٨.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢٢٧، والأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٦٨.

(٣) أيسر التفاسير: ٥/ ٦١٢.

٦ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (العصر) وافتتاحية سابقتها:

لما قال تعالى: ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ ﴾، وتضمن ذلك الإشارة إلى قصور الإنسان وحصر إدراكه في العاجل دون الآجل الذي فيه فوزه وفلاحه، وذلك لبعده عن العلم بموجب الطبع، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾، أخبر سبحانه أن ذلك شأن الإنسان بما هو إنسان، فقال: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ ﴾، فالقصور شأنه، والظلم طبعه، والجهل جبلَّته، فيحق أن يلهيه التكاثر، ولا يدخل الله عليه روح الإيمان: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ هؤلاء الذين ﴿ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾[1].

٧ـ المناسبة بين سورة (العصر) وما بعدها:

رأينا أن سورة (العصر) ذكرت أن جنس الإنسان في خسر إلا مَن اتصف بصفات معينة، وتأتي سورة (الهمزة) لتحدد صفات الخاسرين، ومظهر خسارتهم، وهكذا تبدو الصلة واضحة بين السورتين. قال الآلوسي: لما ذكر سبحانه فيما قبلها أن الإنسان ـ سوى مَن استثنى ـ في خسر، بيَّن فيها أحوال بعض الخاسرين[2].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (في هذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام. وتبرز معالم التصور الإيماني بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة. إنها تضع الدستور الإسلامي كله في كلمات قصار. وتصف الأمة المسلمة: حقيقتها ووظيفتها. في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة.. وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله..

والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي هذه:

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٣٧.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢٢٩.



إنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار، وامتداد الإنسان في جميع الأدهار، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح، وطريق واحد ناج. هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده، وهو هذا الطريق الذي تصف السورة معالمه. وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار..

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾. إنه الإيمان. والعمل الصالح. والتواصي بالحق. والتواصي بالصبر..

فما الإيمان؟؟

نحن لا نعرِّف الإيمان هنا تعريفه الفقهي; ولكننا نتحدث عن طبيعته وقيمته في الحياة.

إنه اتصال هذا الكائن الإنساني الفاني الصغير المحدود بالأصل المطلق الأزلي الباقي الذي صدر عنه الوجود. ومن ثم اتصاله بالكون الصادر عن ذات المصدر، وبالنواميس التي تحكم هذا الكون، وبالقوى والطاقات المذخورة فيه. والانطلاق حينئذ من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير. ومن حدود قوته الهزيلة إلى عظمة الطاقات الكونية المجهولة. ومن حدود عمره القصير إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله.

وفضلاً عما يمنحه هذا الاتصال للكائن الإنساني من قوة وامتداد وانطلاق، فإنه يمنحه إلى جانب هذا كله متاعاً بالوجود وما فيه من جمال، ومن مخلوقات تتعاطف أرواحها مع روحه. فإذا الحياة رحلة في مهرجان إلهي مقام للبشر في كل مكان وفي كل أوان... وهي سعادة رفيعة، وفرح نفيس، وأنس بالحياة والكون كأنس الحبيب بالحبيب. وهو كسب لا يعدله كسب. وفقدانه خسران لا يعدله خسران...

ثم إن مقومات الإيمان هي بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة...

التعبد لإله واحد، يرفع الإنسان عن العبودية لسواه، ويقيم في نفسه المساواة مع جميع العباد، فلا يذلُّ لأحد، ولا يحني رأسه لغير الواحد القهار.. ومن هنا الانطلاق التحرري

الحقيقي للإنسان. الانطلاق الذي ينبثق من الضمير ومن تصور الحقيقة الواقعة في الوجود. إنه ليس هناك إلا قوة واحدة، وإلا معبود واحد. فالانطلاق التحرري ينبثق من هذا التصور انبثاقاً ذاتياً، لأنه هو الأمر المنطقي الوحيد.

والربانية التي تحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان تصوراته وقيمه وموازينه واعتباراته وشرائعه وقوانينه، وكل ما يربطه بالله، أو بالوجود، أو بالناس. فينتفي من الحياة الهوى والمصلحة، وتحل محلهما الشريعة والعدالة. وترفع من شعور المؤمن بقيمة منهجه، وتمده بالاستعلاء على تصورات الجاهلية وقيمها واعتباراتها، وعلى القيم المستمدة من الارتباطات الأرضية الواقعة.. ولو كان فرداً واحداً، لأنه إنما يواجهها بتصورات وقيم واعتبارات مستمدة من الله مباشرة فهي الأعلى والأقوى والأولى بالاتباع والاحترام.

ووضوح الصلة بين الخالق والمخلوق، وتبين مقام الألوهية ومقام العبودية على حقيقتهما الناصعة، مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية في غير تعقيد، وبلا وساطة في الطريق. ويودع القلب نوراً، والروح طمأنينة، والنفس أنساً وثقة. وينفي التردد والخوف والقلق والاضطراب كما ينفي الاستكبار في الأرض بغير الحق، والاستعلاء على العباد بالباطل والافتراء!

والاستقامة على المنهج الذي يريده الله. فلا يكون الخير فلتة عارضة، ولا نزوة طارئة، ولا حادثة منقطعة. إنما ينبعث عن دوافع، ويتجه إلى هدف، ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون في الله، فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد الواضح، والراية الواحدة المتميزة. كما تتضامن الأجيال المتعاقبة الموصولة بهذا الحبل المتين.

والاعتقاد بكرامة الإنسان على الله، يرفع من اعتباره في نظر نفسه، ويثير في ضميره الحياء من التدني عن المرتبة التي رفعه الله إليها. وهذا أرفع تصور يتصوره الإنسان لنفسه... أنه كريم عند الله.. وكل مذهب أو تصور يحط من قدر الإنسان في نظر نفسه، ويرده إلى منبت حقير، ويفصل بينه وبين الملأ الأعلى.. هو تصور أو مذهب يدعوه إلى التدني والتسفل، ولو لم يقل له

ذلك صراحة!

إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير، الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته، صائر إلى ذبول وجفاف. وإلا فهي ثمرة شيطانية، وليس لها امتداد أو دوام!

وهو المحور الذي تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة. وإلا فهي مفلتة لا تمسك بشيء ذاهبة بدداً مع الأهواء والنزوات..

وهو المنهج الذي يضم شتات الأعمال، ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون، وتنسلك في طريق واحد، وفي حركة واحدة، لها دافع معلوم، ولها هدف مرسوم..

ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل، ولا يشد إلى هذا المحور، ولا ينبع من هذا المنهج. والنظرية الإسلامية صريحة في هذا كل الصراحة.. جاء في [سورة إبراهيم: ١٤] ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ﴾.. وجاء في [سورة النور: ٣٩] ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾.. وهي نصوص صريحة في إهدار قيمة العمل كله، ما لم يستند إلى الإيمان، الذي يجعل له دافعاً موصولاً بمصدر الوجود وهدفاً متناسقاً مع غاية الوجود. وهذه هي النظرة المنطقية لعقيدة ترد الأمور كلها إلى الله. فمن انقطع عنه فقد انقطع وفقد حقيقة معناه.

إن الإيمان دليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الإنساني، وتناسقه مع فطرة الكون كله، ودليل التجاوب بين الإنسان والكون من حوله. فهو يعيش في هذا الكون، وحين يصح كيانه لا بد أن يقع بينه وبين هذا الكون تجاوب. ولا بد أن ينتهي هذا التجاوب إلى الإيمان بحكم ما في الكون ذاته من دلائل وإيحاءات عن القدرة المطلقة التي أبدعته على هذا النسق. فإذا فقد هذا التجاوب أو تعطل، كان هذا بذاته دليلاً على خلل ونقص في الجهاز الذي يتلقى وهو هذا الكيان الإنساني. وكان هذا دليل فساد لا يكون معه إلا الخسران. ولا يصح معه عمل

ولو كان في ظاهره مسحة من الصلاح.

وإن عالم المؤمن من السعة والشمول والامتداد والارتفاع والجمال والسعادة بحيث تبدو إلى جانبه عوالم غير المؤمنين صغيرة ضئيلة هابطة هزيلة شائهة شقية.. خاسرة أي خسران!

والعمل الصالح وهو الثمرة الطبيعية للإيمان، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب. فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة. ما أن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح.. هذا هو الإيمان الإسلامي.. لا يمكن أن يظل خامداً لا يتحرك، كامناً لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن.. فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت. شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها. فهو ينبعث منها انبعاثاً طبيعياً. وإلا فهو غير موجود!

ومن هنا قيمة الإيمان.. إنه حركة وعمل وبناء وتعمير.. يتجه إلى الله.. إنه ليس انكماشاً وسلبية وانزواءً في مكنونات الضمير. وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة بناء كبرى في صميم الحياة.

وهذا مفهوم ما دام الإيمان هو الارتباط بالمنهج الرباني. وهذا المنهج حركة دائمة متصلة في صميم الوجود. صادرة عن تدبير، متجهة إلى غاية. وقيادة الإيمان للبشرية هي قيادة لتحقيق منهج الحركة التي هي طبيعة الوجود. الحركة الخيرة النظيفة البانية المعمرة اللائقة بمنهج يصدر عن الله.

أما التواصي بالحق والتواصي بالصبر فتبرز من خلالها صورة الأمة المسلمة ـ أو الجماعة المسلمة ـ ذات الكيان الخاص، والرابطة المميزة، والوجهة الموحدة. الجماعة التي تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها. والتي تعرف حقيقة ما هي مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح، الذي يشمل فيما يشمل قيادة البشرية في طريق الإيمان والعمل الصالح؛ فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى.

فمن خلال لفظ التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة ـ أو الجماعة ـ المتضامَّة المتضامنة. الأمَّة الخيِّرة. الواعية. القيِّمة في الأرض على الحق والعدل والخير.. وهي أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة.. وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام.. هكذا يريدها أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير، متواصية بالحق والصبر في مودة وتعاون وتآخ تنضح بها كلمة التواصي في القرآن..

والتواصي بالحق ضرورة. فالنهوض بالحق عسير. والمعوقات عن الحق كثيرة: هوى النفس، ومنطق المصلحة، وتصورات البيئة. وطغيان الطغاة، وظلم الظلمة، وجور الجائرين.. والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية، والأخوة في العبء والأمانة. فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية، إذ تتفاعل معاً فتتضاعف. تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله.. وهذا الدين ـ وهو الحق ـ لا يقوم إلا في حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال.

والتواصي بالصبر كذلك ضرورة. فالقيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل، من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة. ولا بد من الصبر. لا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة. والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر. والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبُعد النهاية!

والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف، ووحدة المتجه، وتساند الجميع، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار.. إلى آخر ما يثيره من معاني الجماعة التي لا تعيش حقيقة الإسلام إلا في جوها، ولا تبرز إلا من خلالها.. وإلا فهو الخسران والضياع.

هذه بعض ملامح تلك الحقبة السعيدة التي عاشتها البشرية في ظل الدستور الإسلامي الذي تضع (سورة العصر) قواعده، وتحت تلك الراية الإيمانية التي تحملها جماعة الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

فأين منها هذا الضياع التي تعانيه البشرية اليوم في كل مكان، والخسار الذي تبوء به في

معركة الخير والشر، والعماء عن ذلك الخير الكبير الذي حملته الأمة العربية للبشر يوم حملت راية الإسلام فكانت لها القيادة. ثم وضعت هذه الراية فإذا هي في ذيل القافلة. وإذا القافلة كلها تعطو إلى الضياع والخسار. وإذا الرايات كلها بعد ذلك للشيطان ليس فيها راية واحدة لله. وإذا هي كلها للباطل ليس فيها راية واحدة للحق. وإذا هي كلها للعماء والضلال ليس فيها راية واحدة للهدى والنور، وإذا هي كلها للخسار ليس فيها راية واحدة للفلاح! وراية الله ما تزال. وإنها لترتقب اليد التي ترفعها، والأمة التي تسير تحتها إلى الخير والهدى والصلاح والفلاح.

ذلك شأن الربح والخسر في هذه الأرض. وهو على عظمته إذا قيس بشأن الآخرة صغير. وهناك. هناك الربح الحق، والخسر الحق. هناك في الأمد الطويل، وفي الحياة الباقية، وفي عالم الحقيقة، هناك الربح والخسر: ربح الجنة والرضوان، أو خسر الجنة والرضوان. هناك حيث يبلغ الإنسان أقصى الكمال المقدر له، أو يرتكس فتهدر آدميته، وينتهي إلى أن يكون حجراً في القيمة، ودون الحجر في الراحة: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]..

وهذه السورة حاسمة في تحديد الطريق.. إنه الخسر.. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.. طريق واحد لا يتعدد. طريق الإيمان والعمل الصالح وقيام الجماعة المسلمة، التي تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر. وتقوم متضامنة على حراسة الحق مزودة بزاد الصبر.

إنه طريق واحد. ومن ثم كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة (العصر)، ثم يسلم أحدهما على الآخر.. لقد كانا يتعاهدان على هذا الدستور الإلهي، يتعاهدان على الإيمان والصلاح، ويتعاهدان على التواصي بالحق

والتواصي بالصبر. ويتعاهدان على أنهما حارسان لهذا الدستور. ويتعاهدان على أنهما من هذه الأمة القائمة على هذا الدستور)[1].

دروس وعبر من سورة (العصر):

* دلَّ القَسَم بالعصر على فضيلة وقته وتعظيمه، والدليل عليه ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة: رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده، ورجل حلف على سلعة بعد العصر يعني كاذباً، ورجل بايع إماماً فإن أعطاه وفَّى له وإن لم يعطه لم يَفِ له)[2]، وقوله ﷺ: (ورجل حلف بالله كاذباً بعد العصر، ولا يحلف بغير الله)[3].

فكما أقسم في حق الرابح بالضحى، فكذا أقسم في حق الخاسر بالعصر، وذلك لأنه أقسم بالضحى في حق الرابح، وبشَّر الرسول ﷺ أن أمره إلى الإقبال، وههنا في حق الخاسر، توعَّده أن أمره إلى الإدبار، ثم كأنه يقول: بعض النهار باقٍ، فيحثُّه على التدارك في البقية بالتوبة.

وعن بعض السلف: تعلَّمت معنى السورة من بائع الثلج كان يصيح ويقول: ارحموا مَن يذوب رأس ماله على رأسه، ارحموا مَن يذوب رأس ماله على رأسه، فقلت: هذا معنى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾، يمرُّ به العصر فيمضي عمره، ولا يكتسب فإذا هو خاسر[4].

* اختلف في الحلف في العصر؛ فقال مالك: مَن حلف ألا يكلم رجلاً عصراً، يحمل على السنَة، لأنه أكثر ما قيل فيه، وذلك على أصله في تغليظ المعنى في الأيمان. وقال الشافعي: يبرُّ بساعة، إلا أن تكون له نية، أو يفسِّره بما يحتمله، وذلك حملاً على الأقل المتيقن المراد بالعصر[5].

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب البيوع، باب في منع الماء، رقم الحديث: ٣٠١٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف.

(٤) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٨٥.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٧٩.

* وجوب التواصي بالحق، والتواصي بالصبر بين المسلمين. قال الإمام الرازي: دلت الآية على أن الحق ثقيل، وأن المحن تلازمه، فلذلك قرن به التواصي[1].

* الخسر: هلاك رأس المال أو نقصه. فالإنسان وإنْ ربِح الثروة الكبيرة والمال الوفير، فهو في خسارة محققة، إن لم يعمل للآخرة عملاً طيباً صحيحاً، ولم يستعمل نفسه فيما يوجب له الربح الدائم، لأنه عمل في إهلاك نفسه، وهما أكبر رأس ماله[2].

* حكم الله تعالى بالوعيد الشديد، لأنه حكم بالخسارة على جميع الناس إلا مَن كان آتياً بأربعة أشياء ومتصفاً بها؛ وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. فدلَّ ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور.

وعناصر الإيمان ستة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. والعمل الصالح: أداء الفرائض، واجتناب المعاصي، وفعل الخير. والتواصي بالحق: أن يوصي بعضهم بعضاً بالأمر الثابت، ويحث بعضهم بعضاً على توحيد الله والعمل بالقرآن، والدعوة إلى الدين والنصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه. قال عمر رضي الله عنه: رحم الله مَن أهدى إليَّ عيوبي. والتواصي بالصبر: أن يوصي الناس بعضهم بعضاً على طاعة الله تعالى، والصبر عن معاصيه، والرضا بالقضاء والقدر في المصائب والمحن[3].

* بيان فوز أهل الإيمان والعمل الصالح المجتنبين للشرك والمعاصي. وبيان مصير الإنسان الكافر، وأنه الخسران التام.

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٩٠.

(٢) زاد المسير: ٨/ ٣١٦، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٩٤.

(٣) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٩٠، والتفسير المنير: ٣٢/ ٣٩٥.



سورة الهمزة

قال الله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: اسمها التوقيفي: سورة (الهُمَزة)، وبه اشتهرت، ودونت في المصاحف ومعظم كتب التفسير.

ووجه التسمية به لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾، والهُمَزة الذي يغتاب الناس ويطعن فيهم.

وورد هذا الاسم بلفظ (همّاز) في سورة (القلم) في قول الله تعالى: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ [القلم: ١١].

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١ـ تسمّى سورة ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾، ووردت التسمية في كلام ابن عباس رضي الله عنهما قال: أُنزلت ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾ بمكة[1]. وبهذا الاسم عنون الطبري لها في تفسيره، وترجم لها البخاري في صحيحه، وهي تسمية لها بأول جملة فيها.

٢ـ تسمّى سورة (الحطمة)، ذكر ذلك الفيروزآبادي، وعلّل تسميتها بذلك لذكر هذه الكلمة فيها في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ ﴾، وقد تفردت هذه السورة بهذا

---

(١) الدر المنثور للسيوطي: ٩/ ٦٠٣.

اللفظ[1].

٣ـ كما ذكرت في بعض المصاحف سورة (اللمزة).

ب ـ مرحلة النزول:

مكية بالاتفاق، وعُدَّت السورة الثانية والثلاثين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة (القيامة)، وقبل سورة (المرسلات)[2].

ج ـ أسباب نزولها:

قال الرازي: أما المحققون فقالوا: إنه عام لكل مَن يفعل هذا الفعل كائناً مَن كان، وذلك لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ، وقال آخرون: إنه مختص بأناس معينين. ثم قال عطاء والكلبي والسُّدِّي: نزلت في الأخنس بن شُرَيق، كان يلمز الناس ويغتابهم، وبخاصة رسول الله ﷺ.

وقال مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويطعن عليه في وجهه. وروي أيضاً أن أمية بن خلف كان يفعل ذلك. وقال محمد بن إسحاق والسهيلي: ما زلنا نسمع أن هذه السورة نزلت في أمية بن خَلَف[3]. وقد روى ذلك ابن جرير عن عثمان وابن عمر.

قال أبو حيان: ونزلت في الأخنس بن شُرَيق، أو العاص بن وائل، أو جميل بن معمر، أو الوليد بن المغيرة، أو أمية بن خَلَف: أقوال، ويمكن أن تكون نزلت في الجميع، وهي عامة مع ذلك فيمن اتصف بهذه الأوصاف[4].

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٣.

(٢) فتح القدير: ٥/ ٤٩٢، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٣٥.

(٣) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٩١.

(٤) البحر المحيط: ٨/ ٥١٠.

د ـ عدد آيات سورة (الهمزة):

تسع آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[1].

هـ ـ محور سورة (الهمزة):

بيان الحزب الأكبر الخاسر الذي ألهاه التكاثر، فبانت خسارته يوم القارعة الخافضة الرافعة، فجاءت السورة تحدد جزاء الطعَّان والعيَّاب للناس[2].

و ـ المناسبات في سورة (الهمزة):

١ـ المناسبة بين سورة (الهمزة) ومحورها:

تحدثت السورة عن بعض صفات الكافرين وعذابهم العظيم، وذكرت بعض صفاتهم الرئيسة، وبيَّنت لنا الأسباب التي استحقوا الويل والهلاك والعذاب الأليم، فالسورة واضحة الصلة بمحورها.

٢ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الهمزة) وخاتمة ما قبلها:

رأينا أن سورة (العصر) ذكرت أن جنس الإنسان في خسران ونقص وهلكة، إلا من اتصف بصفات معينة، وتأتي سورة (الهمزة) لتحدد صفات الخاسرين وأحوالهم، وبعض صفات أهل الضلال، ومظهر خسارتهم ومآلهم، وهكذا تبدو الصلة واضحة بين السورتين. قال الآلوسي: لما ذكر سبحانه فيما قبلها أن الإنسان ـ سوى مَن استثنى ـ في خسر، بيَّن فيها أحوال بعض الخاسرين[3].

(١) التفسير المنير: ٣٠/ ٣٩٧.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٤٣، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣/ ٢٤٧.

(٣) روح المعاني: ٣٠/ ٢٢٩، والفتوحات الإلهية: ٤/ ٥٨٤، وتفسير المراغي: ٣٠/ ٢٣٦.

٣ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الهمزة) ومحورها:

جاءت سورة (الهمزة) تعالج مشكلة خُلُقية مستعصية بين الناس، وهي الطعن في الآخرين بالغيبة أثناء غيابهم، أو بالعيب حال حضورهم. وقد بدأت بالإخبار عن العذاب الشديد لكل عيَّاب طعَّان للناس، ينتقص الآخرين، ويزدريهم، ويسخر بهم.

ثم ذمَّت السورة الذين يحرصون على جمع الأموال في الدنيا، كأنهم مخلَّدون فيها.

وختمت بردع الفريقين السابقين، وأنبأتهم بمصيرهم الأسود، وهو النبذ في الحطمة، فكانت مقاطع السورة تفصيلاً لمحورها الذي تضمن العذاب المعدَّ للكافرين، مما يوضح صلة المقاطع بالمحور، وتناسبها معه[1].

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الهمزة) وافتتاحية سابقتها:

لما قال سبحانه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ أتبعه بمثال مَن ذكر نقصه وقصوره واغتراره، وظنَّه الكمال لنفسه، حتى يعيب غيره، واعتماده على ما جمعه من المال، ظناً أنه يخلده وينجيه، وهذا كله هو عين النقص الذي هو شأن الإنسان، وهو المذكور في السورة قبل، فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ بذكر ما أعدَّ له من العذاب جزاءً له على همزه ولمزه الذي أتم حسده[2].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال عن هذه السورة: (تعكس هذه السورة صورة من الصور اللئيمة الواقعية في حياة الدعوة في عهدها الأول، وهي في الوقت ذاته نموذج يتكرر في كل بيئة.. صورة اللئيم الصغير النفس، الذي يُؤتى المال فتسيطر نفسه به، حتى ما يطيق نفسه! ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة. القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار: أقدار الناس، وأقدار

---

(١) التفسير المنير: ٣٠/ ٣٩٦.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٤٤، وحاشية الصاوي على الجلالين: ٤/ ٣٤٩.

المعاني، وأقدار الحقائق. وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب! كما يروح يحسب أن هذا المال إله قادر عل كل شيء؛ لا يعجز عن فعل شيء! حتى دفع الموت وتخليد الحياة. ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه، إن كان هناك في نظره حساب وجزاء! ومن ثم ينطلق في هَوَسٍ بهذا المال يعدُّه ويستلذُّ تعداده، وتنطلق في كيانه نفخة فاجرة، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم، ولمزهم وهمزهم.. يعيبهم بلسانه، ويسخر منهم بحركاته. سواء بحكاية حركاتهم وأصواتهم، أو بتحقير صفاتهم وسماتهم.. بالقول والإشارة. بالغمز واللمز. باللفتة الساخرة، والحركة الهازئة! وهي صورة لئيمة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة، وتعرى من الإيمان. والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس بحكم ترفُّعه الأخلاقي. وقد نهى عن السخرية واللمز والعيب في مواضع شتى. إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع والتقبيح مع الوعد والوعيد، يوحي بأنه كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه رسول الله ﷺ وتجاه المؤمنين. فجاء الرد عليها في صورة الردع الشديد، والتهديد الرعيب. وقد وردت روايات بتعيين بعض الشخصيات، ولكنها ليست وثيقة، فنكتفي بما قرَّرناه عنها.

والتهديد يجيء في صورة مشهد من مشاهد القيامة يمثل صورة للعذاب مادية ونفسية، وصورة للنار حسية ومعنوية. وقد لوحظ فيها التقابل بين الجرم وطريقة الجزاء وجو العقاب. فصورة الهمزة اللمزة، الذي يدأب على الهزء بالناس وعلى لمزهم في أنفسهم وأعراضهم، وهو يجمع المال فيظنه كفيلاً بالخلود! صورة هذا المتعالي الساخر المستقوي بالمال، تقابلها صورة «المنبوذ» المهمل المتردي في ﴿ ٱلْحُطَمَةُ ﴾التي تحطم كل ما يلقى إليها، فتحطم كيانه وكبرياءه. وهي ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ﴾، وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحي بأنها نار فذَّة، غير معهودة، ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة. وهي ﴿ تَطَّلِعُ ﴾ على فؤاده الذي ينبعث منه الهمز واللمز، وتكمن فيه السخرية والكبرياء والغرور.. وتكملة لصورة المحطم المنبوذ المهمل.. هذه النار مغلقة عليه، لا ينقذه منها أحد، ولا يسأل عنه فيها أحد! وهو موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام! وفي جرس الألفاظ تشديد: ﴿ وَعَدَّدَهُۥ ﴾، ﴿ كَلَّا ﴾، ﴿ لَيُنۢبَذَنَّ ﴾، ﴿ تَطَّلِعُ ﴾، ﴿ مُّمَدَّدَةِۭ ﴾. وفي معاني العبارات توكيد بشتى أساليب التوكيد:﴿ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ

﴿٤﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴿٦﴾﴾ فهذا الإجمال والإبهام. ثم سؤال الاستهوال. ثم الإجابة والبيان.. كلها من أساليب التوكيد والتضخيم.. وفي التعبير تهديد: ﴿وَيۡلٞ﴾، ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾، ﴿ٱلۡحُطَمَةُ﴾، ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ﴿٩﴾﴾..

وفي ذلك كله لون من التناسق التصويري والشعوري يتفق مع فعلة (الهمزة اللمزة)!

لقد كان القرآن يتابع أحداث الدعوة ويقودها في الوقت ذاته. وكان هو السلاح البتار الصاعق الذي يدمر كيد الكائدين، ويزلزل قلوب الأعداء ويثبت أرواح المؤمنين.

وإنا لنرى في عناية الله سبحانه بالرد على هذه الصورة معنيين كبيرين:

الأول: تقبيح الهبوط الأخلاقي وتبشيع هذه الصورة الهابطة من النفوس.

والثاني: المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة، وإشعارهم بأن الله يرى ما يقع لهم، ويكرهه، ويعاقب عليه.. وفي هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الكيد اللئيم..)[1].

دروس وعبر من سورة (الهمزة):

* بيان عقيدة البعث والجزاء.

* التحذير من الغيبة والنميمة. إذ ورد التهديد بالويل، وهو الخزي والعذاب والهلاك لكل مغتاب عيَّاب طعَّان للناس. عن أبي سعيد ﷺ: (عن النبي ﷺ قال الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً، قبل أن يبلغ قعره)[2]. وعن أسماء بنت يزيد الأنصارية رضي الله عنها قالت: (قال رسول الله ﷺ ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى، قال: فخياركم

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٧٢.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنبياء، رقم الحديث: ٣٠٨٨. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث ابن لهيعة.

الذين إذا رؤوا ذُكِر الله تعالى، ألا أخبركم بشراركم؟ قالوا: بلى، قال: فشراركم المفسدون بين الأحبة، المشاؤون بالنميمة، الباغون البرآء العنت)[1].

* التنديد بالمغترين بالأموال المعجبين بها.
* بيان شدة عذاب النار وفظاعته.
* ندب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه.
* في هذه السورة بيان لأخلاق كافرة، ينبثق عنها الجحود والإنكار، ورفض الإنذار، فمَن كان همُّه عيب الآخرين وانتقاصهم واحتقارهم لا يقبل إنذاراً من أحد لنظرته السيئة إلى الخلق، ومَن كان همُّه جمع المال لا يكون عنده محل للإنذار، ومَن يتصور أن في المال الخلود فهذا ليس له إلى الآخرة تطلعات، ولذلك لا يقبل إنذاراً[2].
* حدد الله تعالى عقاب الهمزة اللمزة جامع المال حباً فيه لذاته، وهو الطرح أو الإلقاء في نار جهنم التي تحطم كل ما يلقى فيها، وهي نار الله الموقدة غير الخامدة، التي أعدها الله تعالى للعصاة، والتي تأكل جميع ما في الأجساد، حتى تبلغ الفؤاد، ثم يخلقون خلقاً جديدا فترجع تأكلهم. وهي مغلقة الأبواب، مطبقة عليهم، حال كونهم موثقين بأعمدة، وهي أعمدة طوال تلفُّ بهم من كل جانب[3].
* ردع الله تعالى عن كل هذه المزاعم والتحسبات، فالمال لا يرفع القدر، ولا يقتضي الطعن بالآخرين، وليس المال كما يُظن مخلِّداً في الدنيا، بل المخلِّد هو العلم والعمل، كما قال الإمام عليّ ﷺ: مات خُزَّان المال، وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر[4].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ٢٦٣١٩. والمقصود من لفظ: (الباغون البرآء العنت): الذين يتعدون على الناس ويظلمونهم، ويفرقون بينهم، قاصدين التعب والمشقة والمكروه عليهم.

(٢) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٧٧.

(٣) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٠٢.

(٤) المصدر السابق: ٣٠/ ٤٠١.


مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

سورة الفيل

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ ـ أسماؤها:

أولاً: اسمها التوقيفي: سورة (الفيل)، وبه عُرفت هذه السورة، وكُتبت بذلك في المصاحف وكتب التفسير. ووجه التسمية به لذكر قصة أصحاب الفيل فيها، وما حدث في سيرة جيشه وصورته. ولم يذكر اسم الفيل في غير هذه السورة.

ثانياً: اسماؤها الاجتهادية:

١ـ سورة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾، وقد وردت بهذا الاسم في كلام السلف؛ فعن عمرو بن ميمون الأودي قال: صلَّينا المغرب خلف عمر بن الخطاب ﷺ فقرأ في الأولى: (والتين والزيتون)، وفي الثانية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾، و﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١﴾[1].

٢ـ وردت باسم ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، فعن المعرور بن سويد قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب ﷺ حجَّاجاً، فصلَّى بنا الفجر، فقرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، و﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١﴾، وبذلك عنون لها البخاري في صحيحه. ووقعت تسميتها بالآية الأولى في كلام ابن عباس رضي الله عنهما، فيما أخرجه عنه ابن مردويه قال: أنزلت ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ بمكة[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: كتاب الصلوات، باب ما يقرأ به في المغرب: ١/ ٣٥٨.

(٢) الدر المنثور للسيوطي: ٨/ ٦٢٧.

٣ـ (السورة المنزلة على أصحاب الفيل)، وقد عنون لها ابن العربي في أحكامه[1].

ب ـ مرحلة النزول:

مكية بالاتفاق، وقد عُدَّت السورة التاسعة عشرة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ ﴾، وقبل سورة (قريش)، لقول الأخفش: إن قوله تعالى: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾، ولأن أبيَّ بن كعب ﷺ جعلها وسورةَ (قريش) سورة واحدة في مصحفه، ولم يفصل بينهما بالبسملة، ولِخَبر عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب ﷺ المذكور آنفاً؛ روى أن عمر بن الخطاب ﷺ قرأ مرة في المغرب في الركعة الثانية سورة (الفيل) وسورة (قريش)، أي ولم يكن الصحابة يقرؤون في الركعة من صلاة الفرض سورتين، لأن السنَّة قراءة (الفاتحة) وسورة، فدلَّ على أنهما عنده سورة واحدة.

وقد أشار الفخر الرازي إلى هذا القول في تفسيره، وساق وجوه الاحتجاج بما سبق ذكره من تعلق السورتين خاتمة ومطلعاً، وجعْل أبيّ لهما في مصحفه سورة واحدة، وقراءة عمر ﷺ لهما في الركعة الواحدة.

ثم ذهب إلى القول الآخر المشهور المستفيض وهو أن هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل، معللاً أن تعلق أول هذه السورة بما قبلها ليس بحجة على ما قالوه، لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، وكالآية الواحدة يصدق بعضها بعضاً، ويبين بعضها معنى بعض.. وأما قوله إن أبيّاً ﷺ لم يفصل بينهما فهو معارض بإطباق الكل على الفصل بينهما، وأما قراءة عمر ﷺ فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة لأن الإمام قد يقرأ سورتين.

ويجوز أن تكون سورة (قريش) نزلت بعد سورة (الفلق)، وأُلحِقت بسورة (الفيل)، فلا

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ١٩٨٠.



يتم الاحتجاج بما في مصحف أُبيٍّ بن كعب ﷺ، ولا بما رواه عمرو بن ميمون[1].

ج. أسباب نزولها:

نزلت في قصة أصحاب الفيل وقصدهم تخريب الكعبة، وما فعل الله تعالى بهم من إهلاكهم، وصرفهم عن البيت، وهي معروفة بروايات مطولة في كتب التفسير، ومختصرها: أنها نزلت تذكيراً لقريش بنعمته العظيمة، حين أراد أبرهة ملك الحبشة هدم الكعبة، ووجَّه جيشه لهذه المهمة، معهم الفيلة الكثيرة بقصد توجيه حجِّ العرب إلى بيت بناه أبرهة في اليمن، ولكن قدرة الله القهار فوق كل تقدير واعتبار، فحينما وجَّه أبرهة جيشه لهدم الكعبة برك فيله بذي المُغَمَّس (موضع قريب من مكة في طريق الطائف)، ولم يمش نحو مكة، على الرغم من أنهم شقُّوا جلده بالحديد، وكان إذا وجَّهوه إلى غير مكة هرول، وبينما هم كذلك، بعث الله تعالى عليهم طيراً جماعات سوداً أو خُضْراً من البحر، عند كل طير ثلاثة أحجار، في منقاره ورجليه، كل حجر فوق العدسة، ودون الحمّصة، فرمتهم بتلك الحجارة، وكان الحجر منها يقتل المرميَّ، وتتهرأ لحومهم جرباً وأسقاماً، وانصرف أبرهة بمن بقي معه يريد اليمن، فماتوا في طريقهم متفرقين في كل مرحلة، وتقطَّع أبرهة أُنملة أُنملة حتى مات، وحمى الله بيته، فنزلت هذه السورة منبِّهة على الاعتبار بهذه القصة[2].

د. عدد آيات سورة (الفيل):

خمس آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[3].

هـ. محور سورة (الفيل):

الدلالة على آخر (الهمزة)؛ من إهلاك المكاثرين، في دار التعاضد والتناصر بالأسباب فعند

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ١٦/ ٦٤٩، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٤٣.

(٢) التفسير الوسيط: ٣/ ٢٩٣٤.

(٣) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٤.

انقطاعها أوْلى لاختصاصه سبحانه بتمام القدرة، دون التمكن بالمال والرجال، واسمها الفيل ظاهر الدلالة على ذلك بتأمل سورته، وقصة أصحابه، وما حصل في سيرة جيشه وصورته[1].

و. المناسبات في سورة (الفيل):

١. المناسبة بين سورة (الفيل) ومحورها:

تأتي سورة (الفيل) وكأنها امتداد لسورة (الهمزة)، إذ أنها تلفت النظر إلى حادثة مشهورة معروفة عذَّب الله بها قوماً في الدنيا، وذلك يأتي كالدليل على قدرته أن يعذب الكافرين يوم القيامة.

فمحور سورة (الفيل) هو محور سورة (الهمزة)، والدليل على أن الله سيعذب الكافرين عذاباً عظيماً ما فعله بهؤلاء الكافرين الذين أرادوا أن يكيدوا لبيت الله تعالى، هذا عذابهم في الدنيا، فكيف بعذابهم يوم القيامة[2].

٢. المناسبة في افتتاحية سورة (الفيل):

لَمَّا تضمَّن الهمز واللمز من الكفرة نوع كيد له ﷺ عقَّب ذلك بقصة أصحاب الفيل، للإشارة إلى أن عقبى كيدهم في الدنيا تدميرهم، فإن عناية الله عزَّ وجلَّ برسوله ﷺ أقوى وأتمُّ من عنايته سبحانه بالبيت، فالسورة مشيرة إلى مآلهم في الدنيا إثر بيان مآلهم في الأخرى. ويجوز أن تكون كالاستدلال على ما أشير إليه فيما قبلها، من أن المال لا يغني من الله تعالى شيئاً، أو على قدرته عزَّ وجلَّ على إنفاذ ما توعَّد به أولئك الكفرة في قوله سبحانه: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾[3].

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٤٩، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣/ ٢٤٩.

(٢) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٨١.

(٣) روح المعاني: ٣٠/ ٢٣٢.



٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الفيل) وخاتمتها:

ختمت السورة ببيان جزاء أصحاب الفيل، ومآلهم في الدنيا بتصوير دمارهم وإهلاك عامتهم، ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح، كما جرى لملكهم أبرهة، فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء، ثم مات. أما قائد الفيل وسائسه فقد شوهدا بمكة أعميين مقعدين يستطعمان. وفي هذا تناسب بين السؤال وجوابه، وبين الحدث والهدف، والله تعالى غالب على أمره.

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الفيل) وخاتمة ما قبلها:

لما قدَّم في (الهمزة) أن كثرة الأموال المسببة بالقوة للرجال ربما أعقبت الوبال، دلَّ عليه في هذه بدليل شهودي وصل في تحريفه وتغلغله في الأجسام وتجريفه إلى القلوب في العذاب الأدنى، كما ذكر فيما قبلها للعذاب الأكبر الأخفى، محذِّراً من الوجاهة في الدنيا وعلوِّ الرتبة، مشيراً إلى أنها كلما عظمت زاد ضررها بما لا يكسبه من الطغيان حتى ينازع صاحبها الملك الأعلى. ومع كونه شهودياً فللعرب ولا سيما قريش به الخبرة التامة، فقال مقرراً منكراً على مَن لا يخطر له خلاف ذلك، وأقام الدليل على ذلك بقصة أصحاب الفيل، ولما ذكر فيما قبلها عذاب الكفار في الآخرة، أخبر هنا بعذاب ناس منهم في الدنيا، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾[1].

٥ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الفيل) ومحورها:

تأتي سورة (الفيل) في أحداثها تدلل على قدرة الله تعالى في تعذيب مَن أراد انتهاك حرمة البيت، بما حدث لأصحاب الفيل في قصتهم المتواترة، وأن عذابهم هذا مقدم لعذابهم الأخروي في جهنم جزاء إلحادهم وظلمهم. قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٤٩، وتفسير البحر المحيط: ١٠/ ٥٤٣، وتفسير المراغي: ٣٠/ ٢٤١.

٦ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الفيل) بعضها مع بعض:

تكرر الاستفهام في السورة، وهو تقريري، وغالباً ما يكون على نفي المقرر لإثباته للثقة بأن المقرر لا يسعه إلا إثبات المنفي. وانظر عند قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

والاستفهام التقريري هنا مجاز بعلاقة اللزوم، وهو مجاز كثر استعماله في كلامهم فصار كالحقيقة لشهرته. وعليه فالتقرير مستعمل مجازاً في التكريم إشارة إلى أن ذلك كان إرهاصاً للنبي ﷺ فيكون من باب قوله ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ ﴾ [البلد: ١ـ٢]، وفيه مع ذلك تعريض بكفران قريش نعمة عظيمة من نعم الله تعالى عليهم، إذ لم يزالوا يعبدون غيره[1].

قال الرازي: المراد بالرؤية هنا العلم والتذكير، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر، فكان العلم الحاصل به ضرورياً مساوياً في القوة والجلاء للرؤية.. ثم قال: واعلم أن قصة الفيل واقعة على الملحدين جداً، لأنهم ذكروا في غيرها أعذاراً ضعيفة، أما هذه الواقعة فلا تجري فيها تلك الأعذار، لأنها ليس في شيء من الطبائع والحيل أن يقبل طيرٌ معها حجارة فتصدّ قوماً دون قوم فتقتلهم، ولا يمكن أن تكون كسائر الأحاديث الضعيفة، لأنه لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول ﷺ إلا نيف وأربعون سنة، ويوم تلا رسول الله ﷺ هذه السورة كان قد بقي بمكة جمع ممن شاهدوا تلك الواقعة، ولو كان النقل ضعيفاً لشافهوه بالتكذيب، فلما لم يكن كذلك علمنا أن لا سبب للطعن فيه[2].

٧ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الفيل) وافتتاحية سابقتها:

لما تضمنت سورة (الهمزة) ذكر اغترار مَن فُتِن بماله حتى ظن أنه يخلده، وما أعقبه ذلك، أتبع هذا أصحاب الفيل الذين غرَّهم تكاثرهم، وخَدَعهم امتدادهم في البلاد، واستيلاؤهم

---

(١) لتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٤٤.
(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٩٧.



حتى همُّوا بهدم البيت المكرم، فتعجلوا النقمة، وجعل الله كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، أي جماعات متفرقة، ترميهم بحجارة من سجيل، حتى استأصلتهم وقطعت دابرهم فجعلهم كعصف مأكول، وأثمر لهم ذلك اغترارهم بتوفر حظهم من الخسر المتقدم[١].

٨ـ المناسبة بين سورة (الفيل) وما بعدها:

لا خفاء في اتصال السورتين، أي أنه سبحانه وتعالى فعل ذلك بأصحاب الفيل، ومنعهم عن بيته وحرمه لانتظام شمل قريش، وهم سكان الحرم، وقطَّان بيت الله الحرام، وليؤلفهم بهاتين الرحلتين، فيقيموا بمكة، وتأمن ساحتهم[٢].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (تشير هذه السورة إلى حادث مستفيض الشهرة في حياة الجزيرة العربية قبل البعثة، عظيم الدلالة على رعاية الله لهذه البقعة المقدسة التي اختارها الله لتكون ملتقى النور الأخير، ومحضن العقيدة الجديدة، والنقطة التي تبدأ منها زحفها المقدس لمطاردة الجاهلية في أرجاء الأرض، وإقرار الهدى والحق والخير فيها..

وجملة ما تشير إليها الروايات المتعددة عن هذا الحادث، أن الحاكم الحبشي لليمن ـ في الفترة التي خضعت فيها اليمن لحكم الحبشة بعد طرد الحكم الفارسي منها ـ وتسميه الروايات: «أبرهة»، كان قد بنى كنيسة في اليمن باسم ملك الحبشة وجمع لها كل أسباب الفخامة، على نية أن يصرف بها العرب عن البيت الحرام في مكة، وقد رأى مبلغ انجذاب أهل اليمن الذين يحكمهم إلى هذا البيت، شأنهم شأن بقية العرب في وسط الجزيرة وشماليها كذلك. وكتب إلى ملك الحبشة بهذه النية..

ولكن العرب لم ينصرفوا عن بيتهم المقدس، فقد كانوا يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٥٤.

(٢) المصدر السابق: ٢٢/ ٢٦٣.



وإسماعيل صاحبي هذا البيت، وكان هذا موضع اعتزازهم على طريقتهم بالفخر والأنساب. وكانت معتقداتهم ـ على تهافتها ـ أفضل في نظرهم من معتقدات أهل الكتاب من حولهم، وهم يرون ما فيها من خلل واضطراب وتهافت كذلك.

عندئذ صح عزم «أبرهة» على هدم الكعبة ليصرف الناس عنها، وقاد جيشاً جرَّاراً تصاحبه الفيلة، وفي مقدمتها فيل عظيم ذو شهرة خاصة عندهم. فتسامع العرب به وبقصده. وعزَّ عليهم أن يتوجه لهدم كعبتهم.

فوقف في طريقه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن البيت الحرام، فأجابه إلى ذلك مَن أجابه. ثم عرض له فقاتله، ولكنه هزم وأخذه أبرهة أسيراً.

ثم وقف له في الطريق كذلك نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتين من العرب ومعهما عرب كثير، فهزمهم كذلك وأسر نفيلاً، الذي قبِل أن يكون دليله في أرض العرب.

حتى إذا مر بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف، فقالوا له: إن البيت الذي يقصده ليس عندهم إنما هو في مكة. وذلك ليدفعوه عن بيتهم الذي بنوه للات! وبعثوا معه مَن يدله على الكعبة!

فلما كان أبرهة بالمغمس بين الطائف ومكة، بعث قائداً من قواده، حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم، فأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها. فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله. ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك.

وبعث أبرهة رسولاً إلى مكة يسأل عن سيد هذا البلد، ويبلغه أن الملك لم يأت لحربهم وإنما جاء لهدم هذا البيت، فإن لم يتعرضوا له فلا حاجة له في دمائهم! فإذا كان سيد البلد لا يريد الحرب جاء به إلى الملك.. فلما كلم عبد المطلب فيما جاء به قال له: والله ما نريد حربه وما

لنا بذلك من طاقة. هذا بيت الله الحرام. وبيت خليله إبراهيم ﷺ.. فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه.. فانطلق معه إلى أبرهة..

قال ابن إسحاق: وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم. فلما رآه أبرهة أجلَّه وأعظمه، وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه. فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه، وأجلسه معه إلى جانبه. ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتك؟ فقال: حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني! أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل. وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع مني. قال: أنت وذاك!.. فرد عليه إبله.

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز في شعف الجبال. ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه. وروي عن عبد المطلب أنه أنشد:

لاهـمَّ إن العبد يمنع رحْلَه فامنع رحالك
لا يغلبنَّ صليبُهم ومحالهم أبداً محالك
إنْ كنتَ تارِكَهم وقبلتنا فأمر ما بَدا لك

فأما أبرهة فوجه جيشه وفيله لما جاء له. فبرك الفيل دون مكة لا يدخلها، وجهدوا في حمله على اقتحامها فلم يفلحوا. وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة، فقالوا: خلأت القصواء [أي: حرنت]، فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل..»، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت

حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب»، فهي حادثة ثابتة أنه قد حبس الفيل عن مكة في يوم الفيل..

ثم كان ما أراده الله من إهلاك الجيش وقائده، فأرسل عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين وحجر، فتركتهم كأوراق الشجر الجافة الممزقة. كما يحكي عنهم القرآن الكريم.. وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، حتى قدموا به صنعاء، فما مات حتى انشق صدره عن قلبه كما تقول الروايات..

وتختلف الروايات هنا في تحديد نوع هذه الجماعات من الطير، وأشكالها، وأحجامها، وأحجام هذه الحجارة ونوعها وكيفية فعلها. كما أن بعضها يروي أن الجدري والحصبة ظهرا في هذا العام في مكة.

ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات، وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري والحصبة أقرب وأولى. وأن الطير قد تكون هي الذباب والبعوض التي تحمل الميكروبات، فالطير هو كل ما يطير...

ونعود من هذا الاستطراد إلى سورة الفيل، وإلى دلالة القصة..

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾.. وهو سؤال للتعجيب من الحادث، والتنبيه إلى دلالته العظيمة. فالحادث كان معروفاً للعرب ومشهوراً عندهم، حتى لقد جعلوه مبدأ تاريخ. يقولون حدث كذا عام الفيل، وحدث كذا قبل عام الفيل بعامين، وحدث كذا بعد عام الفيل بعشر سنوات.. والمشهور أن مولد رسول الله ﷺ كان في عام الفيل ذاته. ولعل ذلك من بدائع الموافقات الإلهية المقدرة!

وإذن فلم تكن السورة للإخبار بقصة يجهلونها، إنما كانت تذكيراً بأمر يعرفونه، المقصود به ما وراء هذا التذكير..

ثم أكمل القصة بعد هذا المطلع في صورة الاستفهام التقريري كذلك:

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ ﴾.. أي ألم يضل مكرهم فلا يبلغ هدفه وغايته، شأن من يضل الطريق فلا يصل إلى ما يبتغيه.. ولعله كان بهذا يذكر قريشاً بنعمته عليهم في حماية هذا البيت وصيانته، في الوقت الذي عجزوا هم عن الوقوف في وجه أصحاب الفيل الأقوياء. لعلهم بهذه الذكرى يستحون من جحود الله الذي تقدمت يده عليهم في ضعفهم وعجزهم كما يطامنون من اغترارهم بقوتهم اليوم في مواجهة محمد ﷺ والقلة المؤمنة معه. فقد حطم الله الأقوياء حينما شاءوا الاعتداء على بيته وحرمته; فلعله يحطم الأقوياء الذين يقفون لرسوله ودعوته.

فأما كيف جعل كيدهم في تضليل فقد بينه في صورة وصفية رائعة: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾.. والأبابيل: الجماعات. وسجيل: كلمة فارسية مركبة من كلمتين تفيدان: (حجر) و(طين). أو حجارة ملوثة بالطين. والعصف: الجاف من ورق الشجر. ووصفه بأنه مأكول: أي فتيت طحين! حين تأكله الحشرات وتمزقه، أو حين يأكله الحيوان فيمضغه ويطحنه! وهي صورة حسية للتمزيق البدني بفعل هذه الأحجار التي رمتهم بها جماعات الطير. ولا ضرورة لتأويلها بأنها تصوير لحال هلاكهم بمرض الجدري أو الحصبة.

فأما دلالة هذا الحادث والعبر المستفادة من التذكير به فكثيرة..

وأول ما توحي به أن الله سبحانه لم يرد أن يكل حماية بيته إلى المشركين، ولو أنهم كانوا يعتزون بهذا البيت، ويحمونه ويحتمون به. فلما أراد أن يصونه ويحرسه ويعلن حمايته له وغيرته عليه ترك المشركين يهزمون أمام القوة المعتدية. وتدخلت القدرة سافرة لتدفع عن بيت الله الحرام، حتى لا تتكون للمشركين يد على بيته ولا سابقة في حمايته، بحميتهم الجاهلية. ولعل هذه الملابسة ترجح ترجيحاً قوياً أن الأمر جرى في إهلاك المعتدين مجرى السنة الخارقة ـ لا السنة المألوفة المعهودة ـ فهذا أنسب وأقرب..

ولقد كان من مقتضى هذا التدخل السافر من القدرة الإلهية لحماية البيت الحرام أن تبادر

قريش ويبادر العرب إلى الدخول في دين الله حينما جاءهم به الرسول ﷺ، وألا يكون اعتزازهم بالبيت وسدانته وما صاغوا حوله من وثنية هو المانع لهم من الإسلام! وهذا التذكير بالحادث على هذا النحو هو طرف من الحملة عليهم، والتعجيب من موقفهم العنيد!

كذلك توحي دلالة هذا الحادث بأن الله لم يقدر لأهل الكتاب ـ أبرهة وجنوده ـ أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة. حتى والشرك يدنسه، والمشركون هم سدنته. ليبقي هذا البيت عتيقاً من سلطان المتسلطين، مصوناً من كيد الكائدين. وليحفظ لهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة، لا يهيمن عليها سلطان، ولا يطغى فيها طاغية، ولا يهيمن على هذا الدين الذي جاء ليهيمن على الأديان وعلى العباد، ويقود البشرية ولا يقاد. وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبي هذا الدين قد ولد في هذا العام!

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن، إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترفُّ حول الأماكن المقدسة من الصليبية العالمية والصهيونية العالمية، ولا تني أو تهدأ في التمهيد الخفي اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة. فالله الذي حمى بيته من أهل الكتاب وسدنته مشركون، سيحفظه إن شاء الله، ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين!

والإيحاء الثالث هو أن العرب لم يكن لهم دور في الأرض. بل لم يكن لهم كيان. قبل الإسلام. كانوا في اليمن تحت حكم الفرس أو الحبشة. وكانت دولتهم حين تقوم هناك أحياناً تقوم تحت حماية الفرس. وفي الشمال كانت الشام تحت حكم الروم إما مباشرة وإما بقيام حكومة عربية تحت حماية الرومان.. ولم ينج إلا قلب الجزيرة من تحكم الأجانب فيه. ولكنه ظل في حالة بداوة أو في حالة تفكك لا تجعل منه قوة حقيقية في ميدان القوى العالمية. وكان يمكن أن تقوم الحروب بين القبائل أربعين سنة، ولكن لم تكن هذه القبائل متفرقة ولا مجتمعة ذات وزن عند الدول القوية المجاورة. وما حدث في عام الفيل كان مقياساً لحقيقة هذه القوة حين تتعرض لغزو أجنبي .

وتحت راية الإسلام ولأول مرة في تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمي يؤدونه. وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها حساب. قوة جارفة تكتسح الممالك وتحطم العروش، وتتولى قيادة البشرية، بعد أن تزيح القيادات الجاهلية المزيفة الضالة.. ولكن الذي هيأ للعرب هذا لأول مرة في تاريخهم هو أنهم نسوا أنهم عرب! نسوا نعرة الجنس، وعصبية العنصر، وذكروا أنهم مسلمون. ومسلمون فقط. ورفعوا راية الإسلام، وراية الإسلام وحدها. وحملوا عقيدة ضخمة قوية يهدونها إلى البشرية رحمة وبراً بالبشرية; ولم يحملوا قومية ولا عنصرية ولا عصبية. حملوا فكرة سماوية يعلمون الناس بها لا مذهباً أرضياً يخضعون الناس لسلطانه. وخرجوا من أرضهم جهاداً في سبيل الله وحده، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلى عبادة الله وحده، كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد: «الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

عندئذ فقط كان للعرب وجود، وكانت لهم قوة، وكانت لهم قيادة.. ولكنها كانت كلها لله وفي سبيل الله. وقد ظلت لهم قوتهم. وظلت لهم قيادتهم ما استقاموا على الطريقة. حتى إذا انحرفوا عنها وذكروا عنصريتهم وعصبيتهم، وتركوا راية الله ليرفعوا راية العصبية نبذتهم الأرض وداستهم الأمم، لأن الله قد تركهم حيثما تركوه، ونسيهم مثلما نسوه!

وما العرب بغير الإسلام؟ ما الفكرة التي قدموها للبشرية أو يملكون تقديمها إذا هم تخلوا عن هذه الفكرة؟ وما قيمة أمة لا تقدم للبشرية فكرة؟ إن كل أمة قادت البشرية في فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة. والأمم التي لم تكن تمثل فكرة كالتتار الذين اجتاحوا الشرق، والبرابرة الذين اجتاحوا الدولة الرومانية في الغرب لم يستطيعوا الحياة طويلاً، إنما ذابوا في الأمم التي فتحوها. والفكرة الوحيدة التي تقدم بها العرب للبشرية كانت هي العقيدة

الإسلامية، وهي التي رفعتهم إلى مكان القيادة، فإذا تخلوا عنها لم تعد لهم في الأرض وظيفة، ولم يعد لهم في التاريخ دور.. وهذا ما يجب أن يذكره العرب جيداً إذا هم أرادوا الحياة، وأرادوا القوة، وأرادوا القيادة.. والله الهادي من الضلال..)[1].

دروس وعبر من سورة (الفيل):

* في الآيات تذكير بأن الكعبة حرم الله تعالى، حماه سبحانه ممن أرادوا به سوءاً، وأظهر غضبه عليهم فعذَّبهم وردَّ كيدهم بإحباطه وإفشاله بإرساله أضعف مخلوقاته، وهي الطير تحمل في أرجلها ومناقيرها حجارة صغيرة، ولكنها أشد فتكاً وتدميراً من الرصاصات القاتلة، حتى أهلكهم الله تعالى، وأبادهم عن آخرهم. وفي ذلك مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى في تدبيره لخلقه، وبطشه بأعدائه، وتسلية لرسول الله ﷺ عما يلاقيه من ظلم كفار قريش.
* في الآيات تذكيرٌ لقريش بفعل الله عزَّ وجلَّ، وتخويفٌ لهم وترهيبٌ، بأن فاعل ذلك هو رب ذلك البيت، وأنْ لا حظَّ فيه للأصنام التي نصبوها حوله.
* في الآيات تثبيت للنبي ﷺ بأن الله تعالى يدفع عنه كيد المشركين. فإن الذي دفع كيد مَن يكيد لبيته لأحقُّ بأن يدفع كيد مَن يكيد لرسوله ﷺ ودينه. ومِن وراء ذلك كله أن الله غالب على أمره، وأن لا تغرَّ المشركين قوتُهم ووفرةُ عددهم، ولا يوهن النبيَّ ﷺ تألُّبُ قبائلهم عليه، فقد أهلك الله تعالى من هو أشد منهم قوة، وأكثر جمعاً[2].
* حادث الفيل حدث تاريخي هام، وأمر خارق للعادة، أظهره الله تعالى في عام ميلاده ﷺ سنة سبعين وخمسمائة ميلادية، ليكون من أعظم الإرهاصات الدالة على صدق نبوته ﷺ. عن المطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جده قال: (ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل. وسأل عثمان بن عفان قباث بن أشيم أخا بني يعمر بن ليث أأنت أكبر أم

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٧٤

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٤٤.

رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أكبر مني، وأنا أقدم منه في الميلاد، ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، ورفعت بي أمي على الموضع، قال: ورأيت خذق الطير أخضر محيلاً)[1].

قال أبو حيان: كان صرف ذلك العدو العظيم عام مولده السعيد ﷺ إرهاصاً بنبوته؛ إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول من خوارق العادات، والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد ضلَّل كيدهم، وأهلكهم بأضعف جنوده، وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل[2].

* قسَّم العلماء الأمر الخارق للعادة إلى أنواع أربعة؛ فهو الإرهاصة إذا جرى لنبي قبل البعثة، وهو المعجزة إذا جرى لنبي بعد البعثة، وهو الكرامة إذا جرى لولي تقي ورجل صالح، وهو الاستدراج إذا حدث على يد ساحر أو كاهن أو كافر. والملاحَظ في أنواعه كلها أن الفاعل فيه هو الله تعالى، الخالق ،القادر على كل شيء، وأنه لا يتكرر فعله، لأنه يجري لهدف وغاية، ويزول بحصول الهدف وتحقيق الغاية، إلا القرآن الكريم فإنه المعجزة الباقية الخالدة.

* قال ابن مسعود ﷺ: لما رمت الطير بالحجارة، بعث الله تعالى ريحاً فضربت الحجارة فزادتها شدة، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك، ولم يسلم منهم إلا رجل من كندة، فقال:

فإنكِ لو رأيتِ ولم تريه … لدى جنب المغمَّس ما لقينا
خشيتِ الله إذ قد بثَّ طيراً … وظلَّ سحابة مرَّت علينا
وباتت كلها تدعو بحق … كأن لها على الحبشان دَينا

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت مَن شاء الله منهم. حيث إن أميرهم أبرهة رجع

---

(١) جامع الترمذي: كتاب المناقب، باب ما جاء في ميلاد النبي ﷺ، رقم الحديث: ٣٥٥٢. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق. وخذق الطير محيل: روث وفضلات الطير متغيِّر.

(٢) لبحر المحيط: ٨/ ٥٤٤.

وشرذمة قليلة معه، فلما أَخبروا بما رأوا هلكوا. قال ابن إسحاق: لما ردَّ الله تعالى الحبشة عن مكة، عظَّمت العرب قريشاً، وقالوا: أَهلُ الله، قاتل عنهم، وكفاهم مؤنة عدوهم فكان ذلك نعمة من الله عليهم[1].

* لم يتكرر في القرآن الكريم ذِكْر إهلاك أصحاب الفيل، خلافاً لقصص غيرهم من الأمم لوجهين؛

أحدهما: أن إهلاك أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسول من الله تعالى.

وثانيهما: أن لا يتخذ منه المشركون غروراً بمكانةٍ لهم عند الله تعالى، كغرورهم بقولهم المحكي في قوله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ [التوبة: ١٩]، وقوله: ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤][2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٩٩.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٤٤.

سورة قريش

قال الله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴿٢﴾ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ ـ أسماؤها:

أولاً: أسماؤها التوقيفية:

١ـ سورة (قريش): سميت بهذه التسمية في المصاحف وكتب التفسير. ووجه التسمية: لوقوع اسم قريش في مطلعها، ولتذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم. ولم يقع هذا الاسم في غيرها من سور القرآن. قال الفيروزآبادي: سميت سورة (قريش) لذكر إلفتهم فيها[1].

٢ـ سورة ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾﴾: وردت بهذا الاسم في كلام السلف؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾﴾ بمكة[2]. وعن عمرو بن ميمون الأودي قال: صلَّينا المغرب خلف عمر بن الخطاب ﷺ، فقرأ في الأولى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ﴿١﴾﴾، وفي الثانية: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ﴾، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾﴾[3]. وعن المعرور بن سويد قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب ﷺ حُجَّاجاً، فصلَّى بنا الفجر، فقرأ: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾﴾[4]. وبهذا الاسم عنون ابن العربي في أحكام القرآن، وترجم لها البخاري في صحيحه

(١) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٥.
(٢) الدر المنثور للسيوطي: ٨/ ٦٣٤.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: كتاب الصلوات، باب ما يقرأ به في المغرب: ١/ ٣٥٨.
(٤) أخرجه البيهقي في الشعب، باب في تعظيم القرآن، فصل في فضائل السور والآيات: رقم الحديث: ٢٥١٣.

وذكره الآلوسي في روح المعاني.

ثانياً: اسمها الاجتهادي: سورة ﴿لِإِيلَٰفِ﴾: وقد سمّاها به بعض المفسرين كابن الجوزي في زاد المسير، والشوكاني في فتح القدير. ووجه التسمية: أنها تسمية بلفظ وقع في أولها. ومعنى ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾: أي لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين، وقيل المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، ثم يرجعون إلى بلدهم في أسفارهم لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكان حرم الله تعالى[1].

ب ـ فضائل السورة:

أخرج الحاكم وغيره عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: (فضَّل الله قريشاً بسبع خلال: أني منهم، وأن النبوة فيهم، والحجابة والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله عزَّ وجلَّ عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن.

ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾)[2].

ج ـ مرحلة النزول:

مكية عند جماهير العلماء بلا خلاف. وذكر القرطبي عن الكلبي والضحاك أنها مدنية، ولم يذكرها السيوطي في الإتقان مع السور المختلف فيها. وقد عُدَّت التاسعة والعشرين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة (التين)، وقبل سورة (القارعة). وهي سورة مستقلة بإجماع

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٥٤٨.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه: كتاب التفسير، باب سورة (قريش): رقم الحديث: ٣٩٧٥. ورواه البيهقي في كتاب الخلافيات، والبخاري في تاريخه: ١/ ٣٢١، وهو الدر المنثور: ٨/ ٦٣٤.

المسلمين على أنها سورة خاصة. وجعلها أُبَيّ بن كعب مع سورة (الفيل) سورة واحدة، ولم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة التي كانوا يجعلونها علامة فصل بين السور، وهو ظاهر خبر عمرو بن ميمون عن قراءة عمر بن الخطاب ﷺ. والإجماع الواقع بعد ذلك نقض ذلك[١].

د ـ أسباب نزولها:

يشار إلى حديث أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله تعالى عنها السابق عند فضائل هذه السورة[٢].

هـ ـ عدد آيات سورة (قريش):

أربع آيات في عدِّ الكوفي والبصري والشامي، وخمس في عدِّ المدنيين والمكي. اختلافها في آية ﴿ مِّن جُوعٍ ﴾، عدَّها المدنيان والمكي، ولم يعدَّها الباقون[٣].

و ـ محور سورة (قريش):

تحدثت هذه السورة عن نعم الله تعالى الجليلة على قريش أهل مكة، حيث جمع الله كلمتهم، وحقق الألفة والتئام الشمل بينهم، ومكَّنهم من التنقل وحرية التجارة، فقد كانت لهم رحلتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام لتوفير الثروة والغنى، كما أكرم الله تعالى قريشاً بنعمة الأمن والاطمئنان في البلد الآمن الحرام دون نزاع من أحد.

وهنا تتجلَّى نعمتان عظيمتان من نِعَمِه الكثيرة؛ هما: نعمة الأمن والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار.

---

(١) فتح القدير: ٥/ ٤٩٧، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٥٣.

(٢) سبق تخريجه. لباب النقول للسيوطي: ص: ٣٠٨، وأسباب النزول للواحدي: ص: ٣٣٩.

(٣) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٥.

ز. المناسبات في سورة (قريش):

١. المناسبة بين سورة (قريش) ومحورها:

تأتي سورة (قريش) تنادي قريشاً للإيمان، فكأن هذا يشير إلى أن قريشاً مظنة خير، وأن كفارها عامة لم يصلوا إلى الحد الذي لم يعد ينفع معهم إنذار، ولذلك نودوا وخوطبوا وطولبوا. وجاءت الأحداث بعد ذلك، وإذا بقريش تصبح كلها مسلمة تقريباً. ومن هذا الربط بين سورة (قريش) ومحورها ندرك مظهراً من مظاهر الإعجاز في هذا القرآن، حيث إن معانيه تتكامل ولا تتناقض، وتأتي الأحداث فتصدقها[1].

٢. المناسبة في افتتاحية سورة (قريش):

أمرُ قريش بتوحيد الله تعالى، تذكيراً لهم بنعمةِ أن الله تعالى مكَّن لهم السير في الأرض للتجارة برحلتي الشتاء والصيف، لا يخشون عدواً يعدُو عليهم. وبأنه أمَّنهم من المجاعات، وأمَّنهم من المخاوف، لِما وقر في نفوس العرب من حرمتهم، لأنهم سكان الحرم وعُمَّار الكعبة. وبما ألهم الناس من جلب الميرة إليهم من الآفاق المجاورة كبلاد الحبشة. وردِّ القبائل فلا يغير على بلدهم أحد.

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٧][2].

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة (قريش) وخاتمتها:

الدلالة على ما دلت عليه سورة (الفيل) بأن إهلاك الجاحدين المعاندين لإصلاح المقرين العابدين، وهو بشارة عظيمة لقريش خاصة بإظهار شرفهم في الدارين.

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٩٥.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٥٤.



٤- المناسبة بين افتتاحية سورة (قريش) وخاتمة ما قبلها:

لما أهلك الله تعالى أصحاب الفيل، وردَّ كيدهم في نحورهم، ازداد وقع أهل مكة في القلوب، وازداد تعظيم الأمراء والملوك لهم، فازدادت تلك المنافع والمتاجر، فلذلك جاء الامتنان على قريش، وتذكيرهم بنعم الله تعالى ليوحدوه ويشكروه، وهذه السورة تبدو امتداداً لسورة (الفيل) قبلها، من ناحية موضوعها وجوِّها، وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة. والروايات تذكر أنه يفصل بين نزول السورتين تسع سور، ولكن ترتيبهما في المصحف متواليتين، يتفق مع موضوعهما القريب. فكل من السورتين تضمَّن ذِكْر نعمة مِن نِعَم الله تعالى على أهل مكة؛ فالأولى تضمَّنت إهلاك عدوهم الذي جاء ليهدم بيتهم، وهو أساس مجدهم وعزتهم، والثانية ذكرت نِعمة أخرى، هي اجتماع أمرهم، والتئام شملهم، ليتمكنوا من الارتحال صيفاً وشتاءً في تجارتهم، وجلب الميرة لهم(١).

٥- المناسبة بين مقاطع سورة (قريش) بعضها مع بعض:

هناك ثلاث اتجاهات في تعلق قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١﴾؛

فذهب ابن كثير إلى تعلقها بما قبلها أي بسورة (الفيل)، فقال: وهذه السورة مفصولة عن التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وإن كانت متعلقة بما قبلها، كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل، وأهلكنا أهله لإيلاف قريش، أي لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين(٢).

وعرض النسفي تعليقها بقوله: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ﴾، أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الواحدة التي هي نعمة ظاهرة، أو

---

(١) صفوة التفاسير: ٣/ ٦٠٦، وفي ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٨٣، وتفسير المراغي: ٣٠/ ٢٤٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٥٤٨.

بما قبله، أي: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ ﴾، يعني أن ذلك الائتلاف لهذا الإيلاف، وهذا كالتضمين في الشعر، وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح إلا به. وهما في مصحف أُبَيّ سورة واحدة بلا فصل، ويروى عن الكسائي ترك التسمية بينهما[1].

وذهب ابن جرير إلى تعليقها بفعل محذوف تقديره: اعجبوا، فقال: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن هذه اللام بمعنى التعجب، وأن معنى الكلام: اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؟ فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. والعرب إذا جاءت بهذه اللام فأدخلوها في الكلام للتعجب اكتفوا بها دليلاً على التعجب من إظهار الفعل الذي يجلبها..

ثم قال: وأما القول الذي قاله مَن حكينا قوله أنه من صلة قوله ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾، فإن ذلك لو كان كذلك لوجب أن يكون ﴿لِإِيلَٰفِ ﴾ بعض ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وأن لا تكون سورة منفصلة من ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، وفي إجماع جميع المسلمين على أنهما سورتان تامتان كل واحدة منهما منفصلة عن الأخرى ما يبين عن فساد القول الذي قاله مَن قال ذلك. ولو كان قوله ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ ﴾ من صلة قولهم ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ لم تكن ﴿أَلَمْ تَرَ ﴾ تامة حتى توصل بقوله ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ ﴾، لأن الكلام لا يتم إلا بانقضاء الخبر الذي ذكر. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل[2].

٦ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (قريش) وافتتاحية سابقتها:

لما كان ما فعله سبحانه من منع هذا الجيش العظيم الذي من قوته طاعة أكبر ما خلق الله

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٧٨.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٣٠/ ١٩٨.

من الحيوان البري فيما نعلمه ـ من دخول الحرم الذي هو مظهر قدرته، ومحل عظمته الباهرة، وعزته والمذكر بخليله عليه الصلاة والسلام، وما كان من الوفاء بعظيم خلته ـ كرامة لقريش عظيمة ظاهرة عاجلة حماية لهم عن أن تستباح ديارهم، وتسبى ذراريهم لكونهم أولاد خليله وخُدَّام بيته، وقُطَّان حرمه، ومتعززين به، ومنقطعين إليه، وعن أن يخرب موطن عزهم، ومحل أمنهم وعيشهم وحرزهم، ذكَّرهم سبحانه وتعالى ما فيه من النعمة الآجلة إكراماً ثانياً بالنظر في العاقبة، فقال مشيراً إلى أن مَن تعاظم عليه قصمه، ومَن ذَلَّ له وخدمَه أكرمه وعظَّمَه: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١﴾[1].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

اعجبوا لإيلاف[2] قريش، وهي أعظم القبائل العربية المتفرعة من النضر بن كنانة، وهي قبيلة النبي ﷺ، والإيلاف: مصدر ألف، أي عكف عليه مع الأنس به. إيلافهم بأمان واطمئنان رحلة الشتاء إلى اليمن، لأنها بلاد حارة، ورحلة الصيف إلى الشام لأنها بلاد باردة، من أجل التجارة التي جعلت لقريش نفوذاً وشهرة بين القبائل. وإيلافهم: بدل من (إيلاف) في الآية الأولى.

وإنما جيء به أولاً مطلقاً لتشويق النفوس للقيد المذكور. ومن أجل نعمة الإيلاف هذه، فليعبد القرشيون ربَّ الكعبة، التي تشرفوا بها على سائر العرب، وعاشوا بجوار البيت الحرام في أمان. الذي وسَّع عليهم في الرزق، وأطعمهم بسبب هاتين الرحلتين فتخلصوا من جوع شديد، كانوا فيه قبل الرحلتين، وجعلهم يعيشون في أمان لمكان الحرم، فلا تغير العرب عليهم، كما أمَّنهم من هجوم الحبشة مع الفيل، ومن خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم، والذي كان

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٦٠.

(٢) قرأ الجمهور: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَـٰفِهِمۡ﴾، على إفعال، والهمزة الثانية ياء، وقرأ ابن عامر: (لإئلاف) على فعال (إيلافهم)، على إفعال بياء في الثانية. الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٠١، والمحرر الوجيز: ١٥/ ٥٧٤.

ظاهرة شائعة في القبائل المجاورة الأخرى، ومن التأمينات الإلهية لهم أيضاً: تأمينهم من خوف الجذام والطاعون، فلا يصيبهم في بلدهم، فضلاً من الله ونعمة[1].

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (استجاب الله دعوة خليله إبراهيم، وهو يتوجه إليه عقب بناء البيت وتطهيره: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٢٦].. فجعل هذا البيت آمناً، وجعله عتيقاً من سلطة المتسلطين وجبروت الجبارين؛ وجعل من يأوي إليه آمناً والمخافة من حوله في كل مكان.. حتى حين انحرف الناس وأشركوا بربهم وعبدوا معه الأصنام.. لأمر يريده سبحانه بهذا البيت الحرام.

ولما توجه أصحاب الفيل لهدمه كان من أمرهم ما كان، مما فصلته سورة الفيل. وحفظ الله للبيت أمنه، وصان حرمته؛ وكان من حوله كما قال الله فيهم: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف في زيادة حرمة البيت عند العرب في جميع أنحاء الجزيرة، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش، مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمنين، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية، وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة ـ عن طريق القوافل ـ إلى اليمن في الجنوب، وإلى الشام في الشمال، وإلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين: إحداهما إلى اليمن في الشتاء، والثانية إلى الشام في الصيف.

ومع ما كانت عليه حالة الأمن في شعاب الجزيرة من سوء؛ وعلى ما كان شائعاً من غارات السلب والنهب، فإن حرمة البيت في أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرته الأمن والسلامة في هذه التجارة المغرية، وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة؛ وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول، في أمان وسلام وطمأنينة، وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين، فصارت لهم عادة وإلفاً!

---

(١) التفسير الوسيط: ص: ٢٩٣٩، والتفسير الوجيز: ص: ٦٠٤.

هذه هي المنَّة التي يذكِّرهم الله بها ـ بعد البعثة ـ كما ذكَّرهم منَّة حادث الفيل في السورة السابقة، منَّة إيلافهم رحلتي الشتاء والصيف، ومنَّة الرزق الذي أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين ـ وبلادهم قفرة جفرة، وهم طاعمون هانؤون من فضل الله، ومنَّة أمنهم الخوف، سواء في عقر دارهم بجوار بيت الله، أم في أسفارهم وترحالهم في رعاية حرمة البيت التي فرضها الله وحرسها من كل اعتداء.

يذكِّرهم بهذه المنن ليستحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله معه، وهو رب البيت الذي يعيشون في جواره آمنين طاعمين، ويسيرون باسمه مرعبين، ويعودون سالمين..

يقول لهم: من أجل إيلاف قريش: رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة، وتنال من ورائها ما تنال: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾. وكان الأصل ـ بحسب حالة أرضهم ـ أن يجوعوا، فأطعمهم الله وأشبعهم من هذا الجوع ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾.. وكان الأصل ـ بحسب ما هم فيه من ضعف وبحسب حالة البيئة من حولهم ـ أن يكونوا في خوف فآمنهم من هذا الخوف!

وهو تذكير يستجيش الحياء في النفوس. ويثير الخجل في القلوب. وما كانت قريش تجهل قيمة البيت وأثر حرمته في حياتها. وما كانت في ساعة الشدة والكربة تلجأ إلا إلى رب هذا البيت وحده. وها هو ذا عبد المطلب لا يواجه أبرهة بجيش ولا قوة. إنما يواجهه برب هذا البيت الذي يتولى حماية بيته! لم يواجهه بصنم ولا وثن، ولم يقل له.. إن الآلهة ستحمي بيتها. إنما قال له: «أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه».. ولكن انحراف الجاهلية لا يقف عند منطق، ولا يثوب إلى حق، ولا يرجع إلى معقول.

وهذه السورة تبدو امتداداً لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوها. وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة، والروايات تذكر أنه يفصل بين نزول سورة الفيل وسورة

قريش تسع سور. ولكن ترتيبهما في المصحف متواليتين يتفق مع موضوعهما القريب..[(١)].

دروس وعبر من سورة (قريش):

* تسلية رسول الله ﷺ عما يلاقيه من ظلم كفار قريش.

* تذكير قريش بنعم الله تعالى الكثيرة عليهم؛ ومنها:

أـ إهلاك أصحاب الفيل وصدهم عن مكة، كما أُهلكوا أيضاً لأجل كفرهم، وفي هذا دفع لضرر عظيم مؤكد الحصول لولا عناية الله تعالى وحمايته، وتوفير أيضاً للأمن والسلامة والاطمئنان بجوار البيت الحرام.

ب ـ نعمة الرزق وتوفير الحاجة والكفاية، بسبب ارتحالهم إلى اليمن شتاءً، وإلى الشام صيفاً، لجلب مختلف أنواع التجارات من الأطعمة والثياب، مع أمنهم من إغارة العرب عليهم، لأنهم أهل بيت الله تعالى وجيرانه.

ج ـ نعمة الأمن من المخاوف، سواء في داخل مكة حيث جعل الله تعالى لهم مكة بلداً آمناً ويتخطف الناس من حولهم، أو في خارجها عندما يتنقلون للتجارة والكسب.

دـ نعمة وجود البيت الحرام أو الكعبة المشرفة محل التعظيم والتقديس من العرب، وأساس مجدهم وعزِّهم، فإنهم شُرِّفوا بالبيت على سائر العرب، فذكَّرهم الله تعالى بهذه النعمة.

والخلاصة: أن نعم الله تعالى عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الظاهرة، وهي إيلافهم رحلتين[(٢)].

* مظاهر قدرة الله تعالى في تدبيره لخلقه وبطشه بأعدائه.

* استدل الإمام مالك رحمه الله تعالى بالسورة على أن الزمان قسمان: شتاء وصيف، وهو

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٨٢.
(٢) التفسير المنير: ٣٠/ ٤١٧.

الأصح، لأن الله تعالى قسم الزمان قسمين، ولم يجعل لهما ثالثاً، فالشتاء نصف السنة والصيف نصفها الآخر. واصطلاح علماء الميقات: تقسيم السنة أربعة أقسام: شتاء وربيع وصيف وخريف. وعلى القول الأول استدل العلماء أيضاً على جواز تصرف الرجل في الزمانين بين محلين، يكون حالهما في كل زمان أنعم من الآخر، كالجلوس في المجلس البحري في الصيف، وفي القبلي في الشتاء، وفي اتخاذ أدوات التبريد صيفاً، ووسائل الدفء شتاءً[1].

* قريش قبيلة عربية، وهم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر. وكل مَن كان مِن ولد النضر فهو قرشي دون بني كنانة ومَن فوقه. وقيل: إن قريشاً بنو فهر بن مالك بن النضر، والأول أصح. عن الأشعث بن قيس ﷺ قال: (أتيت رسول الله ﷺ في وفد كندة ولا يروني إلا أفضلهم، فقلت: يا رسول الله ألستم منا؟ فقال: نحن بنو النضر ابن كنانة، لا نقفو أمَّنا ولا ننتفي من أبينا. قال: فكان الأشعث بن قيس يقول: لا أوتى برجل نفى رجلاً من قريش من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد)[2]. وعن واثلة بن الأسقع ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسمعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى هاشماً من قريش، واصطفاني من بني هاشم)[3].

واختلف في سبب التسمية بقريش على أقوال؛ منها: لتجمعهم بعد التفرق، ومنها: لأنهم كانوا تجاراً يأكلون من مكاسبهم، ومنها: لأنهم كانوا يفتشون الحاج من ذي الخَلة، فيسدُّون خَلته ـ أي فقره وحاجته ـ، ومنها: ما روي أن معاوية سأل ابن عباس رضي الله عنهم لم سُمِّيت قريش قريشاً؟ قال: لدابة في البحر من أقوى دوابه، يقال لها القِرش؛ تأكل

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٠٧، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٥٨، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤١٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب الحدود، باب مَن نفى رجلاً مِن قبيلته، رقم الحديث: ٢٦٠٢.

(٣) جامع الترمذي: كتاب المناقب، باب في فضل النبي ﷺ، رقم الحديث: ٣٥٣٩. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب.

ولا تؤكل، وتعلو ولا تُعلى[1].

* قال الإمام الرازي في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ ﴾: اعلم أن الإنعام على قسمين: أحدهما دفع الضرر، والثاني جلب النفع، والأول أهم وأقدم، ولذلك قالوا: دفع الضرر عن النفس واجب، وأما جلب النفع فإنه غير واجب. فلهذا السبب بيَّن نعمة دفع الضرر في سورة (الفيل)، ونعمة جلب النفع في هذه السورة. ولما تقرر أن الإنعام لا بدَّ وأن يُقابَل بالشكر والعبودية، لا جرم أتبع ذكر النعمة بطلب العبودية، فقال: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا ﴾[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٠٢، والتفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٠٦، وروح المعاني: ٣٠/ ٢٣٩.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٠٧.

سورة الماعون

قال الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ ـ أسماؤها:

أولاً: اسمها التوقيفي: سورة (الماعون). ويطلق على الإعانة بالمال، وقيل: يمنعون الزكاة، وقيل: يمنعون العارية، ويطلق على ما يستعان به على عمل البيت من آنية وآلات طبخ وشدٍّ وحفر ونحو ذلك، مما لا خسارة على صاحبه في إعارته وإعطائه. وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم في كثير من المصاحف وكتب التفسير. ووجه التسمية لوقوع لفظ الماعون في نهايتها، وقد اختصت هذه السورة بهذا اللفظ، فلم يقع في غيرها من سور القرآن.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١ـ سورة ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾، أو ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ ﴾، وقد وردت التسمية عن بعض الصحابة، وعنون بها البخاري في صحيحه، وبعض المفسرين كالطبري وابن الجوزي وابن عطية والجصَّاص وغيرهم. ووجه التسمية أنها سُمِّيت بأول آية افتتحت بها، أو أول كلمة اختصاراً.

٢ـ سورة (الدين)، وعُنون بها في عدة مصاحف، كما عنون بها السخاوي والسيوطي وغيرهما. ووجه التسمية لوقوع لفظ (الدِين) في أول آياتها، والمقصود النعي على مَن يكذب بالجزاء الأخروي.

٣ـ سورة (اليتيم)، وقد سمَّاها به البقاعي والشوكاني. ووجه التسمية لوقوع لفظه في

السورة.

٤ـ سورة (التكذيب)، وقد سمَّاها به ابن عاشور والآلوسي والخفاجي وغيرهم. ووجه التسمية لوقوع هذا اللفظ في السورة أيضاً.

ب ـ مرحلة النزول:

مكية في قول الجمهور، وروي عن ابن عباس، وقال القرطبي عن قتادة: هي مدنية. وروي عن ابن عباس أيضاً، وذكر السيوطي أنه نزل ثلاث آيات من أولها بمكة، وبقيتها نزلت في المدينة. وقال هبة الله بن سلامة المفسر الضرير: وهو الأظهر، نزل نصفها بمكة في العاص بن وائل، ونصفها بالمدينة في عبد الله بن أُبَيّ المنافق. وقد عُدَّت السورة السابعة عشرة في عداد نزول السور، بناءً على أنها مكية، نزلت بعد سورة (التكاثر)، وقبل سورة (الكافرون)[١].

ج ـ أسباب نزولها:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقال السدِّي: نزلت في الوليد بن المغيرة، وقيل: في أبي جهل، كان وصيّاً ليتيم، فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه، فدفعه. وقال ابن جريج: نزلت في أبي سفيان، وكان ينحر في كل أسبوع جَزُوراً، فأتاه يتيم فسأله شيئاً، فقرعه بعصاه، فأنزل الله تعالى هذه السورة[٢].

د ـ عدد آيات سورة (الماعون):

سبع آيات في عدِّ الكوفي والبصري، وست في عدِّ الباقين، واختلافها في: ﴿يُرَآءُونَ ﴾، عدِّها الكوفي والبصري، ولم يعدَّها الباقون[٣].

---

(١) فتح القدير: ٥/ ٤٩٩، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٦٣، وزاد المسير: ٨/ ٣٢٨.

(٢) أسباب النزول للواحدي: ص: ٣٤٠.

(٣) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٦.

هـ- محور سورة (الماعون):

التنبيه على أن التكذيب بالبعث لأجل الجزاء أبو الخبائث، فإنه يُجرِّئ المكذِّب على مساوئ الأخلاق ومنكرات الأعمال، حتى تكون الاستهانة بالعظائم خلقاً له، فيصير ممن ليس له خلاق. وكل من أسمائها الأربعة في غاية الظهور في الدلالة على ذلك، بتأمل السورة، لتعرف هذه الأشياء المذكورة. فهي ناهية عن المنكرات بتصريحها؛ من إنكار الكافر للآخرة، ومراءاة المنافق بعمله، وبيان جزاء كل منهما، كما أنها داعية إلى المعالي بإفهامها وتلويحها[1].

و- المناسبات في سورة (الماعون):

١- المناسبة بين سورة (الماعون) ومحورها:

التركيز في السورة واضح في الكلام عن صفات الكافرين بتكذيبهم للجزاء وإنكارهم للبعث والحساب، والتنبيه على صفات المنافقين في سهوهم عن الصلاة ومراءاتهم ومنعهم للمعروف. فارتباط السورة بمحورها واضح، ومعانيها تتكامل مع معاني مجموعتها[2].

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (الماعون):

الاستفهام مستعمل في التعجب من حال المكذبين بالجزاء، وما أورثهم التكذيب من سوء الصنيع. فالتعجب من تكذيبهم بالدين، وما تفرع عليه من دَعِّ اليتيم، وعدم الحضِّ على طعام المسكين. وقد صيغ هذا التعجب في نظم مشوِّق، لأن الاستفهام عن رؤية مَن ثبتت له صلة الموصول يذهب بذهن السامع مذاهب شتى مِن تعرُّف المقصد بهذا الاستفهام، فإن التكذيب بالدين شائع فيهم، فلا يكون مثاراً للتعجب، فيترقب السامع ماذا يَرِد بعده، وهو قوله: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾. وفي إقحام اسم الإشارة واسم الموصول بعد

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٧٥.

(٢) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٠٣.



الفاء زيادة تشويق، حتى تقرع الصلة سمْعَ السامع، فتتمكن منه كَمَال تَمكُّن[1].

٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الماعون) وخاتمتها:

تحدثت هذه السورة المكية في مطلعها عن الكافر، وفي نهايتها المدنية عن المنافق. أما مطلعها فهو في ذمِّ الكافر المكذِّب بيوم الحساب والجزاء، ووصفته بصفتين؛ الأولى: انتهاره وزجره وطرده اليتيم، والثانية: عدم الحضِّ أو الحثِّ على إطعام المسكين، فلم يحسن في عبادة ربه، ولم يفعل الخير لغيره. وأما خاتمتها فهي في ذمِّ المنافق الذي أظهر الإسلام وأخفى الكفر، ووصفته بصفات ثلاث؛ **الأولى**: الغفلة عن الصلاة، **والثانية**: مراءاته الناس بعمله، **والثالثة**: منْعُه الماعون الذي يُستعان ويُنتفع به بين الجيران، فهو لا يعمل لله تعالى، بل يرائي في عمله وصلاته. وتوعَّدت الفريقين بالخزي والعذاب والهلاك، ولفتت الأنظار إليهم بأسلوب الاستهجان والاستغراب والتعجب من صنيعهم[2].

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الماعون) وخاتمة ما قبلها:

تأتي سورتا (الفيل) و(قريش) لتخدم قضية التدليل على اليوم الآخر، وبعد ذلك تأتي سورة (الماعون) لتحدثنا عن آثار التكذيب باليوم الآخر في السلوك البشري. مما يشير إلى الصلة الوثيقة بين السورة، وبين ما قبلها[3]. قال الآلوسي: لما ذكر سبحانه في سورة (قريش): ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾، ذمَّ عزَّ وجلَّ هنا مَن لم يحضّ على طعام المسكين، ولما قال تعالى هناك: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾ ذمَّ سبحانه هنا مَن سها عن صلاته، أو لما عدد نعمه تعالى على قريش، وكانوا لا يؤمنون بالبعث والجزاء، أتبع سبحانه امتنانه عليهم بتهديدهم بالجزاء وتخويفهم من عذابه[4].

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٦٤.

(٢) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٢٠.

(٣) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٠٠.

(٤) روح المعاني: ٣٠/ ٢٤١، والبحر المحيط: ١٠/ ٥٥٢، وتفسير المراغي: ٣/ ٢٤٧.

٥- المناسبة بين مقاطع سورة (الماعون) ومحورها:

تأتي سورة (الماعون) لتحدثنا عن آثار التكذيب باليوم الآخر في السلوك البشري؛ مِن جفاء اليتم، وعدم العطف على المسكين، ومِن تهاون في الصلاة ومراءاة فيها، ومِن منعٍ للماعون. مما يشير إلى الصلة الوثيقة بين السورة، وبين محورها[1].

٦- المناسبة بين مقاطع سورة (الماعون) بعضها مع بعض:

تستفتح السورة بالحديث عن التكذيب بيوم الجزاء، وهي صفة الكافر، ثم تتحدث عن آثار التكذيب في سلوك الإنسان، ولما كان التكذيب خُلُقاً مشتركاً بين المنافقين والكافرين، وآثاره واحدة عندهما، لم يكن في بداية السورة ما يشير إلى أن الأمر خاص بالمنافقين، ولكن خاتمة السورة ينصب الحديث فيه عن المنافقين، فالسورة تفصيل إذن لقضية ترتبط بالنفاق، وإذا كان النفاق حصيلته كفراً، فقد كان جزء من حديثها ينصبُّ على الكفر والنفاق بآن واحد[2].

٧- المناسبة بين افتتاحية سورة (الماعون) وافتتاحية سابقتها:

ترتبط هذه السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة:

الأول: ذمَّ الله تعالى في السورة السابقة الجاحدين لنعمة الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾، وذمَّ في هذه السورة مَن لم يحضّ على طعام المسكين.

الثاني: أمر الله تعالى في السورة المتقدمة بعبادته وحده وتوحيده، وذمَّ في هذه السورة الذين هم عن صلاتهم ساهون، وينهون عن الصلاة.

الثالث: عدَّد الله تعالى في السورة الأولى نِعَمَه على قريش، وهم مع ذلك ينكرون البعث ويجحدون الجزاء في الآخرة، وأتبعه هنا بتهديدهم وتخويفهم من عذابه لإنكار الدِّين، أي

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٠٠.

(٢) المصدر السابق: ١١/ ٦٧٠٠.

الجزاء الأخروي[1].

٨ـ المناسبة بين سورة (الماعون) وما بعدها:

تأتي سورة (الماعون) لتبين موقف الكافرين من الخير عامة، وموقف المنافقين من الصلاة والخير، وتأتي سورة (الكوثر) لتفرد رسول الله ﷺ بالخطاب في الصلاة والنحر، مذكِّرةً بنِعَم الله تعالى الخاصة عليه، وفي ذلك تعليم وتبيان أنه إن أعرض خلق عن الخير وفعله، ورفضوا طاعة الله عزَّ وجلَّ وأوامره، فإن هناك مَن يستجيب على الكمال لذلك، ومن أجل أمثال هؤلاء تنزل الشرائع، مهما كان عدد المعرضين كثيراً[2].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (هذه السورة ذات الآيات السبع القصيرة تعالج حقيقة ضخمة تكاد تبدل المفهوم السائد للإيمان والكفر تبديلاً كاملاً، فوق ما تطلع به على النفس من حقيقة باهرة لطبيعة هذه العقيدة، وللخير الهائل العظيم المكنون فيها لهذه البشرية وللرحمة السابغة التي أرادها الله للبشر وهو يبعث إليهم بهذه الرسالة الأخيرة.. إن هذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس، ولا تغني فيه مظاهر العبادات والشعائر، ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرد، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار في القلب تدفع إلى العمل الصالح وتتمثل في سلوك تصلح به حياة الناس في هذه الأرض وترقى. كذلك ليس هذا الدين أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة، يؤدي منها الإنسان ما يشاء، ويدع منها ما يشاء.. إنما هو منهج متكامل، تتعاون عباداته وشعائره، وتكاليفه الفردية والاجتماعية، حيث تنتهي كلها إلى غاية تعود كلها على البشر، غاية تتطهر معها القلوب، وتصلح الحياة، ويتعاون الناس ويتكافلون في الخير والصلاح والنماء.. وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد.

---

(١) التفسير المنير: ٣٠/ ٤١٩.

(٢) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧١١.

ولقد يقول الإنسان بلسانه: إنه مسلم، وإنه مصدق بهذا الدين وقضاياه، وقد يصلي، وقد يؤدي شعائر أخرى غير الصلاة، ولكن حقيقة الإيمان وحقيقة التصديق بالدين تظل بعيدة عنه، ويظل بعيداً عنها، لأن لهذه الحقيقة علامات تدل على وجودها وتحققها. وما لم توجد هذه العلامات فلا إيمان ولا تصديق مهما قال اللسان، ومهما تعبَّد الإنسان!

إن حقيقة الإيمان حين تستقر في القلب تتحرك من فورها، لكي تحقق ذاتها في عمل صالح، فإذا لم تتخذ هذه الحركة فهذا دليل على عدم وجودها أصلاً. وهذا ما تقرره هذه السورة نصاً. ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾.. إنها تبدأ بهذا الاستفهام الذي يوجه كل مَن تتأتى منه الرؤية ليرى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾؟ وينتظر مَن يسمع هذا الاستفهام ليرى إلى أين تتجه الإشارة، وإلى مَن تتجه؟ ومَن هو هذا الذي يكذب بالدين، والذي يقرر القرآن أنه يكذب بالدين.. وإذا الجواب: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾!

وقد تكون هذه مفاجأة بالقياس إلى تعريف الإيمان التقليدي.. ولكن هذا هو لباب الأمر وحقيقته.. إن الذي يكذب بالدين هو الذي يدفع اليتيم دفعاً بعنف، أي الذي يهين اليتيم ويؤذيه. والذي لا يحض على طعام المسكين، ولا يوصي برعايته. فلو صدق بالدين حقاً، ولو استقرت حقيقة التصديق في قلبه ما كان ليدع اليتيم، وما كان ليقعد عن الحض على طعام المسكين.

إن حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان، إنما هي تحوُّل في القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه في البشرية، المحتاجين إلى الرعاية والحماية. والله لا يريد من الناس كلمات. إنما يريد منهم معها أعمالاً تصدقها، وإلا فهي هباء، لا وزن لها عنده ولا اعتبار.

وليس أصرح من هذه الآيات الثلاث في تقرير هذه الحقيقة التي تمثل روح هذه العقيدة وطبيعة هذا الدين أصدق تمثيل.

ولا نحب أن ندخل هنا في جدل فقهي حول حدود الإيمان وحدود الإسلام. فتلك الحدود الفقهية إنما تقوم عليها المعاملات الشرعية. فأما هنا فالسورة تقرر حقيقة الأمر في اعتبار الله وميزانه. وهذا أمر آخر غير الظواهر التي تقوم عليها المعاملات!!

ثم يرتب على هذه الحقيقة الأولى صورة تطبيقية من صورها:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾. إنه دعاء أو وعيد بالهلاك للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون.. فمن هم هؤلاء الذين هم عن صلاتهم ساهون!

إنهم﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾..

إنهم أولئك الذين يصلون، ولكنهم لا يقيمون الصلاة. الذين يؤدون حركات الصلاة، وينطقون بأدعيتها، ولكن قلوبهم لا تعيش معها، ولا تعيش بها، وأرواحهم لا تستحضر حقيقة الصلاة وحقيقة ما فيها من قراءات ودعوات وتسبيحات. إنهم يصلون رياء للناس لا إخلاصاً لله. ومن ثم هم ساهون عن صلاتهم، وهم يؤدونها. ساهون عنها لم يقيموها. والمطلوب هو إقامة الصلاة لا مجرد أدائها. وإقامتها لا تكون إلا باستحضار حقيقتها والقيام لله وحده بها.

ومن هنا لا تنشئ الصلاة آثارها في نفوس هؤلاء المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون. فهم يمنعون الماعون. يمنعون المعونة والبر والخير عن إخوانهم في البشرية. يمنعون الماعون عن عباد الله. ولو كانوا يقيمون الصلاة حقاً لله ما منعوا العون عن عباده، فهذا هو محك العبادة الصادقة المقبولة عند الله..

وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام حقيقة هذه العقيدة، وأمام طبيعة هذا الدين. ونجد نصاً قرآنياً ينذر مصلين بالويل. لأنهم لم يقيموا الصلاة حقاً. إنما أدوا حركات لا روح فيها. ولم يتجردوا لله فيها. إنما أدوها رياءً. ولم تترك الصلاة أثرها في قلوبهم وأعمالهم فهي إذن هباء. بل هي إذن معصية تنتظر سوء الجزاء!

ونظر من وراء هذه وتلك إلى حقيقة ما يريده الله من العباد، حين يبعث إليهم برسالاته ليؤمنوا به وليعبدوه...

إنه لا يريد منهم شيئاً لذاته سبحانه ـ فهو الغني ـ إنما يريد صلاحهم هم أنفسهم. يريد الخير لهم. يريد طهارة قلوبهم، ويريد سعادة حياتهم. يريد لهم حياة رفيعة قائمة على الشعور النظيف، والتكافل الجميل، والأريحية الكريمة، والحب والإخاء، ونظافة القلب والسلوك.

فأين تذهب البشرية بعيداً عن هذا الخير؟ وهذه الرحمة؟ وهذا المرتقى الجميل الرفيع الكريم؟ أين تذهب لتخبط في متاهات الجاهلية المظلمة النكدة، وأمامها هذا النور في مفرق الطريق؟)[1].

دروس وعبر من سورة (الماعون):

* تقرير عقيدة البعث والجزاء. وذمُّ المكذِّب بالجزاء والحساب في الآخرة. واللفظ عام لا يقتصر على من كان سبب نزول الآية. والقاعدة الأصولية: العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.
* التنديد بالذين يأكلون أموال اليتامى، ويدفعونهم عن حقوقهم استصغاراً لهم واحتقاراً.

وقد استوصى النبي ﷺ بكفالة اليتيم خيراً، وجعل كافله في صحبة النبي ﷺ في الجنة. فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (كافل اليتيم له أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة، وأشار مالك بالسبابة والوسطى)[2]. وعن مالك بن الحارث رجل منهم أنه سمع النبي ﷺ يقول: (مَن ضمَّ يتيماً بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغني عنه وجبت له الجنة البتَّة، ومَن أعتق امرأً مسلماً كان فكاكه من النار، يجزي بكل عضو منه عضواً منه

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، رقم الحديث: ٥٢٩٦.

من النار)[1].

* من صفات المكذِّب بالجزاء الأخروي وقبائحه زجْرُ اليتيم، وطردُه ودفعه عن حقه، وظلمُه وقهرُه، وترْكُ الخير وعدم الحثِّ أو عدم الأمر على إطعام الفقير والمسكين، من أجل بخله وتكذيبه بالجزاء. وليس الذمُّ عامّاً، حتى يتناول مَن تركه عجزاً، ولكنهم كانوا يبخلون مع الغنى، ويعتذرون لأنفسهم[2].

* **الويل**: هو العذاب الشديد في جهنم، والتهديد العظيم لمن فعل ثلاثة أمور، أو أحدها:

أ ـ السهو عن الصلاة؛ وهو: تركها رأساً، أو فعلها مع عدم المبالاة، فلا يتم ركوعها ولا سجودها، ولا يرجو لها ثواباً إن صلاها، كما لا يخشى عقاباً إن تركها، أو تأخيرها عمداً أو تضييع وقتها بتأخيرها عن وقتها تهاوناً بها. أما السهو في الصلاة فهو أمر غير اختياري فلا يدخل تحت التكليف، وقد ثبت أن النبي ﷺ قد سها في صلاته، وكذا سها صحابته وشرع سجود السهو لمن سها. فعن مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال: (إني لأنسى أو أُنَسَّى لأسُنَّ)[3].

ب ـ الرياء؛ وحقيقته: طلب ما في الدنيا للعبادة، وطلب المنزلة في قلوب الناس، وهو أنواع:

أولها: تحسين السمت (الهيئة) مع إرادة الجاه وثناء الناس.

وثانيها: لبس الثياب القصار أو الخشنة، ليأخذ بذلك هيبة الزهد في الدنيا.

وثالثها: الرياء بالقول بإظهار السخط على أهل الدنيا، وإظهار الوعظ والتأسف على ما يفوته من فعل الخير والطاعة.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ١٨٢٥٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢١١، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٢٥.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ: كتاب النداء للصلاة، باب العمل في السهو.

ورابعها: إظهار الصلاة والصدقة، أو تحسين الصلاة لأجل رؤية الناس له. والفرق بين المنافق والمرائي: أن المنافق هو المظهر للإيمان المبطن للكفر، والمرائي هو المظهر ما ليس في قلبه من زيادة خشوع ليعتقد فيه مَن يراه أنه متدين. وقال العلماء: لا بأس بالإراءة إذا كان الغرض الاقتداء، أو نفي التهمة. واجتناب الرياء صعب إلا على مَن راض نفسه، وحملها على الإخلاص. وعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه خرج يوماً إلى مسجد رسول الله ﷺ، فوجد معاذ بن جبل ﷺ قاعداً عند قبر النبي ﷺ يبكي، فقال: ما يبكيك؟ قال: يبكيني شيء سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن يسير الرياء شرك، وإن مَن عادى لله ولياً فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يُفتقَدوا، وإن حضروا لم يُدعَوا، ولم يُعرَفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة)[1]. وعن عمرو بن مرة: حدثنا رجل في بيت أبي عبيدة أنه سمع عبد الله بن عمرو يحدث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَن سمَّع الناسَ بعمله سمَّع الله به سامعَ خلقِه وصغَّره وحقَّره. قال: فذرفت عينا عبد الله بن عمر)[2]. قال صاحب الكشاف: ولا غُمَّة في الفرائض، لأنها أعلام الإسلام، وشعائر الدين، ولأن تاركها يستحق الذمَّ والمقت، فوجب إماطة التهمة بالإظهار، وإن كان تطوعاً، فحقُّه أن يُخفَى، لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه؛ فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلاً، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين، فيُثنى عليه بالصلاح[3].

ج ـ **الماعون**؛ وهو: اسم جامع لما لا يمنع في العادة، ويسأله الفقير والغني في أغلب الأحوال، ولا يُنسَب سائله إلى لؤم، بل يُنسَب مانعه إلى اللؤم والبخل؛ كالفأس والقِدْر والدلو والغربال والقدوم والقداحة والإبرة، ويدخل فيه الماء والملح والنار والعاريَّة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب الفتن، باب مَن تُرجى له السلامة من الفتن، رقم الحديث: ٣٩٧٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ٦٥٤٤.

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٤/ ٨١٠.

وقيل: منع الزكاة، وقيل: المال، وقيل: المعروف الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم، وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (كل معروف صدقة)[1]. وقيل: المستغل من منافع الأموال.

وفي الآية وعيد وزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة، فإن البخل بها نهاية البخل وهو مخلٌّ بالمروءة.

وبالرغم من أن هذه الأوصاف واضحة في المنافقين، فإن بعضها قد يوجد في المسلم الصادق الإسلام، وحينئذ يلحقه جزء من التوبيخ؛ كالصلاة إذا تركها، ومنع الماعون إذا تعين، ويكون منعاً قبيحاً مخلاً بالمروءة في غير حال الضرورة[2].

* هذه السورة الكريمة تصلح عنواناً بارزاً لكل أنواع التكافل والتضامن الاجتماعي فيما بين الناس، حتى تسود المحبة والود، ويتآلف البشر، ويعمّ الرفاه والاستقرار أنحاء المجتمع وتعيش كل جماعة في أمن وعافية وسلام[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب كل معروف صدقة، رقم الحديث: ٥٥٦٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢١١ـ ٢١٥، والتفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١١٤، وأحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٩٧٢، وصفوة التفاسير: ٣/ ٦٠٩، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٢٥، والكشاف: ٤/ ٨١٠.

(٣) التفسير الوسيط: ٣/ ٢٩٤٢.

سورة الكوثر

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: اسمها التوقيفي:

سورة (الكوثر): وهو نهر في الجنة، وقد سُمِّيت هذه السورة باسمه، كما دونتها المصاحف وكتب التفسير، وعنون لها الترمذي في جامعه. ووجه تسميتها به لافتتاحها بذكر الكوثر.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١- سورة ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ ﴾: اشتهر اسمها عند السلف، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ ﴾ بمكة. وعن عائشة وابن الزبير ﷺ مثله. وبه عنون البخاري في صحيحه، وذكرها السخاوي في جمال القرَّاء. ووجه التسمية أنها أول آية افتتحت بها السورة.

٢- سورة (النحر): سمَّاها الآلوسي في روح المعاني، والجمل في الفتوحات، والبقاعي في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. ووجه التسمية عنده أن النحر معروف في الإبل، وذلك غاية الكرم عند العرب[1].

ب- فضائل السورة:

عن أنس ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٧٨.

متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: (أُنزلتْ عليَّ آنفاً سورة، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عزَّ وجلَّ، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم، فأقول ربِّ إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك. زاد ابن حجر في حديثه: بين أظهرنا في المسجد. وقال: ما أحدث بعدك)[(١)].

وعن عبد الله بن زيد ﷺ قال النبي ﷺ: (اصبروا حتى تلقوني على الحوض)[(٢)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمعه يقول: إن رسول الله ﷺ قال: (حوضي كما بين عدن وعمان، أبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك، أكوابه مثل نجوم السماء، مَن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً. أول الناس عليه وروداً صعاليك المهاجرين. قال قائل: ومَن هم يا رسول الله؟ قال: الشعثة رؤوسهم، الشحبة وجوههم، الدنسة ثيابهم، لا يفتح لهم السدد، ولا ينكحون المتنعمات، الذين يعطون كل الذي عليهم، ولا يأخذون الذي لهم)[(٣)].

ج- مرحلة النزول:

مكية إجماعاً، والأظهر أنها مدنية.

وقد تعارضت الأقوال والآثار في ذلك تعارضاً شديداً. وإذا صحت الرواية أنها نزلت مرتين؛ في مكة والمدينة، فحينئذ يزول الإشكال.

وعلى القول بأنها مكية عدُّوها الخامسة عشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة، باب حجة من قال: البسملة من أول كل سورة، رقم الحديث: ٦٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب في الحوض.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ٥٨٨٧.

(العاديات)، وقبل سورة (التكاثر).

وعلى القول بأنها مدنية فقد قيل: إنها نزلت في الحديبية[1]. وعلى أنها مكية فإن الأمر بالنحر جارٍ مجرى البشارة بحصول الدولة، وزوال الفقر والخوف[2].

د ـ أسباب نزولها:

أخرج البزار وغيره بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى هذا المنصبر المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا؟ ونحن أهل الحجيج، وأهل السقاية، وأهل السدانة! قال: أنتم خير منه، فنزلت السورة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في العاص بن وائل، لقي رسول الله ﷺ على باب المسجد، فوقف يحدثه حتى دخل العاص المسجد، وفيه أناس من صناديد قريش في المسجد جلوس، فلما دخل العاص قالوا له: مَن الذي كنت تحدث؟ قال: ذاك الأبتر، يعني النبي ﷺ وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله ﷺ، وكانوا يسمون مَن ليس له ابن: أبتر، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه السورة.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: بلغني أن إبراهيم ولد النبي ﷺ لما مات، قالت قريش: أصبح محمد أبتر، فغاظه ذلك، فنزلت السورة تعزية له.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عكرمة قال: لما أوحي إلى النبي ﷺ، قالت قريش: بُتِر محمد منا، فنزلت السورة[3].

وهناك روايات أخرى تشير إلى أن القائل أبو جهل، أو أبو لهب، أو عقبة بن أبي معيط،

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٧٢، وروح المعاني: ٣٠/ ٢٤٤.

(٢) فتح القدير: ٥/ ٥٠٢، والتفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٣٢.

(٣) لباب النقول للسيوطي: ص: ٣٠٩، وأسباب النزول للواحدي: ص: ٣٤١.

أو الوليد بن المغيرة.

ومجمل الروايات كلها: أن سبب نزول هذه السورة هو استضعاف النبي ﷺ واستصغار أتباعه، والشماتة بموت أولاده الذكور، ابنيه القاسم وعبد الله بمكة، وابنه إبراهيم بالمدينة والفرح بوقوع شدة، أو محنة بالمؤمنين. فنزلت هذه السورة إعلاماً بأن الرسول ﷺ قوي منتصر، وأتباعه هم الغالبون، وأن موت أبناء الرسول ﷺ لا يُضعف من شأنه، وأن مبغضيه هم المنقطعون الذين لن يبقى لهم ذِكْر وسمعة وأثر، البعيدون عن كل خير، المحرومون من أي فضل[1].

هـ- عدد آيات سورة (الكوثر):

ثلاث آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف. وهي أقصر سُوَر القرآن عدد كلمات وعدد حروف. وأما في عدد الآيات فسورة (العصر) وسورة (النصر) مثلها، ولكن كلماتها أكثر[2].

و- محور سورة (الكوثر):

تأتي سورة (الكوثر) تخاطب رسول الله ﷺ مذكِّرة له بنعمتين: العطاء للخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومنه نهر الكوثر في الجنة وبتر المبغض، وتأمره فيما بين ذلك بالصلاة والإخلاص فيها ونحر الأضاحي شكراً لله تعالى، وهما عبادتان. فمحورها يدور حول المنحة بكل خير يمكن أن يكون[3].

---

(١) زاد المسير: ٨/ ٣٣٣، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٣٠، والتفسير الوسيط: ٣/ ٢٩٤٣.

(٢) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٧، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٧٢.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٨٧، والأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٠٩، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٢٨.

ز ـ المناسبات في سورة (الكوثر):

١ـ المناسبة بين سورة (الكوثر) ومحورها:

حاصل هذه السورة المنُّ عليه ﷺ بالخير العظيم الذي من جملته النهر المادُّ من الجنة في المحشر، المورود لمن اتَّبعه، الممنوع ممن تأبّى عنه وقطعه، وأمره بالصلاة والنحر للتوسعة على المحاويج، والبشارة بقطع دابر أعدائه، ونصر جماعة أوليائه[١].

٢ـ المناسبة في افتتاحية سورة (الكوثر):

لما كانت سورة (الدين) بإفصاحها ناهية عن مساوئ الأخلاق، كانت بإفهامها داعية إلى معاني الشيم، فجاءت (الكوثر) لذلك، وكانت (الدين) قد ختمت بأبخل البخلاء، وأدنى الخلائق: المنع تنفيراً من البخل، ومما جرَّه من التكذيب، فابتدئت (الكوثر) بأجود الجود: العطاء لأشرف الخلائق، ترغيباً فيه، وندباً إليه، فكان كأنه قيل: أنت يا خير الخلق غير متلبس بشيء مما نهت عنه تلك المختتمة بمنع الماعون[٢].

٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الكوثر) وخاتمتها:

تضمنت السورة وجهاً من البديع والبيان بين الافتتاحية والخاتمة، وهو المطابقة بين أول السورة وآخرها، بين (الكوثر)، و(الأبتر)، فالكوثر الخير الكثير، والأبتر المنقطع عن كل خير[٣]. استفتحت بالحديث عن فضل الله العظيم على نبيه الكريم، بإعطائه الخير الكثير، والنعم العظيمة في الدنيا والآخرة، ومنها نهر الكوثر وغير ذلك من الخير العظيم العميم، وقد دعت الرسول ﷺ إلى إدامة الصلاة، ونحر الهدي شكراً لله تعالى. وختمت السورة ببشارة الرسول ﷺ بخزي أعدائه، ووصفت مبغضيه بالذلَّة والحقارة، والانقطاع من كل خير في الدنيا والآخرة،

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٩٣.

(٢) المصدر السابق: ٢٢/ ٢٨٧.

(٣) صفوة التفاسير: ٣/ ٦١٢.

بينما ذِكرُ الرسول ﷺ مرفوع على المنائر والمنابر، واسمه الشريف على كل لسان، خالد إلى آخر الدهر والزمان[1].

٤. المناسبة بين افتتاحية سورة (الكوثر) وخاتمة ما قبلها:

قال الرازي: هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور، وكالأصل لما بعدها من السور، وقد أورد ما شرَّف الله تعالى به نبيه محمداً ﷺ وأمته من الفضائل والمزايا والمناقب، في سورة (الضحى)، و(الانشراح)، و(التين)، و(العلق)، و(القدر)، و(البينة)، و(الزلزلة)، و(العاديات)، و(القارعة)، و(التكاثر)، و(العصر)، و(الهُمَزة)، و(العصر)، و(الفيل) و(قريش)، و(الماعون). ثم إنه سبحانه لما شرَّفه ﷺ في هذه السور من هذه الوجوه العظيمة قال بعدها: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾، أي إنا أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة المذكورة في السور المتقدمة، التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها، فاشتغل أنت بعبادة هذا الرب، وبإرشاد عباده إلى ما هو أصلح لهم.. فثبت أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها[2].

٥. المناسبة بين مقاطع سورة (الكوثر) ومحورها:

هذه السورة عشر كلمات في الكتابة، إشارة إلى أن تمام بتر شانئه يكون مع تمام السنة العاشرة من الهجرة، وكذا كان. ولم تمض السنة الحادية عشرة من الهجرة وفي جزيرة العرب إلا مَن يرى أشرف أحواله بذل نفسه وماله في حبه. وفي تقديم الجار والمجرور على الأمر بالنحر يفيد الاختصاص، وهو يفيد الإخلاص. ففي السورة تفصيل لقضايا عبادية توحيدية؛ اعبد الله بالصلاة والنحر، ولا تشرك بالله في صلاتك ونحرك[3].

---

(١) صفوة التفاسير: ٣/ ٦١٠.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١١٩.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٩٣، والأساس في التفسير: ١١/ ٦٧١١.

٦ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الكوثر) بعضها مع بعض:

في تأمُّلِ هذه السورة وهي أقصر سورة في القرآن الكريم، وتأمُّلِ محلها مما قبلها ومما بعدها وصلتها بالسياق القرآني العام القريب والبعيد، وانسجامها مع طريقة القرآن في عرض المعاني على تسلسل معين نجد عجباً. ثم إن السورة توجد فيها خصائص القرآن كله، فكلماتها أفصح الكلمات، حتى لو بحثت عن كلمة تحلُّ محلَّ كلمة من كلماتها، وتؤدي معناها وجمالها فإنك عاجز، ومعانيها هي الحق الذي لا ينقض، فليس فيها شطحة خيال، وهي في الوقت نفسه مذكِّرة وواعظة، وهي مربية ومعلمة، ومشرِّعة ومبشِّرة، ومفصِّلة ومبيِّنة، وهي مع ذلك كله لا تتناقض مع بقية معاني القرآن الكريم، بل هي وإياه كلها تخرج من مشكاة واحدة، وتصبُّ في مصبٍّ واحد، ثم إن معانيها بقدر كلماتها، بل كلماتها وحدها هي التي تسع معانيها، فهل يستطيع أحد من البشر أن يأتي بسورة من مثل هذه السور في مكانها وخصائصها[1].

٧ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الكوثر) وافتتاحية سابقتها:

هذه السورة كالمقابل للتي قبلها، لأن السابقة وصف الله تعالى فيها المنافق بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة، والرياء، ومنع الزكاة. فذكر عزَّ وجلَّ في هذه السورة في مقابلة البخل: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾، أي الخير الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة: ﴿ فَصَلِّ ﴾، أي دُمْ على الصلاة، وفي مقابلة الرياء: ﴿ لِرَبِّكَ ﴾، أي لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منْع الماعون: ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾، وأراد سبحانه التصدق بلحوم الأضاحي[2].

٨ـ المناسبة بين سورة (الكوثر) وما بعدها:

ثبت أن مخاطبة الله تعالى إياه بقوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ مما يزيل الخوف عن القلب، والجبن عن النفس، فكانت هذه السورة كالأصل لما بعدها، وهو أنه تعالى قدَّم

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧١٢.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١١٧، وروح المعاني: ٣٠/ ٢٤٤.

هذه السورة على (الكافرون) حتى يمكنه الاشتغال بذلك التكليف الشاق، وإظهار البراءة عن معبودات الكافرين جميعها بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾[1].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في سورة (الكوثر): هذه السورة خالصة لرسول الله ﷺ كسورة الضحى، وسورة (الشرح) يسرِّي عنه ربه فيها، ويعِدُه بالخير، ويوعِد أعداءه بالبتر، ويوجهه إلى طريق الشكر.

ومن ثم فهي تمثِّل صورة من حياة الدعوة، وحياة الداعية في أول العهد بمكة. صورة من الكيد والأذى للنبي ﷺ، ودعوة لله التي يبشر بها، وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده، وللقلة المؤمنة معه، ومن تثبيت الله وتطمينه، وجميل وعده لنبيه، ومرهوب وعيده لشانئه.

كذلك تمثِّل حقيقة الهدى والخير والإيمان، وحقيقة الضلال والشر والكفران؛ الأولى كثرة وفيض وامتداد، والثانية قلة وانحسار وانبتار. وإن ظنَّ الغافلون غير هذا وذاك..

ورد أن سفهاء قريش ممن كانوا يتابعون الرسول ﷺ ودعوته بالكيد والمكر وإظهار السخرية والاستهزاء، ليصرفوا جمهرة الناس عن الاستماع للحق الذي جاءهم به من عند الله، من أمثال العاص بن وائل، وعقبة بن أبي معيط، وأبي لهب، وأبي جهل، وغيرهم، كانوا يقولون عن النبي ﷺ إنه أبتر. يشيرون بهذا إلى موت الذكور من أولاده. وقال أحدهم: دعوه فإنه سيموت بلا عقب وينتهي أمره!

وكان هذا اللون من الكيد اللئيم الصغير يجد له في البيئة العربية التي تتكاثر بالأبناء صدىً ووقعاً. وتجد هذه الوخزة الهابطة من يهش لها من أعداء رسول الله ﷺ وشانئيه، ولعلها أوجعت قلبه الشريف ومسته بالغم أيضاً.

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٢٠، والبحر المحيط: ١٠/ ٥٥٥، وتفسير المراغي: ٣/ ٢٥١.



ومن ثم نزلت هذه السورة تمسح على قلبه ﷺ بالروح والندى، وتقرر حقيقة الخير الباقي الممتد الذي اختاره له ربه، وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه.

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴿٢﴾ ﴾.. والكوثر صيغة من الكثرة.. وهو مطلق غير محدود. يشير إلى عكس المعنى الذي أطلقه هؤلاء السفهاء.. إنا أعطيناك ما هو كثير فائض غزير. غير ممنوع ولا مبتور.. فإذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر الذي أعطاه الله لنبيه فهو واجده حيثما نظر أو تصور.

هو واجده في النبوة. في هذا الاتصال بالحق الكبير، والوجود الكبير. الوجود الذي لا وجود غيره، ولا شيء في الحقيقة سواه. وماذا فقد مَن وجد الله؟

وهو واجده في هذا القرآن الذي نزل عليه. وسورة واحدة منه كوثر لا نهاية لكثرته، وينبوع ثرٌّ لا نهاية لفيضه وغزارته!

وهو واجده في الملأ الأعلى الذي يصلي عليه، ويصلي على مَن يصلي عليه في الأرض، حيث يقترن اسمه باسم الله في الأرض والسماء.

وهو واجده في سنته الممتدة على مدار القرون، في أرجاء الأرض. وفي الملايين بعد الملايين السائرة على أثره، وملايين الملايين من الألسنة والشفاه الهاتفة باسمه، وملايين الملايين من القلوب المحبة لسيرته وذكراه إلى يوم القيامة.

وهو واجده في الخير الكثير الذي فاض على البشرية في جميع أجيالها بسببه وعن طريقه. سواء من عرفوا هذا الخير فآمنوا به، ومَن لم يعرفوه ولكنه فاض عليهم فيما فاض!

وهو واجده في مظاهر شتى، محاولة إحصائها ضربٌ مِن تقليلها وتصغيرها!

إنه الكوثر، الذي لا نهاية لفيضه، ولا إحصاء لعوارفه، ولا حدَّ لمدلوله. ومن ثم تركه النص بلا تحديد، يشمل كل ما يكثر من الخير ويزيد..

وقد وردت روايات من طرق كثيرة أن الكوثر نهر في الجنة أوتيه رسول الله ﷺ، ولكن ابن

عباس أجاب بأن هذا النهر هو من بين الخير الكثير الذي أوتيه الرسول. فهو كوثر من الكوثر! وهذا هو الأنسب في هذا السياق، وفي هذه الملابسات.

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾. بعد توكيد هذا العطاء الكثير الفائض الكثرة، على غير ما أرجف المرجفون وقال الكائدون، وجه الرسول ﷺ إلى شكر النعمة بحقها الأول.

حق الإخلاص والتجرد لله في العبادة وفي الاتجاه.. في الصلاة وفي ذبح النسك خالصاً لله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾.. غير ملقٍ بالاً إلى شرك المشركين، وغير مشارك لهم في عبادتهم أو في ذكر غير اسم الله على ذبائحهم.

وفي تكرار الإشارة إلى ذكر اسم الله وحده على الذبائح، وتحريم ما أهل به لغير الله، وما لم يذكر اسم الله عليه.. ما يشي بعناية هذا الدين بتخليص الحياة كلها من عقابيل الشرك وآثاره. لا تخليص التصور والضمير وحدهما. فهو دين الوحدة بكل معنى من معانيها، وكل ظل من ظلالها، كما أنه دين التوحيد الخالص المجرد الواضح. ومن ثم فهو يتتبع الشرك في كل مظاهره وفي كل مكامنه، ويطارده مطاردة عنيفة دقيقة سواء استكن في الضمير، أم ظهر في العبادة، أم تسرب إلى تقاليد الحياة، فالحياة وحدة ما ظهر منها وما بطن، والإسلام يأخذها كلاً لا يتجزأ ويخلصها من شوائب الشرك جميعاً، ويتجه بها إلى الله خالصة واضحة ناصعة، كما نرى في مسألة الذبائح، وفي غيرها من شعائر العبادة، أو تقاليد الحياة.

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾..

في الآية الأولى قرر أنه ليس أبتر بل هو صاحب الكوثر. وفي هذه الآية يرد الكيد إلى كائديه، ويؤكد سبحانه أن الأبتر ليس هو محمد ﷺ، إنما هم شانئوه وكارهوه.

ولقد صدق فيهم وعيد الله. فقد انقطع ذكرهم وانطوى. بينما امتد ذكر محمد ﷺ وعلا.

ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم، في صورة باهرة واسعة المدى كما لم يشهده سامعوه الأولون!

إن الإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبتر. فهو ممتد الفروع عميق الجذور. وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتر، مهما ترعرع وزها وتجبر..

إن مقاييس الله غير مقاييس البشر. ولكن البشر ينخدعون ويغترون، فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرر حقائق الأمور! وأمامنا هذا المثل الناطق الخالد.. فأين الذين كانوا يقولون عن محمد ﷺ قولتهم اللئيمة، وينالون بها من قلوب الجماهير، ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد ﷺ وقطعوا عليه الطريق؟ أين هم؟ وأين ذكراهم، وأين آثارهم؟ إلى جوار الكوثر من كل شيء، ذلك الذي أوتيه من كانوا يقولون عنه: الأبتر؟!

إن الدعوة إلى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون بتراء ولا أن يكون صاحبها أبتر، وكيف وهي موصولة بالله الحي الباقي الأزلي الخالد؟ إنما يبتر الكفر والباطل والشر ويبتر أهله، مهما بدا في لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور..

وصدق الله العظيم. وكذب الكائدون الماكرون..)[1].

دروس وعبر من سورة (الكوثر):

* أعطى الله تعالى نبيه محمداً ﷺ مناقب كثيرة، وخيراً كثيراً بالغاً حد النهاية، ومنه نهر في الجنة، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج)[2]. وقيل إنه حوض النبي ﷺ في الموقف، فعن أنس ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت عليَّ آنفاً سورة، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّآ

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٨٧.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة (الكوثر)، رقم الحديث: ٣٢٨٤. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

﴿ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾. ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عزَّ وجلَّ عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم، فأقول: ربِّ إنه من أمتي! فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك. زاد ابن حجر في حديثه: بين أظهرنا في المسجد، وقال: ما أحدث بعدك)[1]. وهذان القولان هما أصح الأقوال، فيكون الكوثر شاملاً نهراً في الجنة، وحوضاً عليه أمة النبي ﷺ يوم القيامة[2].

* أمر الله تعالى نبيه ﷺ وأمته بأداء الصلوات المفروضة والنوافل خالصة لوجه الله تعالى دون مشاركة أحد سواه، وأمرهم أيضاً بذبح المناسك مما يهدى إلى الحرم والأضاحي، وجميع الذبائح لله تعالى، وعلى اسم الله وحده لا شريك له. كما أخذ من وقوع الأمر بالنحر بعد الأمر بالصلاة الدلالة على أن الأضحية تكون بعد الصلاة، وعليه فالأمر بالنحر دون الذبح، مع أن الضأن أفضل في الضحايا، وهي لا تنحر، وأن النبي ﷺ لم يضحِّ إلا بالضأن تغليب للفظ النحر، وهو الذي روعي في تسمية يوم الأضحى يوم النحر، وليشمل الضحايا في البُدن، والهدايا في الحج[3].

* روي عن عليٍّ ﷺ فيما خرَّجه الدارقطني في قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ ﴾ قال: وضع اليمين على الشمال في الصلاة؛ وقد اختلف المالكية في هذه الهيئة، والصحيح كما قال القرطبي أن المصلي يفعل ذلك في الفريضة والنافلة، لأنه ثبت أن النبي ﷺ وضع يده اليمنى على اليسرى من حديث وائل بن حجر وغيره، وبه قال الجمهور، واستحب جماعة إرسال اليد. كما اختلفوا في الموضع الذي توضع عليه اليد؛ فروي عن عليٍّ أنه وضعهما على

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة، باب حجة مَن قال: البسملة آية مِن أول كل سورة، رقم الحديث: ٦٠٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢١٦، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٣٤.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٢/ ٥٧٥، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٣٥.

الصدر، وقال سعيد بن جبير وأحمد بن حنبل: فوق السرَّة، وقال: لا بأس إن كان تحت السرَّة، وهو قول طائفة غير قليلة من أهل العلم. وأما رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود فمختلف فيه أيضاً، والصواب ما في الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: (رأيت رسول الله ﷺ إذا قام في الصلاة رفع يديه حتى يكونا حذو منكبيه، وكان يفعل ذلك حين يكبر للركوع، ويفعل ذلك إذا رفع رأسه من الركوع، ويقول: سمع الله لمن حمده، ولا يفعل ذلك في السجود)[1]. قال ابن المنذر: وهذا قول الليث بن سعد، والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور، وحكى ابن وهب عن مالك هذا القول. وبه أقول: لأنه الثابت عن رسول الله ﷺ. وقالت طائفة: يرفع المصلي يديه حين يفتتح الصلاة، ولا يرفع فيما سوى ذلك. هذا قول سفيان الثوري، وأصحاب الرأي[2].

* في قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾ دليل على وجوب تقديم صلاة العيد على النحر، وهو ما عليه جمهور الفقهاء، وجائز أن يكون المراد من الآية: أي صلِّ صلاة الصبح بمزدلفة، وانحر هديك في منى[3].

وقد حمل بعض العلماء الصلاة في الآية على أنها صلاة الضحى، والنحر على أنه نحر الأضاحي بعد صلاة العيد، وهو مما يدخل ضمن عموم الآية.

وقد استعرض ابن كثير في تفسيره أقوالاً وصفها بأنها غريبة في تفسير النحر في الآية فقال: والصحيح القول الأول: أن المراد بالنحر ذبح المناسك، ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر نسكه ويقول كما في الصحيح عن البراء بن عازب ﷺ قال: (خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر بعد الصلاة، فقال: مَن صلى صلاتنا، ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأذان، باب رفع اليدين إذا كبر وإذا ركع وإذا رفع، رقم الحديث: ٦٩٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٢٠.

(٣) أيسر التفاسير: ٥/ ٦٢٢.

ومَن نسك قبل الصلاة فتلك شاة لحم، فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله! والله لقد نسكت قبل أن أخرج إلى الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب، فتعجلت وأكلت، وأطعمت أهلي وجيراني، فقال رسول الله ﷺ: تلك شاة لحم، قال: فإن عندي عناق جذعة هي خير من شاتَي لحم، فهل تجزي عني؟ قال: نعم، ولن تجزي عن أحد بعدك)[1]. قال أبو جعفر ابن جرير: والصواب قول مَن قال: إن معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك خالصاً دون سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان، شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفاء له، وخصك به، وهذا الذي قاله في غاية الحسن. وقد سبقه إلى هذا المعنى محمد بن كعب القرظي وعطاء[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجمعة، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد، رقم الحديث: ٩٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥/ ٥٥٤.

سورة الكافرون

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: أسماؤها التوقيفية:

١- سورة (الكافرون)، وبه سمِّيت السورة في المصاحف، وغالب كتب التفسير، ووجه التسمية أنه وقع لفظ (الكافرون) في فاتحتها، وفيها أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن يتبرأ من عبادة ما يعبده الكافرون.

٢- سورة ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾، وقد وردت التسمية في أحاديث عدة؛ منها ما رواه أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: أليس معك: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾؟ قال: بلى، قال: ثلث القرآن، قال: أليس معك: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: تزوج[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يقرأ في المغرب: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾ و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾[2].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾، رقم الحديث: ٢٨٢٠. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب القراءة في صلاة المغرب، رقم الحديث: ٨٢٥.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾ و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾[1].

وقد عنون بها عدد من المفسرين في كتبهم، والبخاري في صحيحه، والسخاوي في جمال القرَّاء. ووجه التسمية أنها أول آية في السورة.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١ـ سورة (المقشقشة)، وسمَّاها بهذا الاسم زرارة بن أوفى، كما أخرج عنه ابن أبي حاتم قال: (كانت هذه السورة تسمَّى المقشقشة)[2]، وكذا سمَّاها أبو عمرو بن العلاء قال: (كانت ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾ تسمَّى المقشقشة)[3].

وسمَّاها كذلك الزمخشري وابن الجوزي والرازي والجمل والآلوسي، وعدَّها السيوطي في الإتقان، والفيروزآبادي في البصائر. ووجه التسمية: لأنها تقشقش من النفاق والشرك، أي تُبرئ منهما.

٢ـ سورة (الإخلاص)، وقد سمَّاها الرازي والجمل والآلوسي في تفاسيرهم. ووجه التسمية كما ذكر الجمل في الفتوحات أنه منها إخلاص العبادة والدين، كما أن ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ في إخلاص التوحيد، واجتماع النفاق فيهما محال لمن اعتقدهما، وعمل بهما[4].

٣ـ سورة (العبادة)، وقد سمَّاها السخاوي في جمال القرَّاء، والآلوسي والسيوطي. ووجه التسمية أنها اشتملت على أمر الله سبحانه لرسوله ﷺ بأن يعلن للمشركين بأنه لا يعبد ما يعبدون

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم الحديث: ١١٩٥.

(٢) الدر المنثور: ٨/ ٦٥٥.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب، باب القراءة في تعظيم القرآن، فصل في فضائل السور والآيات، رقم الحديث: ٢٥٢٣.

(٤) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، للجمل: ٤/ ٥٩٦.

من الأصنام والأوثان، كما وردت في الفتوحات (سورة المعابدة)، ولعله من لفظ العبادة.

٤ـ سورة (المنابذة)، وقد سمَّاها الرازي في تفسيره. دونما تعليل.

٥ـ سورة (الدين)، وقد سمَّاها به الفيروزآبادي في البصائر معلِّلاً تسميتها بقوله تعالى فيها: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾[١].

ب ـ فضائل السورة:

عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: أليس معك: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾؟ قال: بلى، قال: ثلث القرآن، قال: أليس معك: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: تزوج)[٢].

وعن فروة بن نوفل ﷺ أنه أتى النبي ﷺ فقال: (يا رسول الله علِّمني شيئاً أقوله إذا أويت إلى فراشي، قال: اقرأ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾، فإنها براءة من الشرك)[٣].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾ و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾[٤].

وفي حديث الحج: ولزم رسول الله ﷺ تلبيته، قال جابر ﷺ: لسنا ننوي إلا الحج لسنا

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٨.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾، رقم الحديث: ٢٨٢٠. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب الدعوات، رقم الحديث: ٣٣٢٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم الحديث: ١١٩٥.

نعرف العمرة، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن، فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فقرأ: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥]، فجعل المقام بينه وبين البيت، فكان أبي يقول: ولا أعلمه ذكره إلا عن النبي ﷺ (كان يقرأ في الركعتين: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ و﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ ﴾)[1].

ج. مرحلة النزول:

مكية بالاتفاق في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة، وروي عن ابن الزبير أنها مدنية وهو أحد قولي ابن عباس. وقد عُدَّت الثامنة عشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة (الماعون)، وقبل سورة (الفيل)[2].

د. أسباب نزولها:

أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً، فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد، وتكفَّ عن شتم آلهتنا، ولا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة، قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي، فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ ﴾ إلى آخر السورة، وأنزل: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ۝٦٤ ﴾ [الزمر: ٦٤][3]. وذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزولها: أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمية بن خلف لقوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، هلمَّ فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله؛ فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شاركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك، كنت قد شرِكتنا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم الحديث: ٢١٣٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٧٩، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٢٤، وفتح القدير: ٥/ ٥٠٥، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٣٧.

(٣) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٣٨.

في أمرنا، وأخذت بحظك منه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ ﴾[1].

هـ- عدد آيات سورة (الكافرون):

ست آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[2].

و- محور سورة (الكافرون):

تقرير التوحيد، والبراءة من الشرك والكفر والضلال، ومن أعمال المشركين، والإخلاص في العمل لله تبارك وتعالى.

ز- المناسبات في سورة (الكافرون):

١- المناسبة بين سورة (الكافرون) ومحورها:

ذكرت هذه السورة المفاصلة بين المسلمين وغيرهم في العبادة والدين، فحددت بذلك أن العبادة التي أمر الله عزَّ وجلَّ بها في الإسلام في محور السورة تختلف عن أي عبادة أخرى، وأن الإسلام غير الأديان الأخرى، إذ كلها منسوخة بهذا الإسلام[3].

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (الكافرون):

نزلت هذه السورة تضع الحد الفاصل النهائي بين الإيمان والكفر، وبين أهل الإيمان وعبدة الأوثان، فحينما طلب المشركون المهادنة من رسول الله ﷺ، وأن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، نزلت السورة تقطع أطماع الكفار الرخيصة، وتفصل النزاع بين فريقي المؤمنين والكافرين إلى الأبد.

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٢٥.

(٢) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٨.

(٣) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٢١.



٣. المناسبة بين افتتاحية سورة (الكافرون) وخاتمتها:

اشتمل أول السورة على التشديد، وهو النداء بالكفر والتكرير، وآخرها على اللطف والتساهل، وهو قوله: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾، وقد جاء الجمع بين الأمرين، كأنه يقول: إني بالغت في تحذيركم على هذا الأمر القبيح، وما قصرت فيه، فإن لم تقبلوا قولي، فاتركوني سواء بسواء[١].

٤. المناسبة بين افتتاحية سورة (الكافرون) وخاتمة ما قبلها:

أمر الله تعالى نبيه في السورة السابقة بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، والشكر على نعمه الكثيرة، وفي هذه السورة سورة التوحيد والبراءة من الشرك تصريح باستقلال عبادته عن عبادة الكفار، فهو لا يعبد ما يعبدون من الأوثان والأصنام، وبالغ في ذلك فكرَّره وأكَّده وانتهى إلى أن له دينه، ولهم دينهم. ففيها إعلان ما فُهم مما قبلها من الأمر بإخلاص العبادة لله عزَّ وجلَّ[٢]. ولما كان أكثر شانئه قريشاً، وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، أنزل الله تعالى هذه السورة تبرِّياً منهم، وإخباراً لا شك فيه، أن ذلك لا يكون[٣].

٥. المناسبة بين مقاطع سورة (الكافرون) ومحورها:

تأتي سورة (الكافرون) لتأمر رسول الله ﷺ أن يعلن أنه لا يعبد ما يعبده الكافرون، لا حالاً ولا مستقبلاً، وهي تبين أن الناس قسمان؛ قسم استجابوا لعبادة الله وحده، وقسم لم يستجيبوا، قسم أشركوا، وقسم وحَّدوا، وتأمر إمام العابدين وسيد الموحدين وقدوة المسلمين ﷺ أن يعلن لهؤلاء الكافرين أنه لا يعبد ما يعبدون، وهذا أول مظهر من مظاهر صلة السورة بمحورها. ثم تأمر الآيات النبي ﷺ الذي أنزل عليه القرآن أن يعلن براءته من عبادة الكافرين،

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٤٦.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢٤٩، وتفسير المراغي: ٣٠/ ٢٥٤.

(٣) البحر المحيط: ١٠/ ٥٥٨.

وتميّز دينه عن دينهم، ومفاصلته لهم في أمر العبادة والدين، وذلك مظهر آخر من مظاهر صلة السورة بمحورها[1].

٦ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الكافرون) بعضها مع بعض:

في الآيات تكرار، وهو من مذاهب العرب في خطابهم، والغرض إرادة التوكيد والإفهام، لقطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله ﷺ إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم. كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز. قال القتيبي: تكرار الكلام لتكرار الوقت، وذلك أنهم قالوا: إنْ سَرَّكَ أن ندخل في دينك عاماً فادخل في ديننا عاماً، فنزلت السورة[2].

٧ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الكافرون) وافتتاحية سابقتها:

تبدو صلة سورة (الكافرون) بما قبلها واضحة، فقد عرفنا من سورة (الكوثر) أن هناك شانئين ومبغضين لرسول الله ﷺ، وهم الكافرون، وتأتي سورة (الكافرون) لتأمر رسول الله ﷺ أن يعلن مفاصلته في عبادته ودينه للكافرين، إعلاماً أنه لا يبالي بهم، وتوضيحاً لكونه على الحق، وفي سورة (الكوثر) أمر الله عزَّ وجلَّ رسوله ﷺ بنوعين من العبادة يختلف فيهما المسلمون عن غيرهم من الناس، وتأتي سورة (الكافرون) لتأمر رسول الله ﷺ أن يعلن أن إلهه الذي يعبده هو الله وحده، وأنه لن يعبد ـ حالاً أو مستقبلاً ـ آلهة الكافرين والمشركين، وأن دينه متميز عن كل دين، وهكذا تبدو الصلة والمناسبة بين السورتين واضحة لا تخفى[3].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (لم يكن العرب يجحدون الله، ولكن كانوا لا يعرفونه بحقيقته التي وصف بها نفسه؛ أحد، صمد. فكانوا يشركون به ولا يقدرونه حق قدره،

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧١٩.

(٢) تفسير البغوي: ٤/ ٣١٨.

(٣) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧١٩.

ولا يعبدونه حق عبادته، كانوا يشركون به هذه الأصنام التي يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين أو العظماء، أو يرمزون بها إلى الملائكة بنات الله، وأن بينه سبحانه وبين الجِنَّة نسباً، أو ينسون هذا الرمز ويعبدون هذه الآلهة. وفي هذه الحالة أو تلك كانوا يتخذونها لتقربهم من الله، كما حكى عنهم القرآن الكريم في سورة الزمر قولهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣].

ولقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا يعترفون بخلق الله للسموات والأرض، وتسخيره للشمس والقمر، وإنزاله الماء من السماء، كالذي جاء في سورة العنكبوت: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وفي أيمانهم كانوا يقولون: والله، وتالله، وفي دعائهم كانوا يقولون: اللهم..الخ.

وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم، وأنهم أهدى من أهل الكتاب، الذين كانوا يعيشون معهم في الجزيرة العربية، لأن اليهود كانوا يقولون: عزير ابن الله، والنصارى كانوا يقولون: عيسى ابن الله، بينما هم كانوا يعبدون الملائكة والجن على اعتبار قرابتهم من الله بزعمهم، فكانوا يعدُّون أنفسهم أهدى، لأن نسبة الملائكة إلى الله، ونسبة الجن كذلك أقرب من نسبة عزير وعيسى.. وكله شرك. وليس في الشرك خيار، ولكنهم هم كانوا يحسبون أنفسهم أهدى وأقوم طريقاً!

فلما جاءهم محمد ﷺ يقول: إن دينه هو دين إبراهيم عليه السلام قالوا: نحن على دين إبراهيم، فما حاجتنا إذن إلى ترك ما نحن عليه واتِّباع محمد؟! وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع الرسول خطة وسطاً بينهم وبينه، وعرضوا عليه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا هم لإلهه! وأن يسكت عن عيب آلهتهم وعبادتهم، وله فيهم وعليهم ما يشترط!

ولعل اختلاط تصوراتهم، واعترافهم بالله مع عبادة آلهة أخرى معه.. لعل هذا كان

يشعرهم أن المسافة بينهم وبينه قريبة، يمكن التفاهم عليها، بقسمة البلد بلدين، والالتقاء في منتصف الطريق، مع بعض الترضيات الشخصية.

ولحسم هذه الشبهة، وقطع الطريق على المحاولة، والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق.. نزلت هذه السورة بهذا الجزم، وبهذا التوكيد، وبهذا التكرار، لتنهي كل قول، وتقطع كل مساومة، وتفرق نهائياً بين التوحيد والشرك، وتقيم المعالم واضحة، لا تقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير.

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾.

نفي بعد نفي. وجزم بعد جزم. وتوكيد بعد توكيد. بكل أساليب النفي والجزم والتوكيد..

﴿ قُلْ ﴾.. فهو الأمر الإلهي الحاسم الموحي بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده. ليس لمحمد ﷺ فيه شيء. إنما هو الله الآمر الذي لا مرد لأمره، الحاكم الذي لا راد لحكمه.

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾.. ناداهم بحقيقتهم، ووصفهم بصفتهم.. إنهم ليسوا على دين، وليسوا بمؤمنين، وإنما هم كافرون. فلا التقاء إذن بينك وبينهم في طريق.

وهكذا يوحي مطلع السورة وافتتاح الخطاب، بحقيقة الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال!

﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) ﴾.. فعبادتي غير عبادتكم، ومعبودي غير معبودكم..

﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) ﴾ فعبادتكم غير عبادتي، ومعبودكم غير معبودي.

﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) ﴾.. توكيد للفقرة الأولى في صيغة الجملة الإسمية، وهي أدل على ثبات الصفة واستمرارها.

﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾.. تكرار لتوكيد الفقرة الثانية. كي لا تبقي مظنة ولا

شبهة، ولا مجال لمظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المكرر بكل وسائل التكرار والتوكيد!

ثم إجمال لحقيقة الافتراق الذي لا التقاء فيه، والاختلاف الذي لا تشابه فيه، والانفصال الذي لا اتصال فيه، والتمييز الذي لا اختلاط فيه:

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾.. أنا هنا وأنتم هناك، ولا معبر ولا جسر ولا طريق!!!

مفاصلة كاملة شاملة، وتميز واضح دقيق..

ولقد كانت هذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهري الكامل، الذي يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق. الاختلاف في جوهر الاعتقاد، وأصل التصور، وحقيقة المنهج، وطبيعة الطريق.

إن التوحيد منهج، والشرك منهج آخر.. ولا يلتقيان.. التوحيد منهج يتجه بالإنسان ـ مع الوجود كله ـ إلى الله وحده لا شريك له. ويحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان، عقيدته وشريعته، وقيمه وموازينه، وآدابه وأخلاقه، وتصوراته كلها عن الحياة وعن الوجود. هذه الجهة التي يتلقى المؤمن عنها هي الله، الله وحده بلا شريك. ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس. غير متلبسة بالشرك في أية صورة من صوره الظاهرة والخفية.. وهي تسير..

وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية. وضرورية للمدعوين..

إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الإيمان، وبخاصة في الجماعات التي عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها. وهذه الجماعات هي أعصى الجماعات على الإيمان في صورته المجردة من الغبش والالتواء والانحراف. أعصى من الجماعات التي لا تعرف العقيدة أصلاً. ذلك أنها تظن بنفسها الهدى في الوقت الذي تتعقد انحرافاتها وتتلوى! واختلاط عقائدها وأعمالها وخلط الصالح بالفاسد فيها، قد يغري الداعية نفسه بالأمل في اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد.. وهذا الإغراء في منتهى الخطورة!

إن الجاهلية جاهلية، والإسلام إسلام. والفارق بينهما بعيد. والسبيل هو الخروج عن

الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته. هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها، والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه.

وأول خطوة في الطريق هي تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية: تصوراً ومنهجاً وعملاً. الانعزال الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق. والانفصال الذي يستحيل معه التعاون إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام.

لا ترقيع. ولا أنصاف حلول. ولا التقاء في منتصف الطريق.. مهما تزيت الجاهلية بزي الإسلام، أو ادعت هذا العنوان!

وتميز هذه الصورة في شعور الداعية هو حجر الأساس. شعوره بأنه شيء آخر غير هؤلاء. لهم دينهم وله دينه، لهم طريقهم وله طريقه. لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة في طريقهم. ووظيفته أن يسيرهم في طريقه هو، بلا مداهنة ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير!

وإلا فهي البراءة الكاملة، والمفاصلة التامة، والحسم الصريح..﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾..

وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وهذا الحسم.. ما أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد في بيئة جاهلية منحرفة، وفي أناس سبق لهم أن عرفوا العقيدة، ثم طال عليهم الأمد﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[الحديد:١٦].. وأنه ليس هناك أنصاف حلول، ولا التقاء في منتصف الطريق، ولا إصلاح عيوب، ولا ترقيع مناهج.. إنما هي الدعوة إلى الإسلام كالدعوة إليه أول ما كان، الدعوة بين الجاهلية. والتميز الكامل عن الجاهلية..﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾.. وهذا هو ديني: التوحيد الخالص الذي يتلقى تصوراته وقيمه، وعقيدته وشريعته.. كلها من الله.. دون شريك.. كلها.. في كل نواحي الحياة والسلوك.

وبغير هذه المفاصلة. سيبقى الغبش وتبقى المداهنة ويبقى اللبس ويبقى الترقيع.. والدعوة

إلى الإسلام لا تقوم على هذه الأسس المدخولة الواهنة الضعيفة. إنها لا تقوم إلا على الحسم والصراحة والشجاعة والوضوح...

وهذا هو طريق الدعوة الأول: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾[1].

دروس وعبر من سورة (الكافرون):

* استدل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى وغيره بقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة، فورَّث اليهود من النصارى وبالعكس، إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به، لأن الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان، وذهب الإمام أحمد بن حنبل ومَن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس، لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يتوارث أهل ملتين شتى)[2][3].

* ذهب المحققون من أهل العلم إلى أن السورة محكمة، ولم تُنسخ بآية القتال، وأن المراد من قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ التهديد، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١ ﴾ [يونس: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ [القصص: ٥٥]، والمراد بذلك كله التهديد، لا الرضا بدين الآخرين[4].

* دلَّت السورة على اختلاف المعبود، واختلاف العبادة بين المسلمين وغيرهم، وعلى أن الكفر ملة واحدة في مواجهة الإسلام، وهذه العوامل الثلاثة تدل على أنه لا لقاء بين

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٩٠.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الفرائض، باب هل يرث المسلم الكافر، رقم الحديث: ٢٥٢٣، وأحمد في مسنده: رقم الحديث: ٦٣٧٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٥٥٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٢٩، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٤٣.

الكفر والإيمان، ولا بين أصحاب العداوة الدينية الحاقدة المتأصلة في النفس مع الإسلام وأهله.

أما اختلاف المعبود بين النبي ﷺ وأتباعه المؤمنين وبين الكفار: فهو أن الفريق الأول يعبد الله تعالى وحده لا شريك له، والفريق الثاني يعبد غير الله تعالى من الأصنام والأوثان والأنداد والشفعاء من البشر، أو الملائكة، أو الكواكب، أو غير ذلك من أباطيل الملل والنحل.

وأما اختلاف العبادة فالمؤمنون يعبدون الله تعالى بإخلاص لا شرك فيه ولا غفلة عن المعبود، وبما شرع الله تعالى لعباده من كيفية العبادة المرضية له، وأما الكفار والمشركون فيعبدون معبوداتهم بكيفيات فيها الشرك والإشراك، وبنحو اخترعوه لأنفسهم، لا يرضى عنه ربهم.

وأما الكفر فكله ملة واحدة في مواجهة الإسلام؛ لأن الدين الحق المقبول عند الله تعالى هو الإسلام، وهو الإخلاص لله تعالى والتوحيد، وأما أنواع الكفر المعارضة لمبدأ التوحيد فتشترك في صلب الاعتقاد المنحرف عن أصل التوحيد[1].

(١) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٤٤.



سورة النصر

قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ ـ أسماؤها:

أولاً: اسمها التوقيفي: سورة (النصر)، وسمِّيت به لافتتاحها بذكر النصر، وهو فتح مكة المكرمة. وبه دونت في المصاحف وكتب التفسير.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١ـ سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾، وقد سمِّيت بهذا الاسم في كلام السلف، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما صلَّى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ إلا يقول فيها: سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت:﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ قال رسول الله ﷺ: نُعِيتْ إليَّ نفسي بأنه مقبوض في تلك السنة)[2].

وقد عنون بهذا الاسم البخاري في صحيحه، والجصاص في أحكام القرآن، والآلوسي في تفسيره. ووجه التسمية بهذا الاسم لافتتاح السورة بها.

٢ـ سورة (التوديع)، ذكر ذلك الآلوسي في خبر عن ابن مسعود ﷺ، كما أوردها كل من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾، رقم الحديث: ٤٥٨٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ١٧٧٧.

الماوردي والرازي والقرطبي والجمل والشوكاني في تفاسيرهم، والفيروزآبادي في البصائر، والبقاعي في النظم. ووجه التسمية بهذا الاسم لما فيها من بيان نعي النبي ﷺ، وتوديعه الدنيا وما فيها[1].

٣ـ سورة (الفتح)، كما في بعض المصاحف، وبه عنون لها الترمذي في جامعه، ووجه التسمية بذلك لوقوع لفظ الفتح فيها، فيكون هذا الاسم مشتركاً بينها وبين سورة (الفتح).

ب ـ فضائل السورة:

وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: أليس معك: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؟ قال: بلى، قال: ثلث القرآن، قال: أليس معك: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾؟ قال: بلى قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: تزوج)[2].

وهي آخر سورة نزلت من القرآن. عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: تعلم، وقال هارون: تدري آخر سورة نزلت من القرآن نزلت جميعاً؟ قلت: نعم ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾، قال: صدقت)[3]. وروى الحافظان أبو بكر البزار والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أنزلت هذه السورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت، ثم

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٥٠.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، رقم الحديث: ٢٨٢٠. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب التفسير، رقم الحديث: ٥٣٤٩.

قام فخطب الناس، فذكر خطبته المشهورة، أي خطبة حجة الوداع[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، قالت: فقلت يا رسول الله! أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقال: خبَّرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ فتح مكة ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة، فقال: قد نُعِيَتْ إليَّ نفسي فبكت، فقال: لا تبكي، فإنكِ أول أهلي لحاقاً بي، فضحكت، فرآها بعض أزواج النبي ﷺ، فقلن: يا فاطمة رأيناك بكيتِ، ثم ضحكتِ، قالت: إنه أخبرني أنه قد نُعِيَتْ إليه نفسه فبكيت، فقال لي: لا تبكي فإنك أول أهلي لاحق بي فضحكت، وقال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ وجاء أهل اليمن، هم أرقُّ أفئدة، والإيمان يمان، والحكمة يمانية)[3].

ج- مرحلة النزول:

مدنية بالاتفاق، وقد اختلفت الروايات في تعيين نزولها؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين. فتكون على قوله السورة المائة وأربع عشرة نزلت بعد سورة (براءة)، ولم تنزل بعدها سورة أخرى. وروى الواحدي عنه قال: (نزلت منصرفه من حنين)، فيكون الفتح قد مضى، ودخول الناس في الدين أفواجاً مستقبلاً وهو في سنة الوفود سنة تسع. وعدَّها جابر بن زيد السورة المائة والثلاث في ترتيب

---

(١) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٤٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم الحديث: ٧٤٩.

(٣) أخرجه الدارمي في سننه: كتاب المقدمة، باب في وفاة النبي ﷺ، رقم الحديث: ٧٩.

نزول السور، وقال: نزلت بعد سورة (الحشر)، وقبل سورة (النور)، وهذا جار على رواية أنها نزلت عقب غزوة خيبر. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع، ثم نزلت: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣]، فعاش بعدهما رسول الله ﷺ ثمانين يوماً، ثم نزلت آية الكلالة، فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم نزل: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]، فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً، ثم نزل: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة: ٢٨١]، فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً، وقال مقاتل: سبعة أيام، وقيل غير هذا.. وللتوفيق بين الروايات نقول: لعل المراد من الرواية الأولى أن سورة (النصر) هي آخر سورة نزلت كسورة كاملة، أما كآيات فقد نزلت حتماً بعدها، إذ التحقيق أن آخر آية نزلت هي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة: ٢٨١][1].

د- أسباب نزولها:

أخرج عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح بعث خالد بن الوليد فقاتل بمن معه صفوف قريش بأسفل مكة، حتى هزمهم الله ثم أمر بالسلاح فرفع عنهم، فدخلوا في دين الله، فأنزل الله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ حتى ختمها[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لِمَ تدخل هذا الفتى معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٨٨، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٣٣، وفتح القدير: ٥/ ٥٠٨، وأسباب النزول للواحدي: ص: ٣٤٣، والأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٣٢.

(٢) لباب النقول للسيوطي: ص: ٣١١.

معهم، قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس أكذاك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ فتح مكة، فذاك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾. قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[1].

هـ- عدد آيات سورة (النصر):

ثلاث آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[2].

و- محور سورة (النصر):

الإعلام بتمام الدين، اللازم عن مدلول اسمها النصر، والإشارة إلى فتح الفتوح الأعظم فتح مكة المكرمة، وانتصار النبي ﷺ على المشركين، وانتشار الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية وانحسار ظلمة الشرك والوثنية، والإخبار بدنو أجل النبي ﷺ، وأمره بتسبيح ربه وحمده واستغفاره عند الفتوحات، وفي كل حين[3].

ز- المناسبات في سورة (النصر):

١- المناسبة بين سورة (النصر) ومحورها:

إن مجيء سورة (النصر) في مكانها، وفي بشارتها ودلالتها، وفي معناها معجزة وإعجاز، ألا ترى أن هذه التربية لرسول الله ﷺ وللمسلمين حال النصر والفتح، وإقبال الناس على الإسلام

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي، باب منزل النبي ﷺ يوم الفتح، رقم الحديث: ٣٩٥٦.

(٢) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٥٠.

(٣) نظم الدرر: ٢٢/ ٣١٤، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣/ ٢٦٨.

يستحيل أن تكون بشرية أو يفطن لها الإنسان، فالناس في النصر والفتح يبطرون ويقبلون على المتاع واللذة، بينما السورة تربِّي على غير ذلك، فهل هذا مما يخطر في قلوب البشر أن يقولوه أو يسجلوه، ففي معنى السورة، وفي انسجام معاني السورة مع بقية المعاني القرآنية التي لا يخطئها البصر، وفي الكلمات التي عبر بها عن هذا كله معجزة وإعجاز، إذ لا يحل محلها غيرها، فهي كلمات في الذروة من البلاغة والفصاحة والانتقاء أخذت مدلولاتها الإسلامية، واستعملت لتأدية هذه المدلولات على مثل هذا الكمال، وهذا شيء معجز، فأن توجد اصطلاحات خاصة لدين جديد، وأن تستعمل هذه المصطلحات ولأول مرة في ذروة من الكمال في التعبير والأداء، ذاك معنى وحده يدلك على أن هذا القرآن من عند الله تعالى[1].

٢ـ المناسبة في افتتاحية سورة (النصر):

لما كمل دينه، واتضحت شريعته، واستقر أمره ﷺ، وأدى أمانة رسالته حق أدائها، عرف ﷺ نفاذ عمره، وانقضاء أجله، وجعلت له على ذلك علامة دخول الناس في دين الله جماعات بعد التوقف والتثبط، وأمر بالإكثار من الاستغفار المشروع في أعقاب المجالس وأطراف النهار وخواتم المآخذ، مما عسى أن يتخلل من لغو أو فتور. فشرع سبحانه الاستغفار ليحرز لعباده من حفظ أحوالهم، ورعي أوقاتهم ما يفي بعليِّ أجورهم، كما وعدهم: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٥][2].

٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (النصر) وخاتمتها:

تأتي افتتاحية السورة تأمر رسول الله ﷺ في حالة النصر والفتح والإسلام بأن يسبِّح ويستغفر شكراً واعترافاً بالقصور، وهضماً للنفس، وهو درس للأمة، ومظهر آخر من مظاهر صلة السورة بمحورها، والمظهر الأول والأعلى للصلة بالمحور هو أن التسبيح بحمد الله تعالى

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٣٢.

(٢) نظم الدرر: ٢٢/ ٣١٤.



توحيد وعبادة وشكر، وأن الاستغفار عبودية وافتقار[1].

٤- المناسبة بين افتتاحية سورة (النصر) وخاتمة ما قبلها:

تأتي صلة السورة بما قبلها من حيث إن سورة (الكافرون) تتحدث عن المفاصلة بين المسلمين والكافرين، ومن قبل سورة (الكوثر) ما يفيد أن هناك مبغضين وشانئين لرسول الله ﷺ، وكل ذلك يشعر بالصراع بين جهتين: أهل الإيمان، وأهل الكفر. وتأتي سورة (النصر) ليفهم منها أن العاقبة حتماً لرسول الله ﷺ، وأن نصر الله آتٍ، وأن الدخول في دين الله أفواجاً آتٍ لا محالة؛ ولذلك فإن السورة تأمر رسول الله ﷺ بما ينبغي أن يفعله وقتذاك، فالسورة واضحة الصلة بما قبلها. ولما كان في قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ موادعة، جاء في هذه بما يدل على تخويفهم وتهديدهم، وأنه آن مجيء نصر الله تعالى، وفتح مكة، واضمحلال ملة الأصنام، وإظهار دين الله تعالى[2].

٥- المناسبة بين مقاطع سورة (النصر) ومحورها:

نفهم من سورة (النصر) أن النعمة ينبغي أن تقابلها عبادة؛ فالفتح والنصر والدخول في دين الله أفواجاً نِعَمٌ، أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقابلها بالتسبيح بحمد الله والاستغفار، وهو أصل رأيناه في محور السورة، إذ أمرَ الله عزَّ وجلَّ بعبادته وتوحيده في سياق الحديث عن نِعَمِه العامة، وهذا الأصل ترى فروعه في هذه السورة التي تبين أن نعمة أخرى من نعمه تقتضي عبادة من تسبيح واستغفار[3].

٦- المناسبة بين افتتاحية سورة (النصر) وافتتاحية سابقتها:

لما أخبر الله تعالى في السورة المتقدمة باختلاف دين الإسلام الذي يدعو إليه الرسول ﷺ

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٢٨.

(٢) البحر المحيط: ١٠/ ٥٦٢، والأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٢٨ وتفسير المراغي: ٣٠/ ٢٥٧.

(٣) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٢٨.



عن دين الكفار، أنبأه هنا بأن دينهم سيضمحل ويزول، ودينه سيعلو وينتصر وقت مجيء الفتح والنصر، حيث يصبح دين الأكثرين، وفي ذلك بيان فضل الله تعالى على نبيه ﷺ بالنصر والفتح، وانتشار دين الإسلام، وإقبال الناس أفواجاً إلى دينه؛ دين الله، كما أن فيه إشارة إلى دنو أجله ﷺ.

٧ـ المناسبة بين سورة (النصر) وما بعدها:

وجه المناسبة بما بعدها أنه لما قال تعالى في (الكافرون): ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ فكأنه قيل: إلهي ما جزاء المطيع؟ قال: حصول النصر والفتح، ثم قيل: فما جزاء العاصي؟ قال: الخسار في الدنيا، والعقاب في العقبى، كما دلت عليه سورة (تبت)[1].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (هذه السورة القصيرة.. كما تحمل البشرى لرسول الله ﷺ بنصر الله والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وكما توجهه ﷺ حين يتحقق نصر الله وفتحه، واجتماع الناس على دينه، إلى التوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار.. كما تحمل إلى الرسول ﷺ البشرى والتوجيه.. تكشف في الوقت ذاته عن طبيعة هذه العقيدة وحقيقة هذا المنهج، ومدى ما يريد أن يبلغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص، والانطلاق والتحرر.. هذه القمة السامقة الوضيئة، التي لم تبلغها البشرية قط إلا في ظل الإسلام، ولا يمكن أن تبلغها إلا وهي تلبي هذا الهدف العلوي الكريم.

وقد وردت روايات عدة عن نزول هذه السورة نختار منها رواية الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق، قال: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قوله: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه». وقال: «إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان

---

(١) روح المعاني: ٣٠/ ٢٦٠.



تواباً؛ فقد رأيتها».. ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾..

[ورواه مسلم من طريق داود بن أبي هند بهذا النص]..

وقال ابن كثير في التفسير: والمراد بالفتح ها هنا فتح مكة. قولاً واحداً. فإن أحياء العرب كانت تتلوم [أي: تنتظر] بإسلامها فتح مكة يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة، وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون: دعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبي... «الحديث».

فهذه الرواية هي التي تتفق مع ظاهر النص في السورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾.. الخ، فهي إشارة عند نزول السورة إلى أمر سيجيء بعد ذلك، مع توجيه النبي ﷺ إلى ما يعمله عند تحقق هذه البشارة وظهور هذه العلامة.

وهناك رواية أخرى عن ابن عباس؛ لا يصعب التوفيق بينها وبين هذه الرواية التي اخترناها.

قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم. فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟» فقلت لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له. قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ

﴿١﴾ فذلك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾ ﴾. فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. [تفرد به البخاري].

فلا يمتنع أن يكون الرسول ﷺ حين رأى علامة ربه أدرك أن واجبه في الأرض قد كمل وأنه سيلقى ربه قريباً. فكان هذا معنى قول ابن عباس: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له.. الخ..

ولكن هناك حديث رواه الحافظ البيهقي ـ بإسناده ـ عن ابن عباس كذلك: قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾.. دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال: «إنه قد نعيت إليَّ نفسي» فبكت. ثم ضحكت. وقالت أخبرني: أنه نعيت إليه نفسه فبكيت، ثم قال: «اصبري فإنك أول أهلي لحوقاً بي» فضحكت.

ففي هذا الحديث تحديد لنزول السورة. فكأنها نزلت والعلامة حاضرة. أي أنه كان الفتح قد تم ودخول الناس أفواجاً قد تحقق. فلما نزلت السورة مطابقة للعلامة علم رسول الله ﷺ أنه أجله.. إلا أن السياق الأول أوثق وأكثر اتساقاً مع ظاهر النص القرآني. وبخاصة أن حديث بكاء فاطمة وضحكها قد روي بصورة أخرى تتفق مع هذا الذي نرجحه.. عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «دعا رسول الله ﷺ فاطمة عام الفتح فناجاها، فبكت، ثم ناجاها فضحكت. قالت: فلما توفي رسول الله ﷺ سألتها عن بكائها وضحكها. قالت: أخبرني رسول الله ﷺ أنه يموت، فبكيت، ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران. فضحكت..» [أخرجه الترمذي].

فهذه الرواية تتفق مع ظاهر النص القرآني، ومع الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم في صحيحه. من أنه كانت هناك علامة بين الرسول ﷺ وربه هي: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾ فلما كان الفتح عرف أن قد قرب لقاؤه لربه فناجى فاطمة رضي الله عنها بما روته عنها أم سلمة رضي الله عنها.

ونخلص من هذا كله إلى المدلول الثابت والتوجيه الدائم الذي جاءت به هذه السورة القصيرة.. فإلى أي مرتقى يشير هذا النص القصير:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾﴾...

في مطلع الآية الأولى من السورة إيحاء معين لإنشاء تصور خاص، عن حقيقة ما يجري في هذا الكون من أحداث، وما يقع في هذه الحياة من حوادث. وعن دور الرسول ﷺ ودور المؤمنين في هذه الدعوة، وحدِّهم الذي ينتهون إليه في هذا الأمر.. هذا الإيحاء يتمثل في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾.. فهو نصر الله يجيء به الله: في الوقت الذي يقدره. في الصورة التي يريدها. للغاية التي يرسمها. وليس للنبي ولا لأصحابه من أمره شيء، وليس لهم في هذا النصر يد. وليس لأشخاصهم فيه كسب. وليس لذواتهم منه نصيب. وليس لنفوسهم منه حظ! إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم. وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم، وأن يقيمهم عليه حراساً، ويجعلهم عليه أمناء.. هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجاً..

وبناءً على هذا الإيحاء وما ينشئه من تصور خاص لحقيقة الأمر يتحدد شأن الرسول ﷺ ومَن معه بإزاء تكريم الله لهم، وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم. إن شأنه ـ ومن معه ـ هو الاتجاه إلى الله بالتسبيح وبالحمد والاستغفار في لحظة الانتصار.

التسبيح والحمد على ما أولاهم من منَّة بأن جعلهم أمناء على دعوته حراساً لدينه. وعلى ما أولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه، وفتحه على رسوله ودخول الناس أفواجاً في هذا الخير الفائض العميم، بعد العمى والضلال والخسران.

والاستغفار لملابسات نفسية كثيرة دقيقة لطيفة المدخل: الاستغفار من الزهو الذي قد يساور القلب، أو يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح، وفرحة الظفر بعد طول العناء. وهو مدخل يصعب توقيه في القلب البشري. فمن هذا يكون الاستغفار.

والاستغفار مما قد يكون ساور القلب أو تدسس إليه في فترة الكفاح الطويل والعناء القاسي، والشدة الطاغية والكرب الغامر.. من ضيق بالشدة، واستبطاء لوعد الله بالنصر وزلزلة كالتي قال عنها في موضع آخر: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. فمن هذا يكون الاستغفار.

والاستغفار من التقصير في حمد الله وشكره. فجهد الإنسان، مهما كان، ضعيف محدود، وآلاء الله دائمة الفيض والهملان.. ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ ﴾ [النحل: ١٨].. فمن هذا التقصير يكون الاستغفار..

وهناك لطيفة أخرى للاستغفار لحظة الانتصار.. ففيه إيحاء للنفس وإشعار في لحظة الزهو والفخر بأنها في موقف التقصير والعجز. فأولى أن تطامن من كبريائها. وتطلب العفو من ربها. وهذا يصد قوى الشعور بالزهو والغرور..

ثم إن ذلك الشعور بالنقص والعجز والتقصير والاتجاه إلى الله طلباً للعفو والسماحة والمغفرة، يضمن كذلك عدم الطغيان على المقهورين المغلوبين. ليرقب المنتصر الله فيهم، فهو الذي سلطه عليهم، وهو العاجز القاصر المقصر. وإنما سلطة الله عليهم تحقيقاً لأمر يريده هو. والنصر نصره، والفتح فتحه، والدين دينه، وإلى الله تصير الأمور.

إنه الأفق الوضيء الكريم، الذي يهتف القرآن الكريم بالنفس البشرية لتتطلع إليه، وترقى في مدارجه، على حدائه النبيل البار. الأفق الذي يكبر فيه الإنسان لأنه يطامن من كبريائه وترف فيه روحه طليقة لأنها تعنو لله!

إنه الانطلاق من قيود الذات ليصبح البشر أرواحاً من روح الله. ليس لها حظ في شيء إلا رضاه. ومع هذا الانطلاق جهاد لنصرة الخير وتحقيق الحق; وعمل لعمارة الأرض وترقية الحياة; وقيادة للبشرية قيادة رشيدة نظيفة معمرة، بانية عادلة خيرة،.. الاتجاه فيها إلى الله.

وعبثاً يحاول الإنسان الانطلاق والتحرر وهو مشدود إلى ذاته، مقيد برغباته، مثقل بشهواته. عبثاً يحاول ما لم يتحرر من نفسه، ويتجرد في لحظة النصر والغنم من حظ نفسه ليذكر الله وحده.

وهذا هو الأدب الذي اتسمت به النبوة دائماً، يريد الله أن ترتفع البشرية إلى آفاقه، أو تتطلع إلى هذه الآفاق دائماً..

كان هذا هو أدب يوسف عليه السلام في اللحظة التي تم له فيها كل شيء، وتحققت رؤياه: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وفي هذه اللحظة نزع يوسف عليه السلام نفسه من الصفاء والعناق والفرحة والابتهاج ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر. كل دعوته وهو في أبهة السلطان وفي فرحة تحقيق الأحلام:

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف: ١٠١]. وهنا يتوارى الجاه والسلطان، وتتوارى فرحة اللقاء وتجمع الأهل ولمة الإخوان، ويبدو المشهد الأخير مشهد إنسان فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه، وأن يلحقه بالصالحين عنده. من فضله ومنه وكرمه..

وكان هذا هو أدب سليمان عليه السلام وقد رأى عرش ملكة سبأ حاضراً بين يديه قبل أن يرتد إليه طرفه: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل: ٤٠]..

وهذا كان أدب محمد ﷺ في حياته كلها، وفي موقف النصر والفتح الذي جعله ربه علامة

له.. انحنى لله شاكراً على ظهر دابته ودخل مكة في هذه الصورة. مكة التي آذته وأخرجته وحاربته ووقفت في طريق الدعوة تلك الوقفة العنيدة.. فلما أن جاءه نصر الله والفتح، نسي فرحة النصر وانحنى انحناءة الشكر، وسبح وحمد واستغفر كما لقنه ربه، وجعل يكثر من التسبيح والحمد والاستغفار كما وردت بذلك الآثار. وكانت هذه سنته في أصحابه من بعده رضي الله عنهم أجمعين.

وهكذا ارتفعت البشرية بالإيمان بالله، وهكذا أشرقت وشفت ورفرفت، وهكذا بلغت من العظمة والقوة والانطلاق..»[1].

دروس وعبر من سورة (النصر):

* مشروعية نعي الميت إلى أهله.

* كل نعمة من الله تعالى تستوجب الشكر والحمد والثناء على الله تعالى بما هو أهل له، ومن أجلِّ النعم على نبي الله ﷺ وأمته تحقيق النصر والغلبة على الأعداء، وفتح مكة عاصمة الإسلام، ومقر البيت الحرام أو الكعبة المشرفة قبلة المسلمين. وقد توَّج الله سبحانه هذه النعمة العظمى بنعمة كبرى أخرى هي دخول العرب وغيرهم في دين الإسلام جماعات، فوجاً بعد فوج، وذلك لَمَّا فُتحت مكة، قالت العرب: أما إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله تعالى أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، أي طاقة، فكانوا يسلمون أفواجاً: أمة أمة.

* ختم الله تعالى هذه السورة بأمر نبيه ﷺ بالإكثار من الصلاة، والتسبيح لله تعالى، أي تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به، ولا يجوز عليه، والحمد لله على ما آتاه من الظفر والفتح وسؤال الله تعالى المغفرة مع مداومة الذكر، والله تعالى كثير القبول للتوبة على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتهم. والأمة أولى بذلك، فإذا كان ﷺ وهو

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٩٤.

معصوم، يؤمر بالاستغفار، فما الظن بغيره؟

* دين الله تعالى هو الإسلام، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

* مما استدل به على أن المراد بالفتح في السورة فتح مكة استعمال الرسول ﷺ تعبير الفتح خاصة في فتح مكة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا)[1].

* قال جمهور الفقهاء وكثير من المتكلمين: إن إيمان المقلد صحيح، لأنه تعالى حكم بصحة إيمان أولئك الأفواج، وجعله من أعظم المنن على رسول الله ﷺ، ولو لم يكن إيمانهم صحيحاً، لما ذكره في هذا المجال.

* أمر الله تعالى بالتسبيح أولاً، ثم بالحمد والاستغفار؛ لأنه قدَّم الاشتغال بما يلزم للخالق وهو التسبيح والتحميد على الاشتغال بالنفس. وقدَّم الأمر بالتسبيح حتى لا يتبادر إلى الذهن أن تأخير النصر سنين لإهمالٍ مثلاً، فالله تعالى يُنزَّه ويُقدَّس عن إهمال الحق، وأتى بالاستغفار حتى لا يفكر النبي ﷺ بالاشتغال بالانتقام ممن آذاه.

* الآية تدل على فضل التسبيح والتحميد، حيث جعل كافياً في أداء ما وجب على النبي ﷺ وأمته من شكر نعمة النصر والفتح. كما تدل على فضل الاستغفار؛ عن أبي سعيد ﷺ عن النبي ﷺ قال: (مَن قال حين يأوي إلى فراشه: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، ثلاث مرات، غفر الله له ذنوبه، وإن كانت مثل زبد البحر، وإن كانت عدد ورق الشجر، وإن كانت عدد رمل عالج، وإن كانت عدد أيام الدنيا)[2]. وعن ابن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، رقم الحديث: ٢٥٧٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ٢١٢٣.

عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن أكثرَ من الاستغفار جعل الله له من كل همٍّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب)[1]. وقد ثبت في الصحيح مداومته ﷺ على الاستغفار، فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)[2].

* اتفق الصحابة على أن هذه السورة دلت على أنه نعي لرسول الله ﷺ. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ علم النبي ﷺ أن قد نُعِيَت إليه نفسه، فقيل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ السورة كلها)[3]. وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: (إن عبداً خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده. فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا! فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر هو أعلمنا به، وقال رسول الله ﷺ: إن مِن أَمَنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر إلا خلة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر)[4]. وقد عرفوا ذلك؛ لأن الأمر بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقاً دليل على أن أمر تبليغ الدعوة قد تمَّ وكمل، وذلك يوجب الموت؛ لأنه

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب الدعوات، رقم الحديث: ٣٣١٩. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث الوصافي عبيد الله بن الوليد.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ، رقم الحديث: ٥٨٣٢. وفي صحيح مسلم: عن الأغر المزني وكانت له صحبة أن رسول الله ﷺ قال: (إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة). كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الاستغفار والاستكثار منه، رقم الحديث: ٤٨٧٠. ومعنى يغان: ما يتغشى القلب من الغفلة عن ذكر الله تعالى.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ٣٠٣٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المناقب، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، رقم الحديث: ٣٦١٥.

لو بقي بعد ذلك، لكان كالمعزول عن الرسالة، وهو غير جائز. ثم إن الأمر بالاستغفار تنبيه على قرب الأجل[1].

* موت النبي ﷺ ـ وإن كان خيراً لنا ـ فمن جهة أنا لم نستأصل بعذاب في حياته، وهو وهنٌ لنا من جهة الافتراق وانتشار الكلمة. عن أبي بردة عن أبيه قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء، قال: فجلسنا فخرج علينا، فقال: ما زلتم هاهنا؟ قلنا: يا رسول الله صلينا معك المغرب، ثم قلنا نجلس حتى نصلي معك العشاء قال: أحسنتم، أو أصبتم، قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيراً مما يرفع رأسه إلى السماء فقال: النجوم أَمَنَة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أَمَنَة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أَمَنَة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون)[2]. قال ابن الأثير: في قوله ﷺ: (أتى أصحابي ما يوعدون) إشارة إلى وقوع الفتن، ومجيء الشر عند ذهاب الخير، فإنه لما كان ﷺ بين أظهرهم كان يبين لهم ما يختلفون فيه، فلما فُقد جالت الآراء واختلفت، فكان الصحابة يسندون الأمر إلى رسول الله ﷺ في قوله أو فعله، أو دلالة حاله، فلما فُقد الصحابة قلَّ النور، وقويت الظلمة[3].

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٤٩، وتفسير الكشاف: ٣/ ٣٦٥، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٥٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه، رقم الحديث: ٤٥٩٦.

(٣) مصاعد النظر في مقاصد الآيات والسور: ٣/ ٢٧٤، وجامع الأصول: ٨/ ٥٥٥.



سورة المسد

قال الله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: اسمها التوقيفي: سورة (المسد)، وقد سمِّيت به في بعض المصاحف وكتب التفسير. ووجه التسمية به لقوله تعالى في خاتمتها: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾، أي في عنق زوجة أبي لهب حبل من ليف.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١ـ سورة (تبت)، وسمِّيت بهذا الاسم في كثير من المصاحف، وعنون لها عدد من المفسرين كالطبري والزمخشري والقرطبي والشوكاني والآلوسي وابن الجوزي، كما عنون لها البقاعي في نظمه وذكرها السخاوي والسيوطي في عداد اسم السورة. ووجه التسمية بها لافتتاحها بهذا اللفظ.

٢ـ سورة (أبي لهب)، و(اللهب)، وقد سمِّيت هذه السورة بهما في كثير من المصاحف.

وعنون بها بعض المفسرين في تفاسيرهم؛ كالنسفي، وأبي حيان، والقاسمي، وترجم لها الحاكم في مستدركه. ووجه التسمية بهذا الاسم لوقوع هذه الكلمة في أول آية منها.

٣ـ سورة (ما كان من أبي لهب)، كذا عنونها ابن العربي في أحكام القرآن.

٤ـ سورة ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾، وبذلك وردت عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة كما أخرج ابن مردويه عنهم أنهم قالوا: (أنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ بمكة)[1]. وبه

---

(١) الدر المنثور: ٨/ ٦٦٥.

عنون لها البخاري في صحيحه، والترمذي في جامعه.

ب ـ مرحلة النزول:

مكية باتفاق، وعُدَّت السادسة من السور نزولاً، نزلت بعد سورة (الفاتحة)، وقبل سورة (التكوير)، وذلك في السنة الرابعة من البعثة[1].

ج ـ أسباب نزولها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيَّ؟ قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ ﴾[2].

وأخرج ابن جرير من طريق إسرائيل عن ابن إسحاق، وابن المنذر عن عكرمة عن رجل من همدان يقال له يزيد بن زيد: أن امرأة أبي لهب كانت تلقي في طريق النبي الشوك، فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ إلى: ﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾ ﴾[3].

د ـ عدد آيات سورة (المسد):

خمس آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[4].

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٢/ ٥٩٩، وفتح القدير: ٥/ ٥١١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾، رقم الحديث: ٤٣٩٧.

(٣) لباب النقول للسيوطي: ص: ٣١١، وأسباب النزول للواحدي: ص: ٣٤٤.

(٤) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٥٢.

هـ- محور سورة (المسد):

التبُّ والقطع الحتم بخسران الكافر، ولو كان أقرب الخلق إلى أعظم الفائزين. وبيان جزاء أبي لهب وهلاكه، ودخوله نار جهنم، لشدة إيذائه للنبي ﷺ ومعاداته له، وصدِّه الناس عن الإيمان به، وزجره على قوله: (تبّاً لك ألهذا جمعتنا؟)، ووعيده على ذلك، ووعيد امرأته على انتصارها لزوجها، وعونها له على كفره وجحوده وعناده، وبغضها للنبي ﷺ[1].

و- المناسبات في سورة (المسد):

١- المناسبة بين سورة (المسد) ومحورها:

يعطي الله سبحانه في هذه السورة نموذجاً على هؤلاء الخاسرين من الرجال والنساء، وأي نموذج؟ عمُّ رسول الله ﷺ وزوجة عمه، وفي ذلك ما فيه من التحذير والإنذار، وقطع الطمع والإبعاد عن الأماني.

فمِن ربط السورة بمحورها ندرك أن أبا لهب وزوجته هما النموذجان الرجالي والنسائي على الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، ومن ثم استحقوا إضلال الله عزَّ وجلَّ[2].

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (المسد):

حاصل هذه السورة أن أبا لهب قطع رحمه، وجار عن قصد السبيل، واجتهد في إضلال غيره، وظلم الناصح له الرؤوف به، الذي لم يأل جهداً في نصحه، على ما تراه من أنه لم يأل هو جهداً في أذاه، واعتمد على ماله وأكسابه، فهلك وأهلك امرأته معه، ومَن تبعه من أولاده[3].

---

(١) نظم الدرر: ٢٢/ ٣٤٢، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣/ ٢٧٦.

(٢) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٣٨.

(٣) نظم الدرر: ٢٢/ ٣٤٢.

٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (المسد) وخاتمتها:

خُتمت سورة (الكافرون) بقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾، وجاءت سورة (النصر) تُبشِّر رسول الله ﷺ بالنصر على الكافرين، وتأتي سورة (المسد) لتتحدث عن مآل الكافرين وخسرانهم من خلال الحديث عن شخصية آذت رسول الله ﷺ هي وزوجها الإيذاء الكثير، وحرصت على ردِّ وصدِّ الناس عن الإسلام، فهي داخلة دخولاً أولياً في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

ومن ثم فللسورة صلتها الوثيقة بما قبلها، فليس أعداء الله مغلوبين فقط، بل مَن حارب رسول الله ﷺ فيها، واستمر على ذلك فإنه كذلك معذَّب عند الله عزَّ وجلٍّ يوم القيامة وفي الآخرة، وهو نصر ثان لرسول الله ﷺ، ففي سورة (النصر) تسجيل للنصر الدنيوي على الكافرين، وفي سورة (المسد) تسجيل للنصر الأخروي على الكافرين[1].

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (المسد) وخاتمة ما قبلها:

وجه المناسبة والاتصال بما قبلها أنه من اتصال الوعد بالوعيد، وفي كلٍ مسرَّة له ﷺ، فلما قال تعالى في آخر (الكافرون): ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾، فكأنه ﷺ قال: إلهي فما جزائي؟ فقال الله تعالى: لك النصر والفتح، فقال: فما جزاء عمِّي الذي دعاني إلى عبادة الأصنام؟ فقال: تبَّتْ يداه، وقدَّم الوعد على الوعيد ليكون النصر متصلاً بقوله تعالى: ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾، والوعيد راجعاً إلى قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾، على حدِّ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] فتأمل هذه المجانسة الحاصلة بين هذه السور، مع أن سورة (النصر) من آخر ما نزل بالمدينة، و(تبَّتْ) من أوائل ما نزل بمكة، لتعلم أن ترتيبها من الله تعالى، وبأمره عزَّ وجلَّ[2].

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٣٨.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢٥٩.



٥ـ المناسبة بين مقاطع سورة (المسد) ومحورها:

نزلت هذه السورة في أوائل الإسلام، ومن المعلوم أن كثيرين ممن حاربوا الدعوة الإسلامية ابتداءً قد دخلوا الإسلام فيما بعد ذلك؛ كعمر، وخالد، وأبي سفيان، وغيرهم كثير. فأنْ تذكر السورة أن أبا لهب وزوجته سيدخلان النار، فهذا إخبار بالغيب أنهما سيبعثان على كفرهما، وقد تحقق هذا، وفي ذلك وحده معجزة من معجزات هذا القرآن، تقطع بأنه من عند الله عزَّ وجلَّ. كذلك تفسِّر السورة الخسران الذي تحدث عنه محور السورة، وهو دخول أبي لهب وزوجته نار جهنم، وأي خسران أكبر من ذلك؟ ومن الخسران أن لا يغني عن الإنسان ماله وولده شيئاً، ومن الخسران أن يذمَّ الله أحداً أو يحقره، فما أشدَّه من خسران، ولذلك كله صلة بمحور السورة[١].

٦ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (المسد) وافتتاحية سابقتها:

هناك تقابل بين هذه السورة والتي قبلها؛ ففي سورة (النصر) ذكر الله تعالى أن جزاء المطيع حصول النصر والفتح في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة، وفي هذه السورة ذكر أن عاقبة العاصي الخسار في الدنيا والعقاب في الآخرة أو العقبى، فلما ذكر فيما قبلها دخول الناس في دين الله تعالى، أتبع بذكر مَن لم يدخل في الدين، وخسر ولم يدخل فيما دخل فيه أهل مكة من الإيمان[٢].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

يقول صاحب الظلال في هذه السورة: (أبو لهب [واسمه عبد العزى بن عبد المطلب] هو عم النبي ﷺ وإنما سمي أبو لهب لإشراق وجهه، وكان هو وامرأته «أم جميل» من أشد الناس إيذاءً لرسول الله ﷺ وللدعوة التي جاء بها..

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٤٢.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢٦٠، والبحر المحيط: ١٠/ ٥٦٥، وتفسير المراغي.

قال ابن اسحاق: «حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال: سمعت ربيعة ابن عباد الديلي يقول: «إني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل، ووراءه رجل أحول، وضيء الوجه ذو جمة، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: «يا بني فلان. إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به»، وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان. هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقمس، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال عمه أبو لهب. [ورواه الإمام أحمد والطبراني بهذا اللفظ].

فهذا نموذج من نماذج كيد أبي لهب للدعوة وللرسول ﷺ، وكانت زوجته أم جميل في عونه في هذه الحملة الدائبة الظالمة. [وهي أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان].

ولقد اتخذ أبو لهب موقفه هذا من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول للدعوة. أخرج البخاري بإسناده عن ابن عباس، أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل فنادى: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم؟ أكنتم مصدِّقيَّ؟ قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تبّاً لك. فأنزل الله: ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ ﴾ الخ.. وفي رواية: فقام ينفض يديه وهو يقول: تبّاً لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله السورة[1].

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النبي ﷺ ولو لم يكونوا على دينه، تلبية لدافع العصبية القبلية، خرج أبو لهب على إخوته، وحالف عليهم قريشاً، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم وتجويعهم كي يسلموا لهم محمداً ﷺ.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ ﴾، رقم الحديث: ٤٥٩١.



وكان قد خطب بنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم لولديه قبل بعثة النبي ﷺ، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما حتى يثقل كاهل محمد ﷺ بهما!

وهكذا مضى هو وزوجته أم جميل يثيرانها حرباً شعواء على النبي ﷺ وعلى الدعوة، لا هوادة فيها ولا هدنة. وكان بيت أبي لهب قريباً من بيت رسول الله ﷺ فكان الأذى أشد. وقد روي أن أم جميل كانت تحمل الشوك فتضعه في طريق النبي؛ وقيل: إن حمل الحطب كناية عن سعيها بالأذى والفتنة والوقيعة.

نزلت هذه السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته. وتولى الله سبحانه عن رسوله ﷺ أمر المعركة!

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾.. والتباب: الهلاك، والبوار، والقطع. و﴿ تَبَّتْ ﴾ الأولى دعاء. و﴿ وَتَبَّ ﴾ الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء. ففي آية قصيرة واحدة في مطلع السورة تصدر الدعوة وتتحقق، وتنتهي المعركة ويسدل الستار!

فأما الذي يتلو آية المطلع فهو تقرير ووصف لما كان.

﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ ﴾.. لقد تبت يداه وهلكتا وتبَّ هو وهلك. فلم يغنِ عنه ماله وسعيه، ولم يدفع عنه الهلاك والدمار.

ذلك ـ كان ـ في الدنيا. أما في الآخرة فإنه: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾.. ويذكر اللهب تصويراً وتشخيصاً للنار وإيحاءً بتوقدها وتلهبها.

﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ ﴾.. ﴿ حَمَّالَةَ ﴾ منصوب بفعل مقدَّر، أي: أريد أو أذمُّ[1].

---

(١) اختلف القراء في قراءة (حمَّالة)؛ فذهب الجمهور إلى الرفع على أنه خبر، أو نعت للمبتدأ: (وامرأته)، وقرأ عاصم بالنصب على الذمّ، كأنها اشتهرت به، على تقدير: أذمُّ حمَّالةَ الحطب. وقد جاءت الصفة للذمِّ لا للتخصيص. الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٤٠.



وستصلاها معه امرأته حالة كونها حمالة للحطب.. وحالة كونها: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾.. أي من ليف.. تشدُّ هي به في النار. أو هي الحبل الذي تشدُّ به الحطب. على المعنى الحقيقي إن كان المراد هو الشوك. أو المعنى المجازي إن كان حمل الحطب كناية عن حمل الشر والسعي بالأذى والوقيعة.

في الأداء التعبيري للسورة تناسق دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوِّها، نقتطف في بيانه سطوراً من كتاب (مشاهد القيامة في القرآن)، نمهِّد بها لوقع هذه السورة في نفس أم جميل، التي ذعرت لها وجُنَّ جنونها: (أبو لهب سيصلى ناراً ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب، ستصلاها وفي عنقها حبل من مسد). تناسق في اللفظ، وتناسق في الصورة، فجهنم هنا نار ذات لهب، يصلاها أبو لهب! وامرأته تحمل الحطب، وتلقيه في طريق محمد ﷺ لإيذائه (بمعناه الحقيقي أو المجازي).. والحطب مما يوقد به اللهب، وهي تحزم الحطب بحبل. فعذابها في النار ذات اللهب أن تغلَّ بحبل من مسد، ليتم الجزاء من جنس العمل. وتتم الصورة بمحتوياتها الساذجة: الحطب، والحبل، والنار، واللهب يصلى به أبو لهب وامرأته حمالة الحطب! وتناسق من لون آخر، في جرس الكلمات، مع الصوت الذي يحدثه شدُّ أحمال الحطب، وجذب العنق بحبل من مسد. اقرأ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ تجد فيها عنف الحزم والشدِّ! الشبيه بحزم الحطب وشدِّه، والشبيه كذلك بغلِّ العنق وجذبه، والشبيه بجوِّ الحنق والتهديد الشائع في السورة. وهكذا يلتقي تناسق الجرس الموسيقي، مع حركة العمل الصوتية، بتناسق الصور في جزئياتها المتناسقة، بتناسق الجناس اللفظي، ومراعاة النظير في التعبير، ويتسق مع جو السورة وسبب النزول، ويتم هذا كله في خمس فقرات قصار، وفي سورة من أقصر سور القرآن.

هذا التناسق القوي في التعبير جعل أم جميل تحسب أن الرسول ﷺ قد هجاها بشعر. وبخاصة حين انتشرت هذه السورة، وما تحمله من تهديد ومذمة وتصوير زري لأم جميل خاصة. تصوير يثير السخرية من امرأة معجبة بنفسها، مدلة بحسبها ونسبها. ثم ترتسم لها هذه الصورة: ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾! في هذا الأسلوب القوي

الذي يشيع عند العرب!

فهكذا بلغ منها الغيظ والحنق، من سيرورة هذا القول الذي حسبته شعراً، [وكان الهجاء لا يكون إلا شعراً] مما نفاه لها أبو بكر وهو صادق! ولكن الصورة الزرية المثيرة للسخرية التي شاعت في آياتها، قد سجلت في الكتاب الخالد، وسجلتها صفحات الوجود أيضاً تنطق بغضب الله وحربه لأبي لهب وامرأته جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله، والتباب والهلاك والسخرية والزراية جزاء الكائدين لدعوة الله في الدنيا، والنار في الآخرة جزاءً وفاقاً، والذل الذي يشير إليه الحبل في الدنيا والآخرة جميعاً...»[1].

دروس وعبر من سورة (المسد):

* قال العلماء: في هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾، فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، لم يقيض لهما أن يؤمنا، ولا واحداً منهما لا باطناً ولا ظاهراً، لا مسرّاً ولا معلناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة[2].

* أخرج ابن أبي حاتم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: لما نزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ أقبلت أم جميل ولها ولولة، وبيدها حجر، وهي تقول:

مذمَّماً قلَيْنَا وديِنَه أَبيْنَا وأمرَه عصَيْنَا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد، ومعه أبو بكر ﷺ، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: إنها لن تراني، وقرأ قرآناً اعتصم به: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٤٠٠٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥/ ٥٦١.

﴿٤٥﴾ [الإسراء: ٤٥]، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ﷺ، ولم ترَ رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر: إني أُخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا وربِّ هذا البيت ما هجاكِ، فولَّت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها.

وقد استدل العلماء على جواز المعاريض من حكاية أم جميل هذه، فإن أبا بكر ﷺ حلف أنه ما هجاكِ، وهذا من باب المعاريض، لأن القرآن لا يسمَّى هجواً، ولأنه كلام الله تعالى لا كلام الرسول ﷺ، فدلَّت هذه الحكاية على المعاريض، والتعريض في الكلام بخلاف التصريح، وهو ما يفهم به السامع مرادَه من غير تصريح، وهو التورية[1].

وقد نُقِل عن بعض السلف: إن في المعاريض مندوحة عن الكذب، أي: منَعَة. قال عمر ﷺ: أمَا في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب؟

وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب، فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً، ولكن التعريض أهون. وتباح المعاريض لغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح[2].

* في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ إلى أن المراد به بنوه، فكأنه تعالى قال: ما أغنى عنه ماله وولده.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: (إن لي مالاً ووالداً وإن والدي يريد أن يجتاح مالي، قال: أنت ومالك لوالدك، إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم)[3].

وعن إبراهيم عن عمارة بن عمير عن عمته أنها سألت عائشة رضي الله عنها: في حجري

---

(١) القاموس المحيط: ص: ٨٣٤، ومختار الصحاح: ص: ٣٦٤، والتعريفات: ص: ٨٥.
(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٧٢، والموسوعة الفقهية الكويتية: ٣٤/ ٢١١.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ٦٧٠٦.

يتيم أفآكل من ماله؟ فقالت: قال رسول الله ﷺ: (إن من أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه)[1].

وروي أن أولاد أبي لهب اختصموا عند ابن عباس رضي الله عنهما، فتنازعوا وتدافعوا فقام ابن عباس يحجز بينهم، فدفعه أحدهم فوقع على فراشه، وكان قد كُفَّ بصره، فغضب وصاح: أخرجوا عني الكسب الخبيث[2].

* في قصة أم جميل السابقة إشارة إلى أن قريشاً كانت تسمِّي رسول الله ﷺ مذمَّماً، هِجاءً وسبَّاً وشتيمة، وأن النبي ﷺ كان يقابل ذلك بالصبر والتحمل، ولا يزيد في ردِّه سوى ذكر الحقيقة بإعلان اسمه وإشهاره، دونما مقابلة للسوء بسوء.

عن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس المؤمن بالطعَّان ولا اللعَّان ولا الفاحش ولا البذيء)[3].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمَّماً، ويلعنون مذمَّماً، وأنا محمد)[4].

وفي هذا درس عملي، وهدي نبوي، وتوجيه تربوي للأمة جميعاً أن تقتدي بهذا النبي ﷺ وتتأسى به في السلوك والمنهج والعلاقات الاجتماعية، وعلى طريق الدعوة، خاصة في المواقف الصعبة التي تحتاج لعزائم الرجال التي تتطلب شموخاً في التحمُّل، تتعالى سمّواً كالجبال، كما تحتاج إلى شيم الكرام التي تأبى في أنَفَتِها ذلاً وصَغَاراً في تعاملها مع أولي النفوس اللئام.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب البيوع، باب في الرجل يأكل من مال ولده، رقم الحديث: ٣٠٦١.

(٢) المحرر الوجيز: ١٥/ ٥٩٦.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في اللعنة، رقم الحديث: ١٩٠٠. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وقد روي عن عبد الله من غير هذا الوجه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء النبي ﷺ، رقم الحديث: ٣٢٦٩.

* عدم إغناء القرابة شيئاً مع الشرك والكفر، إذ أبو لهب عمُّ النبي ﷺ، وهو في النار ذات اللهب. كما لا يغني المال ولا الولد عن العبد شيئاً من عذاب الله تعالى، إذا عمل بمساخطه وترك مراضيه[1].

٦ـ تضمنت الآيات الأولى الإخبار عن الغيب من ثلاثة وجوه:

أحدها: الإخبار عن أبي لهب بالتباب والخسار، وبوقوع ذلك فعلاً.

وثانيها: الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده، وبوقوع ذلك فعلاً.

وثالثها: الإخبار عنه بأنه من أهل النار، وقد كان ذلك، لأنه مات على الكفر. وقد استنبط بعض علماء الأصول من قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾ جواز التكليف بما لا يطاق، لأن أبا لهب مكلف بأن يؤمن بمحمد ﷺ، ومكلَّف أن يؤمن بهذه السورة وصحتها فكأنه قد كُلِّف أن يؤمن، وأن يؤمن بأنه لا يؤمن.

قال الأصوليون: ومتى ورد تكليف ما لا يطاق فهي أمارة من الله تعالى أنه قد حتم عليه عذابه، أي عذاب ذلك المكلف، لقصة أبي لهب[2].

---

(١) أيسر التفاسير: ٥/ ٦٢٧.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٧١، والتفسير الوسيط: ص: ٢٩٥٦، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٥٩.

سورة الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: أسماؤها التوقيفية:

١- سورة (الإخلاص)، وهو أشهر أسمائها. وبه عنونت المصاحف ومعظم كتب التفسير. كما ترجم لها الترمذي في جامعه.

ووجه التسمية: لأنها تتناول الحديث عن إخلاص العبادة لله تعالى وتوحيده، وتنزيهه عن كل نقص وشرك. وتعني كلمة الإخلاص كلمة التوحيد.

٢- سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾، وقد وردت الأحاديث بشهرته: فعن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: (أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟ قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟! قال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ تعدل ثلث القرآن)[1]. وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾ و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾[2]. وبه عنون البخاري في صحيحه، والآلوسي في تفسيره، والبقاعي في النظم.

ووجه التسمية به لافتتاحها بأول آية بها.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾، رقم الحديث: ١٣٤٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم الحديث: ١١٩٥.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١ـ سورة (الأساس)، وبه سمّاها كل من الرازي والآلوسي والزمخشري والسخاوي والسيوطي والفيروزآبادي والبقاعي. ووجه التسمية كما ذهب الزمخشري لاشتمالها على أصول الدين.

٢ـ سورة (التوحيد)، وقد سُمِّيت به بعض المصاحف، كما ذكرها به كل من الرازي والجمل والآلوسي من المفسرين، وذكرها ابن العربي في أحكام القرآن. ووجه التسمية لأنها جمعت معنى التوحيد حصراً فيها دون غيره من المعاني.

٣ـ سورة (المقشقشة)، وقد ذكرها الزمخشري في الكشاف أنها وسورة (الكافرون) تسميان (المقشقشتان)، أي: المبرئتان من الشرك، كما سماها به جَمْعٌ من المفسرين، والبقاعي في النظم. وقد تقدم وجه التسمية في (الكافرون).

٤ـ سورة (الصمد)، وقد سمّاها به كل من الرازي والآلوسي في تفسيريهما والبقاعي في النظم، وهي تسمية للسورة بلفظ وقع فيها.

وقد عقد الرازي فصلاً لأسمائها، وذكر لها عشرين اسماً، معلِّلاً أن كثرة الألقاب تدل على مزيد الفضيلة، والعرف يشهد بذلك. وأشهر ما سمّاها به: سورة (التفريد)، و(التجريد)، و(النجاة)، و(الولاية)، و(النسبة)، و(المعرفة)، و(الجمال)، و(المانعة)، و(المنفرة)، و(البراءة) و(المذكرة)، و(النور)، و(الأمان)، إضافة إلى ما ذكره[1]، وأضاف إليها الفيروزآبادي في البصائر اسم (الشافية).

ب ـ فضائل السورة:

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ (كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٦٢.

﴿ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده؛ يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)[1].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ: (أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالُّها، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن)[2].

وعن أبي هريرة ﷺ: (أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾ و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾)[3].

وعن أنس بن مالك ﷺ: (كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، وكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به، افتتح بـ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾، حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بأخرى، فإما تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمَّهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك؟ وما يحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟ فقال: إني أحبُّها، فقال: حُبُّك إياها أدخلك الجنة)[4].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: سلوه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٣٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٢٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم الحديث: ١١٩٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأذان، باب الجمع بين السورتين في الركعة، رقم الحديث: ٧٧٤.



لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحبُّ أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: أخبروه أن الله يحبُّه)[1].

وعن معاذ بن عبد الله بن خبيب عن أبيه قال: (خرجنا في ليلة مطيرة، وظلمة شديدة، نطلب رسول الله ﷺ يصلي لنا، قال: فأدركته، فقال: قل، فلم أقل شيئاً، ثم قال: قل، فلم أقل شيئاً، قال: قل، فقلت: ما أقول؟ قال: قل ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾، والمعوذتين حين تمسي وتصبح ثلاث مرات، تكفيك من كل شيء)[2].

وعن معاذ بن أنس الجهني ؓ صاحب النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: (مَن قرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة، فقال عمر بن الخطاب ؓ: إذاً أستكثر يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: الله أكثر وأطيب)[3].

ج- مرحلة النزول:

مكية في قول الجمهور، ومدنية في قول قتادة والضحاك والسدِّي، ونُسب القولان إلى ابن عباس رضي الله عنهما. ورجَّح السيوطي في الإتقان أنها مدنية، بعد استعراض الأقوال واحتمال نزولها مرتين. والصحيح أنها مكية؛ حيث جمعت أصل التوحيد، وهو الأكثر فيما نزل من القرآن بمكة.

وقد عُدَّت السورة الثانية والعشرين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة (الناس)، وقبل سورة (النجم)[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ، رقم الحديث: ٦٨٢٧.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الدعوات، باب في انتظار الفرج وغير ذلك، رقم الحديث: ٣٣٤٩. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ١٥٠٥٧.

(٤) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦١١، وفتح القدير: ٥/ ٥١٣.



د ـ أسباب نزولها:

عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد! انسب لنا ربك، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾[1].

وزاد في رواية الترمذي: (والصمد الذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، ولا شيء يموت إلا سيورث، وإن الله عزَّ وجلَّ لا يموت ولا يورث، ولم يكن له كفواً أحد؛ قال: لم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثله شيء)[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن عامر بن الطفيل وأرْبَد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ، فقال عامر: إلامَ تدعونا؟ قال: إلى الله، قال: صفه لنا؛ أمِن ذهب هو، أم مِن فضة، أم مِن حديد، أم مِن خشب؟ فنزلت هذه السورة، فتكون مدنية، لأنهما أتياه بعد الهجرة[3].

هـ ـ عدد آيات سورة (الإخلاص):

خمس آيات في عدِّ المكي والشامي، وأربع في عدِّ الباقين؛ اختلافها في: ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ عدَّها المكي والشامي، ولم يعدَّها الباقون[4].

و ـ محور سورة (الإخلاص):

إثبات وحدانية الله تعالى، والإخلاص في عبادته والتوجه إليه وحده، وأنه لا يقصد في الحوائج غيره، وتنزيهه عن سمات المحدثات، وإبطال أن يكون له ابن، وإبطال أن يكون المولود

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ٢٠٢٧٢.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة (الإخلاص)، رقم الحديث: ٣٢٨٧.

(٣) أسباب النزول للواحدي: ص: ٣٤٦.

(٤) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٥٣.



إلهاً[1]. وقال البقاعي: مقصودها بيان حقيقة الذات الأقدس ببيان اختصاصه بالاتصاف بأقصى الكمال للدلالة على صحيح الاعتقاد للإخلاص في التوحيد بإثبات الكمال، ونفي شوائب النقص والاختلال، المثمر لحسن الأقوال والأفعال، وثبات اللجاء والاعتماد عليه في جميع الأحوال، وعلى ذلك دلَّ اسمها الإخلاص الموجب للخلاص[2].

ز. المناسبات في سورة (الإخلاص):

١. المناسبة بين سورة (الإخلاص) ومحورها:

في سورة (الإخلاص) معجزة تعدل آلاف المعجزات، وهي أنها على قصرها وصفت الله عزَّ وجلَّ وصفاً لا تنتهي عجائبه، حتى إن كل ضلال وقعت فيه البشرية في موضوع معرفة الذات الإلهية فإن سورة (الإخلاص) قد أحاطت به، ونفته وخلَّصت الإنسان منه. ثم إن العقل البشري قد يصل إلى ما ذكرته هذه السورة في التعرف على الله عزَّ وجلَّ، ولكن بعد آماد وآماد، وإن أقصى ما يمكن أن يصل إليه العقل البشري في موضوع تنزيه الذات الإلهية هو ما ورد في هذه السورة[3].

٢. المناسبة بين افتتاحية سورة (الإخلاص) وخاتمة ما قبلها:

جاءت قبل سورة (الإخلاص) سورة (الكافرون) تأمر رسول الله ﷺ أن يعلن أنه لا يعبد ما يعبد الكافرون، ثم جاءت سورة (النصر) لتبين أن النصر كائن لرسول الله ﷺ على أهل الكفر، ثم جاءت سورة (المسد) لتبين عقوبة الكافرين، وتأتي سورة (الإخلاص) لتعرِّفنا على الله عزَّ وجلَّ الذي يعبده رسول الله ﷺ.

والملاحظ أن سورة (الكافرون) مبدوءة بقول الله تعالى: ﴿ قُلْ ﴾، وسورة (الإخلاص)

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦١١.

(٢) نظم الدرر: ٢٢/ ٣٤٤.

(٣) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٤٨.

مبدوءة بقوله تعالى: ﴿ قُلْ ﴾، وبينهما سورتان ليستا مبدوءتين بـ ﴿ قُلْ ﴾، في سورة (الكافرون) أمر لرسول الله ﷺ أن يعلن مفاصلته للكافرين في العبادة والدين، وهذه سورة (الإخلاص) يأمر الله عزَّ وجلَّ رسوله ﷺ أن يعلن صفات إلهه الذي يعبده، والذي لا يعبده الكافرون، ولا يعرفونه جلَّ جلاله[1].

٣ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الإخلاص) ومحورها:

قال الآلوسي: هذه السورة الجليلة قد انطوت مع تقارب قطرها على أشتات المعارف الإلهية والعقائد الإسلامية، ولذا جاء فيها من الأخبار، وورد ما ورد من الآثار، ودلَّ على تحقيق معنى الإلهية بالصمدية التي معناها وجوب الوجود، أو المبدئية لوجود كل ما عداه من الموجودات.

ثم عقَّب ذلك ببيان أنه لا يتولد عنه غيره، لأنه غير متولد عن غيره، وبيَّن أنه تعالى وإن كان إلهاً لجميع الموجودات، فياضاً للوجود عليها، فلا يجوز أن يفيض الوجود على مثله، كما لم يكن وجوده من غيره.

ثم عقَّب ذلك ببيان أنه ليس في الوجود ما يساويه في قوة الوجود. فمن أول السورة إلى﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ في بيان ماهيته تعالى، ولوازم ماهيته، ووحدة حقيقته، وأنه غير مركب أصلاً، ومن قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ في بيان أنه ليس ما يساويه من نوعه ولا من جنسه، لا بأن يكون سبحانه متولداً، ولا بأن يكون متولداً عنه، ولا بأن يكون موازىً في الوجود. وبهذا المبلغ يحصل تمام معرفة ذاته عزَّ وجلَّ[2].

٤ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الإخلاص) بعضها مع بعض:

هذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات، وقد جاءت في غاية من الإيجاز والإعجاز،

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٤٨.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢٧٧.



وأوضحت صفات الجلال والكمال، ونزَّهت الله جلَّ وعلا عن صفات العجز والنقص، فقد أثبتت الآية الأولى الوحدانية، ونفت التعدد، ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾، وأثبتت الثانية كماله تعالى، ونفت النقص والعجز، ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾، وأثبتت الثالثة أزليته وبقاءه، ونفت الذرية والتناسل ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ ﴾، وأثبتت الرابعة عظمته وجلاله، ونفت الأنداد والأضداد ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾، فالسورة إثبات لصفات الجلال والكمال، وتنزيه للربِّ بأسمى صور التنزيه عن النقائص[1].

٥- المناسبة بين افتتاحية سورة (الإخلاص) وافتتاحية سابقتها:

لما تقدم فيما قبلها عداوة أقرب الناس إلى الرسول ﷺ، وهو عمه أبو لهب، وما كان يقاسي من عباد الأصنام الذين اتخذوا مع الله آلهة، جاءت هذه السورة مصرحة بالتوحيد، رادة على عباد الأوثان والقائلين بالثنوية وبالتثليث وبغير ذلك من المذاهب المخالفة للتوحيد[2].

٦- المناسبة بين سورة (الإخلاص) وما بعدها:

لما افتتح القرآن بسورة مشتملة على جميع معانيه، ختم بسورتين يدخل معناهما، وهو التعوذ، ويندب ذكره في جميع أجزائه ومبانيه، وفي هذا لطيفة عظيمة جداً، وهي أنه لما علم بالإخلاص تمام العلم وظهور الدين على هذا الوجه الأعظم، فحصل بذلك غاية السرور، وكان التمام في هذه الدار مؤذناً بالنقصان، جاءت المعوذتان لدفع شر ذلك[3].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (هذه السورة القصيرة تعدل ثلث القرآن كما جاء في الروايات الصحيحة. فقد أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رجلاً سمع رجلاً

---

(١) صفوة التفاسير: ٣/ ٦٢٢.

(٢) البحر المحيط: ١٠/ ٥٧٠.

(٣) نظم الدرر: ٢٢/ ٣٩٣.

يقرأ ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالُّها، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن[1].

وليس في هذا من غرابة، فإن الأحديَّة التي أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾، هذه الأحديَّة عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة، وقد تضمنت السورة ـ من ثم ـ أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة..

﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾.. وهو لفظ أدق من لفظ: (واحد).. لأنه يضيف إلى معنى (واحد) أن لا شيء غيره معه. وأن ليس كمثله شيء.

إنها أحدية الوجود.. فليس هناك حقيقة إلا حقيقته. وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده. وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية.

وهي ـ من ثم ـ أحدية الفاعلية. فليس سواه فاعلاً لشيء، أو فاعلاً في شيء في هذا الوجود أصلاً. وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضاً..

فإذا استقر هذا التفسير، ووضح هذا التصور، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية.

خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود ـ إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلاً! ـ فلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي. ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعلية الإرادة الإلهية. فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته!

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة.. فعندئذ يتحرر من جميع القيود، وينطلق من كل الأوهاق. يتحرر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة، ويتحرر من الرهبة وهي أصل قيود كثيرة. وفيم يرغب وهو لا يفقد شيئاً متى وجد الله؟

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٢٧.



ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله؟

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله، فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها، وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه. ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله. لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله.

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب. وردّ كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت، وبه تأثرت.. وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني. ومن ثم كان ينحي الأسباب الظاهرة دائماً ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]. ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [التكوير: ٢٩].. وغيرها كثير..

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها، تنسكب في القلب الطمأنينة، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب، ويتقي عنده ما يرهب، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود!

وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة، فجذبتهم إلى بعيد! ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها، ويزاولون الحياة البشرية، والخلافة الأرضية بكل مقوماتها، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله. وأن لا وجود إلا وجوده. وأن لا فاعلية إلا فاعليته.. ولا يريد طريقاً غير هذا الطريق!

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات: منهج لعبادة الله وحده. الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته، ولا أثر لإرادة إلا إرادته.

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة. في السراء والضراء. في النعماء والبأساء.

وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجوداً حقيقياً، وإلى غير فاعل في الوجود أصلاً؟!

ومنهج للتلقي عن الله وحده. تلقي العقيدة والتصور والقيم والموازين، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم، والآداب والتقاليد. فالتلقي لا يكون إلا عن الوجود الواحد والحقيقة المفردة في الواقع وفي الضمير.

ومنهج للتحرك والعمل لله وحده.. ابتغاء القرب من الحقيقة، وتطلعاً إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة. سواء في قرارة النفس، أو فيما حولها من الأشياء والنفوس. ومن بينها حاجز الذات، وقيد الرغبة والرهبة لشيء من أشياء هذا الوجود!

ومنهج يربط ـ مع هذا ـ بين القلب البشري وبين كل موجود برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب. فليس معنى الخلاص من قيودها هو كراهيتها والنفور منها والهروب من مزاولتها.. فكلها خارجة من يد الله، وكلها تستمد وجودها من وجوده، وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة. فكلها إذن حبيب، إذ كلها هدية من الحبيب!

وهو منهج رفيق طليق.. الأرض فيه صغيرة، والحياة الدنيا قصيرة، ومتاع الحياة الدنيا زهيد، والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية.. ولكن الانطلاق عند الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال، ولا الكراهية ولا الهروب.. إنما معناه المحاولة المستمرة، والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها، وإطلاق الحياة البشرية جميعها.. ومن ثم فهي الخلافة والقيادة بكل أعبائهما، مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما. كما أسلفنا.

إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير. ولكن الإسلام لا يريده. لأن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص. إنه طريق أشق، ولكنه هو الذي يحقق إنسانية الإنسان. أي يحقق انتصار النفخة العلوية في كيانه.. وهذا هو الانطلاق. انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهي، وتحقيق حقيقتها العلوية. وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم..

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورتها هذه في القلوب. لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة. وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير. إنما هو الأمر كله، والدين كله; وما بعده من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب.

والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل، والتي أفسدت عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم، نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص. ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات.

على أن الذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها، وقيام الحياة على أساسها، واتخاذها قاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة، تبدو آثاره في التشريع كما تبدو في الاعتقاد سواء. وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هي التي تحكم الحياة. فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة، فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة في كل ركن من أركان الحياة..

ومعنى أن الله أحد: أنه الصمد. وأنه لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد.. ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والإيضاح:

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾.. ومعنى الصمد اللغوي: السيد المقصود الذي لا يقضى أمر إلا بإذنه. والله سبحانه هو السيد الذي لا سيد غيره، فهو أحد في ألوهيته والكل له عبيد. وهو المقصود وحده بالحاجات، المجيب وحده لأصحاب الحاجات. وهو الذي يقضي في كل أمر بإذنه، ولا يقضي أحد معه.. وهذه الصفة متحققة ابتداءً من كونه الفرد الأحد.

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ ﴾.. فحقيقة الله ثابتة أبدية أزلية، لا تعتورها حال بعد حال. صفتها الكمال المطلق في جميع الأحوال. والولادة انبثاق وامتداد، ووجود زائد بعد نقص أو عدم، وهو على الله محال. ثم هي تقتضي زوجية. تقوم على التماثل. وهذه كذلك محال. ومن

ثم فإن صفة ﴿أَحَدٌ﴾ تتضمن نفي الوالد والولد..

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾.. أي لم يوجد له مماثل أو مكافئ. لا في حقيقة الوجود، ولا في حقيقة الفاعلية، ولا في أية صفة من الصفات الذاتية. وهذا كذلك يتحقق بأنه ﴿أَحَدٌ﴾ ولكن هذا توكيد وتفصيل.. وهو نفي للعقيدة الثنائية التي تزعم أن الله هو إله الخير وأن للشر إلها يعاكس الله ـ بزعمهم ـ ويعكس عليه أعماله الخيرة، وينشر الفساد في الأرض. وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس في إله النور وإله الظلام، وكانت معروفة في جنوبي الجزيرة العربية حيث للفرس دولة وسلطان!!

هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية، كما أن سورة (الكافرون) نفي لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك.. وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه، وقد كان الرسول ﷺ يستفتح يومه في صلاة سنة الفجر بالقراءة بهاتين السورتين.. وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه..[1].

دروس وعبر من سورة (الإخلاص):

* اختلفت التأويلات في مجموعة الأحاديث الصحاح التي تشير إلى أن سورة (الإخلاص) تعدل ثلث القرآن إلى أربعة تأويلات؛

أحدها: تعدل ثلث القرآن في الثواب، فمَن كرَّرها ثلاثاً له ثواب الختم كله.

ثانيها: تعدل ثلث القرآن إذا قرأها مَن لا يحسن غيرها من السور.

ثالثها: تعدل ثلث معاني القرآن، باعتبار أجناس المعاني، لأن معاني القرآن: أحكام، وأخبار، وتوحيد، وقد انفردت السورة بالثالث منها.

رابعها: تعدل ثلث القرآن في الثواب كالقول الأول، لكن لا يكون تكريرها ثلاث مرات

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٤٠٠٢.



بمنزلة قراءة ختمة كاملة[١].

* قال العلماء: هذه السورة في حق الله تعالى، مثل سورة (الكوثر) في حق الرسول ﷺ، لكن الطعن في حق الرسول ﷺ كان بسبب أنهم قالوا: إنه أبتر لا ولد له، وهنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا لله ولداً؛ لأن عدم الولد في حق الإنسان عيب، ووجود الولد عيب في حق الله تعالى، فلهذا السبب قال ههنا: ﴿ قُلْ ﴾، حتى تكون ذابًّا عني، وفي سورة ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ﴾ أنا أقول ذلك الكلام، لأكون ذابًّا عنك، والله سبحانه وتعالى أعلم[٢].

* تضمنت السورة إثباتاً ونفياً في آن واحد؛ فأبانت أن الله تعالى واحد في ذاته وحقيقته، منزه عن جميع أنحاء التركيب، ونفت عنه كل أنواع الكثرة بقوله: ﴿ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾. فكل إثبات تقرير لعقيدة الإسلام القائمة على التوحيد والتنزيه والتقديس، وكل نفي ردٌّ على أصحاب العقائد الباطلة[٣].

* في قوله تعالى: ﴿ أَحَدٌ ﴾إبطال لمذهب الثنوية القائلين بوجود إلهين للعالم؛ النور والظلمة. وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ إبطال لمذهب مَن أثبت خالقاً سوى الله؛ لأنه لو وجد خالق آخر، لما كان الخلق مصموداً إليه في طلب جميع الحاجات. وقوله: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ ﴾ إبطال لمذهب اليهود في عزير، والنصارى في المسيح، والمشركين في أن الملائكة بنات الله. وقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾إبطال لمذهب المشركين حيث جعلوا الأصنام أكفاء لله تعالى وشركاء[٤].

* اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل لكل الذنوب باباً للمغفرة منها، إلا الموت على الشرك، فإنه لا يغفره، لأنه منتهى الظلم لله تعالى وأعظمه وأقبحه، بل عدَّه أكبر الكبائر، وجزاؤه

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦٢١.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٨٥.

(٣) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٦٦.

(٤) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٨٥.

الخلود في جهنم.

عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عزَّ وجلَّ، إنه يُشرَكُ به، ويُجعل له الولد، ثم هو يعافيهم ويرزقهم)[1].

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (قال الله: كذَّبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم ألد، ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد)[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لا أحد أصبر على أذى من الله عزَّ وجلَّ، رقم الحديث: ٥٠١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب تفسير القرآن، باب تفسير قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، رقم الحديث: ٤٥٩٢.


مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

سورة الفلق

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ ـ أسماؤها:

أولاً: أسماؤها التوقيفية:

١ـ سورة (الفلق)، وعرفت به في المصاحف وكتب التفسير.

ووجه التسمية به لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾، واختصت السورة بهذا اللفظ فعرفت به.

٢ـ سورة ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾، وقد وردت الأحاديث فيها؛ فعن عقبة بن عامر ﷺ قال: (اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب فوضعت يدي على قدمه، فقلت: أقرئني يا رسول الله سورة هود وسورة يوسف، فقال: لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ ﴾)[1].

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ ﴾)[2]. ووجه التسمية هذه لابتداء السورة بها في أول آية منها.

٣ـ سورة (المعوِّذتين مع سورة الناس)، وقد وردت الأحاديث بهذه التسمية، فعن ابن

---

(١) أخرجه النسائي في سننه: كتاب الافتتاح، باب الفضل في قراءة المعوذتين، رقم الحديث: ٩٤٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة المعوذتين، رقم الحديث: ١٣٤٨.

عابس الجهني أن رسول الله ﷺ قال له: (يا ابن عابس، ألا أدلك - أو قال: ألا أخبرك - بأفضل ما يتعوذ به المتعوِّذون؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ ﴾ هاتين السورتين)[1].

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: (أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوِّذات دبر كل صلاة)[2].

وقد عنون بها عدد من المفسرين في كتبهم كابن كثير والقرطبي وابن الجوزي والآلوسي، وعدَّها السخاوي والسيوطي اسماً للسورة بالاشتراك مع سورة (الناس). وأفردها ابن عطية في التسمية، أي: سورة (المعوذة الأولى)، وسورة الناس (المعوذة الثانية).

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١ـ سورة (المقشقشتين مع سورة الناس)، وقد سمَّاها بذلك السخاوي والسيوطي دونما مستند أو تعليل.

٢ـ سورة (المشقشقتين مع سورة الناس)، وسمَّاها بذلك الزمخشري والقرطبي والآلوسي. وعلل القرطبي التسمية بأنها مع سورة الناس تبرئان من النفاق.

ب ـ فضائل السورة:

عن عائشة رضي الله عنها: (أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها)[3].

وعن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ ﴾، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده؛ يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الاستعاذة، رقم الحديث: ١٣٠٢.

(٢) أخرجه النسائي في سننه: كتاب الصلاة، باب الاستغفار، رقم الحديث: ٥٣٣٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٢٩.

أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)[1].

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ألم تر آيات أنزلت الليلة لم يُرَ مثلهن قط ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾)[2].

ج ـ مرحلة النزول:

اختُلف فيها؛ أمكية، أم مدنية؟ فقال جابر بن زيد والحسن وعطاء وعكرمة: مكية، وقال قتادة: مدنية، وكلا القولين مرويان عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والأصح أنها مكية، لقبول الرواية الأولى، بخلاف الثانية ففيها متكلّم. وعُدَّت السورة العشرين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة (الفيل)، وقبل سورة (الناس).

واشتهر عن عبد الله بن مسعود ﷺ في الصحيح أنه كان ينكر أن تكون المعوذتان من القرآن، ويقول: إنما أُمر رسول الله ﷺ أن يتعوذ بهما، أي ولم يؤمر بأنهما من القرآن، وقد أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على القراءة بهما في الصلاة، وكُتبتا في مصاحفهم، وصح أن النبي ﷺ قرأ بهما في صلاته[3].

د ـ أسباب نزولها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سَحر رسولَ الله ﷺ رجلٌ من بني زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي، لكنه دعا ودعا، ثم قال: يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: مَن طبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة المعوذتين، رقم الحديث: ١٣٤٨.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٢/ ٦٢٤، وفتح القدير: ٥/ ٥١٩.

في مُشْط ومُشاطة وجُفِّ طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان، فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء، أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين، قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: قد عافاني الله، فكرهت أن أثور على الناس فيه شراً، فأمر بها فدفنت)[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أما شعرت يا عائشة أن الله تعالى أخبرني بدائي؟ ثم بعث علياً والزبير وعمار بن ياسر، فنزحوا البئر كأنه نقاعة الحناء، ثم رفعوا الصخرة وهي الراعوفة، صخرة تترك أسفل البئر ليقوم عليها المائح، وأخرجوا الجفَّ، فإذا مشاطة رأس إنسان، وأسنان من مشط، وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العقد، وأمر أن يتعوذ بهما، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد النبي ﷺ خِفَّة، حتى انحلت العقدة الأخيرة، فكأنما أُنشط من عقال، وقال: ليس به بأس، وجعل جبريل يرقي رسول الله ﷺ فيقول: بسم الله أرقيك، من كل شر يؤذيك، من شر حاسد وعَين، والله يشفيك. فقالوا: يا رسول الله، ألا تقتل الخبيث؟ فقال: أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شراً[2].

هـ. عدد آيات سورة (الفلق):

خمس آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[3].

و. محور سورة (الفلق):

تضمَّنت السورة الاستعاذة والاعتصام من شرِّ كل ما انفلق عنه الخلق الظاهر والباطن، وهي درس بليغ وتعليم نافع عظيم لحماية الناس بعضهم من بعض بسبب أمراض النفوس،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب السلام، باب السحر، رقم الحديث: ٤٠٥٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٥٣، وأسباب النزول للواحدي: ص: ٣٤٧.
(٣) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٥٦.

وحمايتهم من شر ذوات السموم، وشر الليل إذا أظلم، لما فيه من مخاوف ومفاجآت، وبخاصة في البراري والكهوف. واسمها ظاهر الدلالة على ذلك[1].

ز ـ المناسبات في سورة (الفلق):

١ـ المناسبة بين سورة (الفلق) ومحورها:

المناسبة واضحة في تعليم العباد أن يلجأوا إلى حمى الرحمن، ويستعيذوا بجلاله وسلطانه من شر مخلوقاته، ومن شر الليل إذا أظلم، لما يصيب النفوس من الوحشة، ولانتشار الأشرار والفجار فيه، ومن شر كل حاسد وساحر، وهي إحدى المعوذتين اللتين كان ﷺ يعوِّذ نفسه بهما[2].

٢ـ المناسبة في افتتاحية سورة (الفلق):

لما شرح أمر الألوهية في السورة التي قبلها، جيء بها بعدها شرحاً لما يستعاذ منه بالله تعالى من الشر الذي في مراتب العالم ومراتب مخلوقاته. وهي والسورة التي بعدها نزلتا معاً، كما في الدلائل للبيهقي، فلذلك قرنتا مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين، ومن الافتتاح بـ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾[3].

٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الفلق) وخاتمتها:

الاستعاذة من شرِّ ظلمة الليل، والسحرة، والحسَّاد بعد الاستعاذة من شر ما خلق، إشعار بأن شرَّ هؤلاء أشد، وختم بالحسد ليعلم أنه شرها، وهو أول ذنب عصي الله به في السماء من إبليس، وفي الأرض من قابيل، وإنما عرَّف بعض المستعاذ منه، ونكَّر بعضه، لأن كل نفَّاثة شريرة، فلذا عرَّف ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾، ونكَّر ﴿غَاسِقٍ﴾؛ لأنه ليس كل غاسق يكون فيه الشر،

---

(١) نظم الدرر: ٢٢/ ٤٠٦.
(٢) صفوة التفاسير: ٣/ ٦٢٣.
(٣) روح المعاني: ٣٠/ ٢٧٨، والبحر المحيط: ١٠/ ٥٧٠، والفتوحات الإلهية: ٤/ ٦٠٥.

إنما يكون في بعض دون بعض، وكذلك كل حاسد لا يضر، ورُبَّ حسد يكون محموداً كالحسد في الخيرات[1].

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الفلق) وخاتمة ما قبلها:

لما أبان الله تعالى أمر الألوهية في سورة (الإخلاص) لتنزيه الله تعالى عما لا يليق به في ذاته وصفاته، أبان في هذه السورة وما بعدها ـ وهما المعوذتان ـ ما يستعاذ منه بالله تعالى من الشر الذي في العالم، ومراتب مخلوقاته الذين يصدون عن توحيد الله تعالى كالمشركين وسائر شياطين الإنس والجن، وقد ابتدأ في هذه السورة بالاستعاذة من شر المخلوقات، وظلمة الليل، والسحرة، والحسَّاد[2].

لقد عرَّفتنا سورة (الإخلاص) على الله عزَّ وجلَّ وكماله وصفاته، وتأتي المعوذتان لتأمرنا بالاستعاذة بالله عزَّ وجلَّ من كل ما ينبغي أن يحذر منه في أمر دنيا ودين، فالصلة واضحة بين المعوذتين وبين ما قبلهما من سورة (الإخلاص)[3].

٥ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الفلق) ومحورها:

تتناول هذه الآيات تعليم النبي ﷺ كلمات للتعوذ بالله تعالى من شر ما يُتَّقَى شره من المخلوقات الشريرة، والأوقات التي يكثر فيها حدوث الشر، والأحوال التي يستر أفعال الشر من ورائها، لئلا يُرمى فاعلوها بتبعاتها، فعلَّم الله تعالى نبيَّه ﷺ هذه المعوّذة ليتعوَّذ بها، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يتعوذ بهذه السورة وأختها، ويأمر أصحابه بالتعوذ بهما، فكان التعوُّذ بهما من سنَّة المسلمين[4].

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٨٦.

(٢) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٧٠.

(٣) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٦٠.

(٤) التحرير والتنوير: ٢٢/ ٦٢٥.

٦ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الفلق) بعضها مع بعض:

دلت هذه السورة على أن الله سبحانه وتعالى خالق كل البشر، وأمر نبيه ﷺ أن يتعوَّذ من جميع الشرور، فقال: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾، وجعل خاتمة ذلك الحسد، تنبيهاً على خطره، وكثرة ضرره، والحاسد عدو الله تعالى[1].

٧ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الفلق) وافتتاحية سابقتها:

لما شرح أمر الإلهية في السورة قبلها جيء بها بعدها شرحاً لما يستعاذ منه بالله تعالى من الشر الذي في مراتب العالم ومراتب مخلوقاته. وهي والسورة التي بعدها نزلتا معاً كما في الدلائل للبيهقي، فلذلك قرنتا مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين، ومن الافتتاح بـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ ﴾[2].

٨ـ المناسبة بين سورة (الفلق) وما بعدها:

لما جاءت سورة (الفلق) للاستعاذة من شر ما خلق من جميع المضار البدنية وغيرها العامة للإنسان وغيره، وذلك هو جملة الشر الموجود في جميع الأكوان والأزمان، ثم وقع فيها التخصيص بشرور بأعيانها من الفاسق والساحر والحاسد، فكانت الاستعاذة فيها عامة للمصائب الخارجة التي ترجع إلى ظلم الغير، والمعايب الداخلة التي ترجع إلى ظلم النفس، ولكنها في المصائب أظهر. وختمت بالحسد فعلم أنه أضر المصائب، وكان أصل ما بين الجن والإنس من العداوة الحسد. جاءت سورة (الناس) متضمنة للاستعاذة من شر خاص، وهو الوسواس، وهو أخص من مطلق الحاسد، ويرجع إلى المعايب الداخلة اللاحقة للنفوس البشرية التي أصلها كلها الوسوسة، وهي سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهي من الجن أمكن وأضر والشر كله يرجع إلى المصائب والمعايب، فقد تضمَّنت السورة كالفلق استعاذة، ومستعاذاً به،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٦٠.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢٧٨.



ومستعاذاً منه، وأمراً بإيجاد ذلك[1].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (هذه السورة والتي بعدها توجيه من الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ ابتداءً، وللمؤمنين من بعده جميعاً، للعياذ بكنفه، واللياذ بحماه، من كل مخوف خاف وظاهر، مجهول ومعلوم، على وجه الإجمال، وعلى وجه التفصيل.. وكأنما يفتح الله سبحانه لهم حِماه، ويبسط لهم كنفه، ويقول لهم في مودة وعطف: تعالوا إلى هنا، تعالوا إلى الحمى، تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمئنون فيه، تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف، وأن لكم أعداءً، وأن حولكم مخاوف، وهنا.. هنا الأمن والطمأنينة والسلام.

ومن ثم تبدأ كل منهما بهذا التوجيه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾.. و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١﴾.

وفي قصة نزولها وقصة تداولها وردت عدة آثار، تتفق كلها مع هذا الظل الذي استروحناه، والذي يتضح من الآثار المروية أن رسول الله ﷺ استروحه في عمق وفرح وانطلاق:

عن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط؟ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾.. و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١﴾»..

وعن جابر ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ يا جابر». قلت: ماذا بأبي أنت وأمي؟ قال: «اقرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾.. و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١﴾ فقرأتهما. فقال: « اقرأ بهما فلن تقرأ بمثلهما»..

وعن زرِّ بن حبيش قال: سألت أبي بن كعب ﷺ عن المعوذتين. قلت: يا أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا، [وكان ابن مسعود لا يثبتهما في مصحفه، ثم ثاب إلى رأي الجماعة وقد أثبتهما في المصحف]، فقال: سألت رسول الله ﷺ فقال: «قيل لي: قل. فقلت». فنحن نقول

(١) نظم الدرر: ٢٢/ ٤٢٤.



كما قال رسول الله ﷺ. وكل هذه الآثار تشي بتلك الظلال الحانية الحبيبة..

وهنا في هذه السورة يذكر الله سبحانه نفسه بصفته التي بها يكون العياذ من شر ما ذكر في السورة.

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾.. والفلق من معانيه الصبح، ومن معانيه الخلق كله. بالإشارة إلى كل ما يفلق عنه الوجود والحياة، كما قال تعالى في الأنعام: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ﴾.. وكما قال تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ﴾.. [الأنعام: ٩٥-٩٦].

وسواء كان هو الصبح فالاستعاذة برب الصبح الذي يؤمن بالنور من شر كل غامض مستور، أو كان هو الخلق فالاستعاذة برب الخلق الذي يؤمن من شر خلقه، فالمعنى يتناسق مع ما بعده..

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ ﴾.. أي من شر خلقه إطلاقاً وإجمالاً. وللخلائق شرور في حالات اتصال بعضها ببعض. كما أن لها خيراً ونفعاً في حالات أخرى. والاستعاذة بالله هنا من شرها ليبقى خيرها. والله الذي خلقها قادر على توجيهها وتدبير الحالات التي يتضح فيها خيرها لا شرها!

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ ﴾.. والغاسق في اللغة الدافق، والوقب النقرة في الجبل يسيل منها الماء. والمقصود هنا ـ غالباً ـ هو الليل وما فيه. الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة. والليل حينئذ مخوف بذاته. فضلاً على ما يثيره من توقع للمجهول الخافي من كل شيء: من وحش مفترس يهجم. ومتلصص فاتك يقتحم. وعدو مخادع يتمكن. وحشرة سامة تزحف. ومن وساوس وهواجس وهموم وأشجان تتسرب في الليل، وتخنق المشاعر والوجدان، ومن شيطان تساعده الظلمة على الانطلاق والإيحاء. ومن شهوة تستيقظ في الوحدة والظلام. ومن ظاهر وخاف يدب ويثب، في الغاسق إذا وقب!

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾.. والنفاثات في العقد: السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس، وخداع الأعصاب، والإيحاء إلى النفوس والتأثير والمشاعر. وهن يعقدن العقد في نحو خيط أو منديل وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء!

والسحر لا يغير من طبيعة الأشياء؛ ولا ينشئ حقيقة جديدة لها. ولكنه يخيل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر. وهذا هو السحر كما صوره القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام: سورة طه ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه: ٦٥-٦٩].

وهكذا لم تنقلب حبالهم وعصيهم حيات فعلاً، ولكن خيل إلى الناس - وموسى معهم - أنها تسعى إلى حد أن أوجس في نفسه خيفة، حتى جاءه التثبيت. ثم انكشفت الحقيقة حين انقلبت عصا موسى بالفعل حية فلقفت الحبال والعصي المزورة المسحورة.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ وهذه هي طبيعة السحر كما ينبغي لنا أن نسلم بها. وهو بهذه الطبيعة يؤثر في الناس، وينشئ لهم مشاعر وفق إيحائه.. مشاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجههم الوجهة التي يريدها الساحر، وعند هذا الحد نقف في فهم طبيعة السحر والنفث في العقد.. وهي شر يستعاذ منه بالله، ويلجأ منه إلى حماه.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾.. والحسد انفعال نفسي إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمني زوالها. وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ، أو وقف عند حد الانفعال النفسي، فإن شراً يمكن أن يعقب هذا الانفعال.

ونحن مضطرون أن نطامن من حدة النفي لما لا نعرف من أسرار هذا الوجود، وأسرار النفس البشرية، وأسرار هذا الجهاز الإنساني. فهنالك وقائع كثيرة تصدر عن هذه الأسرار،

ولا نملك لها حتى اليوم تعليلاً.. هنالك مثلاً ذلك التخاطر على البعد. وفيه تتم اتصالات بين أشخاص متباعدين. اتصالات لا سبيل إلى الشك في وقوعها بعد تواتر الأخبار بها وقيام التجارب الكثيرة المثبتة لها. ولا سبيل كذلك لتعليلها بما بين أيدينا من معلومات. وكذلك التنويم المغناطيسي. وقد أصبح الآن موضعاً للتجربة المتكررة المثبتة. وهو مجهول السر والكيفية.. وغير التخاطر والتنويم كثير من أسرار الوجود وأسرار النفس وأسرار هذا الجهاز الإنساني...

فإذا حسد الحاسد، ووجه انفعالاً نفسياً معيناً إلى المحسود فلا سبيل لنفي أثر هذا التوجيه لمجرد أن ما لدينا من العلم وأدوات الاختبار، لا تصل إلى سر هذا الأثر وكيفيته. فنحن لا ندري إلا القليل في هذا الميدان. وهذا القليل يكشف لنا عنه مصادفة في الغالب، ثم يستقر كحقيقة واقعة بعد ذلك!

فهنا شر يستعاذ منه بالله، ويستجار منه بحماه..

والله برحمته وفضله هو الذي يوجه رسوله ﷺ وأمته من ورائه إلى الاستعاذة به من هذه الشرور. ومن المقطوع به أنهم متى استعاذوا به ـ وفق توجيهه ـ أعاذهم. وحماهم من هذه الشرور إجمالاً وتفصيلاً.

وقد روى البخاري بإسناده عن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)[1]. وهكذا رواه أصحاب السنن)[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٣٠.

(٢) في ظلال القرآن: ٦/ ٤٠٠٦.



دروس وعبر من سورة (الفلق):

* لا مانع يمنع من نزول السورة ليستعيذ بها الرسول ﷺ، وحديث السحر صحيح، ولا يتنافى مع النص القرآني، واقتصر فعل السحر بالنبي ﷺ على مجرد كونه قد صار في بعض أمور الدنيا في حالة صداع خفيف، وهو معنى التخيل في الحديث، وقد يحدث تخيل في اليقظة كالمنام، ولم يؤثر في ملكاته العقلية على الإطلاق، كما لم يؤثر فيما يتعلق بالوحي والرسالة؛ لأن الله تعالى عصمه من أي سوء، أو اختلاط فكري، أو اضطراب عصبي، كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ [المائدة: ٦٧].

* خصَّص الله تعالى إرشادنا وتعليمنا الاستعاذة من أصناف ثلاثة:

أولها: الليل إذا عظم ظلامه، لأن في الليل تخرج السباع من آجامها، والهوام من مكانها، ويهجم السارق والمكابر، ويقع الحريق، ويقل فيه الغوث، وينبعث أهل الشر على الفساد.

وثانيها: الساحرات اللائي ينفثن (ينفخن) في عُقَد الخيط حين يَرْقين عليها، شبَّه النفخ كما يعمل مَن يرقي.

وثالثها: الحاسد الذي يحسد غيره، أي يتمنى زوال نعمة المحسود، وإن لم يصرْ للحاسد مثلها، وهذا مذموم، أما الغبطة والمنافسة فهي مباحة؛ لأنها تمنِّي مثل النعمة، وإن لم تزل عن صاحبها. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (قال النبي ﷺ: لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله مالاً فسلّط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها)[1].

* تحريم الحسد قطعياً، وهو داء خطير حمل ابن آدم على قتل أخيه، وحمل إخوة يوسف على الكيد له. قال العلماء: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيتْبَع مساوئه، ويطلب عثراته. والحسد أول ذنب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، رقم الحديث: ٧١.

عُصي الله تعالى به في السماء، وأول ذنب عُصي به في الأرض، فحسدَ إبليسُ آدمَ، وقابيلُ هابَيلَ، والحاسد ممقوت مبغوض مطرود مَلعون. وقال العلماء أيضاً: لا يضر السحر والعين والحسد ونحو ذلك بذاته، وإنما بفعل الله تعالى وتأثيره، وينسب الأثر إلى هذه الأشياء في الظاهر فقط، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وبالرغم من انعدام تأثير هذه الأشياء في الحقيقة، ومنها الأمراض المعدية كالطاعون والسل، فإنه يُطلب شرعاً الحذر والاحتياط، وتجنب هذه الأسباب الظاهرية بقدر الإمكان، عملاً بفعل عمر والصحابة رضي الله عنهم في طاعون عمواس، والأمر باتقاء العين، والفرار من المجذوم.

* أجاز أكثر العلماء الاستعانة بالرُّقَى، أو الرقية؛ وأما النهي عن الرُّقَى فهو وارد على الرُّقَى المجهولة التي لا يُفهم معناها. وقد مرَّ في حديث النزول أن النبي ﷺ اشتكى فرقاه جبريل عليه السلام، وقال: (بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، والله يشفيك).

وعن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن النبي ﷺ: كان يعلِّمُهم من الحمى ومن الأوجاع كلها أن يقول: بسم الله الكبير، أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار، ومن شر حر النار)[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يعوِّذ بعض أهله، يمسح بيده اليمنى، ويقول:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٣٠.

(٢) قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن إسمعيل بن أبي حبيبة، وإبراهيم يضعف في الحديث، ويروى: (عرق يعار). سنن الترمذي: كتاب الطب، باب في تبريد الحمى بالماء، رقم الحديث: ٢٠٠١. والنعار، واليعار: فوار الدم.

اللهم ربَّ الناس، أذهب الباس، اشفه وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً)[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (عن النبي ﷺ: أنه قال: ما من عبد مسلم يعود مريضاً لم يحضر أجله، فيقول سبع مرات: أسأل الله العظيم، رب العرش العظيم، أن يشفيك، إلا عوفي)[2].

وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي ﷺ أنه قال: (قدمت على النبي ﷺ وبي وجع قد كاد يبطلني، فقال لي النبي ﷺ: اجعل يدك اليمنى عليه، وقل: بسم الله، أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر، سبع مرات، فقلت ذلك فشفاني الله)[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين، يقول: أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامَّة، ومن كل عين لامَّة، ويقول: هكذا كان إبراهيم يعوِّذ إسحق وإسمعيل عليهم السلام)[4].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل، قال: يا أرض ربِّي وربُّك الله، أعوذ بالله من شرك، وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، ومن شر ما يدبُّ عليك، وأعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد)[5]. وأما النفث في الرقية فالأصح جواز ذلك، لحديث عائشة المتقدم، والله تعالى أعلم[6].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الطب، باب رقية النبي ﷺ، رقم الحديث: ٥٣٠٢.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب الطب، باب ما جاء في التداوي بالعسل، رقم الحديث: ٢٠٠٩. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث المنهال بن عمرو

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب الطب، باب ما عوِّذ به النبي ﷺ، رقم الحديث: ٣٥١٣.

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب الطب، باب ما جاء في الرقية من العين، رقم الحديث: ١٩٨٦. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب ما يقول الرجل إذا نزل المنزل، رقم الحديث: ٢٢٣٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن: ٣٠/ ٢٥٩، والتفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٩٤، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٧٥.

سورة الناس

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: أسماؤها التوقيفية:

١- سورة (الناس)، وبه عُرفت السورة في المصاحف وكتب التفسير. ووجه التسمية بذلك لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ ﴾، ولتكراره فيها خمس مرات.

٢- سورة ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ ﴾، وقد تقدم بيان ذلك لسورة (الفلق)، كما عنون لها البخاري في صحيحه.

٣- سورة (المعوذتين) مع سورة (الفلق)، وقد تقدم بيان ذلك في سورة (الفلق)، كما عنون لها ابن عطية في تفسيره، والترمذي في جامعه.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١- سورة (المشقشقتين) مع سورة (الفلق)، وقد تقدم بيان ذلك في سورة الفلق.

٢- سورة (المقشقشتين) مع سورة (الفلق)، وقد تقدم بيان ذلك أيضاً في سورة الفلق.

ب- فضائل السورة:

عن عائشة رضي الله عنها: (أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات

وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده رجاء بركتها)[1].

وعن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده؛ يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)[2]. وعن عقبة بن عامر ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (ألم تر آيات أنزلت الليلة لم يُرَ مثلهن قط، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾)[3].

ج- مرحلة النزول:

هي مكية في قول مَن قال في سورة (الفلق) إنها مكية، ومدنية في قول مَن قال في (الفلق) إنها مدنية، والصحيح أنهما نزلتا متعاقبتين، فالخلاف في إحداهما كالخلاف في الأخرى، وعلى الصحيح من أنها مكية فقد عُدَّت السورة الحادية والعشرين من السور، نزلت عقب سورة (الفلق)، وقبل سورة (الإخلاص)[4].

د- أسباب نزولها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَحر رسولَ الله ﷺ رجلٌ من بني زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي، لكنه دعا ودعا، ثم قال: يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: مَن طبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٣٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة المعوذتين، رقم الحديث: ١٣٤٨.

(٤) التحرير والتنوير: ٢٢/ ٦٣١.

في مُشْط ومُشاطة وجُفِّ طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان، فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء، أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين، قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: قد عافاني الله، فكرهت أن أثور على الناس فيه شراً، فأمر بها فدفنت)[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أما شعرت يا عائشة أن الله تعالى أخبرني بدائي؟ ثم بعث علياً والزبير وعمار بن ياسر، فنزحوا البئر كأنه نقاعة الحناء، ثم رفعوا الصخرة وهي الراعوفة، صخرة تترك أسفل البئر ليقوم عليها المائح، وأخرجوا الجفَّ، فإذا مشاطة رأس إنسان، وأسنان من مشط، وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العقد، وأمر أن يتعوذ بهما، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد النبي ﷺ خِفَّة، حتى انحلت العقدة الأخيرة، فكأنما أُنشط من عقال، وقال: ليس به بأس، وجعل جبريل يرقي رسول الله ﷺ فيقول: بسم الله أرقيك، من كل شر يؤذيك، من شر حاسد وعَين، والله يشفيك. فقالوا: يا رسول الله، ألا تقتل الخبيث؟ فقال: أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شراً[2].

هـ- عدد آيات سورة (الناس):

سبع آيات في عدِّ المكي والشامي، وست في عدِّ الباقين. اختلافها في آية ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ عدّها المكي والشامي، ولم يعدَّها الباقون[3].

و- محور سورة (الناس):

الاعتصام بالإله الحق من شر الخلق الباطن، واسمها دال على ذلك، لأن الإنسان مطبوع

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب السلام، باب السحر، رقم الحديث: ٤٠٥٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٥٣، وأسباب النزول للواحدي: ص: ٣٤٧.

(٣) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٥٧.

على الشر، وأكثر شرِّه بالمكر والخداع، وأحسن من هذا أنها للاستعاذة من الشر الباطن المأنوس به المستروح إليه، فإن الوسوسة لا تكون إلا بما يشتهى[1].

ز. المناسبات في سورة (الناس):

١. المناسبة بين سورة (الناس) ومحورها:

تتناول السورة الحديث عن ثلاث صفات من صفات الرب عزَّ وجلَّ: الربوبية والملك والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة عبيد له، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش، ولا يألوه جهداً في الخبال، والمعصوم مَن عصمه الله تعالى[2].

٢. المناسبة في افتتاحية سورة (الناس):

سورة (الناس) ثاني المعوذتين، وآخر سور المصحف الشريف ترتيباً؛ تتجلى فيها الاستجارة والاحتماء برب العباد من شر الأعداء؛ إبليس وأعوانه من شياطين الإنس والجن، الذين يغوون الناس بأنواع الوسوسة والإغواء[3].

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة (الناس) وخاتمتها:

على الرغم من تميز الإنسان بالعقل والفكر، والمحاكمة وموازنة الأمور، فإنه لا سيما العامي يظل ضعيفاً، تتغلب عليه الأهواء، والشياطين من الإنس والجن، فينقاد لها، وتهيمن عليه فيرتجف منها، وتسيطر عليه فلا يستطيع الفكاك منها، إذا لم يلجأ لربه، أو يعتمد على إيمانه

---

(١) فتح القدير: ٥/ ٥٢٢، ونظم الدرر: ٢٢/ ٤٢٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥/ ٥٧٢.
(٣) صفوة التفاسير: ٣/ ٦٢٥.



وصلته بالله تعالى. وقد علَّمَنا الله تعالى طريق الاستعاذة، تفضلاً منه ورحمة في هذه السورة[1].

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الناس) وخاتمة ما قبلها:

أمر الله تعالى في سورة (الفلق) بالاستعاذة من شر المخلوقات، وظلمة الليل، والسحرة، والحسَّاد، ثم ذكر في سورة (الناس) الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن، لذا سُمِّيت مع سابقتها بالمعوِّذتين، ويمكن أن تضاف إليها الإخلاص في المعنى فتطلق على السور الثلاث تسمية (المعوِّذات)[2].

٥ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الناس) ومحورها:

تتناول السورة إرشاد النبي ﷺ لأن يتعوذ بالله ربِّه من شر الوسواس الذي يحاول إفساد عمل النبي ﷺ، وإفساده إرشاد الناس، ويلقي في نفوس الناس الإعراض عن دعوته. وفي هذا الأمر إيماء إلى أن الله تعالى معيذه من ذلك، فعاصمه في نفسه من تسلط وسوسة الوسواس عليه، ومتمم دعوته حتى تعمَّ في الناس. ويتبع ذلك تعليم المسلمين التعوذ بذلك، فيكون لهم من هذا التعوذ ما هو حظهم من قابلية التعرض إلى الوسواس، ومن السلامة منه بمقدار مراتبهم في الزلفى[3].

٦ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الناس) بعضها مع بعض:

جاء تكرار لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في السورة حتى اشتهرت به، والسبب في ذلك هو مزيد البيان والإظهار، والتنويه بشرف الناس مخلوقات الله تعالى. وقال: (رب الناس)، مع أنه رب جميع المخلوقات، فخصَّ الناس بالذكر للتشريف والتعظيم، ولأن الاستعاذة لأجلهم فأعلمهم

---

(١) التفسير الوسيط: ٣/ ٢٩٦٥.
(٢) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٧٠.
(٣) التحرير والتنوير: ٢٢/ ٦٣٢.

بذكرهم أنه هو الذي يُعيذ منهم[1].

٧ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الناس) وافتتاحية سابقتها:

ذكر الرازي لطيفة في المناسبتين فقال: المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة وهي أنه رب الفلق، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات؛ وهي الغاسق والنفاثات والحاسد. وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة؛ وهي الرب والملك والإله، والمستعاذ منه آفة واحدة، وهي الوسوسة. والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين وإن قلَّت، أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت[2].

٨ـ المناسبة بين سورة (الناس) وكونها الخاتمة للقرآن الكريم:

ختم الله تعالى بهذه السورة الشريفة كتابه العزيز، وبدأ بسورة (الفاتحة)، ليجمع بين حسن البدء، وحسن الختم، وذلك غاية الحسن والجمال، لأن العبد يستعين بالله تعالى ويلتجئ إليه، من بداية الأمر إلى نهايته[3]. قال ابن جُزَي: فإن قيل: لم ختم القرآن بالمعوذتين، وما الحكمة في ذلك؟ فالجواب من **ثلاثة** أوجه:

الأول: قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: لما كان القرآن من أعظم النعم على عباده والنعم مظنة الحسد، فختم بما يطفئ الحسد من الاستعاذة بالله.

الثاني: يظهر لي أن المعوِّذتين ختم بهما لأن رسول الله ﷺ قال فيهما: أنزلت عليَّ آيات لم يُرَ مثلهن قط، كما قال في فاتحة الكتاب: (لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها). فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها، واختتم بسورتين لم يُرَ مثلهما، ليجمع حسن الافتتاح

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٦٠.
(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٩٨.
(٣) صفوة التفاسير: ٣/ ٦٢٥.



والاختتام، ألا ترى أن الخطب والرسائل والقصائد وغير ذلك من أنواع الكلام، إنما يُنظر فيها إلى حسن افتتاحها واختتامها.

الوجه الثالث: يظهر لي أيضاً أنه لما أمر القارئ أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم، ختم القرآن بالمعوَّذتين، ليحصِّل الاستعاذة بالله عند أول القراءة، وعند آخر ما يقرأ من القرآن، فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء، وليكون القارئ محفوظاً بحفظ الله الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره، وبالله التوفيق لا رب غيره[1].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (الاستعاذة في هذه السورة برب الناس، ملك الناس، إله الناس، والمستعاذ منه: شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس.

والاستعاذة بالرب، الملِك، الإله، تستحضر من صفات الله سبحانه ما به يدفع الشر عامة، وشر الوسواس الخناس خاصة.

فالرب هو المربي والموجه والراعي والحامي، والملِك هو المالك الحاكم المتصرف. والإله هو المستعلي المستولي المتسلط.. وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذي يتدسَّس إلى الصدور.. وهي لا تعرف كيف تدفعه لأنه مستور.

والله رب كل شيء، وملِك كل شيء، وإله كل شيء، ولكن تخصيص ذكر الناس هنا يجعلهم يحسون بالقربى في موقف العياذ والاحتماء.

والله تعالى برحمة منه يوجه رسوله ﷺ وأمته إلى العياذ به، والالتجاء إليه، مع استحضار معاني صفاته هذه، من شر خفي الدبيب، لا قبل لهم بدفعه إلا بعون من الرب الملِك الإله، فهو يأخذهم من حيث لا يشعرون، ويأتيهم من حيث لا يحتسبون. والوسوسة: الصوت الخفي.

(١) تفسير ابن جُزَي: ص: ٨٦٦.



والخنوس: الاختباء والرجوع. والخناس هو الذي من طبعه كثرة الخنوس.

وقد أطلق النص الصفة أولاً: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾.. وحدد عمله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾. ثم حدد ماهيته: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.. وهذا الترتيب يثير في الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيقة الوسواس الخناس، بعد إطلاق صفته في أول الكلام; ولإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شره، تأهباً لدفعه أو مراقبته!

والنفس حين تعرف ـ بعد هذا التشويق والإيقاظ ـ أن الوسواس الخناس يوسوس في صدور الناس خفية وسراً، وأنه هو الجِنة الخافية، وهو كذلك الناس الذين يتدسسون إلى الصدور تدسس الجِنة، ويوسوسون وسوسة الشياطين.. النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع، وقد عرفت المكمن والمدخل والطريق!

ووسوسة الجِنة نحن لا ندري كيف تتم، ولكنا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة. ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قديمة قديمة; وأن الشيطان قد أعلنها حرباً تنبثق من خليقة الشر فيه، ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان! وأنه قد استصدر بها من الله إذناً، فأذن فيها سبحانه لحكمة يراها! ولم يترك الإنسان فيها مجرداً من العدة. فقد جعل له من الإيمان جنة وجعل له من الذكر عدة، وجعل له من الاستعاذة سلاحاً.. فإذا أغفل الإنسان جنته وعدته وسلاحه فهو إذن وحده الملوم!

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا غفل وسوس».

وأما الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشيء الكثير. ونعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين!

رفيق السوء الذي يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يحترس، لأنه الرفيق المأمون!

وحاشية الشر التي توسوس لكل ذي سلطان حتى تتركه طاغية جباراً مفسداً في الأرض مهلكاً للحرث والنسل!

والنمام الواشي الذي يزين الكلام ويزحلقه، حتى يبدو كأنه الحق الصراح الذي لا مرية فيه.

وبائع الشهوات الذي يتدسس من منافذ الغريزة في إغراء لا تدفعه إلا يقظة القلب وعون الله.

وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها، ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفية التي يعرفونها أو يتحسسونها.. وهم شر من الجِنة وأخفى منهم دبيباً!

والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية. ومن ثم يدله الله على عدته وجنته وسلاحه في المعركة الرهيبة!

وهناك لفتة ذات مغزى في وصف الوسواس بأنه ﴿ ٱلْخَنَّاسِ ﴾.. فهذه الصفة تدل من جهة على تخفيه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس. ولكنها من جهة أخرى توحي بضعفه أمام من يستيقظ لمكره، ويحمي مداخل صدره. فهو ـ سواء كان من الجنة أم كان من الناس ـ إذا ووجه خنس، وعاد من حيث أتى، وقبع واختفى. أو كما قال الرسول الكريم في تمثيله المصور الدقيق: «فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا غفل وسوس»..

وهذه اللفتة تقوي القلب على مواجهة الوسواس. فهو خناس. ضعيف أمام عدة المؤمن في المعركة.

ولكنها ـ من ناحية أخرى ـ معركة طويلة لا تنتهي أبداً. فهو أبداً قابع خانس، مترقب للغفلة. واليقظة مرة لا تغني عن اليقظات.. والحرب سجال إلى يوم القيامة؛ كما صورها القرآن الكريم في مواضع شتى، ومنها هذه الصورة العجيبة في سورة الإسراء: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ

عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥].

وهذا التصور لطبيعة المعركة ودوافع الشر فيها ـ سواء عن طريق الشيطان مباشرة أو عن طريق عملائه من البشر ـ من شأنه أن يشعر الإنسان أنه ليس مغلوباً على أمره فيها. فإن ربه وملكه وإلهه مسيطر على الخلق كله، وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب، فهو آخذ بناصيته، وهو لم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلههم. فأما من يذكرونه فهم في نجوة من الشر ودواعيه الخفية. فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها، وإلى الحقيقة التي لا حقيقة غيرها. يستند إلى الرب المالك الإله. والشر يستند إلى وسواس خناس يضعف عن المواجهة ويخنس عند اللقاء، وينهزم أمام العياذ بالله.

وهذا أكمل تصور للحقيقة القائمة عن الخير والشر. كما أنه أفضل تصور يحمي القلب من الهزيمة، ويفعمه بالقوة والثقة والطمأنينة..

والحمد لله أولاً وأخيراً. وبه الثقة والتوفيق.. وهو المستعان المعين...[1].

دروس وعبر من سورة (الناس):

* وجوب الاستعاذة بالله تعالى من شياطين الإنس والجن. فما من إنسان إلا وله شيطانه الذي يوسوس له، كما جاء في الصحاح؛ فعن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: (ما منكم من أحد إلا ومعه قرينه من الملائكة ومن الجن، قالوا: وأنت يا رسول الله، قال: وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، ولا يأمرني إلا بخير)[2]. وعن صفية رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها (جاءت إلى رسول الله ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت تنقلب، فقام النبي ﷺ معها يقلبها حتى إذا بلغت باب

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٤٠١٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ٣٥٩١.

المسجد عند باب أم سلمة مرَّ رجلان من الأنصار، فسلَّما على رسول الله ﷺ فقال لهما النبي ﷺ: على رِسْلكما، إنما هي صفية بنت حيي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبُر عليهما، فقال النبي ﷺ: إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً)[1].

* في السورة تقرير لربوبية الله تعالى ومالكيته وألوهيته عزَّ وجلَّ للناس، وفي هذا إشعار بأن مَن كان هذا شأنه فهو وحده سبحانه الذي يتوجه الخلق إليه طالبين أن يستعاذ به من شر الجنة والناس. وهو وحده تبارك وتعالى الذي يملك أن يعيذ من شر الموسوسين.

* يعلِّمنا الله تعالى في هذه السورة رحمة بنا كيفية الاستعاذة من شياطين الإنس والجن، ولفظ الاستعاذة هو: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، كما بيَّنته السنة الصحيحة المطهرة؛ فعن سليمان بن صرد قال: (استبَّ رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسبُّ صاحبه مغضباً، قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون)[2].

* أوضحت السورة أن الموسوس إما شيطان الجن، وإما شيطان الإنس، قال الحسن: هما شيطانان؛ أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية. وقال قتادة: إن من الجن شياطين، وإن من الإنس شياطين، فتعوَّذ بالله من شياطين الإنس والجن[3].

* استعـرض ابـن كثير في تفسيره روايات وأقوالاً عديدة بشأن (المعوذتين)، وعدم كتابة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد، رقم الحديث: ١٨٩٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم الحديث: ٥٦٥٠.

(٣) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٨٢.



عبد الله بن مسعود ﷺ لها في مصحفه، ثم قال: وهذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء أن ابن مسعود ﷺ كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فلعله لم يسمعها من النبي ﷺ، ولم يتواتر عنده، ثم لعله قد رجع عن قوله بعد ذلك إلى قول الجماعة، فإن الصحابة رضوان الله عليهم أثبتوهما في مصاحف الأئمة، ونفذوها إلى سائر الآفاق كذلك، ولله الحمد والمنّة[1].

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٥٦٨.

الفهرس

السـورة	الصفحة
النبأ	١
النازعات	٢١
عبس	٣٧
التكوير	٤٧
الانفطار	٥٥
المطففين	٦٣
الانشقاق	٧٣
البروج	٨٧
الطارق	٩٩
الأعلى	١٠٧
الغاشية	١١٥
الفجر	١٢٥
البلد	١٣٣
الشمس	١٤١
الليل	١٦٥
الضحى	١٩٧
الشرح	٢١٧

السـورة	الصفحة
التين	٢٣٧
العلق	٢٤٧
القدر	٢٥٩
البينة	٢٦٧
الزلزلة	٢٨١
العاديات	٢٩٣
القارعة	٣٠٥
التكاثر	٣١٥
العصر	٣٢٥
الهمزة	٣٣٩
الفيل	٣٤٧
قريش	٣٦٣
الماعون	٣٧٥
الكوثر	٣٨٧
الكافرون	٤٠١
النصر	٤١٥
المسد	٤٣٣
الإخلاص	٤٤٥
الفلق	٤٦١
الناس	٤٧٥

